مِنْ هُدَى النُّبُوَّة

تأليف

كمال الدين الطائي

١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م

مطبعة سلمان الاعظمي - بغداد



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستنصره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ٠

ونصلي ونسلم على سيدنا ومولانا وهادينا محمد بن عبدالله صلاة ينجينا الله بها من جميع الاهوال والآفات ، ويقضي لنا بها جميع الحاجات ، ويطهرنا بها من جميع الذنوب والسيئات ، ويرفعنا بها أعلا الدرجات ، ويبلغنا بها أقصى الغايات ، في الحياة وبعد الممات ٠

وصل اللهم على آله وأصحابه ومن اهتدى بهديه الى يوم الدين ٠

أما بعد : فقد كنت ألقيت أحاديث من المذياع العراقي شرحت فيها بعض أحاديث سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم باسلوب مبسط ، جمعت مادتها مما دونه العلماء في مؤلفاتهم وأبحاثهم ، ثم طلب إلي جمعها ونشرها ، وها أنا أقدمها لأخواني مع زيادات واضافات كثيرة ، لينتفع بها من لم يتسع وقته للدراسة الموسعة ، وانه لجهد متواضع قصدت به وجه الله ، وخدمة اخواني المسلمين ٠

واني لاضرع الى الله تعالى أن يوفقني لخدمة دينه ، وان يهدني سواء السبيل ٠

(ربنا عليك توكلنا ، واليك أنبنا ، واليك المصير) ٠

كمال الدين عبدالمحسن الطائي



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

للاستاذ الاديب الفاضل السيد رشيد العبيدي
الاستاذ في جامعة بغداد

قليل من العلماء المعاصرين في العراق من يعنى في خطبه ورسائله ومقالاته بالاحداث الهامة المتصلة بحياة الجماهير ، وقليل منهم من يقوى على الخوض فيها والجهر بها ، وقليل منهم من يستطيع أن يتحمل مسئولية الامانة العلمية الملقاة على كواهل رجال الدين .

ومن هؤلاء العلماء القلائل فضيلة الاستاذ الشيخ كمال الدين الطائي امام وخطيب جامع المرادية ، ومعتمد جمعية الآداب الاسلامية ، ومدرس الحضرة القادرية .

والاستاذ الطائي يعد بحق من رواد الحركة الدينية والوطنية في العراق ، ولا غرابة في ذلك ، فقد نذر قلمه منذ حداثة سنه في قضايا الاسلام والمسلمين على تعدد مللهم ونحلهم وطبقاتهم .

لقد أشرف على اصدار عدة مجلات ناضلت عن الاسلام ومبادئه ، وقاومت الضلال والضالين ، كما أشرف على اصدار (الذكرى المحمدية) التي احتوت على مختلف نواحي سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد بلغت عشر مجموعات .

وفي سنة ١٩٤٠م أصدر رسالة (موجز البيان في مباحث القرآن) ، تحدث فيها عن الوحي وكيفيته ، والقرآن الكريم ومحاسن تلاوته ، ولا ينبيك مثل خبير عن تلك المحاسن ، كما تحدث فيها عن قصص القرآن

وأمثاله ، وعن تأثيره في تحرير العقل والفكر الانساني الى غير ذلك من الابحاث القرآنية وفنونه البديعة .

وكذلك ألف رسالة في قواعد التلاوة ضمنها مباحث هامة في أصول التجويد وأنواع القراءات وجماعات القراء . ووجوه الأداء . وما يتصل بذلك من الابحاث الجديرة بالدراسة من قبل طلاب العلوم وذوي الاختصاص .

كما أصدر كتاباً في علوم الحديث وأصوله . جمع فيه من أبحاث السنة المحمدية رواية ودراية بحال لم يدع مزيداً لمستزيد من تلك العلوم . انه كتاب مختصر مفيد لا يستغني عنه طلبة علوم الحديث .

وله كتاب رابع (في التوحيد والفرق المعاصرة) . تحدث في القسم الاول منه عن معنى التوحيد في الاسلام باسلوب واضح شيق سهل يسير لمن يريد الاطلاع على مثل هذه الابحاث الاسلامية الجليلة .

وبعد أن أتم موضوعات التوحيد بجميع قضاياه تحدث في القسم الثاني عن كثير من الفرق الاسلامية المعاصرة . فأعطى كل ذي حق حقه بصراحة وبأمانة ودقة . معتمداً في كل ما ذكره في هذا الكتاب على المصادر المعترف بها من قبل أصحاب تلك الفرق . فهو كتاب يعجب الباحثين . ومصدر الاعجاب فيه ان المؤلف كان في نجوة من التأثر بعواطفه الخاصة وميوله المبدئية . ولم يتأثر كما تأثر غيره ممن كتب في تاريخ هذه الفرق وخصائصها . بل استند في كل ما كتبه على أصول ومراجع تلك الفرق . ذاهباً مذهب الذي يقول من كتبك انقل عنك . لذلك يعتبر هذا الكتاب خير مصدر لمن يريد أن يعرف حقيقة هذه الفرق . من حيث الايجاز ومن حيث التثبت من صحة النقل .

وللمؤلف الفاضل كتيب خامس عنوانه (كيف عالج الاسلام مشكلة

الفقر) طبعه سنة ١٩٥٤ • ولم يشأ أن يجعل للكتاب المذكور عناوين تبين عن محتوى كل موضوع • بل جعل لكل مضمون من موضوعات الكتاب رقماً • وانهى تلك الارقام بالرقم العاشر •

يخيل الي ّ انه قصد الى ذلك ليكون كتابه هذا بمثابة رسالة واحدة متصلة الحلقات يكمل بعضها بعضاً •

ففي الرقم الأول ضمره معنى التضامن الاجتماعي في الاسلام • وأما الثاني فقد خصصه لمرافق أرزاق الفقراء وعطاياهم من بيت المال • وأما الرقم الثالث فقد تكلم فيه عن الاخاء في الاسلام ومواساة الاغنياء لغيرهم من سائر الطبقات • ثم جعل الرقم الرابع خاصاً بالوقف والواقفين وما نتج عن هذا المرفق العظيم من خير وبركة للاسلام والمسلمين • فذكر ان الوقف حصن حصين للناس أجمعين •

وأما الرقم الخامس فقد تحدث فيه عن خطر الاحتكار وفساد أخلاق المحتكرين • ومن خلال هذا الموضوع تحدث عن تحديد الاسعار ونباهة فقهاء الاسلام الى ذلك منذ القدم حرصاً على أقوات الناس من تلاعب ذوي الاطماع والجشعين • ثم تحدث في الرقم السادس عن شرعية القرض الحسن وعن الاستقراض المراد به وجه الله وخدمة المجتمع • ثم أوضح بهذا التشريع الاقتصادي كيفية انعدام الحاجة بين المعوزين وكيف عمت السعادة بين مختلف الطبقات • وأما الرقم السابع والثامن والتاسع والعاشر فقد جعل تحت كل رقم مضموناً هاماً • مثل الربا واضراره على الذين يتعاطونه مبيناً خطره على الروابط الاجتماعية والعلاقات الاقتصادية • ومثل الزكاة ومنافعها • والصدقات واتساع مجالاتها • والسخاء وأثره في نشر المودة بين الناس •

وفي خاتمة كتابه هذا وعد بأن يوسعه • وقد وسعه فعلا • فأراني كتاباً مخطوطاً جاهزاً للطبع وله صلة قوية بموضوعات كتابه الخامس الذي

تحدثت عنه توا • والأمل قوي أن يوفق الى طبعه ونشره بين الناس في أقرب فرصة ان شاء الله تعالى •

أما الكتاب الأخير الذي نقدم له اليوم • فقد أسماه مؤلفه (من هدى النبوة) • وهو مجموعة مقالات ملئت أفكاراً وحسنت تنسيقاً • وكل مقالة منها دالة على براعة المؤلف واحاطته بروح الاسلام وتاريخه • ومشتملة على حقيقة اسلامية توقظ القلوب وتأخذ بالالباب • فقاريء هذا الكتاب كالمتنقل في حديقة غناء ذات بهجة • أينعت أزهارها • وتنوعت ثمارها • فبينما هو متعبد بآية قرآنية أو حكمة نبوية فاذا به مستمتع بفكرة أدبية أو مستفيد من قضية تاريخية •

ومن أصدق صفات هذا الكتاب انه تعبير صادق عن سجية المؤلف صاغه بدون تكلف • ومن محاسنه احتواؤه على نصوص دينية متضمنة حقائق منفقاً عليها من جميع الاوساط الاسلامية المعاصرة القائمة على نصرة الحق والفضيلة •

أما غزارة مادته فحدث عنها ولا حرج • حيث انها جمعت معاني ذات قيمة في تاريخ الفكر الاسلامي فتحدث عن أركان الاسلام جملة وتفصيلا • بحيث لم تترك سنداً قرآنياً أو نبوياً اقتضاه الموضوع الا استشهدت به وأولته عناية في الشرح والتبسيط •

ولا عجب في ذلك فان المؤلف حفظه الله تعالى رجل وعظ وارشاد وخطيب في جامعه أو في الاحتفالات العامة التي تقيمها جمعية الآداب الاسلامية التي هو معتمدها والقائم على شئونها منذ سنين طويلة أو مما تحدث به من دار الاذاعة العراقية • فجميع هذه المهام جعلته محيطاً بتاريخ الاسلام • وعالماً بأمهات قضاياه •

أما موضوعات الكتاب فهي كثيرة ومستمدة من جوهر الاسلام ومن صميم التاريخ العربي تربط بين ماضي العرب وحاضرهم فضلا عما اشتملت

من تنبيه للاحداث المرتقبة حول قضايا الساعة مما يقض مضاجع الاستعمار من جهة • ويثير حماسة شباب العرب والاسلام من جهة أخرى •

لقد استفتح المؤلف هذا الكتاب بحديث شريف متفق على صحته وحسنه • الا وهو (انما الاعمال بالنيات) • ولقد وصفه أصحاب الحديث بأنه ثلث الاسلام • لاشتماله على القول والفعل والنية • ذلك لأن النية هي الاصل في الافعال المعتبرة في جميع الاحكام التشريعية تزيد وتنقص في العقاب والثواب • فهي ميزان عدل توزن به تصرفات الانسان حسنة كانت أو سيئة •

وأعقب هذا الموضوع موضوعاً ضمنه بعض وصايا رسول الله صلى الله عليه وسلم • اصطفاه من بين وصاياه العظيمة مما يهذب الحس ويسمو بالنفس ويرفع من شأن الافراد والجماعات والامم •

ومن بين هذه الوصايا وصيته صلوات الله وسلامه عليه لعبدالله بن عباس رضي الله عنهما اذ قال كنت خلف النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا غلام الا اعلمك كلمات ينفعك الله بهن فقلت بلى يا رسول الله • قال : احفظ الله يحفظك • احفظ الله تجده أمامك • تعرف الى الله في الرخاء يعرفك في الشدة • واذا سألت فأسأل الله • واذا استعنت فاستعن بالله • قد جف القلم بما هو كائن • فلو ان الخلق جميعاً أرادوا أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يقدروا عليه • واعلم ان في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً • وان النصر مع الصبر • وان الفرج مع الشدة • وان مع العسر يسرا •

لا يجد الانسان بعد هذه الوصية الجامعة دستوراً للحياة الحرة الكريمة ولاستقلال شخصية الفرد واعتماده على الله وعلى نفسه أعظم منها • فانها جمعت من الوصايا خيري الدنيا والآخرة •

ثم تحدث الكتاب عن وجائب المسلم في أمور العبادات والمعاملات

بصورة لم تترك صغيرة ولا كبيرة في هذين المرفقين الا ذكرته جملة وتفصيلا أيضاً • فشرح معنى الاسلام بجميع أركانه كالصلاة والصيام والحج والزكاة متوجة بالشهادتين اللتين هما نشيد الاسلام الاعظم •

وتحدث عن الكتب السماوية كالزبور والتوراة والانجيل والقرآن مما يدل على سعة اطلاعه وكثرة علمه • مما يستفيد منه العالم والمتعلم لما فيه من علوم عقائدية وأحكام شرعية واجتماعية شاملة •

ثم تكلم عن أمور خطيرة لها صلة قوية في استنهاض الجيل الجديد من شباب الأمة الاسلامية • وتوجيه الوجهة التهذيبية التي نحن أحوج ما نكون اليها في حالتنا الراهنة •

وفي الكتاب أبحاث روحية خالية من الدجل والشعوذة • وفيه ابحاث أخلاقية كالصدق والعفة والحياء والامانة والوفاء بالعهد وجميع الامور الشريفة التي يراد بها وجه الله • ثم تكلم عن مآسي الكذب والنفاق والخصومات الفاجرة وما تسببه من شقاق وشقاء وبلاء •

كذلك تحدث عن أصول الاجتماع والتراحم بين الناس والتضحيات المتمثلة بالجندي العربي المجهول • كما تحدث عن الاسرة ومكانتها في الاسلام وأثرها في رفعة الامة • وتحدث من خلال بحث الاسرة عن المرأة الصالحة والرجل الصالح • وكيف تكون المودة والرحمة أمراً متبادلاً بينهما ورعاية الاسلام لحقوق كل منهما • وكيف أحاط الاسلام المرأة بسياج من النبل والحياء والكرامة ولم ينس الحديث عن بر الوالدين والخوف من عقوقهما • وعن العدل والمساواة بين الذرية • وأخيراً بقوله تعالى (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة • وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيراً ونساء • واتقوا الله الذي تساءلون به والارحام • ان الله كان عليكم رقيباً •

رشيد علي العبيدي

انما الاعمال بالنيات

روى الامامان البخاري ومسلم عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه انه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : انما الاعمال بالنيات ، وانما لكل امريء ما نوى ، فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها ، فهجرته الى ما هاجر اليه ...

أجمع العلماء على فضل هذا الحديث وكثرة فوائده ، وأنه أحق الاحاديث التي يدور الدين حولها ، كما انه نصف الاسلام ، لأن الاسلام قول وفعل ونية .

وقد صدر الامام البخاري صحيحه بهذا الحديث وجعله فاتحة لكتابه .

وقد قيل في سبب وروده : أنه لما أمر بالهجرة من مكة الى المدينة تخلف جماعة عنها ، فذمهم الله تبارك وتعالى بقوله (ان الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم ، قالوا فيم كنتم ، قالوا كنا مستضعفين في الارض ، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا) .

أما الذين لم يهاجروا لعدم استطاعتهم وفقدهم الوسائط فقد عذرهم الله تعالى واستثناهم بقوله : (الا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا ، فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفواً غفورا) . كما مدح تعالى جماعة هاجرت فرارا بدينها .

وقد هاجر جماعة لغايات دنيوية أو لمصلحة ذاتية فقد عرض الحديث بهم تنفيرا من ذلك . فان قيل لم جاء الذم على طلب الدنيا وهي مباحة والمباح لا يذم عليه ، أجيب بأنه انما ذم لكونه لم يخرج في الظاهر لطلب

الدنيا ، بل خرج بصورة فضيلة الهجرة التي هي لله ورسولـه ، فأبطـن خلاف ما أظهر .

لقد اعتنى العلماء بهذا الحديث ، وعدوه في طليعة الاحاديث الصحيحة التي لم يخالف في صحتها أحد من رجال النقـد وأهل الخـبرة بمراتب الاحاديث ودرجاتها من حيث الصحة والضعف ، والقبول والرفض ، ومـا الى ذلك من صفات الاحاديث وأحوالها .

كما أنه يقرر مبدأً عظيماً من المبادىء الاسلامية المحكمة ، بـل ان العلماء يقولون فيه : انه نصف الدين من حيث ان التكاليـف والاحـكام الشرعية جميعها تتعلق بعمل القلب وأعمال الجوارح ، أي انها ترجـع الى النيات الباطنية وحركات الجوارح الظاهرة .

وقد ذكر الأئمة الثلاثة ان صحة الاعمال تتوقف على النية ، وادخلوا فيها جميع الواجبـات وذهب أبو حنيفة وأصـحابـه والثوري والأوزاعي وغيرهم الى ان النية يقصر حكمها على المقاصد كالصلاة والصوم والزكـاة والحج . أما الوسائل كالوضوء فلا تتوقف صحتها على النية لأنه مقصـود لغيره لا لذاته ، فكيفما حصل حصل المقصود ، وصار كستر العورة وغـيره من شروط الصلاة التي لا تحتاج الى نية . فمن جعلها اثباتاً لصحة الاعمـال جعلها واجبة ، ومن قال بأنها انما تكون لكمال الاعمال فقد جعلها مندوبـة لأنا نرى كثيراً من الاعمال موجوداً ومعتبراً شرعاً بدون النية بالاجمـاع كالأذان وتلاوة القرآن والاذكار ورد الوديعة ونحوها .

وبعبارة أخرى : ان الحكم نوعان نوع يتعلق بالآخرة ونوع يتعلـق بالدنيا . فالاول كالذنب والعقـاب المترتبـان على الاعمال المفتقرة الى النيـة قطعاً ، والثاني كالصحة والفساد المترتبان على الاحكام في الدنيا .

والنية محلها القلب كما قال العلماء ، فان نوى بقلبه ولم يتكلم بلسانه

أجزأته النية ، ولو تكلم بلسانه بشيء وفي قلبه خلافه كانت العبرة بما في قلبه لا بما لفظ •

وقد اختلف العلماء في التلفظ بالنية ، فقال طائفة يستحب التلفظ بها ليكون أبلغ ، وقالت طائفة أخرى لا يستحب ذلك ، بل التلفظ بها بدعة ، فان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه والتابعين لم ينقل عنهم التلفظ بالنية • كما ذكروا أنه لا يسوغ الجهر بالنية لا للامام ولا للمأموم •

ولقد روى الترمذي عن أبي كبشة الانماري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال : انما الدنيا لاربعة نفر ، عبد رزقه الله مالا وعلماً فهو يتقى فيه ربه • ويصل فيه رحمه ويعلم لله فيه حقاً ، فهذا بأفضل المنازل ، وعبد رزقه الله علماً ولم يرزقه مالا فهو صادق النية ، يقول لو أن لي مالا لعملت بعمل فلان فهو بنيته فأجرهما سواء ، وعبد رزقه الله مالا ولم يرزقه علماً ، فهو يخبط في ماله بغير علم ، لا يتقى فيه ربه ، ولا يصل فيه رحمه ، ولا يعلم لله فيه حقاً ، فهذا بأخبث المنازل ، وعبد لم يرزقه الله مالا ولا علماً فهو يقول : لو أن لي مالا لعملت فيه بعمل فلان ، فهو بنيته ، فوزرهما سواء •

واذا حبس مرض أو غيره شخصاً عن عمل الخير الذي اعتاده ، كتب الله له ثواب ما نوى • فقد روى الامام البخاري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : اذا مرض العبد أو سافر ، كتب له مثل ما كان يعمل مقيماً صحيحاً •

وروى أيضاً عن أنس بن مالك أنه قال : رجعنا من غزوة تبوك مع النبي صلى الله عليه وسلم فقال : ان أقواماً خلفنا بالمدينة ما سلكنا شعباً ولا وادياً الا وهم معنا ، حبسهم العذر •

كما ان الانسان اذا همّ بالسيئة ولم يفعلها خوفاً من الله كتب له بذلك

حسنة ، وانما لكل امريء ما نوى • ان خيراً فخير ، وان شراً فشر : (وان تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله) وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه : ان الله تعالى كتب الحسنات والسيئات ، ثم بين ذلك : فمن همّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة ، وان هم بها فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات ، الى سبعمائة ضعف ، الى أضعاف كثيرة ، وان هم بسيئة فلم يعملها ، كتبها الله عنده حسنة كاملة ، وان هم بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة •

وقد قيل في بيان قوله عليه الصلاة والسلام : وانما لكل امريء ما نوى ، معناه ان ميزان الاعمال الذي يضبطها ، ويميز حسنها من سيئها ، وطيبها من خبيثها ، انما هو النية التي ينطوي عليها صاحبها ، وينبعث بها الى تلك الاعمال ، فلا يكون حسن الاعمال وصلاحها بهيكل هذه الاعمال وصورتها التي هي صورة الاعمال الطيبة الصالحة وانما هو بروحها ومعناها وبالنية التي بعثت عليها ودفعت صاحبها اليها ، وذلك هو القصد الذي يرمي اليه من وراء تلك الاعمال •

روى البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة عن أبي موسى الاشعري رضي الله عنه ان أعرابياً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل ليذكر ، والرجل يقاتل ليرى مكانه ، فمن في سبيل الله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله •

وفي حديث آخر رواه الامام مسلم والترمذي والنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ان أول الناس يُقضي يوم القيامة عليه رجل استشهد ، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت ، قال كذبت ، ولكنك قاتلت لأن يقال جريء ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على

وجهه حتى ألقي في النار • ورجل تعلم العلم وعلمه ، وقرأ القرآن فأتى به ، فعرفه نعمه فعرفها ، قال فما عملت فيها ؟ قال تعلمت العلم وعلمته ، وقرأت فيك القرآن ، قال : كذبت ، ولكنك تعلمت ليقال عالم ، وقرأت القرآن ليقال هو قارىء ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار • ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله • فأتى به فعرفه نعمه فعرفها ، وقال : فما عملت فيها ؟ قال : ما تركت في سبيل تحب أن ينفق فيها الا أنفقت فيها لك ، قال : كذبت ، ولكنك فعلت ليقال هو جواد ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار : (من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون • أولئك الذين ليس لهم في الآخرة الا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون) •

ولما ذكر الرسول الكريم ان الاعمال بحسب النيات ، وان الجزاء من جنس العمل أراد أن يوضح جزاء المخلصين والمرائين في مثال تتحدد صورته ويختلف حكمه ، نقل : فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته الى ما هاجر اليه •

ان المهاجر الصادق هو الذي ترك دار الشرك مهاجراً الى دار الاسلام رغبة في تعلم الدين ونشره ، والفرار بأيمانه وعقيدته ، وتعزيزاً لقوة المسلمين • ان هذا هو المهاجر الى الله ورسوله ، وهو الذي أعد الله له أجراً عظيماً • وقد قيل انه قد اختار التمثيل بالهجرة لما لها من عظيم الشأن في ذلك العهد ، ولعل الرسول الكريم تكلم بهذا أبان الهجرة من مكة الى المدينة والدعوة لها • ويؤيد ذلك ما يروى ان رجلا هاجر من مكة الى المدينة ، لا يريد فضيلة الهجرة ، وانما يريد أن يتزوج امرأة تدعى أم قيس ، وكان خطبها فأبت أن تتزوجه حتى يهاجر اليها ، ففعل • فان صح

أن تكون هذه القصة هي سبب الحديث ، كان التمثيل بالمرأة مقصوداً له صلى الله عليه وسلم ، جرياً على كريم عادته من التعليم والارشاد من غير ان يجابه أحداً بما يكره حياء وكرماً • وكما أن المقصود من الهجرة السفر من مكان الى مكان ، فكذلك تكون لأغراض أخرى أخروية ودنيوية حسب نية صاحبها • ويكون الجزاء من جنس العمل •

وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أحاديث أخرى بانقطاع الهجرة ، منها قوله عليه الصلاة والسلام : لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية ، واذا استنفرتم فانفروا • وقد سأل عبيد بن عمرو أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها عن الهجرة ، فقالت : لا هجرة اليوم ، كان المؤمنون يفر أحدهم بدينه الى الله والى رسوله مخافة من أن يفتن عليه ، فأما اليوم فقد أظهر الله الاسلام ، والمؤمن يعبد ربه حيث شاء ، ولكن جهاد ونية ، كما روى عنه أنه قال : لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة • وقد قيل ان المراد بالهجرة الباقية هي هجرة السيئات •

والخلاصة ان من هاجر ابتغاء وجه الله ، فجزاؤه موكول الى الله تعالى وهو وليه وحسبه ، ومن هاجر لا يبتغي الا دنيا يصيبها أو شهوة يقضيها فحسبه ضياعاً وخزياً ان وكله الله الى غيره ، وخسر الدنيا والآخرة •

فكل عمل يجب أن يلازمه الاخلاص لله في السر والعلانية •

ونختتم هذه الكلمة بدعاء كان يردده مطرف بن عبدالله : اللهم اني استغفرك مما تبت اليك منه ثم عدت فيه ، واستغفرك مما جعلته لك على نفسي ، ثم لم أوف به لك واستغفرك مما زعمت أني أردت به وجهك ، فخالط قلبي منه ما قد علمت • هذا وعلى الله قصد السبيل •

من وصايا رسول الله

صلى الله عليه وسلم

روى الامام أحمد بن حنبل في مسنده والامام محمد بن عيسى السلمي الترمذي في جامعه عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال : كنت خلف النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا غلام ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن ؟ فقلت : بلى ، قال : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده أمامك ، تعرف الى الله في الرخاء يعرفك في الشدة ، واذا سألت فاسأل الله ، واذا استعنت فاستعن بالله ، قد جف القلم بما هو كائن ، فلو ان الخلق جميعاً أرادوا أن ينفعوك بشيء لم يقضه الله تعالى لم يقدروا عليه ، وان أرادوا أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يقدروا عليه ، واعلم ان في الصبر على ما تكره خيرا كثيراً ، وان النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الشدة ، وان مع العسر يسرا •

حديث شريف من جوامع كلمه صلى الله عليه وسلم تضمن عدة وصايا جامعة من الاحكام والحكم ما لا حصر له ، كما تضمن قواعد كلية من أهم أمور الدين وأجلها حتى قال الامام أبو الفرج عبدالرحمن بن الجوزي ـ تدبرت هذا الحديث فادهشني ، وكدت أطيش ، ثم قال : فوا أسفا من الجهل بهذا الحديث وقلة الفهم لمعناه •

ان هذا الحديث يدل على عناية سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بتبليغ رسالة ربه وتغذية النفوس بتعاليمها ، وتنشأة الشباب على تفهمها والتطبع بطابعها ، لأن من شب على شيء شاب عليه •

نقل عن ابن عباس راوي هذا الحديث أن كسرى أهدى للنبي صلى الله عليه وسلم بغلة فركبها بحبل من شعر ثم أردف خلفه ابن عباس ، وبعد

أن سار به ملياً التفت اليه قائلا : يا غلام اني أعلمك كلمات فكانت هـــذه المقدمة حافزة لانتباهه واذكاء روح اليقظة في نفسه ليفهم ما يقال له ، ويعي ما يسمع منه • لقد كانت تلك الكلمات دستوراً للمربي المخلص الذي يريد أن ينشيء جيلا مثالياً عزيز النفس ، كامل الرجولة متفادياً في ســبيل أمته وعقيدته وبلاده ، عزوفاً عن فتن الحياة ومغرياتها ، لا يخشى الا الله ، ولا تلين قناته لظالم أو غشوم •

لقد كان التلميذ عبدالله لم يتجاوز العاشــرة من عمره ، لذلك ناداه بيا غلام • لأن الغلام في لغة العرب من لم تزد سنه عن تسع سنين •

ان هذا الدرس لم يكن موجها لعبدالله فحسب ، بل هو درس وعظة وارشـاد لجميع أبنـــاء الأمـة على اختـلاف درجـاتهم وأعمارهم ومكانهم وزمانهم •

لقد تفهم الرعيل الاول من خير القرون ما في أحاديث رسول الله من حكم وعظات ، ووصايا وارشادات ، فعضوا على التمسك بهـا بالنواجـذ ، وتتبعوا خطا قائلها ، حتى صلحوا أن يكونوا خلفـاءه في الارض ، فأفلحوا وسـادوا وعلت كلمتهم ، ورفعت رايـــاتهم ، وأورثهم الله خيري الدنيـــا والآخـرة •

لقد اشتمل هذا الحديث على سبع وصايا •

١ ـ احفظ الله يحفظك :

فالحفظ يراد به حفظ حدود الله ، والوقوف عند أوامره ، والاجتناب عن نواهيه • واذا حفظ المرء حدود الله ، حفظه الله في نفسه وأهله وماله •

وحدود الله تعالى نوعـان :

أحكام تتعلق بأعمال القلوب ، وحفظها ورعايتها أعظم وآكد من حفظ ورعاية الأعمال التي ليست بقلبية •

وأحكام تتعلق بأعمال الجوارح والأعضاء الظاهرة ، وهي الأعمال التي عليها مصالح الدين وهي العبادات ، ومصالح الدنيا وهي المعاملات • وقد كان سيدنا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : اللهم أعصمنا بحفظك وثبتنا على أمرك •• وعنه رضي الله عنه أنه قال : علمني النبي صلى الله عليه وسلم ان أقول : اللهم احفظني بالاسلام قائما ، واحفظني بالاسلام قاعدا ، واحفظني بالاسلام راقدا ، ولا تطع فيّ عدواً ، ولا حاسدا •

وقد يحفظ الله تعالى العبد في سبب من أسباب الدنيا ، فيحول بينه وبين ما أراد لما يعلم له من الخير في ذلك • وقد قال عبدالله بن مسعود : ان العبد ليهم بالأمر من التجارة أو الامارة فينظر الله اليه ، فيقول للملائكة : أصرفوه عنه ، فاني ان يسرته له أدخلته النار ، فيصرفه الله عنه • وروى الطبراني عن أنس بن مالك أنه قال : يقول الله عز وجل : ان من عبادي من لا يصلح ايمانه الا الغني ولو أفقرته لأفسده ذلك ، وان من عبادي من لا يصلح ايمانه الا الصحة ولو أسقمته لأفسده ذلك ، وان من عبادي من لا يصلح ايمانه الا السقم ولو أصححته لأفسده ذلك ، وان من عبادي من يطلب باباً من العبادة فاكفه عنه كي لا يدخله العجب ، اني أدبر عبادي بعلمي بما في قلوبهم اني عليم خبير •

ومن حفظ الله في صباه وقوته ، فان الله يحفظه في حال كبره ، ويمتعه بادراكه وعقله ، ولقد روى ان جماعة من العلماء جاوزوا المائة سنة ، ومع ذلك بقوا متمتعين بقوة عقولهم وسلامة أبدانهم ، ومنهم الامام أبو الطيب الطبري الذي جاوز المائة ، فقد وثب يوماً وثبة شديدة ، وعندما عوتب فيها قال : هذه جوارح حفظناها عن المعاصي في الصغر فحفظها الله علينا في الكبر • وقال محمد بن المنكدر : ان الله ليحفظ بالرجل الصالح ولده وولد ولده وقريته التي هو فيها • والدويرات التي حولها • فما يزالون في حفظ

الله وستره • وكان عمر بن عبدالعزيز يقول : ما من صالح يموت الا حفظه الله في عقبه وعقب عقبه •

وقد قص علينا القرآن الكريم نبأ أهل القرية التي استطافها موسى عليه السلام وصاحبه وطلبا من أهلها طعاماً لسد جوعتهما الا أنهم رفضوا ذلك وأبوا حتى نزولهما في قريتهم وهذا منتهى الخسة والبخل والدناءة ، لأن الكريم قد يعجز عن اطعام جائع ولكن لا يمكن أن يعجز عن ايوائه •

وعند مسيرهما في هذه القرية وجدا جداراً مائلا للسقوط ، فتقدم صاحب موسى وأصلحه فأنكر موسى صنع المعروف لأهل هذه القرية الدنيئة اللئيمة ، بل يجب أخذ الأجر على ذلك العمل ، فاخبره صاحبه بأن الجدار يعود لصغيرين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما تركه أبوهما وكان رجلا صالحاً ، فأراد ربك حفظه لهما رعاية لحقهما واكراماً لصلاح أبيهما الذي أورثهما الصلاح والتقوى ، فأمر الله باقامة الجدار حتى يبلغا رشدهما ويستخرجا كنزهما ، اذ صلاح الآباء ينفع الأبناء •

لقد أمر الله تعالى ببناء جدار أبناء العبد الصالح ليكون ذلك وسيلة عادية في حفظ الكنز على صاحبيه ، وتنبيهاً على أن الله قد يكرم الأبناء اكراماً للآباء ولا يأخذهم بما فشا في مجتمعهم من فساد واعوجاج •

ثم أردف عليه الصلاة والسلام وصيته الاولى بالثانية توكيداً لها فقال : احفظ الله تجده أمامك • وفي رواية أخرى : تجده تجاهك • اذ الذي يحفظ حقوق الله يجده تعالى معه في كل الاحوال ، ويهديه ويرعاه ويؤيده ، ويحفظه ويوفقه وينصره ويسدده • (ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) • قال قتادة : من يتق الله يكن معه ، ومن يكن معه ، فمعه الفئة التي لا تغلب ، والحارس الذي لا ينام ، والهادي الذي لا يضل •

وكتب أحد الصالحين لأخ له : أما بعد ، فان كان الله معك فمم تخاف ؟ وان كان عليك فمن ترجو ؟

واذا ضيع المرء حقوق الله أضاعه الله • وها هم المسلمون قد ضيعوا حدود الله ، فضيعهم الله ولم يحفظوا أمر الله فلم يحفظهم ، ونسوا الله فنسيهم ، ووكلهم الى أنفسهم فضاعوا وحق عليهم قول الله : ﴿ ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات ﴾ •

فمراقبة الله في السر والعلن منزلة من منازل المخلصين الأوابين وفيها يقولون : من راقب الله في خواطره عصمه الله في جوارحه • يقول الله تبارك وتعالى في وصف هؤلاء الناس : ﴿ والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم الى ربهم راجعون ﴾ • وقد سألت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة ، هو الذي يزني ويسرق ويشرب ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لا ولكن هو الذي يصلي ويصوم ويتصدق ويخاف الا يقبل منه • وروى أن علياً رضي الله عنه صلى الغداة ، ثم لبث في مجلسه حتى ارتفعت الشمس قيد رمح كأن عليه كئابة ، فسأله بعض أصحابه عن حاله تلك ، فقال : لقد رأيت أثراً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فما أرى أحداً يشبههم ، والله ان كانوا ليصبحوا شعثاً غبراً صفراً وبين أعينهم مثل ركب المعزى ، وقد باتوا يتلون كتاب الله ، يراوحون بين أقدامهم وجباههم اذا ذكر الله مادوا كما تميد الشجرة في يوم ريح ، فانهملت أعينهم حتى تبل والله ثيابهم ، والله لكأن القوم باتوا غافلين •

تعلم هؤلاء في مدرسة النبوة كيف يقوى المؤمن على دوافع بشريته ويرتفع فوق مستوى دواعي غرائزه ، فيحاسب نفسه على الخطوات والهواجس وفلتات الكلمات ، لأن محاسبة النفس هي الدعامة الأولى في الاخلاص الذي هو لباب العبودية • يقول الحسن البصري : ان المؤمن قوام على نفسه يحاسبها لله عز وجل •

فاذا حفظ المرء أوامر الله وأحبه حباً يسخره به لمرضاته ، فلا يراه الا حيث يحب ويرضى ، قد عقل أوامره ، وفقه نواهيه ، لايراه الله حيث نهاه ، ولا يفقده حيث أمره •

أما الوصية الثالثة فهي قوله عليه الصلاة والسلام : تعرف الى الله في الرخاء يعرفك في الشدة •

فالانسان اذا عرف ربه وأدى حقوقه ورعاها في حالة صحته ورضائه فلا شك أنه تعالى سيرعاه عند الشدة ويعينه وينصره • وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : من سره أن يستجيب الله له عند الشدائد فليكثر الدعاء في الرخاء • وقال أبو الدرداء : أدع الله في يوم سرائك ، لعله أن يستجيب لك في يوم ضرائك •

اذا أصاب الانسان نوع مكروه ملكه الجزع وأقبل على مولاه وأكثر من التضرع والدعاء طالباً ازالة تلك الشدة وتبديلها بالنعمة ، فاذا كشف الله عنه عاد الى سيرته الأولى من الغفلة والانحراف ونسى حالة الشدة وأعرض عن شكر مولاه ، وفي ذلك يقول الله (واذا مس الانسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً ، فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا الى ضر مسه كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون) • ويقول تعالى : (واذا أنعمنا على الانسان أعرض ونأى بجانبه واذا مسه الشر فذو دعاء عريض) •

فهذا شأن الانسان في الشدة والرخاء ، وهي طريقة ممقوتة واخلاق مذمومة ، اذ الواجب على المرء كثرة الدعاء والتضرع في أوقات الراحة والرفاهية ، ليكون مجاب الدعوة في وقت الشدة والمحنة • قال أحد الصالحين : ان من كان وقت اصابة النعمة مشغولا بالنعمة لا بالمنعم ، كان عند نزول البلية مشغولا بالبلاء لا بالمبلى •

عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال : سمعت رسول الله صلى

الله عليه وسلم يقول : انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى آواهم المبيت الى غار فدخلوه فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار ، فقالوا : انه لا ينجيكم من هذه الصخرة الا أن تدعوا الله تعالى بصالح أعمالكم ، قال رجل منهم أللهم كان لي أبوان شيخان كبيران وكنت لا أغبق - أقدم قبلهما - أهلا ولا مالا ، فنأى بي طلب الشجر يوماً فلم أرح عليهما حتى ناما ، فحلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين ، فكرهت أن أوقظهما أو أن أغبق قبلهما أهلا أو مالا ، فلبثت والقدح على يدي - انتظر استيقاظهما حتى برق الفجر - والصبية يتضاغون عند قدحي فاستيقظا فشربا غبوقهما ، أللهم ان كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة فانفرجت شيئاً لا يستطيعون الخروج منه •

وقال الآخر : كانت لي ابنة عم كانت أحب الناس الي ، وفي رواية : كنت أحبها كأشد ما يحب الرجال النساء ، فأردتها على نفسها فامتنعت مني ، حتى ألمت بها سنة من السنين ، فجاءتني فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تخلي بيني وبين نفسها ، ففعلت حتى اذا قدرت عليها ، وفي رواية : فلما قعدت بين رجليها قالت اتق الله ولا تفض الخاتم الا بحقه ، انصرفت عنها وهي أحب الناس الي وتركت الذهب الذي أعطيتها أللهم ان كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك نأفرج عنا ما نحن فيه فانفرجت الصخرة غير انهم لا يستطيعون الخروج منها •

ثم قال الثالث : اللهم استأجرت أجراء وأعطيتهم أجرهم غير رجل واحد ترك الذي له وذهب فثمرت أجره حتى كثرت منه الأموال ، فجاءني بعد حين فقال : يا عبدالله أد الي أجري ، فقلت : كل ما ترى من أجرك من الابل والبقر والغنم والرقيق ، فقال يا عبدالله لا تستهزيء بي ، فقلت : لا أستهزيء بك ، فأخذه كله فاستاقه ولم يترك منه شيئاً أللهم ان كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فأفرج عنا ما نحن فيه • فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون •

أما من لم يتعرف الى الله في الرخاء ، فليس له ان يعرفه في الشدة لا في الدنيا ولا في الآخرة • فمن أطاع الله واتقاه في حياته ، تولاه الله عند وفاته وثبته في القول الثابت في القبر ، وآنس وحشته ووحدته •

ثم تأتي الوصية الرابعة بعد أن أفهمه عليه الصلاة والسلام ان الله معه يعلمه ويهديه : اذا سألت فسأل الله ، لأنه هو القادر القريب الغني اوهاب خزائن الوجود بيده يتصرف في الكون كيفما يشاء ، يعطي ويمنع ، يحيي ويميت ، يعز من يشاء ، ويذل من يشاء بيده الخير انه على كل شيء قدير •

قال عامر بن قيس : قرأت آيات من كتاب الله فاستغنيت بالله عن الناس قرأت قول الله : (وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو) فلم أسأل غيره لكشف ضري ، وقوله : (وان يردك بخير فلا راد لفضله) الا منه ، وقوله : (وما من دابة في الارض الا على الله رزقها) فلم أطلب الرزق من غيره ، فأغناني الله عن الناس بهذه الآيات •

وان سؤال العبد لربه له وسيلتان ، شرحها أحد الافاضل بقوله : احداها وسيلة اللسان يدعو ويتضرع مترجماً عن القلب الحاضر الخاشع المستشعر بعجزه وافتقاره الى المولى الغني القدير •

وثانيهما : وسيلة العمل ، فالأعمال التي من شأن التاجر أو الصانع أو طالب العلم أن يعلمها ، يجب عليه أن يكون ذاكراً لله تعالى وقت قيامه بها ، متوجهاً اليه سبحانه حينما يعانيها ويقاسي ما صادفه فيها ، رجاء أن يسدده ويوفقه لينال من علمه وينال عاقبة محمودة •

لقد بايع النبي صلى الله عليه وسلم جماعة من أصحابه على ألا يسألوا الناس شيئاً وكان أحدهم يسقط سوطه أو خطام ناقته فلا يسأل أحداً أن يناوله اياه •

لقد اتجه هؤلاء بكليتهم الى الله ، ولا يطلبون العون الا منه ، وقد

اتعظوا بقول الله : (أدعوني أستجب لكم) وبقوله تعالى (أمن يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الارض أاله مع الله قليلا ما تذكرون) •

وها هو القرآن الكريم يقص علينا التجاء الأنبياء في الشدائد الى الله تعالى فكشف ما بهم من ضر (وأيوب اذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين ، فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا) •

وعن يونس بقوله تعالى : (فنادى في الظلمات أن لا اله الا أنت سبحانك اني كنت من الظالمين • فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين) •

(وزكريا اذ نادى ربه رب لا تذرني فرداً وأنت خير الوارثين • فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه انهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين) •

ويقول تعالى عن نوح : فدعا ربه أني مغلوب فانتصر • ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر وفجرنا الارض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر) •

ولقد قال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : من فتح باب الدعاء فتحت له أبواب الرحمة • وان الدعاء ينفع مما نزل وما لم ينزل ، فعليكم بالدعاء • وقال علي رضي الله عنه لو ان الناس حين تنزل بهم النقم وتزول عنهم النعم فزعوا الى ربهم بصدق من نياتهم ووله من قلوبهم لرد عليهم كل شارد وأصلح لهم كل فاسد •

ان السؤال ـ كما قيل ـ فيه بذل لماء الوجه وذلة للسائل ، وذلك لا يصلح الا لله وحده فلا يصلح الذل الا له بالعبادة والمسألة ، وذلك من غاية المحبة الصادقة ففي سؤال الله تعالى اظهار الافتقار اليه • واعتراف بقدرته على قضاء الحوائج ، وفي سؤال المخلوق ظلم لأن المخلوق عاجز عن

جاب النفع لنفسه ، ودفع الضر عنها ، فكيف يقدر على ذلك لغيره وقد ورد في الحديث القدسي : يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد ، فسألوني فأعطيت كل انسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي الا كما ينقص المخيط اذا غمس في البحر .

ان من أيقن أن له رباً يرزقه ويمده بالحياة وهو ملجوءه في كل شيء ، أحس من أعماق نفسه بالحرية والاستقلال من شوائب التملق للمخلوق ، وشعر تماماً بما له من كرامة وعزة تكفل الله بهما لعباده المؤمنين .

فلذلك يجب الابتهال الى الله تعالى في تضرع وذل ، وهو تعالى كما قال : (واذا سألك عبادي عني فاني قريب أجيب دعوة الداع اذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون) . وقد قال ابن عطاء الله السكندري : اذا دعوت الله فلا تيأس من الاجابة ، فقد ضمن لك الاجابة ولكن في الوقت الذي يريده هو لا في الوقت الذي تريده أنت .

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : ادعو الله وأنتم موقنون بالاجابة واعلموا ان الله تعالى لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه . وقال سفيان الثوري ان الدعاء هو ترك الذنوب .

ومن شروط قبول الدعاء الاخلاص والابتعاد عن أكل الحرام ، لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان الرجل يطيل السفر أشعث أغبر ، يمد يديه يا رب يا رب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام ، وغذى بالحرام ، فأنى يستجاب له . وقال عليه الصلاة والسلام لسعد ابن أبي وقاص حين سأله عما يعوق استجابة الدعاء : يا سعد اجتنب الحرام ، فان كل بطن دخل فيه لقمة من الحرام لا يستجاب دعاؤه أربعين يوماً . وقد قيل : الحلال ما أفتاك المفتي بأنه حلال ، والطيب ما أفتاك قلبك أنه ليس فيه جناح .

وحدث حماد بن زيد فقال : اجتمع أيوب السختياني ويونس بن عبيد وابن عوف وثابت البناني في بيت ، فقال ثابت : يا هؤلاء كيف يكون العبد اذا دعا ربه فاستجاب لدعاءه ؟ قال ابن عوف : يكون البلاء في نفسه • فقال ثابت : فانه يعرضه العجب بما صنع الله به ، فقال يونس بن عبيد : لا يكون العبد يعجب بصنع الله الا وهو مستدرج• قال أيوب : وما علامة المستدرج ؟ قال : ان العبد اذا كانت له عند الله منزلة فحفظها وأبقى عليها ثم شكر الله أعطاه الله أشرف من المنزلة الاولى ، واذا هو ضيع الشكر استدرجه الله ، وكان تضيعه للشكر استدراجاً من الله •

ثم رفع أيوب يده من بينهم وقال : يا عالم الغيب والشهادة لا توفيق لنا ان لم توفقنا ولا قوة لنا ان لم تقونا •

ثم تأتي الوصية الخامسة لرسول الله صلى الله عليه وسلم لابن عمه عبدالله : واذا استعنت فاستعين بالله ، لانه هو القابض على جميع شؤون الدنيا والدين ، وهو القادر على كل شيء ، وغيره عاجز عن كل شيء •

وقد ذكر ان هذه الوصية قد اشتملت على توجيهين :

أولهما ـ تذكير الانسان بأنه عاجز محدود القدرة لا يتيسر له أن ينال رغائبه وحده ، وفي هذا تعليم وتهذيب عظيم لما فيه من تعريف الانسان قدر نفسه ، ورحم الله امرأ عرف قدر نفسه فلم يتعد طوره •

وثانيهما ـ تعليم الانسان ان قدرة الله تبارك وتعالى ليس لها حد تقف دونه ، ولا يغالبها مقدور ، ولا يفلت منها هارب ، فكان الله تعالى هو العزيز القهار الغالب على أمره ، وما من ممكن الا هو سبحانه آخذ بناصيته • وما من شيء في السموات والارض الا وقد نفذ فيه أمره وحكمه ، كما قال عز سلطانه : (وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير) •

وهذا سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يحكى القرآن الكريم على

لسانه : (قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً الا ما شاء الله ، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء ان أنا الا نذير وبشير) •
ويقول عمر بن عبدالعزيز : لا تستعن بغير الله فيكلك الله اليه • فعلى الانسان ان يطلب العون والتسهيل والتوفيق من الذي بيده ملكوت السموات والارض ، وليردد في جميع شئونه قول الله : (اياك نعبد واياك نستعين) • تلك التي تتكرر في كل صلاة ، بل في كل ركعة ، ليكون المرء على صلة بربه ، مستمداً منه العزة والقوة والتأييد • ان هذه الكلمة في معنى الكلمة السابقة (اذا سألت فاسأل الله) وانما أعيدت للتأكيد وبيان أهميته •

✕✕✕✕✕✕✕✕✕✕✕✕

لقد جاءت وصيته عليه الصلاة والسلام السادسة أساساً لما قبلها وما بعدها من الوصايا ، لأنها متفرعة عنها وراجعة اليها • يقول صلوات الله عليه لابن عمه عبدالله : فلو أن الخلق جميعاً أرادوا أن ينفعوك بشيء لم يقضه الله تعالى لم يقدروا عليه ، وان أرادوا أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يقدروا عليه •• ليزيده ايماناً على ايمانه ، ويرغبه على العمل ويملأ نفسه اعتماداً وتوكلا على الله ووثوقاً بوعده ، وليعتقد بأن النفع والضر في الحقيقة انما هما من الله تبارك وتعالى •

وها هم قوم ابراهيم عليه السلام يجتمعون على احراقه ، ولكن العلي القدير الذي لم يكتبه له قد أمر النار وأمره المطاع : (يا نار كوني برداً وسلاماً على ابراهيم) • ويجمع كفار قريش في دار ندوتهم على قتل سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن الله الذي يعلم سرهم ونجواهم يخبر نبيه بما بيته هؤلاء ويقول : (واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين) • فرد كيدهم في نحرهم •

ان المرء اذا علم انه لن يصيبه الا ما كتبه الله من خير وشر ونفع وضر، وان اجتماع الخلق على خلاف ما قدره الله هو هواء في هواء ، وانه تعالى سيدفعه بعارض من عوارض القدرة • والايمان بهذا يجعل المرء واثقاً بالله لا يخاف عبداً ولا يهاب أحداً ، لأن المعز المذل ، والخافض الرافع انما هو الله وحده : (قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شيء قدير) •

ثم بين تعالى ان أقضيته مسجلة وأحكامه ثابتة لا يعتريها تغيير ، ولا يمسها تحويل : جفت الاقلام وطويت الصحف ، وهذا ـ كما قيل ـ من أحسن الكنايات ، وأبلغ العبارات عن قدم تسجيل المقادير والانتهاء منها • وقد دل على ذلك الكتاب والسنة • قال تعالى : (ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم الا في كتاب من قبل أن نبرأها ان ذلك على الله يسير) ••

وروى الامام أحمد وأبو داود والترمذي عن عبادة بن الصامت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال : ان أول ما خلق الله القلم • ثم قال : اكتب ، فكتب في تلك الساعة بما هو كائن الى يوم القيامة •

ثم جاء في الوصية السابعة من توجيهه عليه الصلاة والسلام لابن عمه عبدالله قوله : واعلم ان النصر مع الصبر • وفي هذه الدعوة الى الرضا والثبات ورسوخ العزيمة • لأن الصبر على ما يكره الانسان فيه خير كثير ، وحسب الصبر فضلا أن كل حسنة تجزى بعشرة أمثالها الى سبعمائة ضعف ، الا الصبر فجزاؤه بغير حساب : (انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) ، وقال تبارك وتعالى : (وبشر الصابرين الذين اذا أصابتهم مصيبة

قالوا انا لله وانا اليه راجعون • أولئك عليهم صلوات من الله ورحمة وأولئك هم المهتدون) •

لقد قرن الله تبارك وتعالى الصبر بالصلاة بقوله : (واستعينوا بالصبر والصلاة وانها لكبيرة الا على الخاشعين الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وانهم اليه راجعون) • وفي الصبر تغلب القلة الكثرة : (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين) • وورد الصبر في القرآن الكريم في أكثر من سبعين موضعاً وذلك لعظمة موقعه في الدين •

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من يتصبر يصبره الله ، وما أعطى أحد عطاء خيراً ولا أوسع من الصبر • وقال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه : وجدنا خير عيشنا الصبر • ولقد قال بعض أصحاب رسول الله : ما كنا نعد ايمان الرجل ايماناً اذا لم يصبر على الأذى ، لأن فيه سعادة الحياة ، والتغلب على حوادثها ، ومكافحة خطوبها ، اذ الدنيا دار بلاء وامتحان لا يجتازها بسلام الا الصابرون • فهذا ابراهيم عليه السلام كان في كرب النار وبالصبر نجاه الله منها ، وكان يونس عليه السلام في كرب الدخول في جوف الحوت ، وقد نجاه الله تعالى من الاذى لصبره وتسليمه • وكان أيوب عليه السلام في كرب المرض ، وقد أتاه الفرج والشفاء لصبره ورضاه • وكان سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في شدة وكرب عند التجائه الى الغار ، ولكن الله تعالى قد نجاه من كيد الكائدين ومؤامرة المفسدين •

فالصبر واجب لابد منه ، وما بعده الا التسخط ، ومن سخط أقدار الله ، فله السخط مع ما يتعجل له من الألم ، وشماتة الأعداء به أعظم من جزعه • والصبر انما يكون عند مفاجأة المصيبة وشدة وقعها في القلوب ، وكل صبر بعد الصدمة الاولى يهون • وقد قال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : الصبر عند الصدمة الأولى ، لأن مفاجأة المصيبة لها روعة

تزعزع القلب وتزعجه بصدمتها ، فان صبر للصدمة الاولى ، انكسرت حدتها وضعفت قوتها ٠

قال أحد الأفاضل : كما يكون الصبر الحسى سبباً للنصر المادي ، يكون الصبر النفسي سبباً للنصر المعنوي ، فان الانسان اذا صبر عن الآثام والمنكرات انتصر على نفسه الامارة بالسوء ، وانتصر في مجال التطهر والتحصن والفضيلة ، ومن هنا نفهم ان الصبر له أكثر من معنى ، ولذلك قال الاصفهاني في مفردات القرآن هذه العبارة : الصبر حبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع ، أو عما يقتضيان حبسها عنه ٠ فالصبر لفظ عام وربما خولف بين أسمائه بحسب اختلاف مواقعه ٠

فان كان حبس النفس لمصيبة سمي صبراً لا غير ، ويضاده الجزع ، وان كان في محاربة سمي شجاعة ، ويضاده الجبن ، وان كان في نائبة مضجرة سمي رحب الصدر ، ويضاده الضجر ، وان كان في امساك الكلام سمي كتماناً ويضاده المذل (الذي يفشى السر) وقد سمي الله تعالى كل ذلك صبراً ٠

ثم يدعو عليه الصلاة والسلام الى عدم القنوط واليأس فيقول : ان الفرج مع الكرب ٠

لقد قص الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم قصصاً كثيرة تتضمن وقوع الفرج مع الكرب العظيم ٠ فقد قص علينا نجاة نوح عليه السلام ومن معه في الفلك من الكرب العظيم ٠ وقص علينا نجاة اسماعيل من الذبح ، ونجاة موسى من فرعون ، وقص ما لاقاه يعقوب ويوسف من ضيق ، وألم وحرج ، ثم مَنَّ الله عليهما وأزال عنهما الضر والكرب ، كما قص علينا ما لاقاه

ابراهيم وأيوب ويونس وكيف أزال تعالى الكرب ومنّ عليهم بالنجاة ، وهكذا يأتي الفرج بعد الشدة .

واليكم القصة التالية التي فيها العبرة والعظة لهؤلاء المتبرمين البائسين :

روى من سمع من أبي ذر السهروي الحافظ انه قال : كنت ببغداد أقرأ على أبي حفص بن شاهين في دكان عطار ، وانه شاهد رجلا جاء الى العطار فدفع اليه عشرة دراهم ، وأخذ منه حوائج وجعلها في طبق ، ووضعه على رأسه فزلق طبقه وتفرقت حوائجه ، فبكى واشتد بكاؤه وقال : لقد ضاع مني في قافلة كذا وكذا هميان فيه أربعمائة دينار ، أو قال : أربعة آلاف درهم ، ومعها فصوص قيمتها أكثر من ذلك ، فما جزعت لضياعها ، ولكن ولد لي الليلة ولد ، فاحتجنا في البيت الى ما تحتاج اليه النفساء ، ولم يكن عندي غير هذه العشرة الدراهم ، فلما قدر الله ما قدر جزعت وقلت : لا أنا عندي ما أرجع به اليوم الى أهلي ، ولا ما اكتسب به غداً ، ولم يبق لي حيلة الا الفرار عنهم وتركهم على هذه الحال فيهلكون بعدي . فلم أملك نفسي أن جزعت هذا الجزع .

قال أبو ذر : ورجل من شيوخ الجند جالس على باب داره فسمع هذا الكلام كله ، فسأل الجندي أبا حفص ان يدخل هو وأصحابه والرجل المصاب معه الى بيته ، ففعل وطلب من الرجل المصاب اعادة حكايته في الهميان ، فاعاد ذلك عليه ، وسأله عمن كان في تلك القافلة ، وعن المكان الذي ضاع فيه الهميان ، فأخبره ، ثم سأله عن صفة الهميان وعلامته ، فأخبره بذلك فقال : لو رأيته أكنت تعرفه ؟ قال : نعم ، قال : فأخرجه اليه ، فلما رآه قال : هذا الهميان الذي سقط مني ، وفيه من الاحجار ما صفته كذا وكذا ، ففتح الهميان فوجد الاحجار على ما وصف ، فدفعه اليه ، وخرج من عنده فرحاً وقد أصبح غنياً بعد املاق . وقد قال سيدنا

أمير المؤمنين عمر بن الخطاب : ما أبالي أصبحت على ما أحب أو على ما أكره ، لأني لا أدري الخير فيما أحب أو فيما أكره .

ثم ختم عليه الصلاة والسلام وصيته بقوله : وان مع العسر يسراً . والعسر هو الشدة والضيق والصعوبة ، واليسر هو التسهيل واللين والتوفيق .

روى عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم جالساً وحياله جُحْر فقال : لو جاء العسر فدخل هذا الجحر لجاء اليسر حتى يدخل عليه فيخرجه ، فأنزل الله عز وجل : (فان مع العسر يسراً ان مع العسر يسراً) وقد قيل : لا يغلب عسر واحد يسرين اثنين .

روى أن أبا عبيدة عامر بن الجراح حصر ، فكتب اليه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يقول : ما ينزل بامريء من شدة الا جعل الله له بعدها فرجاً ، وانه لن يغلب عسر يسرين ، وان الله تعالى يقول : (اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون) .

وقد قيل : العسر يعقبه اليسر ، والشدة يعقبها الرخاء ، والتعب تعقبه الراحة ، والضيق تعقبه السعة ، والصبر يعقبه الفرج ، وعند تناهي الأمر تنزل الرحمة . فالموفق من رزق صبراً وأجراً ، والشقي من ساق اليه القدر جزعاً ووزراً .

فلا تجزع وان أعسرت يوماً ... فقد أيسرت في الزمن الطويل
ولا تظنن بربك ظن سوء ... فان الله أولى بالجميل
ولا تيأس فان اليأس كفر ... لعل الله يغني عن قليل
فان العسر يتبعه يسار ... وقيل الله أصدق كل قيل

وجائب المسلم

روى الامام مسلم بن الحجاج القشيري في صحيحه عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : بينما نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم اذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس الى النبي صلى الله عليه وسلم فأسند ركبتيه الى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه ، وقال يا محمد ، أخبرني عن الاسلام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الاسلام أن تشهد أن لا اله الا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت ان استطعت اليه سبيلا ، قال صدقت ، قال : فعجبنا له يسأله ويصدقه • قال : فأخبرني عن الايمان ، قال : أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره ، قال : صدقت • قال : فأخبرني عن الاحسان ، قال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه فانه يراك • قال : فأخبرني عن الساعة ، قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل ، قال : فأخبرني عن أماراتها ، قال : أن تلد الأمة ربتها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة ، رعاء الشاة يتطاولون في البنيان • ثم انطلق فلبث ملياً ، ثم قال : يا عمر أتدري من السائل ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم •

هذا حديث جليل جمع أصول الاسلام وأسس الايمان ، كما جمع أبواب الشريعة المطهرة من أعمال العبادات الظاهرة والباطنة ، حتى قيل ان علوم الشريعة كلها راجعة اليه ومتشعبة منه •

وقد قيل في سبب ورود هذا الحديث ، أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أكثروا السؤال عليه ، من ذلك أنه عليه الصلاة والسلام

خطب يوما فقال : ان الله تعالى كتب عليكم الحج ، فقام رجل فقال : أفي كل عام يا رسول الله ؟ فأعرض عنه حتى أعاد مسألته ثلاث مرات ، فقال صلوات الله وسلامه عليه : ويحك ، وما يؤمنك أن أقول نعم ، والله لو قلت نعم لوجبت ، ولو وجبت ما استطعتم ، ولو تركتم لكفرتم ، فاتركوني ما تركتكم ، فانما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، فاذا أمرتكم بأمر فخذوا منه ما استطعتم واذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه .

وروى أن الناس سألوا رسول الله عن أشياء حتى بالغوا في السؤال ، فقام عليه الصلاة والسلام مغضباً وقال : سلوني ، فوالله ما تسألوني عن شيء ما دمت في مقامي هذا الا بينته لكم . فقام رجل من بني سهم يقال له عبدالله بن حذافة ، وكان اذا لاحى الرجال يدعى الى غير أبيه ، وقال : يا نبي الله من أبي ؟ قال : أبوك حذافة بن قيس الزهري ، وقام آخر وقال : أين أبي ؟ قال : في النار . ثم قام عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : رضينا بالله تعالى رباً وبالاسلام ديناً ، وبمحمد رسولا ونبياً ، نعوذ بالله تعالى من الفتن ، وانا حديثو عهد بجاهلية وشرك ، فاعف عنا يا رسول الله ، فسكن غضبه عليه الصلاة والسلام .

ولما امتثلوا وتهيبوا سؤاله عليه الصلاة والسلام خشية أن يضلوا ، قال لهم : سلوني فاحجموا عن المسألة ، فجاءهم جبريل عليه السلام يعلمهم دينهم كما قال عليه الصلاة والسلام : أتاكم يعلمكم دينكم .

لقد جاء جبريل ليعلم المسلمين كيف يسألون ، وعلمهم ما يجب أن يكون بين السائل والمسئول من حسن الأدب ، ووقار العلم وأساليب التلقين، كما علمهم كيف يجلس المتعلم أمام المعلم ، ورفق المعلم بالمتعلم .

يحدثنا عمر بن الخطاب رضوان الله عليه أنه كان مع جماعة جلوسا

في حضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم اذ فاجأهم شخص لا يبان عليه علامة سفر من غبرة أو شعوثة ، قد ارتدى ثوباً أبيض ، لا يعرفه منا أحد . ثم استأذن ودنا حتى جلس الى رسول الله بكل تواضع وأدب . جلوس متعلم أمام معلم حتى الصق ركبتيه بركبتي رسول الله ، ووضع راحتيه على فخذيه .

والحكمة في مجيء جبريل بهذه الهيأة المستغربة - كما قيل - ليعظم اتجاههم اليه ، واصغاؤهم لما يقول ويقال له ، فان النفوس أشد مراقبة للعظيم . وأعظم تطلعاً للأمر المستغرب . وبذلك يتمكن في نفوسهم ما يدور بينهما من سؤال وجواب .. ويعلم من هذا أن للملائكة قوة التشكل والظهور بما يريدون .

أما قوله : ووضع كفيه على فخذيه ، يحتمل أنه وضع كفيه على فخذي النبي صلى الله عليه وسلم وذلك ليسترعيه لناحيته ، ويظهر بمظهر الاقبال عليه ، وشدة الحرص على التلقف والتلقي منه . ويحتمل أنه وضع كفيه على فخذي نفسه وهي حالة التأدب كما قيل .

لقد كان سؤال جبريل عن خمسة أمور ، هي : الاسلام والايمان ، والاحسان والساعة ، وأماراتها . ولقد أجابه صلى الله عليه وسلم اجابة واضحة مختصرة جامعة .

الاسلام

سأل جبريل النبي عن الاسلام : الذي هو الاذعان والاستسلام والانقياد الى الاعمال الواجبة الظاهرة والخضوع لها . وقد روى عن معاوية ابن حيدة أنه قال : قلت يا رسول الله ، بالذي بعثك بالحق ، ما الذي بعثك الله به ؟ قال : الاسلام ، قلت : وما الاسلام ؟ قال ان تسلم قلبك لله تعالى ، وان توجه وجهك لله ، وأن تصلي الصلاة المكتوبة ، وأن تؤدى الزكاة

المفروضة . وروى البخاري عن سعد ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطى رجلا عطاء ولم يعط الآخر ، فقال سعد : يا رسول الله تركت فلاناً ولم تعطه وهو مؤمن ، فقال صلى الله عليه وسلم : أو مسلم ، فأعاد عليه ، فأعاد رسول الله .

فظهر من هذا أن المراد بالاسلام هو الانقياد الظاهر والنطق بالشهادتين ولذلك يقول عليه الصلاة والسلام : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله ، فان قالوها عصموا مني دمائهم وأموالهم .

وقد ذكر الامام الغزالي بأن الاسلام يطلق على ثلاثة معان وهي :

أولا – اطلاق الاسلام بمعنى الاستسلام ظاهراً باللسان والجوارح ، مع اطلاق الايمان على التصديق بالقلب فقط ، وبذلك يكون الايمان والاسلام مختلفين . وهذا ما يشير اليه الحديث .

ثانياً – أن يكون الاسلام عبارة عن التسليم بالقلب . فالايمان أخص من الاسلام .

ثالثاً – ان يجعل الاسلام عبارة عن التسليم بالقلب والظاهر جميعاً وكذا الايمان . وعلى هذا فالاسلام والايمان مترادفان .

فالحديث يدل على أن الاسلام هو أعمال الجوارح الظاهرة من القول والعمل ، وفسر الايمان بالاعتقادات الباطنة .

الشهادتان

لقد فسر النبي صلى الله عليه وسلم الاسلام بجملة أمور فقال : أن تشهد أن لا اله الا الله ، وأن محمداً رسول الله . ومن شهد أن لا اله الا الله يكون كما قيل :

قد علم علماً جازماً واضحاً في نفسه ، كأنه يشاهده أنه لا متصرف في الكائنات ولا مهيمن على العالم ، ولا مستولى على كل شيء الا الله وحده ،

ولا مستحق لأن يعبد ويخضع له ويدان له الا الله ، فلا يعبد الا اياه ، ولا يشرك به شيئاً ، ومن كان يعبد الله ولا يشرك به فهو بلا شك جازم ان لا اله الا الله :

(هو الله الذي لا اله الا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون) • وروى عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه قال : كنت رديف النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا معاذ هل تدري ما حق الله على عباده ؟ وما حق العباد على الله ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : فان حق الله على العباد ، أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، وحق العباد على الله ، الا يعذب من لا يشرك به ، فقلت : يا رسول الله ، أفلا أبشر به الناس ؟ قال : لا تبشرهم فيتكلوا •

ولقد قيل : ان الشهادتين هي أشبه شيء بالعمود الفقري الذي عليه مدار قيام هيكل الانسان ، ومنه يتفرع كل جزء فيه ، وهي في البناء بمنزلة العمود الاوسط الذي تقام الخيمة عليه ، والاركان بعده بمنزلة الاوتاد التي تشد بها حبالها ليتم البيت ويكمل • وهي أول ما يطالب به كل من يدخل الاسلام • وهي أول عقيدة من تعاليمه التي يجب أن يؤمن بها ، وبمثابة الجنسية الاسلامية التي تسمح للمسلم بأن يتمتع بكل ما في الاسلام من سلم وسلام وحماية وصيانة في نفسه وعرضه وماله •

ومعنى كلمة الشهادة كما قررها العلماء ، هو ان يقول المرء ، أشهد شهادة اقرار ويقين بما ينطق به لساني ويقربه قلبي بأن لا رب لي بحق الا الله • وأنه هو الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، المنزه عن الشريك والمثيل ، والولد والوالد • وهذه هي الشهادة الأولى •

أما الشهادة الثانية : وهي أشهد وأقر بأن محمداً رسول الله ، وأؤمن أن محمداً هو رسولي ونبيي وامامي ، وأنه هو سبب هدايتي الى دين الله •

يجب أن نؤمن بالتوحيد ايماناً يملأ كل مشاعرنا ، لأن كلمة التوحيد هي النواة التي يجب أن تغرس في كل قلب حتى تنمو وتصير شجرة باسقة الاغصان والفروع ، طيبة الثمار ، وذلك اذا رويت بماء الايمان ، وأبعدت عن آفات الشرك والضلال والبهتان د

قال الدكتور جمال الدين الفندي رئيس قسم الفلك واستاذ الطبيعة الجوية بجامعة القاهرة مدللا على وجود الله تعالى وأن لا اله الا هو :

ان من ينظر الى العالم يجد هناك من الابداع والاتقان واستمرار النظام ما لا يدع مجالا للشك بأنه لا يمكن أن يكون كل هذا عبثاً ، وأنه لابد من وجود قوة تحافظ على هذا النظام ، وهذه القوة لا مناص من أن يسلم بها العلم كذلك •

ونفس القوانين الطبيعية الحرارية تثبت أن الكون وجد في لحظة معينة أي ان الكون له ابتداء ، أي غير أزلي ، وانما له لحظة معينة بدأ فيها •

وقد تقرر ـ بالنسبة لنظامنا الشمسي ـ بنحو خمسة آلاف مليون سنة تقريباً ، فاذن لابد وأن الكون قد وجد بعد أن لم يكن •

هذا الشيء الذي وجد ، اما وجد من تلقاء نفسه ، وأما أوجدته قوة • أو أوجده خالق ، ولا يمكن افتراض انه وجد من تلقاء نفسه ، لأن هذا كلام ساقط ، واذن فهذا العالم لابد أن يكون قد أوجده شيء ، فاذا افترضنا ان هذا الشيء من نفس نوع الكون يكون ذلك نوعاً من العبث والتخريف، اذ يسلمنا هذا القول الى نفس المشكلة أو القضية التي نرغب في حلها ، وجلي أنه لا مناص لحل هذه المشكلة من أن تكون تلك القوة التي أوجدت العالم تختلف عنه في كل شيء وهذا هو الحل ، فاذا كان الكون مخلوقاً فهي الخالق واذا كان الكون مادياً فهي غير مادية ، وان كان للكون بداية ونهاية فهي ليس لها بداية ونهاية • هذه القوة التي أوجدت الكون هي الله تعالى

الذي ليس كمثله شيء • ويعبر القرآن عن كل ذلك في سورة الطور اذ يقول : ﴿ أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون ﴾ وفي سورة الزمر اذ يقول : ﴿ الله خالق كل شيء ﴾ ، وفي سورة غافر اذ يقول : ﴿ ذلكم الله ربكم لا اله الا هو ﴾ ، وفي سورة الشورى اذ يقول : ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ ، وفي صورة فصلت اذ يقول : ﴿ أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ﴾ •

وليس من شك أن ما عرف البشر من قوانين أو نواميس الطبيعة كقانون الجاذبية ، والديناميكا الحرارية ، ونظام الخلايا الحية ، والتناسل ، وغير ذلك من القوانين والقواعد والنظم التي يلاحظها الانسان كلها ناطقة بقدرة الله تعالى •

وثمة مصدر آخر لمعرفة الخالق هو القرآن الذي يعتبر أكبر معجزات الرسول وأخلدها وهو يدعو الى الايمان ، ويهدي للتي هي أقوم ، فاذا كنت أريد أن أتجاهل الأدلة المنطقية السابقة ، فان أمامي أفضل الرسل محمد صلى الله عليه وسلم الذي جاء بكتاب معجز هو القرآن الكريم •

وجدير بالذكر ان العلم الحديث انما ينصب على دراسة خصائص الاشياء والاستفادة منها وليس على حقيقة الاشياء وجوهرها ، فالعلم الحديث يستغل الكهرباء في توليد الحرارة وتحريك الآلات وفي أعمال الانارة والعلاج بالكهرباء ، ولكنه لا يستطيع أن يفسر الى الآن الكهرباء ، وكذلك الضوء وأشعة أكس وما الى ذلك • حقاً لقد عرف العلم كل هذه الأمور في نظريات مختلفة متنوعة • ولكنها لا تعطيك الحقيقة بل يتضارب بعضها مع البعض الآخر • لأن وظيفة العلم كانت الاستفادة من خصائص الأشياء من غير أن يبحث كيف وجدت هذه الاشياء • وما ماهيتها وما حقيقتها ، ومثل هذا العلم لا يوصلك الى ما وراء الطبيعة ، الا أننا أثناء دراسة الاشياء

نلمس من الابداع والاتقان ما يجعلنا نجزم بأن وراء ذلك خالقاً مدبراً وهذا هو سر الايمان بالله ••

فكلمة التوحيد كما نص عليها في هذا الحديث ، الايمان بالله وبمحمد رسول الله • ولقد قال العلماء لابد من الموالاة بين الجملتين بحيث لا يطول بينهما فصل ، فلا يصح أن تنطق بأحدهما وتسكت ، ثم تنطق بالاخرى • وهذا الاقرار بالشهادتين على هذا الوجه كاف في تحقيق معنى الاسلام ما لم يصاحبه انكار شيء مما علم من الدين بالضرورة •

الصلاة

ثم يأتي الركن الثاني من أركان الاسلام وهو اقامة الصلاة التي هي عبادة بدنية مشتملة على أقوال وأفعال تفتتح بالتكبير وتختتم بالتسليم بشروط وأركان ذكرت في كتب العبادات •

فرضت الصلاة ليلة الاسراء في السابع والعشرين من رجب قبل الهجرة بعام •

الصلاة : عماد الدين : وآية الايمان ، وعلاقة الانسان بالرحمن • وهي دليل اليقين ، وسبيل المؤمنين الى سعادة الدارين ، هي الصلة الكبرى بين المؤمن وربه في جميع أوقاتها ، فيها تجرد الانسان عن الدنيا ، فيشعر ببرد الراحة والسلام ولقد كان عليه الصلاة والسلام اذا حزبه أمر نزع الى الصلاة •

والصلاة من أقدم العبادات ، ولا تخلو ديانة منها • كما أنها عرفت بالرسالات الالهية جميعها • وقد ورد في القرآن الكريم على لسان الانبياء ذكر الصلاة ، من ذلك قول ابراهيم : (ربنا اني أسكنت من ذريتي بواد

غير ذي زرع عند بيتك المحرم • ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم) وقول الله تعالى لابراهيم واسماعيل : (أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود) • ويقول تعالى عن اسماعيل : (وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيا) ، وتنادى الملائكة مريم أم عيسى : (يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع امراكعين) •

ويتحدث عيسى ويقول : (وجعلني مباركا أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً) • وهذا لقمان يعظ ابنه فيقول : (يابني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر وأصبر على ما أصابك ان ذلك من عزم الأمور) ، وفي ميثاق بني اسرائيل (واقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) •

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستبطيء الصلاة وقد جاء وقتها من شدة شوقه اليها فيقول : يا بلال أقم الصلاة أرحنا بها • وقال عليه الصلاة والسلام : أن أحدكم اذا قام يصلى انما يناجي ربه فلينظر كيف يناجيه •

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا بعث سرية أمر عليها أحدهم ويأمره بالصلاة بأصحابه كما كان أمراء المدن هم الذين يأمون الناس •

ولما بعث عليه الصلاة والسلام معاذاً الى اليمن قال له : يا معاذ أن أهم أمرك عندك الصلاة ، فمن حافظ عليها وحفظها حفظ دينه، ومن ضيعها كان لما سواها من عمل أشد اضاعة •

وان من حسن آداب الصلاة الخشوع ، ومن صفات المؤمنين الذين ذكرهم الله تعالى وجعلها طريق الفلاح : (قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون) • وروى أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ما من امرىء تحضره صلاة مكتوبة فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها الا كانت له كفارة لما قبلها من الذنوب

ما لم يأت كبيرة وذلك الدهر كله • وله عليه الصلاة والسلام أنه قال : من صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه غفر له ما تقدم من ذنبه •

لقد كان عبدالله بن الزبير اذا قام في الصلاة غدا كأنه عود من الخشوع • وكان يسجد فتنزل العصافير على ظهره لا تحسبه الا جذع حائط • وصلى يوما في الحجر – حطيم الكعبة – فجاء حجر منجنيق فذهب ببعض ثوبه فما انفتل •

قال ميمون بن مهران : ما رأيت مسلم بن بشار ملتفتا في صلاة قط • ولقد انهدمت ناحية من المسجد ففزع أهل السوق لهدمتها وانه لفى المسجد يصلى فما التفت ، وكان أهل بيته اذا دخل المنزل سكنوا ، فاذا قام الى الصلاة تكلموا وضحكوا •

قيل لعامر بن عبد قيس : هل تحدثك نفسك بشيء من أمور الدنيا في الصلاة ؟ فقال : لأن تختلف الاسنة في أحب الي من أن أجد هذا •

يفتتح المسلم صلاته ب (الله أكبر) وهي كلمة تدعو المسلم الى أن يرفع رأسه عاليا ويعمل للمجد ، ولا يرى غير الله ، اذ تتضاءل كل عظمة أمام جبروته ، وتصغر كل عزة أمام عزته يدعوه لفظ (الله أكبر) أن يخشى الله ولا يخشى الناس ، فهو بعزة الحق مجاهد لا يبالى • ولقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم عن الله تبارك وتعالى أنه قال : قسمت الصلاة بيني وبين عبدى نصفين ، فاذا قال العبد (الحمد لله رب العالمين) يقول الله : حمدنى عبدى ، واذا قال : (الرحمن الرحيم) قال الله تعالى : مجدنى عبدى، واذا قال : (مالك يوم الدين) قال الله تعالى : أثنى علي عبدى ، واذا قال (اياك نعبد واياك نستعين) قال الله تعالى : هذا بيني وبين عبدى نصفين ولعبدى ماسأل •

الصلاة : هي التي تكون الرجل وتدربه على الصبر ، وتهبه العزم

والحزم والجلد ، ولا تجعل لليأس الى قلبه سبيلا ، وتعلمه دروساً في الثبات وحب الدأب على العمل، ورباطة القلب : (ان الانسان خلق هلوعا. اذا مسه الشر جزوعا . واذا مسه الخير منوعا . الا المصلين) . وهذه المنزلة لم ينلها الا المصلون بفضل ايمانهم ، وقد أمر الله تبارك وتعالى المسلمين اذا جد الجد ، واشتد الكرب ، أن يلجأوا الى العبادة يستمدون منها روحاً يقاومون بها ما يحتوشهم من خطر ، وما يساورهم من أمور كبيرة ، فقـــال تعالى : (واستعينوا بالصبر والصلاة وانها لكبيرة الا على الخاشعين) .

والصلاة تبعد الانسان عن الدنايا ، وتجعله ملكا طاهرا ومثليا عاليا ، اذ من استعان بالله هداه ، ومن طلب رضاه بالعمل الصالح أسعده وأنجاه ، وأبعده عن فساد النفوس ، وفحش الاقوال ، ومنكرات الافعال ، وتعلمه حب أداء الواجب ، وتغرس الطاعة للخالق ، والوقوف في كل شيء عنـــد حـــد الاعتـــدال .

قال ابن الجوزي : وينبغي للمصلي ان يحضر قلبه للصلاة ، فاذا سمع نداء المؤذن فليمثل النداء للقيامة ، ويشعر للاجابة ، ولينظر ماذا يجيب وبأي بدن يحضر ، واذا ستر عورته ، فليعلم ان المراد من ذلك تغطية فضائح بدنه عن الخلق ، فليذكر عورات باطنه وفضائح سره التي لا يطلـــع عليها الا الخالق ، وليس لها عنه ساتر ، وانها يكفرها الندم والحياء والخوف ، واذا استقبل القبلة فقد صرف وجهه عن الجهات الى جهة بيت الله ، فصرف قلبه الى الله تعالى أولى من ذلك ، فكما انه لا يتوجه الى جهة البيت الا بالانصراف عن غيرها ، كذلك القلب لا ينصرف الى الله تعالى الا بالانصراف عما سواه .

واذ كبرت أيها المصلى فلا يكذبن قلبك لسانك ، لأنه اذا كان في قلبك شيء أكبر من الله تعالى فقد كذبت ، فاحذر أن يكون الهوى عنـــدك أكبـــر .

اذا كان المصلي يقول في صلاته (اياك نعبد واياك نستعين) فما الذى يدعوه الى الاستعانة بالمخلوقين والوقوف على ابوابهم والتماس الحاجة منهم، ثم ما الذى يدعوه الى النفاق والخداع والكذب والرياء في مصلحته التي يتقاضى عليها أجرا ، أليس هذا دليلا على انه يستعين في رزقه يعطف العبد وحنان العبد ورضاء العبد ، اذا كان يخاف من العبد ، ويخشى العبد ، ويخنع للعبد ، فما الذى جعله اذن لله الذى يستعين به في أداء صلاته •

يقول المصلي في ركوعه (سبحان ربي العظيم) فهل اعتقد حقا بعظمة ربه ، واذا كان يعتقدها فما باله يهرول الى المخلوق الضعيف فيسأله في ذلة وضراعة ، كأنه هو المتصرف في أمره القاضي فيه •

والمصلي يقول في سجوده (سبحان ربي الاعلى) ، فهل أيقن بذلك العلو المعنوى وهل عرف أن ربه فوق كل كائن ، واذا كان كذلك فما باله لا يرجع اليه في الشدة التي تنتابه ، ويطلبه وحده دون سواه في قضاء الحوائج ، الا يعلم أن الله يغضب اذا ترك العبد سؤاله ، وتعرض لسؤال المخلوقين •

لقد اتفق علماء النفس مع علماء الدين على أن الصلاة أو الاتصال الروحي بالخالق من أفضل السبل التي تقضي على القلق ، وفي ذلك يقول (وليم جيمس) عالم النفس الامريكي واستاذ علم النفس بجامعة هارفارد : أفضل علاج للقلق الايمان • ويوافقه في هذا عالم النفس الانكليزي (أ • ابريل) فتراه يقول بدوره : لن تجد شخصاً متديناً حقا تصيبه الامراض النفسية •

وذكر الطبيب الحائز على جائزة نوبل الدكتور الكسيمى كارليل مؤلف كتاب (الانسان ذلك المجهول) : ان الصلاة هي أعظم طاقة نشاط في وسع المرء أن يولدها وهي قوة كقوة الجاذبية الارضية ، وقد رأيت بوصفي طبيباً

مجرباً مرضى خنقت صنوف العقاقير في علاجهم ، ثم شفتهم الصلاة . فالصلاة أشبه ما تكون بالراديوم ، أى انها منبع نشاط ذاتي ذى قوى شافية ، فحين نصلى نربط بين أنفسنا وبين قوة دافعة لا تستنفد ، هي القوة التي تنظم الكون .

قال أحد الافاضل ما ملخصه :

فريضة الصلاة : تمسك بزمام اليوم في أوله وآخره، وهي التي تودع الأمس وتستقبل الغد ، وهي مقيدة الزمان ، فسيحة المكان (فايما رجل أدركته الصلاة فليصل) . (وجعلت لى الارض مسجدا وطهورا) . وحكمة قيد الزمن هي حكمة تقييد الانسان ، بالفضائل والاخلاق في سعيه وعمله .

خمس صلوات تتخلل يوم الانسان . الاولى توقظه ، والآخرة تقدمه للنوم وتحفظه . وفترة بين اليقظة والنوم تأتي فرائض ثلاث تطهر وتذكر ، تملأ النفس بالعزم والثقة وتحوطها بشرف القصد وبر اليقين .

وفترة ما بين النوم واليقظة ، الجسد نائم والقلب يقظان ، يترقب ساعة السحر فتنشط له الاعضاء وقد التقى بحبة السماء . وتلك اولى الفرائض بداية المنهج اليومي للمؤمن تأتيه الملائكة وفوداً وفوداً، لتشهد قرآن الفجر: (ان قرآن الفجر كان مشهوداً) .

روى الامام البخارى عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل والنهار ، ويتجمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر ، ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم - وهو أعلم بهم - كيف تركتم عبادى ؟ فيقولون : تركناهم وهم يصلون ، وأتيناهم وهم يصلون .

ثم يمضى المرء في سعيه يمشي في الارض يبتغي من فضل الله مزوداً بشحنة الاضاءة التي تجعل ذكره لله لا ينقطع في أثناء سعيه وعمله . فان

أجاد ذكر أن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا ، وان في الاحسان رضا الله ، فان فاته أجر المخلوق لم يفته رضا الخالق .

وتأبى كل فريضة في المنهج اليومي للمؤمن الا أن تجمع بين الطهارتين ، فلا تقبل احداها دون الاخرى ، طهارة النفس باقامة الصلاة وطهارة الحس بتناول الوضوء .

والانسان قد يفقد الطهر الحقيقي للجسد بفقدان سببه وهو الماء ، ولكنه لا يفقد أبداً الطهر المعنوي الذي يتم ايحاء للنفس وقياماً بالنية والقصد في التيمم . فيقبل المؤمن على الصلاة وقد حملت طهارة المعنى طهارة الحس في حالة تغيب مادته أو تعسرها .

ولا يكاد النهار ينقضي حتى يدعى الناس الى الفريضة الثانية بنداء يحمل في طياته اعلانا عاماً عن القيم التي يقبل الشخص من أجلها ، ليتجرد الى الله ابتغاء مرضاته وليجد نفسه في رحاب الود والحب الصادق للحق والعدل : الله أكبر ، الله أكبر ، ينادى به لصلاة تتحطم فيها فوارق الجنس واللون والجاه والغنى والحسب ، فالصف لمن يسبق لا تفرقة فيه أو في غيره بين فقير ضعيف وعظيم ذى حسب .

واذا انتصف النهار أو كاد وآن لسوق الحياة أن ينقضي لحظة ليمضي الانسان الى ساحة الرحمن بما لديه ثم يتزود .

يلقى بهمومه ويقدم كشف حسابه ، ان كان في السوق قد ربح قدم الشكر ليأتيه المزيد ، وان كان قد اهتم أو خسر القى بهمه فاقبل الرضى القانع يحفظ النفس ويجدد الأمل .

انفض السوق لحظة ليتجدد ، فترة لا يسمع فيها ضجيج ولا صخب ، لأن تكبير الأذان يقضي على الضجيج ويرفع الصخب .

هذا بيده مال فتن به ، فجاءه الصوت (الله أكبر) فصغر المال وسعى

في ركاب الحق اذ الحق باق والمال فان وان طال الزمن • وهذا قلبه مفعم بالألم لأن فلانا طغى عليه وفجر ، جاءه الصوت (الله أكبر) فابقى عليه نفسه ، وأزال همه ، وطمأن قلبه ، وأخذه راضيا الى ساحة القادر الحكيم •

وهذا أوجعته المصائب وكسرت نفسه جاءه الصوت (الله أكبر) فاعتدلت النفس وقوى الفؤاد ، وأقبل الى ساحة الرحمن ، فطاب بالقضاء وما أنكر القدر ، وهكذا تنفض السوق لحظة الى ساحة الولاء ليعود الى حسن التعامل ورقة الايثار ونعمة الأمل •

فليجدد السعي نشيطاً باراً وقد اتسع الرجاء وطاب الأمل • يسعى على نية العود ، العود مرة أخرى الى ضيافة الله ، فيعزم على الا يأتي بمعصية لأنه يخشى أن يطلع الله منه على سوء قصد ، أو يلقاه في ضيافته ولم يحسن السعي ، بل يعمل جاداً على أن يلقاه ما بين فترة وأخرى بوجه نضر وقلب خاشع حذر •

تقوم الصلاة في المنهج اليومي للمؤمن مقام الاعصاب في جسم الانسان ، شبكة متصلة تصل النهار بالليل وتوصل الليل بالنهار ، فلا الليل لاه بائم ، ولا الظلم قائم بالنهار •

وفي العصر وقد خفت وطأة العمل وألقت الشمس ضوءاً آخر على الحياة ، ضوء الاصفرار المشوب بغبرة السفر الطويل ، تتدخل الصلاة لتمسح من الجباه الجادة عرق الكد وتعيد نظرة الحياة ، فتأتي راحة النفس من راحة الحس •

الجسد مكدود بالسعي بطلب الراحة • فمن رحمة الله تأتي الصلاة فتمهد لراحة الجسد بالنظافة والطهر مع راحة النفس بصلاة العصر بعد صلاة الظهر •

مضت فرائض ثلاث من منهج المؤمن : الفجر والظهر والعصر • وها هي الشمس وقد اصفر لونها ، وانحسر شعاعها ، وانكمش مدها ، تؤذن بالمغيب ، وتؤمر بالغروب •

وقبل أن يمتلىء بانظلام الافق يسمع صوت المؤذن يكبر الله ليسترعى نظر الناس الى آيات الله في الكون وهو (يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل) •

واذا كان الله قد أفاض الضوء نهاراً لينعم الناس بالسعي والعمل ، فها هو ذا يبسط رداء الليل لينعم الناس بالراحة واللباس والسكن •

الا أن صلاة العشاء هي خاتمة الطهر ، يتطهر الانسان بها ، ثم ينام مسلما وجهه لله مفوضاً الأمر اليه •

واذا كان المنهج اليومي للمؤمن يوقفه في محراب الصلاة خمس مرات يكبر ويسبح ويقرأ ، ويسمع ما يتردد من آيات ، ويسمع قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصلوات الخمس هذه ، التي هي المنهج اليومي للمؤمن حيث يقول : أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغسل منه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شيء ، قالوا : لا يبقى من درنه ، قال : فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا •

◇◇◇◇◇◇◇◇◇◇◇◇

الزكـــاة

ثم يأتي الركن الثالث من أركان الاسلام وهو الزكاة ، وهي رديفة للصلاة في اثنين وثلاثين موضعا من القرآن الكريم ، تنبيهاً على أنها قسيمتها في الاصطلاح• فكما أن الصلاة كافلة بتحرير النفس من العبودية والاستخذاء

لغير الله ، كذلك الزكاة اذ جعلها الله عز وجل مفتاحاً للخيرات والبركات والوقاية من الشح الذى يدعو الى البخل وينهى عن البذل • قال أحـــد الافاضل ما ملخصــه •

الزكاة ضريبة الدولة على أفرادها ، وقد اختار لها الاسلام هذا الاسم الجميل على اسم الضريبة ، لانه اسم ثقيل على النفوس لذلك تثقل تأديتها ، أما اسم الزكاة فهو من التزكية وهي التطهير ، لأنها تطهر النفوس من رذيلة البخل ، وبهذا أدخلها الاسلام في مكارم الاخلاق وجعلها من محاســـن الاداب ، بخلاف اسم الضريبة الخالى من هذا المعنى الكريم ، وكذلـــك اختار لها اسم الصدقة ، وهو اسم كريم أيضاً ، لأن الصدقة مأخوذة مـن الصدق ، فيكون فيها معناه الكريم وأدبه ، ليأتي بها المسلم عن صـــدق واخلاص ، لا عن رياء أو تعال أو تفاخر ، وكل هذا فيه من الحمل عـلى تأديتها بطيب نفس ، وحتى لا يتهرب أحد من تأديتها كما يتهرب من تأدية الضريبة ، لأنه ينظر اليها على أنها محض غرامة ، وليس فيها شيء من هذه المعاني الكريمة والآداب الرفيعة •

لقد فرضت الزكاة في السنة الثانية من الهجرة في النقد والذهب والفضة والحبوب والثمار وسلع التجارة وفي الحيوان وفي الديون الثابتة في الذمـم والممكن خلاصها بل في كل الاموال ، لا في اصناف مخصوصة منها كمـا ذهب الى ذلك أبو حنيفة رحمه الله لكي تكون نظاما عاماً في كل مايعتمد عليه الناس في عيشهم • وكل هذه بشروط وانصبة ضمن فيها حق الغني والفقير معاً ، حتى لا يكون فيها حرج على أحد ولا اعنات لأحد ، ولم يطلب من أصحاب الاموال ما يثقل كاهلهم ، بل جعل المقدار المطلوب قليلا لا يؤثر فيما عندهم ، كما أن أمره يتعلق بفائض المال بعد سد الحاجات ومرور عام عليه ومواسم الانتاج والاثمار كما أنه لا يتعلق بكثير من الكماليات •

روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قام في الناس فقال : يا أيها الناس انه قد أتاني آت فقال لي يا محمد ، لاصلاة لمن لازكاة له ، ولا زكاة لمن لا صلاة له ، مانع الزكاة في النار ، والمعتدى عليها كمانعها .

وان الزكاة لم تكن موجهة للمن والتعالي ، بل هي واجبة تؤدي للدولة تنوب عن الافراد في رعاية المصالح العامة التي يستفيد منها المجتمع الاسلامي ، ويعاقب الشارع مانعها ، واذا قدم جزء منها لمحتاج حث الشارع على الاسرار بذلك لئلا يرى الآخذ لها ذلة أو مساً بكرامته : (وان تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم) .

والزكاة لا تجب في يوم معلوم ، أو في فترة زمنية ، بل هي تتوزع على أيام السنة ، اذ كلما وجد نصاب وحال عليه حول كامل وجبت زكاته .

ولقد أجمع العلماء على أن من يجحد فريضة الزكاة فهو كافر يستتاب . فان تاب والا قتل كالمرتد ، ومن أقر بها ومنعها فانه يضرب وتؤخذ منه كرها ، الا أن يمتنع في جماعة ويدفع بقوة فانهم يقاتلون عليها حتى تؤخذ منهم .

لقد رأى الاسلام أن انحصار المال واحتكاره من أعظم الاسباب في انحطاط المجتمع وانهياره فجعل الثروة الفردية رأس مال اجتماعي ، وحول جزءا منه الى رأس مال عام خصص للصالح العام ودفع الاحتياجات الضرورية .

ان الاسلام يدعو الى مبدأ التضامن الاجتماعي ، فينادى بأن في أموال الاغنياء حقا معلوماً للسائل والمحروم ، ويحذر أرباب الثراء من قبض اليد وعدم اعطاء حقوق الله لأربابها وحضهم على التضحية بالمال تخفيفاً لالآم البؤساء ، وترفيها عن ذوى الحاجات ، وقضاء على الضغائن والحزازات ،

وبثا لروح التوادد والتراحم بين أفراد الأمة ، حتى تصير كأسرة واحدة .

ففي اخراج الزكاة وقايه للاموال عن عبث العابثين ، وفي الحديث : حصنوا أموالكم بالزكاة ، وداؤوا مرضاكم بالصدقة .

فالزكاة على هذا ــ كما قيل : من التكافل الاجتماعي الذي يقوم على أساس أنه لاغنى لكل فرد في الدولة عن الآخر ، فلا يعيش كل فرد في الدولة لا يهمه الا أمر نفسه بل يجب أن يهمه أمر غيره كما يهمه أمر نفسه سواء بسواء ، وهذا أدب كريم . أدب الاسلام به المسلمين فجعلهم أسرة واحدة متواصلين ، ولم يجعلهم أسراً متعددين متقاطعين ، وجعل الوسيلة الى هذا عبادة من أهم عباداته ، ليرعوها حق رعايتها ويكون الله تعالى رقيباً عليهم فيها .

الصوم

ثم يأتي الركن الرابع من أركان الاسلام ، وهو صوم رمضان الذى هو الامساك والكف عن شهوتي البطن والفرج أو ما يقوم مقامهما .

فالصوم عدة للنفس على أن تسمو على شهواتها فتخضعها . ووسيلة لتذيقها ألم الحرمان فبدعوها ذلك الى الرأفة والبذل للمحرومين والمعوزين .

وان في الصوم مجاهدة النفس والهوى والشيطان والدنيا . هذه الشرور الاربع ، بل الاصفاد والاغلال التي تقيد الانسان الى هاوية سحيقة لا يعلم قرارها الا الله . انها أعداء متغلغلة في جوانب الانسان وثناياه ، ولم يتمكن على مغالبة هذه كلها الا الصوم ، فهو الذى يحد من شرورها .

كما أنه يربى في النفس ملكة الصبر التي هي رأس الحياة وعماد الوجود ، اذ بالصبر تنال الرغائب ، وتغالب الايام ، وتنكشف الاسرار ، وتسعد الافراد والجماعات ، وترقى الامم والشعوب ، وتظهر كنوز الارض، وتتفجر الانهار ، لذلك قال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : الصوم نصف الصبر . والصبر نصف الايمان .

والصوم من العبادات النفسية الخالصة التي لا يكاد يخامرها الرياء . ولا يحول حولها التصنع . وهو ليس ركناً للدين فقط ، بل هو كذلك ركن للحياة الحقة . لأن الحياة تتكون من عنصرين هما الجسم والروح ، ولكل منهما غذاء من نوعه . فغذاء الجسم مادى . لحم ونبات ، وغذاء الروح معنوى ، رياضة على احتمال التكاليف ، ومران على مدافعه الشهوات .

وهو من العبادات التي يقول فيها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: اذا كان يوم القيامة وأراد الله بعبد خيراً أعطاه الله كتابه جهراً وقال له اقرأ سراً حتى لا يفضحه بين خلقه ، فيقرأ كتابه سراً ، فلم يسمعه أحد ، فتقول الملائكة الهنا هذه عناية لم يسبق لأحد من العصاة ، وقد وعدت من عصاك أن تعذبه وتحرقه بالنار . فيقول سبحانه وتعالى : ياملائكتي اني أحرقته في الدنيا بنار الجوع والعطش في الحر الشديد في شهر رمضان فلا أحرقه اليوم بالنيران ، وقد عفوت عنه وغفرت له ماسلف من الذنوب والعصيان ، وأنا الكريم المنان .

والصوم يقف حاجزاً بين الصائم وبين الرفث والفسوق والعصيان ، وأى ساتر كالصوم يحول بين النفس الأمارة بالسوء وبين الجهل والتمرد والطغيان ، فهو جنة ووقاية من الرياء والنفاق والنظر الى المحرمات والغيبة والنميمة والسباب وقول الزور ، وكف السمع عن الاصغاء الى المكروه

والقبيح ، بل كف الجوارح كلها عن الشبهات • ولقد قال صلى الله عليه وسلم : من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه من أجلــه •

يجب أن يشعر الصائم بأنه صائم لربه ، فهو في حضرته وضيافته ، وتحت مراقبته وهيمنته ، فلا يبيح لنفسه الخروج عن حدود الأدب ، ولو تعـدى عليه أحد فليقل له اني صائم •

الحـــج

ثم يأتي الركن الخامس من أركان الاسلام وهو الحج الذى هو أعمال مخصوصة ، تؤدي في زمان مخصوص ، على وجه مخصوص ، يقوم بهـا المرء تقرباً الى الله تعالى وطلبا لثوابه وغفرانه •

ففي الحج يتجرد الانسان من زينة الحياة الدنيا التي يتعاظم بهيـــا ويتعالى ويستعيض عنها بلباس قلما يجده أفقر الناس وأضعفهـــم ، ازار ورداء مع كشف الرأس ، ثم يطوف ويسعى ويهرول ويرمي الجمار ويقبل الحجر ، مع الابتهال والتوسل ، كل ذلك لتتعود النفوس على الانقياد وامتثال الأوامر ، كما فيه اذلال للنفوس العاتية •

لقد جعل الاسلام من الحج ركناً اجتماعياً من أركانه ، يقيم نظـام المجتمع على أساس من التعاون والتآلف ، ويشيد بنيانه على قواعد التعارف والتكاتف ، ويحقق بين المسلمين معنى المساواة والاخاء اللذين هما شـعار الاسلام ومصدر السلام ، ومبعث الحرية وروح الديمقراطية •

جعل الاسلام من الحج مؤتمراً عاماً ، تتقابل فيه مختلف الشـــعوب والطبقات الاسلامية في صعيد واحد على دين واحد ، لعبادة رب واحد ، في

زي واحد ، وغرض واحد ، لتتحكم الالفة والمحبة فيما بينها ، ولكي تتشاور في اصلاح حالها ، والدفاع عن كرامتها وبلادها ، وليفكر مفكروها في الطرق التي يجب أن يسير عليها المسلمون لازالة ما بينهم من تناكر وتقاطع وتخاذل ، وهناك يخطب الخطباء ويعظ الواعظون لتحريك الهمم واحياء الآمال ، واملاء القلوب والنفوس شجاعة واقداما ، ومفاداة وقيوة ، كي ينهضوا ويعيدوا مجدهم وحريتهم •

هذه بعض فوائد الحج والحكمة من تشريعه تلك التي نسيها مسلمو هذا العصر واعتقدوا نها التزاحم بالمناكب ، والمسابقة في أداء الشعائر ، والمفاخرة بعدد الحجات •

كما أن في الحج مناورات حربية روحية توجب على الجميع زياً واحداً ، وحركة واحدة ، وطاعة واحدة ، وتقر في النفوس فكرة التضحية حتى بالأهل والمال في سبيل غاية عليا ، وتجرد الحاج من قانون الحياة العادية ، وتأخذه بقانون صارم كل الصرامة ، لا يمكن التسامح فيه ، فمن خالف هذا القانون الذى هو شروط الحج وأركانه بطل حجه وذهب عمله•

والخلاصة ان الحج تربية نفسية عسكرية دقيقة كل الدقة ، كما هو تربية سياسة اجتماعية •

ولقد شدد الشارع على المستطيعين لأداء تلك الفريضة فقال عليه الصلاة والسلام : من ملك زاداً وراحلة تبلغه الى بيت الله الحرام فلم يحج حجة الاسلام لم يمنعه مرض حابس أو سلطان جائر ، أو حاجة ظاهرة ، فليمت على أى حال شاء يهوديا أو نصرانياً •

بهذا فسر النبي صلى الله عليه وسلم بعض الاعمال الظاهرة التي أوجبها الله تعالى على المسلم ، والا فهي كثيرة ، وانما اقتصر عليه الصلاة والسلام على هذه الخمسة لأنها أصول أعمال الاسلام التي ينبني عليها •

الايمــــان

وعندما أتم رسول الله صلى الله عليه وسلم بيان معنى الاسلام ، بادره السائل بقوله : صدقت : تلك الكلمة التي أثارت عجب الحاضرين ، لأن المفروض في السائل أن يجهل ما يسأل عنه ، والتصديق قرينة العلم .

ثم استرسل في أسئلته ، فطلب من الرسول أن يخبره عن الايمـان الذى هو من الأعمال الباطنية ، فقال له : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبـه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره .

أما الايمان : فهو في اللغة التصديق بالشيء واعتقاد النفس له مـع الجزم به وعدم التردد فيه ، سواء كان مطابقا للواقع أم لا ، متعلقا بحكم شرعي أم لا .

وفي الشرع : هو التصديق والاذعان والقبول بما جاء به رسـول الله مبلغا عن ربه مع اذعان النفس وقبولها اياه .

الايمان بالله

لقد ذكر عليه الصلاة والسلام من مستلزمات الايمان أموراً منها :ـ

الايمان بالله ـ الذى هو الاقرار باللسان ، والتصديق بالقلب ، بأن للعالم الهاً واحداً لا شريك له ، يدبر الأمر ، ويفعل ما يشاء ، ويحكـم ما يريد ، بيده الخلق والأمر وهو على كل شيء قدير .

فالايمان بالله : يقضي التصديق بوجوده ، وأنه لا يجوز عليه العدم ، وأنه موصوف بصفات الجلال والكمال ، من العلم والقدرة والارادة والكلام

والسمع والبصر والحياة ، وأنه منزه عن صفات النقص وعن صفات الاجسام والمحيزات ، وأنه واحد ، فرد صمد ، خالق جميع المخلوقات ليس كمثله شيء .

ثم الاعتقاد بأنه حي قيوم ، وأن جميع الخلائق تستمد وجودها من وجوده . وأن الكل مفتقر اليه ، وأن مدده لو انقطع عن العالم طرفة عين لما بقي في الوجود جماد ولا نبات ولا حيوان ، لا يخفى عليه شيء في الارض ولا في السماء .

ان الايمان الحق يكسب صاحبه قوة وعزة وعظمة ومجداً ، وينير السبل أمام العاملين . هو الذى يحول الجبان الى شجاع ، والضعيف الى قوي ، والذليل الى عزيز .

ان الايمان بالله اذا شع نوره في القلب أضاء الجسم كله ، فالعين لا تنظر الى حرام ، والرجل لا تمشى الى حرام ، والفرج لا يرتكب حراماً ، والبطن لا تأكل حراماً ، والنفس لا تفكر في الحرام ، بل تكون جميع الاعضاء لله خاشعة ، ولأمره طائعة .

ومن تمكن الايمان بالله من قلبه يرى ما لا يراه الناس ، وكشفت أمامه الحجب . فهذا حارثة بن سراقة الانصارى يراه رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً فيقول له: كيف أصبحت يا حارثة؟ قال أصبحت مؤمنا بالله حقاً ، فقال له رسول الله : أنظر ما تقول فان لكل قول حقيقة ، فقال حارثة : يا رسول الله ، عزفت نفسي عن الدنيا ، فاسهرت ليلى ، وأظمأت نهارى ، فكأني بعرش ربي بارزاً أمامي ، وكأني أنظر الى أهل الجنة يتزاورون فيها ، وكأني أنظر الى أهل النار يتعاوون فيها ، فقال له رسول الله : أبصرت فالزم ، عبد بذر الله الايمان في قلبه . فقال له : أدع الله لي بالشهادة . فدعا له رسول الله فكان من شهداء بدر .

لقد دلت البراهين على وجود القادر الخالق الحكيم ، فان حدوث الاجناس المتعددة والانواع المختلفة من أصل واحد ، ونقلها من حال الى حال لا يكون الا باحداث عالم قادر عظيم يعلم تفاصيلها ، ويرجح ما تقتضيه حكمته مما يمكن من أحوالها ، ولا يعوقه عن فعله ند يعارضه أو ضد يعانده : (وفي الارض آيات للموقنين) فيها دلائل من الجبال والبحار والاشجار والثمار والنبات وأنواع المعادن والحيوان ، وأختلاف أجزائها في الكيفيات والخواص والمنافع ، تدل هذه كلها على وجود الصانع وعلمه وقدرته وارادته ووحدته • فالكون باتساقه العجيب كما قال أحد الافاضل يخدم قضية الايمان من تسخيره لراحة الانسان (أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج • والارض مددناها والقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب) •

فقضية الايمان ليست بمعزل عن الحياة ، وانما هي الحياة نفسها ممثلة في اتساق الانسان مع هذا الكون وعدم نفوره منه ، وهي تقوم في المصنع بالاتقان والاحسان ، وفي المتجر بالصدق والامانة ، وفي المزرعة بالصبر وحسن الرعاية ، وفي كل عمل بيقظة الضمير وخشية الخالق •

ويضع في كل شيء خلقه ، في المصيبة خلق الصبر ، وفي النعمة خلق الشكر ، وفي الصحة خلق الوفاء ، وفي الجهاد شرف الغاية ، وفي كل عمل روح الاخلاص ، وفي النصر خلق التواضع ، وفي البذل خلق السخاء ، في غير من أو أيذاء ، وفي العلم خلقه بلا جدل أو مراء •

ولم أر سفينة برت بصاحبها أو أمنته من العواصف الهوج والامواج المضلمة الصاخبة مثل ما فعلت سفينة الايمان بالله ، برت به في الدنيا ، فطردت اليأس من قلبه ، وبعثت فيه الطمأنينة بذكر ربه ، وجعلت الاحداث تبنيه ولا تهدمه ، والمصائب تعليه ولا تصغره •

ويأبى الله الا أن يجعل للمؤمنين على يد نبي من أنبيائه سفينة تحملهم وتمضى بهم في موج كالجبال في دنيانا تلك ، ليدرك الركب الانساني الى أن تقوم الساعة .

هذه السفينة تراها سابحة خالدة على صفحة من صفحات الكتاب الفطرى ، استقرت ليشهد الناس أمرها ، وبقيت ليدرك العقلاء سرها ، ودخلت ضمن من تكفل الله بحفظه ، وخلد ذكرها في قرآن يتلى فتخشع له القلوب ، وفرقان يتردد فتسمع في نغماته لحن الخلود ، لأنها سفينة الايمان بالله .

(ونادى نوح ابنه وكان في معزل يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين . قال سآوى الى جبل يعصمنى من الماء) توهم العصمة في جبل يحميه ، ولم يدر أنها في عمل صالح يجد نفسه فيه ، وما كان للطوفان الثائر الغاضب الذي اشتركت في ثورته عيون الارض ومنهمر السماء أن يهدأ أو ينسحب قبل أن يطوى في جوفه وظلامه من تنكر لانسانيته وايمانه .

أراد الله أن يجعل في تاريخ الانسانية سفينة للايمان تجرى بالمؤمنين في موج كالجبال ، ليعرف قدر الايمان ، ويدرك الناس أن الطبيعة زمامها بيد الله .

ولا يسمى مؤمنا من نطق بلسانه وهو غير مصدق بقلبه ، وذلك كالمنافقين الذين كانوا لا يعتقدون بصدق النبي صلى الله عليه وسلم ومع ذلك يظهرون الايمان ، فان علم أمرهم عوملوا معاملة الكفار ، وأن لم يعلم أمرهم قبل منهم في الدنيا والله يتولى جزاءهم في الآخرة .

وأما من آمن بقلبه وأقر بلسانه وأذعن للطاعات ، ولكنه يترك ما كلف به من أمر ونهي ، كسلا عن الطاعات أو انهزاماً أمام داعي الشهوات

فلا يخرج بذلك عن معنى الايمان والاسلام ، وان كان عاصيا ، وهـذا يدخل في وعيد العصاة ، ولا يدخل في عداد الكفار •

الايمان بالملائكة

أما الثاني من مستلزمات الايمان فهو الايمان بأن لله ملائكة ، هـم سفراء التبليغ بين الله ورسله من البشر •

والملائكة : جمع ملاك في الاصل ، ثم حذفت همزته لكثرة الاستعمال فقيل ملك •

قيل : الملك واحد الملائكة ، وأصله مألك ، ثم انقلبت الهمزة الى موضع اللام فقيل ملأك ، ثم خفضت الهمزة بأن القيت حركتها على الساكن الذى قبلها ، فقيل ملك ، فلما جمعوه ردوها اليه فقالوا ملائكة ، وقـد تحذف الهاء فيقال ملائك •

والملائكة : أجسام نورانية لطيفة روحانية لها قدرة على التشـكلات الجميلة المختلفة ، لا يأكلون ولا يشربون ولا يناكحـون ولا يتوالدون ، هم عباد مكرمون ، يفعلون ما يؤمرون • فعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجان من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم • فهم خلق من خلق الله • ميزهم بطبيعة تخالف ما تعارفنا عليه ، كما أنهم لا يوصفون بذكورة ولا بأنوثة ، فمن وصفهم بذكورة فسق ، ومن وصفهم بأنوثـة كفر لمعارضته قوله تعالى : ﴿ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن اناثاً ﴾ ، وأولى بالكفر من قال خناثى لمزيد التنقيص • فهم منصرفون في عبادة الله

وحده ، قال تعالى : (ويسبحون الليل والنهار لا يفترون) مسكنهم السموات غالباً ، ومنهم من يسكن الارض ، لا تلمس وجودهم حواس البشر ، ولا يدرك حقيقتهم عقل الانسان ، غير أن قلب المؤمن يراهم في صور الحياة المختلفة ، فيتحقق مستجيباً لتلك الرؤى ، مقراً بذلك الوجود ، شأنهم شأن كل مخلوق يحمد ربه ويقر بفضله ويخشى غضبه : (ولله يسجد ما في السموات وما في الارض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون . يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون) .

وان الايمان بالملائكة من أركان العقيدة الاسلامية ، قال تعالى (آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لانفرق بين أحد من رسله ، وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا واليك المصير) .

وقد أراد الله تبارك وتعالى أن يلفت نظر الانسان الى حقيقة الملائكة وأن يزيل عن أفكارهم ومعتقداتهم ما قد يعرض لها من ضلال في علاقتهم بالملائكة . فأمر تعالى الملائكة بالسجود لآدم أبي البشر : (واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس أبى .) .

وقد عرف الملائكة المتكلمون والمحدثون فقالوا بأنهم أجسام هوائية لطيفة تقدر على التشكل باشكال مختلفة، وبعضهم عرفهم بأنهم أجسام نورانية تقدر على التشكل ، ولعلهم يريدون أنها مخلوقة من مادة الهواء ، ولكن قد جملهم الله فجعلهم كالنور .

أما فلاسفة الاسلام فانهم يقولون : ان الملائكة مجردون عن المادة كالروح الانسانية الا أنهم لهم قدرة الظهور بالصورة التي يريدونها . وقد رد عليهم المتكلمون والمحدثون بأن المنزه عن المادة وعلائقها هو الله وحده . ومع ذلك فقد قالوا ان الملائكة مع كونهم ماديين مخلوقين من الهواء ، فان لهم قدرة على التشكل بأشكال مختلفة . وكثيراً ما تشكلوا بشكل أنسان ،

لكون طبيعة الانسان لاتأنس عادة الا الى نوعه ، فالرسل عليهم الصلاة والسلام وان كانوا قد يتصلون بربهم بدون واسطة ملك ، كما وقع لبعض الانبياء ومنهم ادم عليه السلام ، لكن مجيء الوحي في صورة انسان يستلزم زيادة أنس واطمئنان الرسل وذلك ليقوموا بدور الوساطة والسفار بين الله تعالى ورسله : (ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا اله الا أنا فاتقون) .

ولقد كانت أحسن الاحوال الى رسول الله صلى الله عليه وسلم هي الحالة التي يأتيه الملك فيها هي صورة دحية الكلبي ، وهو رجل من أصحابه جميل الصورة ، وقد يرى الملك جمهور من البشر دون أن يعرفوه ، كما وقع لأصحاب رسول الله في هذا الحديث الذى نحن بصدد شرحه .

وهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يروى لنا صفة هذا الاعرابي السائل فيقول : بينما نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم اذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد . وساق الحديث ، ثم قال : فلبثت ملياً ثم قال لي : يا عمر أتدري من السائل ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : فانه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم . وقد جاء في القرآن الكريم قصة نزول جبريل عليه السلام على مريم وقد انتبذت من أهلها مكاناً شرقيا وتمثل لها بشرا سوياً ، ومنها قصة ضيف ابراهيم عليه السلام ، ومنها قصة الملائكة الذين جاؤا الى لوط عليه السلام ، ومنها قصة الملكين اللذين تسوروا المحراب على داود عليه السلام .

ان انكار وجود الملائكة كفر ومروق من الدين ، لأن وجودهم ثبت بالآيات الصريحة الواضحة : (ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا) ، وان للملائكة وظائف كثيرة ، منها :

نفخ الروح في الاجنة ، ومراقبة أعمال البشر والمحافظة عليهم وقبض أرواحهم ، ومنهم قائمون بالتسبيح والتكبير ، وغير ذلك من أنواع الطاعات.

وان عدم المشاهدة ليس دليلا على عدم وجود ذلك الشيء ، فان كثيراً من الامور المادية التي لم تكن مألوفة في زمن من الازمان ، وكان الاخبار بوجودها يكاد يكون مستحيلا عند من لم تجاوز عقولهم عيونهم ، وقد اصبحت الان امورا عادية يدركها الصغير والكبير . لقد كان الناس يجهلون المكروبات منذ زمن قريب ، أفكان جهلهم موجبا لعدم وجودها ؟ أم كانت موجودة في الواقع على الرغم من هذا الجهل ، ومن كان يخطر بباله أن آلة حديدية يتكلم بها الانسان من وراء البحار ، فيسمع من آلاف الاميال ، ومن كان يظن أن مئات الاطنان من الحديد تطير في الهواء وتسير حسب ارادة الانسان وتحمل مئات الاطنان ، وتسير بسرعة لم يتصورها العقل . وتوجد أمور كثيرة لا نراها ولا نعلم حقيقتها ، وانما نحس آثارها كالكهرباء والمغناطيسية والجاذبية والضوء ، ومع ذلك فاننا نقول بها ، الى غير ذلك من الموجودات التي جاء بها العلم ، فهي تدل على أن الله تعالى قد أودع في هذا العالم من الاسرار والحكم مالا يحصيه الا هو : (ويخلق ما لاتعلمون).

ولقد تجلى للعلماء المنصرفين لدراسة الكون والكونيات ان حدود العالم لا تزال بعيدة عنهم ، كما تجلى لهم أن من الحماقة وضع حد للممكنات والتكذيب بما لم يحيطوا بعلمه من المجهولات .

وقد أثبت علماء استحضار الارواح بالمشاهدات المتكررة والحوادث المتواترة أن هناك عالماً وراء عالم الطبيعة قد خرق لهم كل نواميس المادة وما قرره من ذلك .

الايمان بالكتب

اما الثالث من مستلزمات الايمان بان الله تبارك وتعالى قد أنزل كتباً على أنبيائه ورسله ، فيها ما يلزم اتباعه من أحكام وأوامر ونواهي ووعد ووعيد لتبليغها الى الناس ، لتكون وقاية لهم من الزلل ، وعصمة من التردى في المهلكات ، وليسعد الانسان في دنياه وأخراه اذا تمسك بها وحافظ على حرفيتها : (فاما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى . ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى . قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً . قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى) .

وقال تعالى: (كان الناس أمة واحدةفبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه) . وقال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل) .

يجب على المرء أن يعتقد بأن الله تبارك وتعالى قد أنزل على أنبيائه ورسله صحفاً وكتبا ، أنزلها اما مكتوبة على الالواح ، أو مسموعة من وراء حجاب ، أو من ملك مشاهد .

وقد ذكر الامام الرازي في تفسيره : انه لانبي الا ومعه كتاب منزل ، فيه بيان الحق ، طال ذلك الكتاب أم قصر . ودون ذلك الكتاب أم لم يدون ، وكان ذلك الكتاب معجزاً أو لم يكن كذلك ، لأن كون الكتاب منزلا معهم لا يقتضي شيئاً من ذلك .

وليكون الكتاب المنزل هوالمرجع للناس مهما تعاقبت العصور، فيرجعون اليه في تحديد عقائد الدين وأسسه ومبادئه وغاياته بعد عصر النبي المنزل عليه . لصونهم من ضلالات ذوى الأهواء .

وبما أن الرسل بشر يعرض لهم الموت كما يعرض لسائر البشر ، لذلك فان وجود الكتب التي جاؤا بها يتضمن استمرار وجود أولئك الرسل ، ولولا استمرار كتب ثابتة بنصوصها لاسرعت دعواتهم الى التغيير والزوال .

وقد ذكر أن الصحف كانت مائة ، فصحف شيت خمسون ، وصحف أدريس ثلاثون وصحف ابراهيم عشرة ، وصحف موسى قبل التوراة عشرة: (قد أفلح من تزكى ، وذكر اسم ربه فصلى . بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى . ان هذا لفى الصحف الاولى صحف ابراهيم وموسى) .

وقد سأل أبو ذر جندب بن جنادة الغفارى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، ما كانت صحف ابراهيم ؟ قال : كانت أمثالا كلها ، وسأله عن صحف موسى فقال له : كانت عبراً كلها .

والكتب المدونة هي :

التوراة : وقد نزلت على موسى بن عمران عليه السلام . قال تعالى ، (انا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والاحبار بما استحفظوا من كتاب الله) .

والزبور : الذى أنزل على داود عليه السلام . قال تعالى : (وآتينا داود زبورا) .

والانجيل : الذى أنزل على عيسى بن مريم عليه السلام . قال تعالى : (وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين) .

وآخرها القرآن الكريم : الذى أنزل على سيدنا محمد عليه الصلاة

والسلام : قال تعالى : (نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه ، وأنزل التوراة والانجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان) •

الزبور

الزبور في اللغة : هو المكتوب ، وكل كتاب يسمى زبوراً • وقد جاء في القرآن الكريم : (وكل شيء فعلوه في الزبر) أى مسجل في كتب الملائكة ، ثم غلب على صحف داود •

ان زبور داود لم يأت بشرع جديد ناسخ لشرع موسى ، وانما كان عبارة عن مواعظ ، ترغيبا في المنافع ، وتنفيرا من الضار والقبائح ، ولم ينسخ أى حكم أو تكليف • كما يحتوى على مجموعة من الأناشيد والترانيم الدينية المشحونة بالمناجاة الربانية والتسابيح والأدعية والأذكار •

ولقد صدق القرآن الكريم ما أنزل على داود في الزبور ، الا أن هذا الزبور لم يسلم من التحريف والتغيير والتبديل من عمل اليهود ، كما فيه بعض المزامير المنسوبة الى سليمان وأخرى منسوبة الى آساف الذى كان رئيس المغنين في عهد داود ، كما فيه بعض المزامير المنسوبة الى موسى •

وقد ذكر ابن تيمية في كتابه (الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح) ما نصه وكذلك رأينا في الزبور نسخا متعددة يخالف بعضها بعضا مخالفة كثيرة في كثير من الالفاظ والمعاني يقطع من رآها أن كثيراً منها كذب على زبور داود ، وليست من زبور داود عليه السلام •

التــوراة

أما التوراة : وهو في الاصل الكتاب الذى أنزله الله تعالى على نبيــه موسى عليه السلام يتضمن الصحف التي أنزلت عليه ، والألواح التي جاء بها بعد مناجاته لربه ، وقد تحدث القرآن الكريم عن بعض ما جاء في التوراة من أحكام وشرائع •

أما التوراة الحالية فقد دخلها التحريف والتبــديل ، وقــد اختلط الصحيح بالموضوع وقد رأينا التحريف حتى في النسخ المطبوعة من هــذا الكتاب • لذلك لا يصح أن يوثق بها •

وقد قرر القرآن الكريم ان اليهود حرفوا ما أوحى به الله : (من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه •• ونسوا حظا مما ذكروا به) • في تحريفهم الالفاظ بالزيادة والنقصان والحذف والتقديم والتأخير وقد أيد ذلك القرآن الكريم (ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون) •

وروى ان النبي صلى الله عليه وسلم حين دخل المدينة دعا اليهود الى القرآن فكذبوه ، فنزل قول الله : (أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون) •

وتسمى التوراة بالعهد القديم ، يضاف اليها كل ما يدعون أنــه وصل اليهم بوساطة الانبياء الذين جاؤا بعد موسى •

وان الاسفار التي يدعى اليهود نسبتها لموسى عليه السلام هي خمسة، تسمى بالاخماس •

١ ـ سفر التكوين : ويتضمن خلق العالم ، وقصة خلق الانســان الاول • وقصة بعض الانبياء ومنهم يعقوب وأبناءه الاثنا عشر •

٢ ـ سفر الخروج ، ويحتوى على نشأة موسى في مصر ، وتاريـخ العبرانيين في مصر وخروجهم منها ، وانزال الوصايا العشر ، وما حدث من بنى اسرائيل في غيبة موسى •

٣ ـ سفر اللاويين (الأحبار) : ويحتوى على كثير من التشريعات والوصايا والأحكام •

٤ ـ سفر العدد : ويحتوى تاريخ العبرانيين أثناء التيه في صحراء سيناء حتى وصولهم الى أرض موآت •

٥ ـ سفر التثنية : ويتضمن تكراراً لبعض ما ورد مـن وصايـا وشرائع خاصة بالعبادات ومواعظ موسى لبني اسرائيل ، وانتخاب يوشـع بن نون خلفا لموسى •

وهذه الاسفار التي يؤمن بها لا بغيرها طائفة السامريين •

أما أسفار الأنبياء الاولين فهي ستة أسفار :

سفر يوشع بن نون ، وسفر القضاة ، وسفر صموئيل الاول ، وسفر صموئيل الثاني وسفر الملوك الاول ، وسفر الملوك الثاني •

أما أسفار الانبياء الآخرين فهي : أربعة عشر سفراً منسوبة لأشعيا وأرميا ، وحزقيال ، وكذا أسفار أخرى منسوبة لبعض رجالهم مما يطـول ذكرهـا •

وهذه الاسفار هي التي يعتمدها اليهود والكنيسة البروتستانتية ، أمـا الكنيسة الكاثوليكية فانها تضيف اليها سبعة أخرى هي :

طوبيا ، ويهوديت ، والحكمة ، ويسوع بن سـيراخ ، وباروخ ، والمكابيون الاول ، والمكابيون الثاني •

لقد ذكر مؤرخوا أهل الكتاب أن التوراة والزبور وسائر كتب العهد القديم التي كانت عند اليهود قبل بختنصر (نبوخذ نصر) ملك بابل، فقد فقدا ، حيث سباهم هذا الملك وأجلاهم عن فلسطين الى بابل ، وخرب بيت المقدس ، وذلك حوالي عام (٥٨٦ قبل الميلاد) ، ويزعم اليهود أن عزير الكاهن أعاد كتابتها بالالهام بعد أن سمح لهم (قورش) ملك الفرس الذى قهر البابليين بالعودة الى فلسطين بعد نحو خمسين سنة في المنفى ببابل •

كما أنه يوجد خلاف في نسخ التوراة الموجودة في أيدى اليهود ، فالنسخ المشهورة للتوراة عند اليهود ثلاثة :

الاولى :ـ النسخة العبرانية ، وهي المعتبرة عند اليهود وجمهور علماء البروتستانت •

والثانية :ـ النسخة اليونانية ، وهي التي كانت معتبرة عند المسيحيين الى القرن الخامس عشر الميلادي ، وكان المعتقد لديهم أن النسخة العبرانية محرفة •

والثالثة :ـ النسخة السامرية : وهي المعتبرة عند السامريين •

واليكم مثلا من الاختلاف فيما بينها • فقد نصت النسخة العبرانية على أن مقدار الزمن من خلق آدم الى طوفان نوح كان (١٦٥٦) سنة •

أما النسخة اليونانية فقد نصت على أنها كانت (١٢٦٢) سنة •

ونصت النسخة السامرية على أنها كانت (١٣٠٧) سنين •

واليكم مثلا آخر • فلقد نصت النسخة العبرية على أن الزمان من الطوفان الى ولادة ابراهيم كان (٢٩٢) سنة ، أما اليونانية فقد نصت على انه كان (١٠٧٢) سنة ، وقدرتها السامرية بـ (٩٤٢) سنة •

كما ان في التوراة أشياء لا يمكن التصديق بأنها من عند الله•من ذلك:

ان الله هو كالبشر يأكل ويصارع ويبكى وينتحب ، ويندم ويأتي أموراً شريرة ، واحيانا يغش ويكذب الى غير ذلك من الصفات المستحيلة عليه تعالى .

ثم نسبتها قبائح الى الانبياء عليهم السلام هم منها براء . فلقد نسبت الى ابراهيم عليه السلام الكذب والمتاجرة بزوجته سارة في مصر وارض جرار نظير غنم وبقر وغيرهما من الفانيات .

ثم نسبتها الى لوط عليه السلام الزنا بابنتيه ، وقد جاءنا منه بولدين هما أصل شعبى المؤابيين والعمونيين .

ونسبت الى داود عليه السلام الزنى بامرأة متزوجة وحملت منه فارسل زوجها ليحارب حتى قتل .

كما انها نسبت الى هارون عليه السلام عمل العجل الذى عبده اليهود بعد أن أمرهم بنزع ما لديهم من حلي ذهبية ، وبنى له مذبحا .

وقد عدت التوراة الحاضرة داود وسليمان مجرد ملكين ، كما عدت ابراهيم واسحاق ويعقوب مجرد أباء قدامى الانبياء .

الاناجيل

أما الاناجيل : فهي كما قيل : مصنفات تاريخية حول قصة حياة مريم وابنها المسيح عيسى ، وما جرى له منذ ولادته حتى نهاية حياته في الارض حسب معتقدات النصارى كما تتضمن أخبارا عن يحي عليه السلام (يوحنا المعمدانى) .

وقيل أن مصنفي هذه الاسفار الاربعة المنسوبة الى : متى ومرقص ولوقا ويوحنا قد أثبتوا فيها تاريخ مريم وعيسى ويحي وغير ذلك من

التواريخ ما بقي في ذاكرتهم ، أو ما بلغهم من الخبر في أزمان تصنيفها بعد رفع المسيح عليه السلام •

والحقيقة أن ليس شيء من هذه المصنفات بالانجيل الذى أنزله الله تعالى على عيسى عليه السلام ، وأمرنا في القرآن الكريم بالايمان به وتصديقه، كما أنه ليس شيء منها من املاء عيسى بشهادة مؤرخى المسيحية •

وقد وقع اختلاف فيما بين هذه الاناجيل بنقص أو زيادة أو تبديل ، بل تعدد هذه النسخ أقوى دليل على أن تلك الكتب ليست هي التي نزلت على عيسى عليه السلام •

لذلك أوجب الاسلام عدم الاعتقاد بهذه الكتب التي يطلق عليها العهد القديم والعهد الجديد ، على أنها كتب من عند الله تعالى مع أنها قد دخل على نصوصها التحريف والتبديل ، وقد نص القرآن الكريم على أن أهل الكتاب من يهود ونصارى يحرفون الكلم عن مواضعه ، وانهم نسوا حظاً مما ذكروا به •

ولقد اكتشفت مخطوطات قديمة ، محفوظة في احدى الحفر من هضبة بجوار البحر الميت ، وفيها ما يخالف الاناجيل المعتمدة لدى النصارى، بل انها توافق انجيل برنابا ، وقد قال القس الدكتور تشارلس فرنسيس بوتو في كتابه (السنون المفقودة من عيسى تكتشف) : لدينا الآن وثائق كافية تدل على حقيقة هبة الله الى البشر ، لأن كل ورقة تفتح من المخطوطات تأتي فيها اثباتات جديدة على أن عيسى كان كما قال عن نفسه (ابن الانسان) اكثر منه (ابن الله) ، كما ادعى عليه ذلك أتباعه وهو منه برىء • ثم يقول : ومن العسير العثور على كتاب في العهد القديم لا يحتاج الى تصحيحات تحت ضوء مخطوطات البحر الميت ، وكذلك ليس هناك كتاب في العهد الجديد لا يحتاج الى تفسير شامل للآيات

الاساسية التي تقوم عليها الشريعة • ثم يقول : ان انجيلا يدعى أنجيل برنابا استبعدته الكنيسة في عهدها الأول ، والمخطوطات التي اكتشفت حديثا في منطقة البحر الميت مؤيدة لهذا الانجيل •

وتقول موسوعة الدين والاخلاق الامريكية :

كتب الانجيل واعمال الرسل في العشر السنوات التي بين (٩٥و١٥) من الميلاد تقريبا ، ولسنا نبعد كثيراً عن الصواب اذا قلنا ان هذا التاريخ هو السنة المائة من الميلاد •

ثم قالت : ان انجيل مارك كتب بين سنتى (٦٥ و ٧٠) ميلادية •

وانجيل لوقا (والاعمال) كتب في سنة (١٠٠) ميلادية •

وانجيل متى كتب فيما بين سنتى (٨٠ و ١٠٠) ميلادية •

وانجيل بولص كتب بين سنتى (١٠٠ و ١١٠) بعد الميلاد •

وتذكر دائرة المعارف الفرنسية : ان التحقيقات العلمية والتاريخية تؤيد ان هذه الاناجيل كتبها أناس غير الحواريين والتلاميذ التابعين الذين تنسب اليهم •

اما الاسفار التي يعترف بها المسيحيون الآن فقد ظلت حوالي اربعة قرون موضع شك في صحة حقائقها وصحة نسبتها الى اصحابها •

القرآن الكريم

القرآن الكريم : هو كلام الله تبارك وتعالى المنزل على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، المكتوب في المصاحف والمنقول عنه نقلا متواترا •

هو الكتاب الذى أخرج للناس هدى لهم ، وتطهيراً لنفوسهم ،

وقواعد لقيام مجتمعهم ، وصلاح أمور دنياهم ومعادهم ، ويضرب الأمثال للحاضرين بالغابرين ، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويشتمل على أنواع من الأعمال كلف بها العباد ، ومشروعات لتكوين البيوت والأسر ، ومشروعات عن التشريع الاجتماعي الذى جعل الناس عائلة واحدة ، ومشروعات عن التشريع السياسي والحربي .

كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، أوحاه الله تعالى الى رسوله محمد صلى الله عليه وسلم بلسان عربي مبين ، ليبشر المتقين وينذر به قوما لدا ، خاطب به القلوب بالموعظة ، والعقول بالدليل ، ولفت النظر الى ما في الكون من آيات وعبر ، فانطلقت به الافكار من قيودها ، وتحركت بعد خمودها ، فاستبان الحق ووضع النهج وقامت الحجة وانزاحت الشبهة ، وهو المرجع حين يجد الخلاف ، والمعجزة الصريحة التي يعتز بها العقل ، ويصح للمسلمين أن يواجهوا بها العالم غير مترددين ليحملوه على الايمان به والخشوع لديه .

والقرآن كما قال عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم : كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ، ليس بالهزل ، من تركه عن خيار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلبس به الألسنة ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يخلق عن كثرة الترداد ، ولا تنقضي عجائبه .

هو الذى يتغير كل شيء وهو محفوظ ، وتدرس كل شريعة وشريعته قائمة الصوى والاعلام ، ولا تزال الأيام تمدنا بالحجة على أنه (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) .

هو كما قال عبدالله بن مسعود : اذا أردتم العلم فأثيروا القرآن فان فيه علم الأولين والآخرين •

وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن لا ينزل القرآن جملة واحدة بل منجماً مفرقاً ، فكانت آياته تنزل بحسب الوقائع والحوادث ومقتضيات الأحوال ، أو جواباً لاسئلة واستفتاءات ، وهذا ما يسهل حفظه على ما هو دون العادى من الحوافظ والملكات •

قال تعالى : (وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا) • وكان جبريل عليه السلام يلقى على النبي صلى الله عليه وسلم ما يلقى من الآيات فيطبع في قلبه صلى الله عليه وسلم انطباعا قسريا وينقدح في نفسه انقداحا لا يستطيع له ردا ، ولا تملك له تغييراً ولا تبديلا •

ثم ان نزوله جملة واحدة يفوت على المسلمين ذلك التشوف والترقب الذى هو أقوى الاسباب في سهولة حفظه عليهم ، ثم انه مرب للأمة في بلاغتها وبيانها ، فهو كل يوم يلقى عليها درساً جديداً في البلاغة والبيان • كما أنه يسهل التكاليف على المؤمنين •

فالقرآن الكريم كما قيل : أعظم المعجزات لكونه آية عقلية باقية مدى الدهر ، يشاهد كل حين بعين الفكر وسواه من المعجزات انقضت بانقضاء وقتها ، كما هو معجز في فصاحته وبلاغته ، حتى تحدى العرب وهم أفصح الأمم لساناً • وأوضحهم بلاغة وبيانا ، بأن يأتوا بمثل سورة من القرآن أو آية ، فعجزوا عن ذلك وتركوا المعارضة بالكلام الى المعارضة بالحسام • وقد أخبر عن أمور مغيبة فظهر كما أخبر ، كما أنه لا يمله السمع مهما تكرر • وجمع علوما لم تكن موجودة عند العرب والعجم الى غير ذلك من الأخبار •

وقد نزل القرآن الكريم في خلال ثلاث وعشرين سنة وخمسة أشهر ، قسم منه في مكة المكرمة ، ومدته اثنتا عشر سنة وخمسة أشهر وثلاثة عشر يوما ، من يوم ١٧ رمضان سنة ٤١ من ميلاده عليه الصلاة والسلام الى أول يوم من شهر ربيع الاول سنة ٥٤ من ميلاده ويسمى هذا القسم بالسور المكية أو المكي ، ومقدار ما نزل فيها (٨٦) سورة .

ونزل قسم آخر بالمدينة ، وذلك بعد الهجرة ويسمى هذا القسم بالسور المدنية أو المدنى ، ومقدار ما نزل فيها (٢٨) سورة ، فتكون السور (١١٤) سورة . وعدد آياتها (٦٢١٧) آية على قول نافع ، وعدد كلمات القرآن (٧٧٩٣٤) كلمة .

أما طريقة جمعه : فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم عندما ينزل عليه الوحي وهو بين أصحابه يتلو عليهم ما نزل عليه لساعته ، واذا نزل عليه في غير محضر القوم خرج اليهم فتلقوه منه وحفظوه عنه ، ثم يأمر كتاب وحيه بكتابة ما ينزل بين يديه من الآيات في جرائد النخل والاكتاف.

وترتب الآيات حسب ارشاده صلى الله عليه وسلم الى مواضعها .

قال مالك بن أنس رضي الله عنه : انما ألف القرآن على ماكانوا يسمعونه من رسول الله . ثم اتساق السور كاتساق الآيات والحروف ، فكله عن محمد خاتم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه . وقد كان يقول : ضعوا هذه السورة موضع كذا وكذا من القرآن ، وكان جبريل عليه السلام يقفه على مكان الآيات .

والمصاحف التي عرضت على النبي صلى الله عليه وسلم في حياته وقرأت عليه : ثلاث : مصحف عبدالله بن مسعود ، ومصحف أبي بن كعب ، ومصحف زيد بن ثابت ، وهو آخرها عرضا على النبي صلى الله عليه وسلم ، اذ كان في سنة وفاته وبقراءته كان يقرأ عليه الصلاة والسلام، ولذلك اختاره المسلمون .

وقد جمع القرآن على عهد النبي صلى الله عليه وسلم غير من ذكرنا : عثمان بن عفان وتميم الدارى ، وعبادة بن الصامت ، وعبدالله عمرو بن العاص ، ومعاذ بن جبل ، وأبو زيد سعد بن عبيد الأوسي الأنصارى .

قال أبو عبدالرحمن يزيد بن ثعلبة الانصارى : قرأ زيد بن ثابت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في العام الذى توفاه الله مرتين ، وانما سميت هذه القراءة قراءة زيد بن ثابت لأنه كتبها لرسول الله وقرأها عليه وشهد العرضة الأخيرة ، وكان يقرأ الناس بها حتى مات ، ولذلك اعتمدها أبو بكر وعمر عند جمعه ، وولاه عثمان كتابة المصاحف .

فالجمع الأول[1] : كان جمع الآيات حين نزولها في الكتف وأمثاله مما كانت العرب تكتب عليه وعرضها على النبي صلى الله عليه وسلم .

والجمع الثاني : في عهد الخليفة أبي بكر رضي الله عنه ، كان جمع القرآن بين لوحين ، ونسخهما في قطع الأديم .

والجمع الثالث : في عهد عثمان رضي الله عنه ، كان جمع المسلمين على قراءة واحدة .

الايمان بالرسل

أما الرابع من مستلزمات الايمان هو الايمان بأن لله رسلا اختارهم واجتباهم من بين خلقه ليكونوا سفراء بينه وبين خلقه . مبشرين ومنذرين، لاحتياج الناس في كل زمان ومكان الى من يرشدهم الى طريق الصلاح والاصلاح ، ومن يفرق لهم بين الضار والنافع ، ومن يأخذ بأيدي الافراد والجماعات الى سبيل السعادة التي هي المقصد الاسمي والمطلب الأعلى للناس أجمعين .

(١) تاريخ القرآن .

والنبوة : اختصاص العبد لسماع وحي من الله تعالى بحكم شرعي تكليفي سواء أمر بتبليغه أولا ، وسواء بواسطة ملك أو بالهام ما يشاء من أحكام وغيرها • أو رؤيا منامية يأمره الله بأمر أو خبر ، ويكون ذلك وحيا صادقا لا شك فيه • من ذلك ما رآه ابراهيم في نومه من ذبح ولده اسماعيل ، وما روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا رأى رؤيا جاءت كفلق الصبح •

أو يكلمه الله من وراء حجاب ، كما وقع لموسى ، حيث أن الله تعالى خلق له قوة ادراك كلامه وأفهمه اياه بالوسائل التي أرادها ، لأن الله تعالى منزه عن الكلام اللفظي المشتمل على الحروف والأصوات •

أما الرسالة : فهي اختصاص العبد بسماع وحي من الله تعالى بحكم شرعي تكليفي أمر بتبليغه لعباده لطف منه ورحمة •

وليست الرسالة أو النبوه مكتسبة برياضات أو مجاهدات ، بل هي هبة وفضل من الله تعالى : (الله أعلم حيث يجعل رسالته) •

والرسول هو انسان حر ذكر عاقل بالغ بعثه الله تعالى الى عبيده ليبلغهم عنه أحكامه التكليفية والوضعية : (هو الذى بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة) •

فالرسل : هم الذين تكملت نفوسهم بنفائس الفضيلة ، وصينت من كدورات الرذيلة ، وشرفت سجاياهم رفعة وسناء • هم الذين لهم في قلوب المؤمنين جلالة الحرمة وخلود الكرامة ، لاتدانيها مكانة انسان لما أعطاهم الله من مواهب التكمل والاعتصام عن زلات الغواية ، واعتصاماً لا يدركه آدمى سواهم •

لقد اصطفاهم الله لتلقي وحيه السماوى ورسالته الى خلقه بالدين الصحيح وتأسيس حياتهم على أصوله الثابتة ، وتهذيبهم على التدرج في ترتب أزمانهم •

لا يجد المرء بتقصي سيرتهم أثارة من كذب ، ولا تهب حولهم من شوائب الخيانة رائحة ، وما ستروا شيئاً من وحي أمروا بتبليغه ، وما ضعفت عقولهم عن الفهم الثاقب والحجة الناصعة والرأى السديد .

لقد اختار الله تعالى هذا الانسان ، وجعله وذريته خلفاءه في الارض ، ووهبه أسمى الملكات التي رفعته الى مرتبة الكرامة والشرف ، واختصه بالعقل دون سائر مخلوقاته ليتمكن من القيام بواجباته ، ويميز بين الحق والباطل ، والضار والنافع .

ولما كانت العقول البشرية قاصرة متفاوتة ، لا تستطيع وحدها الوقوف على هذه الواجبات وادراك تلك الكمالات ، ومعرفة محاسن الأمور وقبائحها ، ولا يعلم ذلك الا الله وحده ، لذلك جعل صلة بينه وبين عباده ، فاختار في كل عصر ولكل أمة رسولا في أرقى درجات الكمال وخصه بمزايا سامية ، ومنحه كل وسائل الارشاد .

ان الانسان في هذا العالم مع ما وهب من القوى الفكرية التي تسمح له أن يجوب اسمى المعاني ، عاجز عن بلوغ أغراضه الا اذا استعان بالقوى الخفية التي تدير أمور العالم ، وأن أكثرية الناس تهوى الى أحط مراتب الانسانية وتسير الى الشقاء ، وتلقى بنفسها في المهالك كما يلقى الفراش بنفسه في النار ، لأن النفوس تميل الى الشهوات وتجترىء في سبيلها على كل حق ، ولا يردعها العقل ، بل ينطفىء نوره وتخبوا جذوته الا اذا حفته العناية الآلهية .

ان الناس قلما يستجيبون لدعوة الحق اذا عارضت شهواتهم وأهواءهم، ما لم يخشوا العقوبة ، أو يرغبوا في المثوبة ، لذلك جاءت الشرائع موضحة لتلك التعاليم التي فيها الترغيب والترهيب ، مبلغة من قبل الرسل المؤيدين من عند الله بالمعجزات المتصلين بالوحي ، والذين لولاهم لبقي الناس

موغلين في متاهات الضلال : (ولقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط) .

وكان من تمام رحمة الله بعباده أن جعل الرسل من جنسهم وبشراً مثلهم ، ليمكن اتصالهم بهم : (لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين) . ليبين للناس وجه الاحسان ويعلمهم شريعة الحق ، ونظام الحياة السعيدة ، ويشرع لهم الدستور الذى يسيرون عليه ، لينالوا خيرى الدنيا والأخرى ، ويقرب لهم ما استعصى عليهم فهمه .

والخلق محتاجون لقانون التعبد الذى يسمو بالروح الى أوج الصفاء واستجلاء أنوار القدس ، ولا يصدر ذلك القانون الا بتبليغ منه ليكون في اتباعه رضاه .

هذا والناس بحكم الموت والحياة يتطلعون الى معرفة شيء عن العالم الآخر . ومحتاجون الى من يرغبهم فيه بالعمل الصالح ، ويخوفهم أيام الله حتى يتقوها ، وهم بحكم الغريزة الفطرية يتشوقون من يأنسون فيه معرفة الغيب ، ويطمئنون الى صدق تعزيته لهم عن ترك هذا العالم الفاني ، فينتظرون ما أعد لهم في عالم الآخرة من جزيل الأجر والثواب : (وما نرسل المرسلين الا مبشرين ومنذرين ، ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق ، واتخذوا آياتي وما أنذروا هزوا) .

لقد اصطفى الله تبارك وتعالى من عباده أفرادا لأداء هذه المهمة ، اختارهم من أصفى عباده سريرة ، وأكملهم خلقا ، وأعد لهم حكما ، وأطيبهم نفسا ، وأزكاهم روحاً ليكونوا مبلغى رسالاته لخلقه ، ومقيمي أمر دينه .

وانما خص الله الرسول بهذه المزايا والفضائل ، ليقوى على الاضطلاع بأعباء الرسالة ، وليكون مثالا يقتدى به .

ولا يمكن أن يكون لهؤلاء الرسل الشأن العظيم في أعين الناس الا اذا أيدهم الله بالآيات البينات ، والمعجزات الباهرات ، تمييزاً لهم عن غيرهم من المجتهدين ، أو الأدعياء الذين يتطاولون على شرف الرسالة بغير سلطان أتاهم •

ولما كان شرف الرسول من شرف مرسله ، كان لمقام الرسالة خطره ، فهو ليس كأحد من الناس ، بل هو رسول رب العالمين ، من لم يؤمن به فقد كفر وجحد من أرسله ، ومن كذب بما جاء به فقد افترى على الله •

والأنبياء معصومون عن ارتكاب الذنوب ، مبرؤن من العيوب ، الا أنهم يتعرضون لما يتعرض له غيرهم من الصحة والمرض والقوة والضعف واللذة والألم والحياة والموت • الا أن ما ينزل بهم لايعرضهم لتنفير الناس منهم •

والايمان بهم يستلزم اعتقاد صدقهم فيما يقولون وفيما يبلغون ، ويستحيل عليهم الكذب ، لأنه تعالى يقول : (ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين • ثم لقطعنا منه الوتين • فما منكم من أحد عنه حاجزين) •

ويجب في حقهم الأمانة في جميع ما يقولون وما يفعلون ، وحفظ الجوارح من التلبس بمنهي عنه نهي تحريم أو كراهة أو خلاف الأولى ، لأن أفعالهم دائرة بين الواجب والمندوب • ويستحيل عليهم الخيانة ، أو فعل منهى ولو كراهة أو سهوا ، لأنهم معصومون ، ولو أتوا بمعصية لكانت أممهم مأمورة بارتكاب المعاصي لاتباعهم ، وهذا مستحيل في حقهم •

كما يجب في حقهم التفطن والتيقض لالزام الخصوم وابطال دعاويهم الباطلة بحدة العقل وذكائه ، ولذلك يستحيل في حقهم الغفلة والبلادة والبله ، لأنها من صفات النقص التي تخل بمقامهم الشريف ،

لأنهم لو انتفت عنهم الفطنة والتيقض لعجزوا عن اقامة الحجة وذلك باطل •

والرسل لا يعلم عددهم الا من أرسلهم كما قال تعالى لرسوله الكريم: (ولقد أرسلنا رسلا من قبلك ، منهم من قصصنا عليك ، ومنهم من لم نقصص عليك) •

لذلك يجب علينا أن نعرف الأنبياء اجمالا ، وقد عرفنا منهم خمسة وعشرين ورد ذكرهم في القرآن الكريم •

الايمان باليوم الآخر

وأما الخامس من مستلزمات الايمان هو الايمان باليوم الآخر ، الذى هو يوم القيامة ، والايمان بما فيه من البعث والحساب وتطاير الصحف والميزان ، ودخول الجنة بفضل الله • ودخول العصاة النار بالعدل ، الى غير ذلك مما وردت به النصوص القاطعة •

وقد يطلق عليه يوم البعث : (وقال الذين أوتوا العلم والايمان لقد لبثتم في كتاب الله الى يوم البعث ، فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون)• وهو عودة الروح الى الاجساد وصعق المخلوقات بالنفخة الأولى ، واعادة النفخة الثانية ، ونفخها في الاجساد •

ويسمى يو القيامة : (ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة) •

ويسمى الساعة : (اقتربت الساعة وانشق القمر) •

ويسمى الآخرة : (بل تؤثرون الحياة الدنيا ، والآخرة خير وأبقى)•

ويسمى يوم الدين : (مالك يوم الدين) •

ويسمى يوم الحساب : (اني عذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب) •

ويسمى يوم الفتح : (قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا ايمانهم ولا هم ينظرون) •

ويسمى يوم التلاق : (رفيع الدرجات ذو العريش يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق ، يوم هم بارزون) •

ويسمى يوم الجمع والتغابن : (يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن) •

ويسمى يوم الخلود : (أدخلوها بسلام ذلك يوم الخلود) •

ويسمى يوم الخروج : (يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج) •

ويسمى يوم الحسرة : (وأنذرهم يوم الحسرة اذ قضي الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون) •

ويسمى يوم التناد : (ويا قوم اني أخاف عليكم يوم التناد) •

ويسمى يوم الآزفة : (أزفت الآزفة ليس لها من دون الله كاشفة) •

ويسمى الطامة : (فاذا جاءت الطامة الكبرى • يوم يتذكر الانسان ما سعى) •

ويسمى الحاقة : (ألحاقة ما الحاقة • وما أدراك ما الحاقة) •

ويسمى الغاشية : (هل أتاك حديث الغاشية) •

ويسمى الواقعة : (اذا وقعت الواقعة • ليس لوقعتها كاذبة • خافظة رافعة) •

ويسمى الصاخة : (فاذا جاءت الصاخة • يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه • لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه) •

ان القرآن الكريم يلفت الانظار الى ان الله لم يخلق الانسان من غير هدف عال ، ولا غاية سامية ، لأن ذلك يتنافى مع كماله الأقدس وحكمته العليا •

ان الله تعالى لم يخلق الانسان بيده ، وينفخ فيه من روحه ، ويفضله على ملائكته ، ويسخر له ما في السموات وما في الارض ويجعله سيد هذا الكوكب الأرضي دون غاية أو غرض ، فان ذلك عبث يتنزه الله عنه : (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم الينا لا ترجعون) •

ان الله تبارك وتعالى الذى أبدع خلق هذا العالم على اكمل نظام ، وأعطى كل نوع كماله الذى يناسبه ، فلا يعقل أن يتركه لأفراد من الناس يتطاحنون ويتظالمون ، ويقهر بعضهم بعضا بلا رادع ولا وازع ، ثم يمضون هكذا لسبيلهم بدون أن يقتص لبعضهم من بعض ، ان الفطرة لتجزم بأن المخالف والمستهتر لا يمكن أن يمرق من العقاب ، وبهذا وردت الشرائع السماوية وعليها درجت جميع الأمم والأقوام •

ان للانسان رسالة هي الخلافة عن الله في الأرض ، وقد كلف بالقيام بواجبات هذه الخلافة ، وهو مسؤول عنها أمام الله ، لذلك وضعت الشرائع التي تحد من غلوائه واندفاعه وراء شهواته وأثرته ، كما وضعت النظم لتصرفاته تجاه نفسه ومجتمعه ووطنه ، وأنه سيحاكم أمام حاكم عادل لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها •

ان الايمان باليوم الآخر يجعل لحياتنا غاية سامية ، وهدفا أعلى ، وهذه الغاية هي فعل الخيرات ، وترك المنكرات ، والتحلى بالفضائل ، والتخلي عن الرذائل ، الضارة بالأبدان والأديان ، والأعراض والعقول والأموال •

وهذا كله لا يقوى الا بالوازع النفسي ، ولا يقوى الوازع الا بكثرة

التذكير ، والتفنن بالتصوير ، وضرب الأمثال المتنوعة ، حتى تعمق جذوره ويقوى تأثيره ويحقق الغاية منه ، فيرجع المنكر عن انكاره ، ويصحح المخطىء خطأه ، ويحدد الانسان هدفه الأعلى كي لا يضل الطريق أتتعثر
المخطىء خطأه ، ويحدد الانسان هدفه الأعلى كي لا يضل الطريق تتعثر

والبعث من القبور يوم القيامة ثابت بالكتاب والسنة ولا مجال للشك فيه • وانكاره كفر ، كما أن العقل دال عليه فضلا عـن النقل ، لأن الله خلق الانسان وخلق له عقلا يميزه عن الحيوان وكلفه على أن يسير على سنن الهدى والرشاد • وكل عمل لابد له من نتيجة وثمرة منتظرة ، ولا بد من الثواب والعقاب على الاعمال ليس في الدنيا فقط بل في الآخرة •

قال العلامة الشيخ وسف الدجوى في بحث له عن البعث ما ملخصه :

الانسان من أعجب الكائنات وأغرب المخلوقات جمع بين المتضادات ، واستعد لاكبر السعادات وأعظم الشقاوات ، لأن فيه قابلية لاتحد ، وجهات ضعف وقوة لا تعد ، أما قوته فأنت غني عنها وممتلىء منها ، وأما ضعفه فمن وجوه كثيرة ، فمنها :ـ

أنه متى ألف شيئا الفاً تاماً ، واعتاده اعتياداً متكرراً لم يكد يقبل غيره ، أو يصدق بشىء سواه ، ولو كان من أوضح الواضحات ، أو أول المبرهنات ، فانه لا يستمد الا من مألوفه ، ولا يرجع الا الى معروفه ، وما عدا ذلك فهو عنده خيال أو محال ، ثم يأخذ وهمه في الاستدلال عليه ، ولكل قوم أدلة يقتنعون بها • ويعتمدون عليها ، لأنها تناسب حالهم وان كانت من عمل الشيطان ، وعلى نقيض البرهان • ومن ذلك ما قاله المشركون في رد التوحيد : (اجعل الآلهة الاهاً واحداً ان هذا لشيء عجاب) • وفي النبوة : (أبشراً منا واحداً نتبعه انا لفى ضلال وسعر • أألقي الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر) ، الى غير ذلك من الأدلة الفاسدة ، والأقيسة الكاسدة •

والنفس الانسانية مستعدة لكل ما ينقش فيها خيراً كان أو شـــرا ، والغذاء المعنوى بمنزلة الغذاء الحسي ، لابد أن يؤثر أثره في صاحبه ضاراً كان أو نافعاً ، حتى اذا تمكنت تلك النفوس وأصبحت راسخة فيها ، تعسر زوالها وربما تعذر • الى أن يقول :

اني أعجب ولا أخفي عليك ممن ينكر البعث وهو فيما أراه أوضح الواضحات • فأن البعث ليس الا خلقاً جديداً ليس بينه وبين الخلق الأول الذي نشاهده كل وقت وكل ساعة أدتي فرق يصح أن يكون شبهة للمنكر أو تكأة للمرتاب •

ان القادر على أن يخلق من النطفة وهي فضلة من الفضلات انســاناً عاقلا مفكراً مديراً فصيحا بليغا مخترعا متفننا عالماً فيلسوفاً الى آخره ، كيف يعجزه أن يعيد أجزاءه الى ما كانت عليه ثم ينفخ فيها الروح مرة أخرى ، ولعلها مهيأة للخلق أقرب اليه مما كانت : (أيحسب الانسان أن يترك سدىء ألم يك نطفة من مني يمنى • ثم كان علقة فخلق فسوى • فجعل منــه الزوجين الذكر والأنثى • أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى) •

وانا نرى القرآن يعجب من انكارهم البعث اشارة الى أنه في غايـــة الجلاء ونهاية الوضوح فيقول (وان تعجب فعجب قولهم أئذا كنا ترابـــاً أئنا لفي خلق جديد) • وما ابدع ما قال الله تعالى في الاستدلال على البعث : (يا أيها الناس ان كنتم في ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم مـــن نطفة ثم من علقة) الى أن قال : (ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم) • ثم قال في آخر هذه الآيات مشيراً الى دليل آخر : (وترى الارض هامدة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وانبتت من كل زوج بهيج) • ثم ذكر النتيجة بعد تلك الادلة الواضحات فقال : (ذلك بان الله هو الحق وأنــه يحيى الموتى وأنه على كل شيء قدير) •

ومن الغريب أن بعض أهل الجاهلية كان يرى البعث حقا ويستدل عليه عقلا فيقول : ان هذه الدار ممتلئة ، ظلما وجوراً ، فلا بد من دار يقام فيها العدل ويقتص فيها من الظالم للمظلوم ، وهذا هو مقتضى قواعد المعتزلة الذين وسموا أنفسهم بأهل العدل والتوحيد ، فلا يجوزون عدم البعث عقلا ، ولعلنا نجد في كتاب الله تعالى ما يشير الى ذلك مثل قوله تعالى : (أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الارض أم نجعل المتقين كالفجار) فان عدم التسوية بينهما في الآخرة لا في الدنيا .

ولو لم يكن هناك بعث لكان الانسان أحسن من الحيوان الذى لايحزن ولا يخاف ولا يترقب الحوادث .

ومن طريف ما يذكر أن بعض الأكابر جاءه ملحد ينكر البعث ، فلم يطل معه الجدال ، ولا أكثر له القيل والقال ، بل عدل عن كل ذلك وجاء من ناحية أخرى لعلها أعظم أثراً في وجدانه ، وأقرب سبيلا الى ايمانه ، فقال : ان كان عدم البعث حقا نجوت أنا وأنت ، والا نجوت وهلكت أنت. ومن ذلك قول القائل :

قال المنجم والطبيب كلاهما — لا تبعث الأموات قلت اليكما
ان صح قولكما فلست بخاسر — أو صح قولى فالخسار عليكما

ولقد ادعى البعض بأن البعث لا يكون بالروح والجسم ، بل بالروح وحدها لأنها هي المدركة والمحسة بالذائذ والآلام ، أما الجسد بدون روح فهو جماد لا احساس له ، ولما كانت الروح هي المحسة المخاطبة ، فلتكن هي المثابة والمعاقبة .

وقد رد على هذا بأن العقل يحكم بأن الجزاء من جنس العمل ، وكمال العدل يقتضى أن من عمل عملا من جنس فحقه أن يستوفى أجره من ذلك الجنس .

وقد جاءت التكاليف الشرعية على نوعين :

نوع منها يرجع الى النفس بدون مدخلية الجسم والجوارح ، وذلك كالايمان وهو أصل التكاليف ، ولتطهير النفس من رذائل الاخلاق الممقوتة كالحسد والكبر وبغض الناس واضمار الحقد عليهم .

ونوع يرجع الى النفس بواسطة الجسم والجوارح، كالصلاة والصيام والحج والجهاد وأمثالها ، وكالكف عن الزنى والقتل وأكل مال الغير ظلماً وأشباهها . فحين تحكم النظر العقلي ، وترجع الى ما يسمونه بالآراء الفلسفية ألا ترى أن من العدل ومما يقضيه العقل أن يستوفى المكلف جزاءه من الجنسين ، النفسي المحض ، والنفسي الآتي من طريق الجسم . فالمنعم والمعذب في الحقيقة هو النفس ، وان لها نوعين من النعيم والعذاب ، نفسي وجسدي ، وان احساسها بكل واحد منهما يغاير احساسها بالآخر ، وأنها كلفت تكليفين ، جسدى وروحي ، ولا يسد أحدهما مسد الآخر ، حتى لا يجزى الايمان عن الأعمال ولا الأعمال عن الايمان ، وان قضية الجزاء الأوفى أن لا يهمل نصيب أحد النوعين ، ويستوفى نصيب النوع الآخر .

وقد ذكر بعض عقائد القبائل في أفريقيا وأمريكا في الآخرة ، فمنها من يعتقد بأن الارواح الخالدة هي أرواح الرؤساء فقط ، وأما الآخرون فتتلاشي أرواحهم ، ويعتقد آخرون بأن لا خلود الا للشجعان وذلك مكافأة لشجاعتهم .

ومنهم من يعتقد بأن لاحياة أخرى الا لمن يموت موتا طبيعيا ، أما من عداهم فلا أمل في بقائهم في عالم بعد هذا العالم .

ومنهم من يضحون مع الميت نساءه وعبيده وبعض خاصة أصحابه ليأنس بهم في الآخرة .

وفي المكسيك من أمريكا كانوا يذبحون مع كبيرهم كاهنا ليقوم لــه بالخدمة الدينية في العالم الآخر • وبعضهم يقتلون من كان يتلهى بهــم الملك ليتلهى بهم في عالم الآخرة •

وهنود فيرابار ، متى أشرف السيد لديهم على الموت يعمــدون الى قتل جميع عبيده ليهيئوا له محلا في عالم الآخرة •

ومتى مات ملك البيرو أخذ نساؤه يتدافعن للحاق به وكذلك فــي الكونغو وداهومي •

القضــاء والقــدر

أما السادس من مستلزمات الايمان فهو الايمان بالقضاء والقدر •

لقد ورد للقضاء والقدر معاني كثيرة في القرآن الكريم • منها :

الحكم : كقول الله تعالى : (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما) • قضيت أى حكمت •

ومنها الأمر : كقوله تعالى : (وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه) أى أمــر •

ومنها الاخبار والاعلام : كقوله تعالى : (وقضينا الى بنى اسرائيــل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين) • أى أخبرناهم وأعلمناهم •

ومنها الارادة : كقول الله تعالى : (اذا قضى أمراً فانما يقول له كن فيكون) أي اذا أراد ايجاد أمر تعلق قدرته به •

ومنها الايجاد والابداع : كقولهتعالى : (فقضاهن سبع سموات في يومين) • أى خلقهن على وجه الابداع والاتقان •

وأما القدر فقد وردت له ثلاثة معاني :

الأول : العلم المحيط بمقادير الأشياء وجميع أحوالها التي تكـون عليهـا .

الثاني : الشيء المقدر الصادر عن فاعله كما علمه .

الثالث : الترتيب والحد الذى ينتهى اليه الشيء . قال تعالى : (وقدر فيها أقواتها) . أي رتب أقواتها وحدودها .

وقد ولدت للعلماء تعاريف كثيرة للقضاء والقدر ، فقد قال الأشاعرة: قضاء الله تعالى هو ارادته الأزلية المتعلقة في الأزل بجميع الأشياء خيرهـا وشرها على ما هي عليه فيما لا يزال .

والقدر : ايجاد الله تعالى لجميع الأشياء خيرها وشرها عـلى قـدر مخصوص وتقدير معين في ذواتها وأحوالها طبقاً للارادة .

وهذا البيان يقضي بأن القضاء هو الارادة باعتبار تعلقها التنجيـزى القديم بالكائنات فيكون قديما ، وان القدر من صفات الأفعال فيكون حادثاً.

وقالت الماتريدية : القضاء هو ايجاد الله تعالى للاشياء مع الاحكـام والاتقان على الوجه الاكمل .

والقدر : علمه تعالى أزلا بما تكون عليه المخلوقات فيما لا يـزال . وعلى هذا يكون القضاء حادثاً ، لأنه راجع الى صفات الأفعال ، ويكون القدر قديماً ، لأنه راجع الى صفة العلم .

وقد ذكر في التعليق على هذا : ان المعنى الذى ذكره الاشعرى للقضاء وهو الارادة باعتبار تعلقها التنجيزى في الأزل يحتاج الى بيان يدل عـلى وضعه له لغة أو عرفا .

وأما القدر : فتفسيره بايجاد كما قال الأشعري ، أو خروج الأشياء الى الوجود .

اما تفسير الماتريدية للقضاء : فهو الايجاد على وجه الاحكام والاتقان ٠ وتفسير القدر بعلمه تعالى وهو موافق للغة ، فهو أجدر الاقـوال بالقبـول ٠

ان علم الله تبارك وتعالى شامل محيط بما كان وما سيكون ، وبمـا ظهر وبما استتر ، لأنه تعالى هو الخالق الذى أكمل الموجودات فلا بد أن يكون علمه بها أدق وأكمل من أي علم ، عليم بما يحدث في ملكه علمـا سابقا للاحداث والوقائع ، فلا يقع في ملكه حدث الا موافقاً لارادته ٠

فالقضاء : الحكم والارادة والقدر : التقدير والترتيب والتنظيم وان المراد من أن كل شي بقضاء الله وقدره ، أنه يوجد مطابقا لحكمه وارادته وترتيبه الأزلى على النحو الذى علمه وأراده : (وعنده مفاتـح الغيـب لا يعلمها الا هو ، ويعلم ما في البر والبحر ، وما تسقط من ورقة الا يعلمها، ولا حبة في ظلمات الارض ولا رطب ولا يابس الا في كتاب مبين) ٠ وقال تعالى : (انا نحن نحي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه في امام مبين) ٠

قال أحد الافاضل : قد وردت أحاديث متعددة تتضمن أن من شعب الايمان التصديق بالقضاء والقدر ، ويكون معنى الايمان بأن الله محكم في ايجاده ، عالم بما يقع وذلك لأتنا في الأخذ بالأسباب ، فان الله تعالى عالـم أزلا بالمسببات وأسبابها ، وارتباط كل مسبب بسببه وترتبه عليه ، عالم بأن العبد مختار في مباشرته ، فيعلم أزلا أن فلانا يؤمن ويعمل صالحا بطوعـه واختياره فيدخل الجنة ٠

فالايمان بالقضاء والقدر لا ينافي الأخذ بالأسباب ، ولا مؤاخذة العبـد بما كسب ، لأن الايمان بهما لم يتعد التصديق بأن الله تعالى علم الاشـياء

على ما هي عليه فيما لا يزال ، وقد علم أزلا أني أباشر الأسباب باختياري ، وأن لي عملا أحاسب عليه •

وقد جاء في القرآن الكريم المطالبة بمباشرة الأسباب • قال تعالى : (فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه) وقال تعالى : (فاذا قضيت الصلاة فانتشروا في الارض وابتغوا من فضل الله) •

قال العلامة الشيخ يوسف الدجوى في بحثه عن القضاء والقدر ما ملخصه :

القضاء : في رأى حكماء الاسلام ، هو عبارة عن وجود الأشياء على الوجه الأكمل في علمه تعالى على وجه كلي •

والقدر : ايجاد تلك الأشياء في عالم الظهور على وجه تفصيلي يوافق القضاء السابق ، وان العلم لا علاقة له بالجبر والاختيار • فاني اذا علمت بأى وسيلة من وسائل العلم أنك تسافر غداً وكان ذلك علما حقا لم يكن له تدخل في سفرك الذى سيقع بمحض ارادتك واختيارك ، والعلم ليس من صفات التأثير ، وتخلف المعلوم أو عدم تخلفه ليس مبنياً على كون العلم مؤثراً • بل على كونه صحيحا أو غير صحيح • وان من الجلي أن العلم لا أثر له في المعلوم • وان المعلوم يوجد بأسبابه وسلسلة علله لا بعلم العالم أو جهل الجاهل •

والخلاصة أن الله تعالى قبل أن يخلقك يعلم أنك ستكون مريداً مختاراً ، لأنك انسان لا جماد – بل الحيوان الأعجم له ارادة واختيار أيضاً – ويعلم بالضرورة ما تختاره بمحض ارادتك وما ستصرف اليه عزمك من خير أو شر • وقد اقتضت حكمته أن يمنحك اياها ، ثم يجازيك بعد ذلك على ما كان منك ، ولولا ذلك لم يكن هناك معنى للحرية والاختيار ، ولا للتكليف والثواب والعقاب •

لقد كان الكفرة يدفعون دعوة الأنبياء لهم ـ لترك ما هم عليه من ضلال ـ بأن كل ما هو كائن انما هو بمشيئة الله ، واذا شاء الله منا ذلك لكنا عاجزين عن تركه ، فكيف نومر بتركه • ولقد ساق القرآن الكريم حجتهم ، ورد عليهم بقوله : (سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء ، كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا ، قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ، ان تتبعون الا الظن وان أنتم الا تخرصون • قل فلله الحجة البالغة ، فلو شاء لهداكم أجمعين) •

وقد قال المفسرون عند تفسيرهم لهذه الآية : ان حجة هؤلاء المشركين داحضة ، بل الحجة البالغة لله من وجهين :

الاول : أنه تعالى أعطاكم عقولا كاملة ، وأفهاما واقية ، وآذاناً سامعة، وعيونا ناظرة ، وأقدركم على الخير والشر ، فان شئتم ذهبتم الى عمل الخير ، وان شئتم ذهبتم الى المعاصي والمنكرات ، أي ذهبتم الى اكتسابها لا الى ايجادها ، فان المراد قدرة الكسب لا الايجاد • وهذه القدرة الممكنة معلومة الثبوت بالضرورة ، وكذا زوال الموانع والعوائق معلوم كذلك ، واذا كان الامر كذلك كان ادعاؤكم أنكم عاجزون عن الايمان والطاعة دعوى باطلة • فثبت بما ذكرنا أنه ليس لكم على الله حجة بل لله الحجة البالغة عليكم •

والوجه الثاني : أنكم تقولون ، لو كانت أفعالنا واقعة على خلاف مشيئة الله تعالى لكنا قد غلبنا الله وقهرناه وأتينا بالفعل على مضادته ومخالفته، وذلك يوجب كونه عاجزاً ضعيفا ، وذلك يقدح في كونه الها ، فأجاب تعالى عنه ، بأن العجز والضعف انما يلزم اذا لم يكن قادراً على حملهم على الايمان والطاعة على سبيل القهر والالجاء ، لأن ذلك يبطل الحكمة المطلقة من التكليف •

واحتج أهل السنة بقول الله تعالى : (ولو شاء لهداكم أجمعين) ، على أن الكل بمشيئة الله تعالى ، لأن كلمة (لو) في اللغة تفيد انتفاء الشيء لانتفاء غيره ، بحيث اذا دخلت على فعل مثبت نفته ، فيقتضي ذلك أن الله تعالى لما قال : (فلو شاء) لم يكن الواقع أنه شاء هدايتهم ، ولو شاءها لوقعت ، فهذا تصريح ببطلان زعمهم ومحل عقدهم .

ان هذه الآية جامعة لعقيدة أهل السنة منطبقة عليها ، فأن أولها يثبت للعبد اختياراً وقدرة على وجه يقطع حجته وعذره في المخالفة والعصيان ، وآخرها يثبت نفوذ مشيئة الله في العبد ، وان جميع أفعاله على وفق المشيئة الآلهية خيراً أو غيره .

ان الله تعالى الذى أوجب علينا الايمان بالقضاء والقدر ، أوجب علينا أن نعمل وأن نسعى وأن نتخذ من الأسباب والوسائل ما يحقق الغايات المشروعة ، فلا كسل ولا تكاسل ، ولا خمول ولا تواكل ، لذلك أمرنا تعالى بأن لا نلقي أنفسنا في التهلكة ، وأن نعد العدة للدفاع عن ديننا وأوطاننا ، وأن نسعى للحصول على رزقنا .

وقد كان سلف هذه الأمة يأمر بتأديب من يقوم بعمل مناف ثم يعلل ذلك بقضاء الله وقدره ، من ذلك أنه جيء الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه بسارق فقال له : ما حملك على السرقة ؟ قال : قضاء الله وقدره . فضربه ثلاثين سوطا ، ثم قطع يده ، وقال له : قطعت يدك لسرقتك ، وضربتك لكذبك على الله . وقد سئل عبدالله بن عمر رضي الله عنهما عمن يرتكبون الموبقات ويقولون : كان ذلك في علم الله فغضب وقال: كان ذلك في علمه ، ولم يكن علمه يحملهم عليه .

فالايمان بالقضاء والقدر لا ينافي حرية الانسان في أفعاله ، ولايؤدى الى قهر واجبار ، لأن قضاء الله منوط بعلمه السابق الذى لا يعلم الانسان

شيئا منه حينما يقدم على عمل أو يحجم عنه : (ومن يعمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد) •

وقد فهم الجبريون من بعض الآيات أن الله تعالى يجبر الناس على اتيان أعمالهم كقوله تعالى : (ولو شاء ربك لآمن من في الارض جميعاً) ، وقوله : (ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها) • مع أن الغرض منها - كما قيل - أنه تعالى لو أراد أن يكون الناس جميعا مؤمنين لأجبرهم على الايمان، ولكنه تركهم أحراراً بعد أن أنار لهم طريق الهدى وحببه اليهم ، ورغبهم فيه ، وبعد أن حذرهم طريق الضلال وبغضه اليهم وحذرهم أن يسلكوه ، ليكون مناط الثواب والعقاب في الكسب والاختيار • وقد سبق علم الله تعالى أن بعض عباده سيصرون على الكفر • وتكذيب الأنبياء ، فقضى عليهم بما سبق علمه ، وهو أنهم عمي عن الحق ، صم عن الخير ، وسبق علمه أن بعض عباده سيسارعون الى الايمان به ، والى تصديق أنبيائه ، فقضى لهم بما سبق في علمه من هداية وتوفيق : (ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم) فهم الذين اختاروا لأنفسهم الضلال على الهدى ، وكان علم الله قد سبق الى ذلك ، فجعلهم أهلا لما اختاروه وقضى بعقابهم على كفرهم •

فالايمان بالقضاء والقدر نعمة على البشر ، لأنه ظل من الطمأنينة وارف ونعمة من السكينة الراضية بقضاء الله ، ولأنه حافز الى قوة العزائم ، وباعث على العمل والعزة والشجاعة والصبر ، ووقاية من الشرور التي تصيب الافراد والجماعات • كالحسد والأثرة ، والشماتة والنفاق والجزع واليأس •

الاحســـان

وبعد أن ذكر عليه الصلاة والسلام الايمان ومستلزماته ، طلب السائل منه أن يخبره عن الاحسان بقوله : فأخبرني عن الاحسان .

فقال له عليه الصلاة والسلام : أن تعبد الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه فانه يراك .

وأما الاحسان : فهو من أحسن يحسن احسانا . وهو من قولهم أحسنت كذا ، اذا أتقنته وأكملته . وأحسنت الى فلان اذا أوصلت اليه النفع

أن المراد من الاحسان هنا ، هو الاتقان في العبادة . والاخلاص فيها ، وتأديتها على الوجه الاكمل ومراقبة المعبود .

ان هذا الارشاد – كما قيل – من أعظم طرق التربية والتعليم ، بل من جوامع الكلم في ذلك . فان العبد اذا استحضر ربه في مقام العبادة استحضارا كاملا ، كان ذلك مدعاة لاخلاص العبادة ، واستكمال كل ما يطلب فيها من سنن ونوافل ، مع الخشوع والخضوع ، وعظيم الاقبال والاجلال . وانك لترى المرأ اذا كان يرى أباه أو رئيسه أو أحداً ممن يجله ولو كان مساوياً له في المنزلة يجتهد في أن لا يرتكب أمامه ما يكرهه، فكيف بهذا المقام بين يدى أحكم الحاكمين . مالك يوم الدين ، مالك النواصى ، واهب النعم .

فاذا ضعفت نفسه عن هذا الاستحضار وجب الا يغفل عن أن الله يراه ، ويعلم سره ونجواه ، وهذا هو سر الحياء ومحل المراقبة في الحقيقة، فان اجلالك لمن تراه انما هو لانه يراك .

وهذا الحارس الذى يصون المكلف من أن يقع في المعصية ، فمتى

هم بها ورأى برهان ربه جليا واضحا ، ولاحظ أنه مطلع عليه يراه ، وان لم يكن هو لايراه ، فر من المعصية ، اما فرار الخائف الحذر ، أو فرار المستحى الخجل •

وان مقام الاحسان هو مقام الحارس المقوم الناهض بالنفس الى درجات الرقي والفضيلة ، والتدرج في مدارج العبادة بل السعادة •

ولقد قال أبو ذر الغفارى رضي الله عنه : أوصاني خليلي صلى الله عليه وسلم أن أخشى الله كأني أراه : فان لم أكن أراه فانه يراني • وقد قال عليه الصلاة والسلام لرجل : صل صلاة مودع ، فانك ان كنت لاتراه فانه يراك : ﴿ وما يكون من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم ، ولا خمسة الا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر الا هو معهم أينما كانوا ﴾ •

قال الامام النووى بعد كلام طويل : وهذا ـ أى الاحسان ـ أصل من أصول الدين ، وقاعدة مهمة من قواعد الاسلام ، وهو عمدة الصالحين ، وبغية السالكين ، ولنز العارفين ، ودأب الصالحين • وتلخيص معناه ـ أن تعبد الله عبادة من يرى الله ويراه الله ، فانه لا يستبقي شيئاً من الخضوع والاخلاص وحفظ القلب والجوارح ومراعات الآداب ما دام في عبادته ، (فان تكن لا تراه فانه يراك) يعني أنك انما تراعي الأدب اذا رأيته ورآك ، لكونه يراك لا لكونه تراه •

وحاصله الحث على كمال الاخلاص في العبادة ، ونهاية المراقبة فيها • الى أن قال : وهذا من جوامع الكلم التي أوتيها صلى الله عليه وسلم• وقد ندب أهل الحقائق الى مجالسة الصالحين ، ليكون ذلك مانعا من تلبسه بصفة من النقائص ، فكيف بمن لايزال الله مطلعا عليه في سره وعلانيته •

قال أحد الافاضل[1] : أما الاحسان فالمراد به الاخلاص فانه غاية

الاستحسان ، وقد جاء ذكره في القرآن في مواضع ، تارة مقرونا بالايمان وتارة مقرونا بالاسلام ، وتارة مقرونا بالتقوى أو بالعمل الصالح •

فالمقرون بالايمان : كقوله تعالى : (ليس على الذين آمنو وعلموا الصالحات جناح فيما طعموا اذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين) •

والمقرون بالاسلام : كقوله تعالى : (ومن يسلم وجهه الى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى) •

والمقرون بالتقوى : كقوله تعالى (للذين أحسنو الحسنى وزيادة) •

وقد ثبت في صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم تفسير الزيادة بالنظر الى وجه الله تعالى في الجنة • وهذا مناسب لجعله جزاء لأهل الاحسان لان الاحسان هو أن يعبد المؤمن ربه في الدنيا على وجه الحضور والمراقبة كأنه يراه بقلبه ، وينظر اليه في حال عبادته ، فكان جزاء ذلك النظر الى وجه الله عيانا في الآخرة • وقوله صلى الله عليه وسلم: فان لم تكن تراه فانه يراك ، هذا تعليل لقوله : ان تعبد الله كأنك تراه • فان العبد اذا أمر بمراقبة الله تعالى في العبادة واستحضار قربه من عبده ، حتى كان العبد يراه • فانه قد يشق ذلك عليه فيستعين على ذلك بايمانه بأن الله يراه ويطلع على سره وعلانيته وباطنه وظاهره ، ولا يخفى عليه شيء من أمره ، فاذا تحقق هذا المقام سهل عليه الانتقال الى المقام الثاني وهو دوام التحقق بالبصيرة الى قرب الله من عبده ومعيته حتى كأنه يراه • وقد دل القرآن الكريم على هذا المعنى في مواضيع متعددة • كقوله تعالى : (وهو معكم أينما كنتم) وقوله : (فاذا سألك عبادى عني فاني قريب) •

---

(١) الاستاذ عبدالوهاب حمودة •

وقد وردت الأحاديث الصيحة بالندب الى استحضار هذا القرب في حال العبادات • كقوله صلى الله عليه وسلم : ان أحدكم اذا قام يصلي فانما يناجى ربه •

وقال فاضل آخر[1] : الاحسان : هو أن يعبد الانسان ربه على وجه الحضور والمراقبة ، كأنه يراه بقلبه ، وينظر اليه في أثناء عبادته ، وأنه بين يديه كأنه يراه • وهذا يؤدى الى كمال الخشية والهيبة ، واتبان العبادة على وجهها •

وفي حديث حارثة أن الرسول قال له : كيف أصبحت باحارثة ؟ قال : أصبحت مؤمناً حقا ، قال النبي : أنظر ما تقول ، فان لكل قول حقيقة، قال : يا رسول الله ، عزفت نفسي عن الدنيا ، فاسهرت ليلى ، وأظمأت نهارى ، وكأني أنظر الى عرش ربي بارزا ، وكأني أنظر الى أهل الجنة في الجنة كيف يتزاورون فيها ، وكأني أنظر الى أهل النار في النار كيف يتعاوون فيها ، قال النبي : أبصرت فالزم • عبد نور الله الايمان في قلبه •

وقد ذكر النبي للاحسان درجتين :

الأولى : هو أن يعبد الانسان ربه كأنه يراه • وهناك درجة تالية ، فاذا لم يستطع العبد الأولى فعليه بالثانية وهي: فان لم تكن تراه فانه يراك • أى فان شق على العبد الوصول الى درجة الصفاء التي تجعله كأنه يرى ربه وهو يتعبد ويعمل ، فليستعن على ذلك بايمانه وتذكره أن الله يراه ويطلع عليه ويدرك سره وعلانيته ، وباطنه وظاهره ، فاذا تحققت عنده هذه المنزلة ، أصبحت المنزلة الأولى قريبة منه •

وقد قال بعض العارفين : من عمل لله على المشاهدة فهو عارف ، ومن عمل على مشاهدة الله اياه فهو مخلص •• والناس يتفاوتون في هذا الميدان

---

(١) الشيخ احمد الشرباصي •

بحسب اخلاصهم • وقد أشار القرآن المجيد في أكثر من موطن الى أن الله مع الانسان يراه ويطلع عليه فقال : (وهو معكم أينما كنتم) وقال : (واذا سالك عبادى عني فاني قريب) وقال (ما يكون من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم ولا خمسة الا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر الا هو معهم أينما كانوا) وقال : (وما تكون في شان وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل الا كنا عليكم شهودا اذ تفيضون فيه) •

وقال : (ونحن اقرب اليه من حبل الوريد) •

فالاحسان : أن تعبد الله كأنك تراه ، وهكذا يصوره رسول الله صلى الله عليه وسلم ليقربه في أوجز لفظ وأعذبه الى قلوب المؤمنين •

كأنك تراه في جلاله وعظمته وعلمه وحكمته ، وقوته ، وقدرته وفضله ورحمته ، وقد بهرك جماله وغمرتك أنواره •

كأنك تراه : وقد خلقك فسواك فعدلك ، في أي صورة ما شاء ركبك •

كأنك تراه : يتولاك بالرعاية ، ويتعاهدك بالعناية ، ويوالي عليك الالطاف •

كأنك تراه : يدبر أمورك وأمور الخلق قاطبة ، ويسخر لك رزقك وأرزاق الأحياء طرا •

كأنك تراه : يدبر أمر نفسك ، ودقات قلبك ، وهضم معدتك ، وحس أعصابك • وشعور حواسك ، وادراك عقلك ، وحركات ذهنك ، وومضات فهمك •

كأنك تراه : وهو يخرج لك من أديم الأرض طعامك ، وينزل لك من السماء شرابك ويحيل غذاءك دماً ، ودمك قوة في بدنك ، ونوراً في بصرك ، وسمعاً في أذنك ، ولمساً في يدك ، وذوقاً في لسانك •

كأنك تراه : وقد تفرد بالعزة والكبريـــاء ، وتوحـيد في الارض والسماء . وتنزه عن الشريك والنظير ، وتعالى عن الشبيه والمثيل ، واستأثر بالملك والسلطان ، والتصرف في جميع الاكوان .

فان ملكت عليك هذه العقيدة نفسك وقلبك ، واختلطت بلحمـــك ودمك استطعت أن تعبد ربك كأنك تراه ، فان عبدت ربك كأنك تراه ، لأنك على يقين من أنه يراك ، فقد بلغت مقام الاحسان والاحسان درجـة فوق درجة الاسلام ، ومنزلة فوق منزلة الايمان ، لأن الانسان لا يبلـــغ مرتبة الاحسان الا اذا استكمل الاسلام والايمان ، وقد بشر الله المحسـنين بحبه فقال : (وأحسنوا ان الله يحب المحسنين) .

وفي الحديث القدسي : أنا عند ظن عبدى بي ، وأنا معـه حيــث يذكرني ، فان ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وان ذكرني في مـــلأ ذكرته في ملأ خير من ملئه . وان تقرب مني شبراً ، تقربت منه ذراعاً ، وان تقرب مني ذراعاً تقربت منه باعا . وان أتاني يمشى أتيته أهرولة .

وليس بذلك تشبيها أو حلولا أو اتحاداً ، ولكنه تصوير لقرب الله تعالى ، واقباله على عبده المستجيب له .

روى أنه قيل لمالك بن مغفل وهو جالس في بيتـــه وحــده : الا تستوحش ؟ قال : أيستوحش مع الله أحد ؟ . وكان حبيب أبو محمـــد يخلو في بيته ويقول : من لم تقر عينه بك فلا قرت عينه ، ومن لم يأنس بك فلا أنس .

الساعة

ثم طلب السائل وهو جبريل عليه السلام من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخبره عن الساعة . فكان جوابه عليه الصلاة والسلام بأننا مع جميع المخلوقات في عدم علمها سواء : ما المسؤول عنها بأعلم من السائل . أي أن ليس لدى من العلم بها أزيد مما لديك ، لأن الله تبارك وتعالى قد استأثر بتحديد وقتها .

وقد أطلقت الساعة في القرآن الكريم على البعث للحياة الآخرة أو البعث الآخر عند النفخة الثانية : (ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة) . فالساعة الأولى يراد بها القيامة ، والثانية الجزء المعهود من اليوم .

وبعد أن بين أن الله تعالى قد انفرد بعلمها ، سأله أن يخبره عن أماراتها التي تدل على قرب وقوعها ، لأن انتفاء الجزم بعلمها لا ينفى انتفاء الظن والتخمين المبنى على قيام الأشراط والأمارات . فبين عليه الصلاة والسلام علامتين ، منها : أن تلد الأمة ربتها ، أى سيدتها أو سيدها وقد فسر بعض العلماء ذلك بأنه اشارة الى قوة المسلمين واستيلائهم على الكافرين فتكثر السرارى حتى تلد السرية بنت سيدها ، وهي في حكم سيدها ، أو تلد الملوك والسلاطين . فتكون أمهم من جملة رعاياهم ، وهم أولياء أمورهن ، وذلك منذر بالانحطاط المؤذن بقيام الساعة .

وقيل هي اشارة الى كثرة بيع السرارى لفساد وفسق أهله ، حتى يستعبد المرء أمه جاهلا بحالها .

وقيل هي عبارة عن كثرة العقوق واضاعة الحقوق فيعامل الولد أمه معاملة السيد أمته من الاهانة أو السب .

وذكر الطيبي أنها اشارة الى أن الأعزة تصير أذلة ، لأن الأم مربية للولد ومديرة لأموره فاذا صار الولد رباً انقلب الأمر وأصبح الاذلة أعزة، ويؤيده ما ورد من أنه : اذا ضيعت الأمانة ووسد الأمر الى غير أهله فانتظر الساعة .

وقد قيل في التعليق على هذه الأقوال : ان هذه العلامات فيها معنى الابهام ما يبقى العلم الواضح بقيام الساعة أمراً مكتوماً استأثر الله به .

وهذا لحكمة عظيمة ، فان الله تعالى كما خبأ عن كل امرىء أجله حتى يكون أمامه باب الأمل فسيحا . فيقبل على العمل الذى هو مناط العمران في هذا العالم ، وحتى يكون دائما بين الخوف والرجاء ، كذلك خبأ عن العالم أمر قيام الساعة حتى يطرد أمر العمران ويبقى الاتجاه الى الله بين كفتي الميزان .

والأمارة الثانية : أن ترى الحفاة العراة العالة – الفقراء – رعاة الشاه يتطاولون في البنيان . وتقبل عليهم الدنيا بزينتها . فيتفاخرون بالمفاسد والشهوات ويبالغون في بناء العمارات وأنهم مع ذلك لا يعرفون الخير ولا يعرفهم .

وقيل ارتفاع الأسافل ، وانقلاب الأحوال ، وتغيير الأوضاع ، حتى يذل الأعزاء وبعز الأذلاء ، فلذلك تضيع الأمانة ، وتسند الأعمال الى غير أهلها ، وقد قال صلوات الله وسلامه عليه لذلك الأعرابي الذى قال له : متى الساعة ؟ فقال له : اذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة ، قال الرجل : كيف اضاعتها ؟ قال : اذا وسد الأمر الى غير أهله فانتظر الساعة . وفي حديث آخر : لا تقوم الساعة حتى يكون أسعد الناس بالدنيا لكع ابن لكع. أى لئيم ابن لئيم .

وقد جاء في الذكر الحكيم أشراط للساعة وأحداث تعترى العالم

عند النفخة الأولى في الصور موذنة بخراب العالم ونهاية الحياة الدنيا : (هل ينظرون الا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها) .

وقد بين تعالى بعض أشراطها بقوله : (يوم تمور السماء موراً وتسير الجبال سيراً) ، ومور السماء اضطرابها وتشققها ووهيها : (انشقت السماء فهي يومئذ واهية) والوهي فقد تماسكها . ويقول تعالى : (يو تكون السماء كالمهل . وتكون الجبال كالعهن) . أى تكون السماء كالفضة المذابة ، أو دردى الزيت في قوامه الغليظ ولونه الأحمر ، كما في قوله تعالى : (فاذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان) ، أى تصدعت فكانت حمراء كالورد ، سائلة كالدهن وهو الزيت أما العهن : فهو الصوف المصبوغ ألوانا ، لأن الجبال أصلها من معادن مختلفة الألوان فتكون يومئذ كالصوف المنفوش الملون .

ومن أشراطها قول الله تبارك وتعالى : (اذا السماء كورت . واذا النجوم انكدرت . واذا الجبال سيرت . واذا العشار عطلت. واذا الوحوش حشرت . واذا البحار سجرت) .

فتكوير الشمس أن يلف ضوءها ويذهب كما في حالة الكسوف ، ويغطى الليل بعض أجزاء النهار فيطول ويقصر النهار . وانكدار النجوم انتشارها وزوالها .

وتسيير الجبال أن تصير هباء . وتعطيل العشار اسقاط الحوامل حملها من هول ذلك اليوم أو اهمال الناس لنياقهم العشراء . وحشر الوحوش اجتماعها لا تخشى الانسان ولا يخشى بعضها بعضا . وتسجير البحار تفجيرها حتى تصير بحراً واحداً . أو تفجيرها وملوءها بالنيران اذ تتحطم ذرات الماء فتلتهب البحار وتملأ بالنيران ، لوقوع عناصرها تحت ضغط كهربي شديد كصاعقة من السماء أو بفعل حرارة الأرض الباطنة .

وقد ذكر عليه الصلاة والسلام أمارات كثيرة للساعة في أحاديث أخرى منها • طلوع الشمس من مغربها • وقبض العلم • وكثرة الزلازل • والفتن • وكثرة الحروب والقتل • واضاعة الصلاة • واضاعة الأمانة • وأكل الربا • وغير ذلك • وانما اقتصر الحديث على تبنك الامارتين ، لأن معظم الفساد ينشأ في الغالب عنهما •

وهناك أحاديث عن عمر الدنيا وموعد قيام الساعة اكثرها اسرائيليات مخالفة لحكمة الله تعالى في اخفائها ، ونصوص القرآن قاطعة بأن الساعة غيب لا يعلمه الا الله وتأتي بغتة (يسألونك عن الساعة أيان مرساها • قل انما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها الا هو ثقلت في السموات والارض لا تأتيهم الا بغتة ، يسألونك كأنك حفى عنها ، قل انما علمها عند الله) وقال تعالى : (يسألك الناس عن الساعة قل انما علمها عند الله) وقال : (يسألونك عن الساعة أيان مرساها • فيم أنت من ذكراها • الى ربك منتهاها) •

ولما فرغ السائل من أسئلته ، وفرغ النبي من اجابته ، ذهب السائل الى حيث شاء • وبعد هذا يحدثنا عمر بن الخطاب عليه رضوان الملك الوهاب • فيقول :

فلبثت مليا ، ثم قال – أي رسول الله – يا عمر أتدري من السائل ؟ فأجابه بالأدب الذى تعوده الصحابة مع رسول الله : الله ورسوله أعلم قال : هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم •

وقد قيل : السر في مجيء جبريل عليه السلام على هذا الوجه أن ينبههم أن يسألوا عما فيه فائدة لهم في دينهم ، من معنى الايمان والاسلام والاحسان ، فيقيسوا عليها السؤال عن المهم من الاحكام ، ولا يسترسلوا في السؤال عن غير المهم • فكان هذا المجلس من أيمن المجالس وأعودها عليهم وعلى المسلمين بالخير والبركة •

الخصـــال الســـبع
التي يرتضيهـا الله

روى الشيخان البخارى ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : سبعة يظلهم الله في ظله يوم القيامة يوم لا ظل الا ظله ، الامام العادل ، وشاب نشأ فـــي عبادة الله ، ورجل قلبه معلق في المساجد ، ورجلان تحابا في الله ، اجتمعـا عليه وتفرقا عليه • ورجل طلبته امرأ ذات منصب وجمال فقال : اني أخاف الله ، ورجل ذكر الله عز وجل خاليا ففاضت عيناه •

هذا حديث كريم ، جمع خصالا كريمة ، هي أسس سعادة المجتمع ورقيه • بل هي الدستور الذى جاءت به الرسل ، وحث عليه المصلحون • وعرف به الانسان الكامل •

خصال سبعة رعى الله المتصفين بها بعنايته ، وحماهم من شدائد يوم القيامة • ومنحهم هذه الميزة التي تتلهف لها النفوس ، وتتمناهـا القلوب ، وهل أمنية أفضل وأشرف من رعاية الله للانسان وايوائه الى ظل عرشه يوم تدنو الشمس من الرؤوس ، ويغمر العرق الناس من شدة الحر ، وليس على الارض ظل الا ظل الله •

وقد قيل : ان الظل هنا عبارة عن الراحة والنعيم من قولهـــم عيش ظليل أى طيب هنيىء مريح •

وقال عيسى بن دينار : هو كناية عن حفظهم من المكاره واكرامهـم

وجعلهم في كنفه سبحانه وستره ، ومنه قولهم السلطان ظل الله في الأرض .

لقد من الله على بعض عباده الذين جاهدوا أنفسهم وأهواءهم ، وراقبوا الله في سرهم وجهرهم ، من الله عليهم بالامن والطمأنينة جزاء احسانهم ، وخوفهم من الله تعالى في جميع تصرفاتهم ، لذلك لم يجمع الله لهم خوف الدنيا وفزع الآخرة ، بل أمنهم يوم يخاف الناس ، وحماهم بحمايته وأجارهم ولا مجير سواه ، يوم تتقطع الأسباب بالناس ، يوم يقال : (لمن الملك اليوم) فيكون الجواب : (لله الواحد القهار) .

وهذا كله من الامور الغيبية التي يجب الايمان بها على أنها قضية مسلمة لا يباح للعقول المحدودة البحث فيها ، ولا يقيسوتها على أحوال الدنيا . كما يجب الايمان بالظل حسبما ورد في الحديث ، لا حسبما نراه ونتصوره .

ولا يقتضي من ذكر هذه الخصال التحديد والحصر بحيث لا يزيد عددها كانظار المعسر أو اعفائه مما عليه . أو التاجر الصدوق . أو الغازى ومن يعينه .

الامام العادل

ان أول هذه الخصال التي يرعى الله المتصف بها يوم القيامة هو الامام العادل . الامام : هو الذى نصب لاقامة المصالح العامة للامة والهيمنة على شؤنها الدينية والدنيوية .

والعدل : هو اعطاء كل ذى حق حقه ، والمساواة بين الناس في كفالة الحقوق والانصاف .

والعادل : هو الذى يسوس الناس بالعدل ، وتقوم سياسته على رعاية المصالح العامة .

وقد قيل : انما قدم الامام العادل على ما بعده لعموم نفعه وكثرة مصالحه . لان الله يصلح به أموراً عظيمة . وليس أحد أقرب منزلة من الله تعالى بعد الأنبياء من امام عادل .

وقد قالوا اذا أطلق الامام : انصرف الى الفرد الأكمل كالسلطان الذى له الحكم على الخاصة والعامة وله البيعة . وقد يطلق ويراد به كل من ولي من أمور الناس شيئاً سواء كان كبيراً أو صغيرا، أو كان مسترعيا فيهم رعية قلت أو كثرت ، أخذاً من عموم قوله صلى الله عليه وسلم : كلكم راع ومسؤول عن رعيته ، والرجل راع في بيته ومسؤول عن رعيته ، فيشمل قائد الجيش ، وامام الصلاة ، والوزير ، والمدير والقاضي ، والطبيب . وكل انسان .

لقد أوجب الاسلام على الامام أو من ينوب عنه العدل والصلاح ، اذ صلاح الرعية بصلاح حكامهم وعدلهم ، فلذلك كان أجرهم عند الله أعظم الأجر ، كما أن مسؤوليتهم أخطر المسؤوليات أثراً . وهذه أحاديث الرسول الأمين وسنته تؤازر العدل وتدعم أركانه بالقول والعمل والقدرة ، فلقد قال عليه الصلاة والسلام : يوم من امام عادل أفضل من عبادة ستين سنة .. أحب الناس الى الله يوم القيامة وأدناه منه مجلسا امام عادل ، وأبغض الناس الى الله تعالى وأبعدهم منه مجلسا امام جائر . وروى ابن ماجة والبزاز : السلطان ظل الله في الارض ، يأوى اليه كل مظلوم من عباده ، فان عدل كان له الأجر ، وكان على الرعية الشكر ، وان جار أو ظلم كان عليه الوزر ، وعلى الرعية الصبر .

الامام العادل : هو الذى تصلح به رعيته ، ويستقيم أمر دينها ودنياها ، وينتظم معاشها ومعادها ، وتطمئن على حقوقها ومرافقها ، وان الله

يقيم الدولة بالعدل ولو على الكفر ، ولا يقيم الدولة بالظلم ولو على الاسلام كما قيل .

وقد وصف الامام العادل بأنه قوام كل مائل ، وصلاح كل فاسد، وقوة كل ضعيف ومفزع كل ملهوف .

والامام العادل كالراعي الشفيق على ابله ، الذى يرتاد لها أطيب المراعى ، ويذودها عن المراتع المهلكة ، ويحميها من السباع ، وأذى الحر والقر .

والامام العادل كالأب الحاني على ولده ، يعولهم صغاراً ، ويعلمهم كباراً ، يكتسب لهم في حياته ، ويدخر لهم بعد مماته .

والامام العادل كالأب الحاني على ولده ، يعولهم صغاراً ، ويعلمهم بسهره ، وتسكن بسكونه ، ترضعه تارة ، وتفطمه أخرى ، وتفرح بعافيته، وتغتم بشكايته .

والامام العادل هو القائم بين الله وبين عباده ، يسمع كلام الله ويسمعهم وينقاد الى الله ويقودهم . ولقد قال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما من عبد يسترعيه الله عز وجل رعية يموت يوم يموت وهو غاش رعيته الا حرم الله عليه الجنة .

ولقد خطب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه في موسم الحج فقال : اني والله ما أبعث اليكم عمالى ليضربوا أبشاركم ، ولا ليأخذوا من أموالكم ، ولكنى أبعثهم اليكم ليعلموكم دينكم وسنة نبيكم ، فمن فعل به سوى ذلك فليرفعه الي ، فو الذى نفسي بيده لأقصنه منه ، فوثب عمرو بن العاص فقال : ياأمير المؤمنين أرأيت ان كان رجل من المسلمين واليا على رعية فأدب بعضهم ، انك لتقتصه منه ؟ قال : اى والذى نفسى بيده لأقصنه منه ، وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقص من نفسه ، ألا لاتضربوا

المسلمين فتذلوهم ، ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم ، ولا تنزلوا بهم الغياض فتضيعوهم .

وروى الأسود بن أبي يزيد أنه قال: كان الوفد اذا قدموا على عمر رضي الله عنه سألهم عن أميرهم ، فيقولون خيراً ، فيقول : هل يعود مرضاكم ؟ يقولون : نعم ، فيقول ، هل يعود العبد ؟ فيقولون ، نعم ، فيقول : كيف صنيعه بالضعيف ؟ هل يجلس على بابه ؟ فان قالوا لخصلة منها : لا عزله .

وروى عنه رضي الله عنه أنه قال : لئن عشت ان شاء الله لأسير في الرعية حولا ، فانى أعلم ان للناس حوائج تقطع دونى ، اما عمالهم فلا يرفعونها الي ، وأما هم فلا يصلون الي ، فأسير الى الشام فأقيم بها شهرين ، ثم أسير الى الجزيرة فأقيم بها شهرين ، ثم أسير الى مصر فأقيم بها شهرين ، ثم أسير الى الكوفة فأقيم بها شهرين ، ثم أسير الى البصرة فأقيم بها شهرين ، والله لنعم الحول هذا .

وقال الأحنف بن قيس : كنت مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه فلقيه رجل فقال : يا أمير المؤمنين انطلق معي فأعدني على فلان فانه ظلمني ، فرفع عمر الدرة فخفق بها رأسه وقال : تدعون أمير المؤمنين وهو معرض لكم ، حتى اذا شغل في أمر من أمور المسلمين أتيتموه أعدنى أعدنى ، قال: فانصرف الرجل ، فقال عمر : على بالرجل ـ أي ردوه علي ـ فلما جاء القى اليه المخفقة وقال امتثل ـ أى اقتص بمثل الضربة ـ فقال الرجل : لا والله، ولكنى أدعها لله ولك ، قال عمر : ليس هكذا ، اما أن تدعها لله ارادة ما عنده ، أو تدعها لي . فأعلم ذلك ، فقال الرجل : ادعها لله . قال الأحنف: فانصرف عمر ، ثم جاء يمشى حتى دخل منزله ونحن معه ، فصلى ركعتين وجلس ، فقال يخاطب نفسه : يا ابن الخطاب كنت وضيعاً فرفعك الله وكنت ضالا فهداك الله ، وكنت ذليلا فأعزك الله ، ثم حملك على رقاب الناس

فجاءك رجل يستعديك فضربته ، ما تقول لربك غداً اذا أتيتـه ، وجعـل يعاتب نفسه في ذلك .

ولما ولي عمر بن عبدالعزيز الخلافة دعا سالم بن عبدالله ، ومحمـد بن كعب القرظي ، ورجاء بن حيوة ، وقال لهم : اني ابتليت بهـذا البلاء فأشيروا علي ، فقال له سالم بن عبدالله : أن أردت النجاة غداً من عذاب الله، فصم عن الدنيا ، وليكن افطارك فيها الموت .

وقال له محمد بن كعب: ان أردت النجاة من عذاب الله، فليكن كبير المسلمين عندك أبـاً ، وأوسطهم عندك أخاً ، وأصغرهم عنـدك ابنـا ، فوقر أباك وأكرم أخاك ، وتحنن على ولدك .

وقال له رجاء بن حيوة : ان أردت النجاة غداً من عذاب الله فأحب للمسلمين ما تحبه لنفسك ، واكره لهم ما تكرهه لنفسك ، ثم مت ان شئت.

قال ميمون بن مهران : كان عمر بن الخطاب رضي الله عنـه يجبى العراق كل سنة مائة ألف أوقية - أى من الفضة - ثم يخرج اليه عشـرة من أهل الكوفة ، وعشرة من أهل البصرة يشهدون أربع شهادات بالله انـه من طيب ، ما فيه ظلم مسلم ولا معاهد .

لقد أوجب الاسلام على من يتولى الحكم أن يكون قادراً على معرفة أحوال رعيته ، والنظر في كل شؤونها المادية والأدبية ، عاملا على النهوض بهـا الى المستوى اللائق بها ، قادراً على الدفاع عنها ، حائلا بينها وبين انزلاقهـا في التيارات المفرقة المخربة .

لقد طلب العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم الولاية ، فقال له عليه الصلاة والسلام : ياعم : نفس تحييها خير من ولاية لا تحصيها .

وروى الامام مسلم في صحيحه عن أبي ذر الغفارى رضي الله عنه أنه قال : قلت يا رسول الله ، الا تستعملنى ؟ قال : فضرب بيده على منكبى ثم

قال : يا أبا ذر انك ضعيف ، وانها أمانة ، وانها يوم القيامة خزى وندامة ، الا من أخذ بحقها ، وأدى الذى عليه فيها •

يروى هذا الحديث أبو ذر نفسه ، ولم يعارض في وصفه بالضعف ، ولم يحاول الدفاع عن نفسه ، يحدث أبو ذر عن نفسه بأنه ضعيف لا يصلح للحكم ، يروى ذلك وهو قرير العين ، منشرح الصدر ، فلم يبال أن يقال عنه انه ضعيف غير صالح للحكم •

ان هذه الزمرة التي تخرجت من مدرسة محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم ، ان هؤلاء السادة الميامين لا يرون وجودهم لانفسهم فحسب بل يرون وجودهم لخدمة المجتمع الذى يعيشون فيه ، وان الواجب يحتم عليهم أن ينقلوا اليه شريعته وحقوقه بأمانة واخلاص •

وقف أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضوان الله عليه على المنبر غداة توليته ليحدد واجباته حيال الأمة فيقول : ولكم علي أيها الناس خصال أذكرها لكم ، فخذوني بها ، ولكم علي الا أجتبي شيئاً من خراجكم ولا ما أفاء الله عليكم الا من وجهه ، ولكم علي اذا وقع في يدى الا يخرج مني الا في حقه ، ولكم علي أن أزيد أعطياتكم وأرزاقكم ان شاء الله ، ولكم علي ألا القيكم الى المهالك ولا أجمركم في ثغوركم ، واذا غبتم في البعوث فأنا أبو العيال ، فاتقوا الله عباد الله ، وأعينوني على أنفسكم بكفها عني ، وأعينونى على نفسى بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، واحضارى النصيحة فيما ولانى الله من أموركم ، أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم •

دستور محدد البنود ، وواجبات واضحة ، والتزامات صريحة ، وحقوق مشتركة بين الحاكم والشعب جلية ، وهل في دساتير الأمم الحديثة مثل هذا الدستور الذى وضعه عمر وألزم به نفسه والأمة معا •

وليصبح الوعي العام في جمهور الناس منتزعاً من طبيعة النفوس الحرة الكريمة ، وليس للحاكم أن يؤدب رعيته بالضرب الا في الحدود ، فان

فعل فقد ظلم ووجب القصاص منه • وها هو رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى نعته رب العالمين بقوله (لقد جاءكم رسول من انفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم) ، يمر بين أصحابه يوم أحد يسوى صفوفهم للقتال وبيده عصا قصيرة ، فيرى رجلا خارجا عن الصف فيغمزه في بطنه قائلا : استقم ياسواد ، فيقول سواد : يا رسول الله آذيتني ، وقد بعثك الله بالنصف ، أقدنى من نفسك ، فكشف الرسول عن بطنه ويقول : استقد يا سواد ، فيحتضنه سواد ويقبله ، ويقول : انما أردت أن يكون آخر شيء في الدنيا أن يمس جلدى جلدك الشريف ،

لقد نظر أوائلنا الى الخلفاء والأمراء على أنهم مساوون لسائر الناس ، لا يتميزون عنهم بشيء ، وليس عليهم طاعة الا ضمن حدود أحاكمه الشريفة والعدل • واذا تحقق ذلك وجب عليهم الطاعة والانقياد ، ولقد تفهم الحكام والمحكومون هذه الواجبات التي فيها الأمان والاطمئنان •

صعد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه المنبر يوماً فقال :

يا معشر المسلمين ، ماذا تقولون لو ملت برأسي الى الدنيا هكذا ؟

فقال رجل : اذن نقول بالسيف هكذا •

فسأله عمر : اياي تعني بقولك ؟

فقال له الرجل : نعم اباك أعني بقولي •

فعندئذ يقول عمر : يرحمك الله ، والحمد لله الذى جعل فيكم من يقوم عوجى ، لقد أراد عمر من وراء هذا الوصول الى الحق والطمأنينة على أنه يحكم أمة من الأحرار ، لا قطيعا من الغنم •

وعندما ولي عمر بن عبدالعزيز الخلافة خطب الناس فقال : أيها الناس من أطاع الله وجبت طاعته ومن عصى الله فلا طاعة له ، أطيعوني ما أطعت الله • فاذا عصيت الله فلا طاعة اي عليكم •

هذا هو الأسلوب الاسلامي في اختيار الحاكم يلزم مراقبته مراقبة فعالة على اعماله ، ولم يعرف الاسلام ما هو مقرر في الانظمة الحديثة من أن ذات الملك أو رئيس الدولة فوق القانون ، بل ان الله تبارك وتعالى قد خاطب نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بقوله : (فذكر انما أنت مذكر. لست عليهم بمسيطر) .

فهل سمع الناس بحرية وعدالة أوسع من هذا الاسلام ، وهل عرف التاريخ حكاما جمعوا الكمال الانساني كحكام المسلمين الاولين .

(يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله ، والله يرزق من يشاء بغير حساب) .

الشباب الذي يرعاه الله

والطبقة الثانية التى يرعاها الله تبارك وتعالى يوم القيامة ويظللها بظله الذى لا ظل سواه هم الشباب الذين نشؤا في عبادة الله التي فيها قهر النفس وعدم مطاوعتها حسب شهواتها ، كما أنها تخرج بها عن مألوفاتها ، وارغامها على الجهاد الدائم رغم طغيان القوى الشهوانية لاسيما في دور الشباب الذى هو شعبة من الجنون ، هو دور النزق والطيش وطغيان الغرائز، وتسلط العواطف ، وهو الدور الذى تتكون فيه العادات وتثبت فيه الميول والاتجاهات .

وقد علق احد الافاضل[1] على هذا الحديث فقال : وما أجدره بهذه المنزلة من رعاية الله ، فهو تحت سلطان الشباب القاهر ، وله عادة من أترابه وقرنائه ومن يأنس به ومن لا يفتأ يدعوه الى هاوية الفجور ، ويضم الى ذلك

---

(١) الشيخ ابراهيم الجبالى .

نفس نزاعة للهوى ، واشتعال نار الشباب ، وقد قام له العذر أو شبه العذر من شبابه وما اعتيد فيه • فاللوم من جانبه أخف ، وتتبع حركاته أهون ، واستنكار السيئة منه ألين ، فقد اجتمعت دواعيه ، وتقلصت نواهيه ، فتغلب دينه في هذه الحالة على مقتضيات الفساد دليل على تأصل ملكة الرشاد • وقد قيل • الناس أربعة ، اثنان تبين أمرهما ، وكفيت تجربتهما ، واثنان أنت منهما على تجربة ، أما اللذان تبين أمرهما وكفيت تجربتهما ، فبر بين فجار ، وفاجر بين أبرار ، فلو كان للفجور الى نفس الاول سبيل ، او للهدى الى نفس الثاني مسلك لكان في بيئته ما يساعده عليه بل يلجئه اليه • وأما اللذان انت منهما على تجربة ، فبر بين بررة ، وفاجر بين فجرة ، فلعل أحدهما لو تغيرت بيئته لكان غير ما نراه ، فنعرف من هذا أن شابا نشأ في عبادة ربه وقد أحاط به من الاتراب وعصفت به من نار الشباب ما يزلزل الجبال ويقلقل عزائم الرجال ، لهو امرؤ تمكن الهدى من قلبه ، وهو حقا مخلص لربه، وقد ورد : تعجب ربك من شاب ليست له صبوة •

لقد ذكر القرآن الكريم[٢] الشباب فعطر ذكرهم ، وأثنى عليهم بما هم أهله ، وجعلهم قبلة الامم ومحط الآمال ، وحماة العقائد ، وجنود الاسلام ، وكتب لهم من المجد وألوان الرعاية وأسباب التوفيق ما يحرضهم على السبق والتبريز ، فالقران يقول عن فئة من الشباب ﴿ انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى • وربطنا على قلوبهم اذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والارض ، لن ندعو من دونه الها لقد قلنا اذاً شططا ﴾ •

ويقول واصفا رحمه الله بشابين وحسن صنعه لهما ورعايته مستقبلهما : ﴿ وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما ، وكان أبوهما صالحا ، فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك ، وما فعلته عن أمري ، ذلك تأويل ما لم تستطع عليه صبرا ﴾ • وقال

---

(٢) واجب الشباب العربي •

عن يحيى عليه السلام : (يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا) .
وقال عن عيسى : (قال انما أنا رسـول ربك لأهب لك غلاما زكيا)
ويقول عنه أيضا : (فأشارت اليه ، قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيا . قال اني عبدالله آتاني الكتاب وجعلني نبيا . وجعلني مباركا أين ما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا) . وهكذا فالشباب كما يقول القرآن أهل لرحمة الله ومعونته ، ومحل لبره ورعايته وجدير بنـوره وحكمته ...

لقد كان الشباب أنصار كل جديد ، لانهم لم يألفوا القديم كما ألفه الشيوخ ، لذلك نرى أن أتباع الانبياء قد كان متركزا على الشباب . فهذا موسى عليه السلام لما دعا الى الله تعالى أول من استجاب له الشباب : (فما آمن لموسى الا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم ، وان فرعون لعال في الارض وانه لمن المسرفين) .

نزلت هذه الآية تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عندما ضاق صدره لاحجام قادة قريش وزعمائها عن تلبية دعوته : (فلعلك باخع نفسك على آثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا) . فأخبره تعالى أن من سنة الكون أن يكون الشباب أسرع اجابة لدعوة الرسل من آبائهم .

عندما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في كمال شبابه . التف حوله شباب من قريش . روى عن عفيف الكنـدى أنه قال : جئت في الجاهلية الى مكة وأنا أريد أن أبتاع لاهلي من ثيابها وعطرها ، فأتيت العباس بن عبدالمطلب ، وكان رجلا تاجرا ، فأنا عنده جالس حيث أنظر الى الكعبة وقد حلقت الشمس في السماء فارتفعت وذهبت ، اذ جاء شاب فرمى ببصره الى السماء ثم قام مستقبل الكعبة ، ثم لم ألبث الا يسيرا حتى جاء غلام فقام على يمينه ، ثم لم ألبث الا يسيرا حتى جاءت امرأة فقامت خلفهما ، فركع الشباب وركع الغلام والمرأة ، فرفع الشاب ، فرفع الغلام والمرأة ،

فسجد الشاب ، فسجد الغلام والمرأة ، فقلت : يا عباس أمر عظيم ، فقال العباس أمر عظيم ، أتدرى من هذا الشاب ؟ قلت : لا ، قال : هذا محمد بن عبدالله أخي ، أتدرى من هذا الغلام ؟ قلت : لا ، فقال : هذا علي بن أخي ، اتدري من هذه المرأة ؟ قلت : : لا ، قال : هذه خديجة بنت خويلد زوجة ابن اخي . هذا اخبرني أن ربه رب السماء والأرض أمره بهذا الديـن الذى هو عليه ، ولا والله ما على الارض كلها أحد على هذا الدين غـير هؤلاء الثلاثة .

أخذ الشباب يتبعه متحملين العذاب والعناء والضغط والفاقة ، واتخذ لهم الرسول دارا هى مدرستهم ومسجدهم وندوتهم ، يؤدون بها شعائر فالولد الالمعي فخر ابويه وزينة اترابه .

لقد كان أصحاب رسول الله يحرصون على أن يحضروا ابناءهـم مجالس رسول الله من صغرهم ، ليتلقوا عنه الايمان والعلم والحكمـة ، ويتأدبوا بارشـاداته ، وكان صلوات الله عليـه يداعبهم ليزيـل الحـرج من نفوسهم ، وكان شباب الصحابة يحرصون على حضور مجلس رسـول الله للاقتداء به ، وليتزودوا من التربية المحمدية الغذاء الروحى والنفسى .

وكان عليه الصلاة والسلام يربى الشباب على العفة والكرامة ويوجههم الى طرق الفضيلة بالحكمة والموعظة الحسنة .

لقد جاءه شاب وهو في مسجده بين أصحابه فسأله أن يرخص له في الزناء وكرر ذلك ثلاثا . فيجيبه : أتحب ذلك لأمك ؟ قال : لا ، قال : أتحبه لأختك ، قال : لا ، قال : أتحبه لبنتك لو كان لك بنت ؟ قال : لا ، قال : هكذا الناس لا يحبون لأمهاتهم وأخواتهم وبناتهم ، ولكن أعندك من مال لتتزوج به ، قال : لا ، فبعث في طلب مال من بيت المال وقضى له حاجته بزواج كريم .

لقد علمهم الرسو لالكريم فضل الصبر على الشدائد ، والاخلاص

في العقيدة ، والثبات على العهد ، والايثار على النفس .

علمهم الشجاعة وطرق الفداء ، حتى جعل العشرين منهم يغلبون مائتين ، والمائة يغلبون الفا ، لقد صيرهم أقوى أهل الدنيا عقولا ، وأكملهم علما ، وأساتذتها حربا وسلما .

فهذا عبدالله بن عباس يرى في مجلس عمر بن الخطاب يتكلم وهو شاب والجميع يصغى اليه ، فيمر عليه الحطيئة الشاعر الشهير ، ويستمع اليه ، ثم يقول : من هذا الذى نزل عن الناس في سنه وعلاهم في قوله ؟ فالولد الألمعى فجر أبويه وزينة أترابه .

لقد مكث هؤلاء يتلقون الدروس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى كان في الذروة من عمر الشباب ، وكانوا يجتمعون في دار الارقم بن أبي الارقم . وبقوا في ذلك المخبأ أربع سنوات الى أن انضم اليهم عمر بن الخطاب ، الذى كان أقوى شاب في مكة ، وقد طلب من رسول الله الجهر بالدعوة ما داموا على الحق ، وليكن ذلك بمظاهرة تتوجه الى الكعبة ، فخرج الشباب في صفين على أحدهما عمر فتى قريش ، وعلى الآخر حمزة أسد هاشم ، وكل منهما شاهر سيفه وصلى بهم رسول الله وطاف بالكعبة سبعا .

وقد سرد كتاب السير أسماء أولئك الشباب ، ونحن نذكرهم حسب أعمارهم : علي بن أبي طالب (٨) ، الزبير بن العوام (٨) ، طلحة بن عبيدالله (١١) ، الاوقم بن أبي الارقم (١٢) ، عبدالله بن مسعود (١٤) ، سعيد بن زيد (١٧) ، سعد بن أبي وقاص (١٧) مسعود بن ربيعة (١٧) ، جعفر بن أبي طالب (١٨) ، صهيب الرومي (٢٠) ، زيد بن حارثة (٢٠) ، عثمان بن عفان (٢٠) ، طليب بن عمير (٢٠) ، قدامة بن مظعون (٢٠) ، خباب بن الارت (٢٠) ، عامر بن فهيرة (٢٣) ، مصعب بن عمير (٢٤) ، المقداد بن الاسود (٢٤) ، عبدالله بن جحش (٢٥) ، عمر بن الخطاب (٢٦) ،

أبو عبيدة عامر بن الجراح (٢٧) ، عتبة بن غزوان (٢٧) ، عمر بن سعيد (٢٩) ، أبو حذيفة بن عتبة (٢٩) ، عبدالرحمن بن عوف (٣٠) ، بلال بن رياح (٣٠) ، خالد بن سعيد (٣٠) عياش بن ابى ربيعة (٣٠) ، عامر بن ربيعة (٣١) ، نعيم بن عبدالله (٣١) ، عثمان بن مظعون (٣١) ، أبو سلمة بن عبدالاسد (٣١) ، عمار بن ياسر (٣٥) ، أبو بكر الصديق (٣٧) ، حمزة بن عبدالمطلب (٤٢) ، وعبيد بن الحارث (٥٠) • وحاطب بن الحارث الجمحي ، وخالد بن البكير الليثي، وعامر بن البكير الليثى ، وأنيس بن البكير الليثي •

وعندئذ بدأ اضطهاد قريش لأولئك الشباب ضانين أن ذلك يردهم عن دينهم ، وقد زادهم ذلك تمسكا وتصلبا •

لقد قام الاسلام على أكتاف هؤلاء الشباب الذين كان يترأسهم رسول الله • هؤلاء الشباب ومن اقتفى أثرهم من جنود الاسلام قد غيروا خارطة الارض ، وحولوا مجرى التاريخ ورفعوا مستوى الانسان ، هؤلاء وأمثالهم من الشباب الذين ملؤا الارض نورا وهداية وعلما وحضارة وأدبا وحكمة وأمنة وعدلا •

قال أحد الافاضل : اجتمع للاسلام قوتان نال بهما من الظفر والنجاح ما لم ينله دين قبله ، قوة الدعوة التى أتى بها ، وقوة اولئك الشباب الذين آمنوا به وقد أثرت قوة دعوته في نفوسهم ، فزادتهم قوة الى قوتهم ، وأثرت في الدعوة فزادتها قوة الى قوتها ، وأخذت القوتان تجاهدان أروع جهاد في نشر دعوته واعلاء كلمته، حتى عم الجزيرة العربية من اقصاها الى أقصاها في حياة النبي صلى الله عليه وسلم ، كما عم ممالك كسرى في الشرق ، وشمل كثيرا من ممالك قيصر في الغرب في أقل من ربع قرن •

لقد تهيأ هذا النصر الفذ السريع بقوة أولئك الشباب ، لانهم كانوا بين سياسى محنك ، وقائد مظفر ، وجندى لا يهاب الموت ، أولئك الذين

كانوا أقوياء في ايمانهم ، أقوياء في نفوسهم ، أقوياء في أجسامهم ، ومن كان هذا شأنه لا يغلبه أحد ، ولا يقف أمامه عدو ، وقد رباهم الاسلام تربية عسكرية قوية ، فكانوا عنوان العظمة في سفر التاريخ ، وليس هذا الشباب معجزة وقتية مرت ثم لا تعود ، فان أسباب عظمته واضحة مجلوة ، وسبيلها ما زال معبدا ميسورا ، انهم قد أخذوا أنفسهم بأحكام الاسلام ، واستقرت في قلوبهم عقائده ، فذلك هو الذى أنشأهم وكونهم ، وذلك هو الذى غذاهم ونماهم ، وذلك هو الذى جعلهم أعاظم يشهد لهم التاريخ بالسبق الى غايات المجد والعز والفخار ، وجعلهم القدوة التى ان تحتذى .

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستشير الشباب وينفذ رغباتهم. فقبيل غزوة أحد اختلف الناس في الخروج لقتال المشركين ، وقد نزل الرسول على رأي الاغلبية التى كان جلها من الشباب وأمر بالخروج .

لقد كان هؤلاء الشباب يتسابقون الى ساحات القتال ليرفعوا من شأن أمتهم ودينهم ، حتى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرد من لم يبلغوا سن التكليف ، وفي غزوة أحد رد سبعة عشر شابا ، منهم عبدالله بن عمر بن الخطاب ، وزيد بن ثابت ، وأسامة بن زيد ، وزيد بن الارقم ، والبراء بن عازب ، وابو سعيد الخدرى ، وزيد بن حارثة ، لانهم دون الخامسة عشر ، وقد أجاز منهم رافع بن خديج الانصارى لمهارته في رماية النبل ، ولكن سمرة بن جندب الفزارى اعرض على ذلك وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد أجزت غلاما ورددتني ، ولو صارعني لصرعته ، فقال عليه الصلاة والسلام : تصارعا ، فصارع سمرة رافعا فصرعه . فعندئذ أجازه رسول الله والحقه بالجيش .

كما أنه أسند قيادة الجيش الذى أمر بتجهيزه الى بلاد الشام الى أسامة بن زيد وكان شابا حدثا لا يكاد يعدو العشرين عاما ، وكان في الجيش كبار المهاجرين والانصار ، وقد أنفذ ابو بكر الصديق رضى الله عنه الجيش

بقيادة أسامة بعد وفاة رسول الله ، ولم يلتفت الى اعتراض بعض الصحابة الذين أشاروا عليه بتعيين قائد أسن من أسامة وأكثر منه حنكة ودربة في لحروب • وجوابا على أولئك المعترضين أراد الصديق تكريم هذا القائد الشاب فخرج يودعه ماشيا على قدميه وأسامة راكب فرسه ، ولم يتركه ينزل عن فرسه •

وقد عرف عمر بن الخطاب رضى الله عنه منزلة الشباب • وها هو الامام البخارى يروى لنا عن عبدالله بن عباس قوله : كان عمر يدخلنى مع أشياخ بدر ، فكأن بعضهم وجد في نفسه فقال : لم يدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله ؟ ـ أي في مثل سنه ـ فقال عمر : انه من قد علمتم ، فدعاه ذات يوم فأدخله معهم ، فما رؤيت أنه دعاني يومئذ الا ليريهم ، قال : ما تقولون في قول الله تعالى : (اذا جاء نصر الله والفتح) ، فقال بعضهم : أمرنا أن نحمد الله ونستغفره اذ نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً،فقال لي : أكذلك تقول يا أبن عباس ، فقلت : لا ، قال : فما تقول ، قلت : هو أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلمه له ، قال : اذا جاء نصر الله والفتح، وذلك علامة أجلك ، فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان توابا ، فقال عمر : ما أعلم منها الا ما تقول •

يجب على الشباب أن يقرأ مفاخر آبائه ومآثرهم وأخلاقهم ليجد دنيا عريضة واسعة ، تزدان بأسمى ما عرفت الانسانية من معاني البطولة ، وأخلاق الرجولة ، وشيم الفحول ، وطباع الكمال •

يجب اعداد الشباب على أن يفهم تاريخه ، تاريخه الصحيح بعد نبذ دسائس الشعوبيين الذين تولوا تسطير صفحات تاريخنا فشوهوا معالمه ، وطمسوا أمجاده ، وقلبوا حقائقه ، لأنهم هم الأمل المرجى ، والرجاء المرتقب ، والحياة الدافقة •

يجب على الشباب درس ما في الاسلام من تعاليم خلقية واجتماعية واقتصادية • الاسلام كما قال أحد الافاضل[١] : انما جاء بلغة العرب ، وللعرب أولا ، وان كان قد جاء للناس كافة مع ذلك ، وانتشر الاسلام بجهود العرب ، وكذلك كسب العرب كثيراً من المفاخر بانتسابهم الى الاسلام ، واستظلالهم بلوائه ، ودخولهم في دولته ، اذ الصلة وثيقة بين العروبة والاسلام ، فهم سنام الاسلام وحماته ، وهم الذين طوفوا به في الآفاق ، ونشروا تعاليمه في عرض المعمورة وطولها • وكما يجب على المسلم أن يعتز بالعرب والعربية ، يجب على العربي أن يعتز بالمسلمين والاسلام •

يجب على الشباب أن يكون من الضعف قوة ، ومن النقص كمالا ، وأن لا يسمح بأن يقف في طريقه عائق الفقر أو المرض أو غير ذلك من العوائق،وليذكر أن الحياة مبدأوجهاد،وايمان وعمل،واذا لم تعمل أيها الشباب فانت والميت سواء ، والعضو الذى لا يتحرك يتقلص ، ثم ينقرض •

لقد كان في يد شباب العرب مفاتيح النصر ، لأنهم ارتفعوا فوق ضعف المخلوق ، وقد علمهم الدين كيف يعيشون بالذات السماوية التي تضع في كل قلب سعادته • وعلمتهم الحياة كيف يكونون دعامة قوية في صرحها الشامخ •

ان أوجب الواجبات على الشاب العربي المسلم نكران الذات والايثار والتضحية والاخلاص،وها هم الاسلاف قد أرغموا الدهر على أن يخضع لهم ، والتاريخ على أن يرفع ذكرهم ، فكن خير خلف لخير سلف •

هاكم أيها الشباب مثالا واحداً للتضحية في سبيل اعلاء العقيدة والامة لتكون فيه العبرة والعظمة •

---

(١) الشيخ احمد الشرباصى •

روى التاريخ أن مسلمة بن عبدالملك القائد الاموى العظيم كان أميراً على جيش من جيوش المسلمين ، وكان يحاصر حصنا من حصون الأعداء قد استعصى عليهم فتحه ، فحرض مسلمة جنده على التضحية والاقدام ، حتى يحدثوا في ذلك الحصن ثغرة ، وينقبوا فيه نقبا ، فقدم من عرض الجيش رجل ملثم غير معروف ، ودفع بنفسه الى الحصن غير مبال بالموت، وأحدث فيه ثقبا كان سببا في سقوط الحصن ، واحتلال المسلمين له ، وقد فرح قائد الجيش مسلمة بن عبدالملك بذلك ، وأراد اكرام هذا الجندى المجهول الذى غامر بنفسه في سبيل اعزاز دينه وأمته ، فنادى منادى مسلمة طالباً صاحب النقب ، فلم يأته أحد ، فنادى المنادى مرة أخرى ، بـأن الأمير قد أمر الحاجب بادخال من يطلب مواجهته ساعة يأتي ، وعزم عليه الا جاء ، فجاء رجل الى حاجب مسيلمة وقال استأذن لى على الأمير ، فقال له الحاجب : أأنت صاحب النقب ؟ قال أدلكم عليه وأخبركم عنه ، فدخل واستأذن الرجل على القائد مسيلمة ، فلما مثل بين يديه قال له : أيها الأمير ان صاحب النقب يشترط عليكم ثلاثا ، ألا تبعثوا باسمه في صحيفة الى الخليفة ، وألا تأمروا له بشيء ، وألا تسألوه من هو ، قال مسلمة : فذلك له ، فقال الرجل في استحياء : أنا صاحب النقب ، ثم ولى مسرعاً .

فكان مسلمة لا يصلي بعدها صلاة الا دعا فيها وقال : أللهم اجعلني مع صاحب النقب يوم القيامة .

ولقد وجهت كلمة الى الشباب جاء فيها : لا تيأسوا اذا ادلهمت الخطوب ، وتتابعت الفتن ، وخفت ضوء الرجاء ، فأنه لا يأس مع الحياة ، ولا حياة مع اليأس ، ومن بين الظلمات والدياجى يبزغ القمر المنير ، وبعد الليل المدلهم تضيء الشمس الساطعة ، ولا بد من البلوغ والانتصار اذا ما استشعرتم روح الثبات والاقدام ، وأصررتم على النضال والكفاح ، وكلما

ازدادت الحلقات ضيقا ، والأمور تحرجا ، والأزمات شدة ، والشر غلبة ، والاباطيل كثيرة ، جاءكم الفرج من حيث لم تحتسبوا ، ورزقتم النصر وأنتم مستضعفون ، وقرآنكم المجيد هو الذى يقول : (حتى اذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا ، فنجى من نشاء ، ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين) •

اهتدوا بالرجاء ، واستضيئوا بالأمل ، وادرعوا بالصبر والمثابرة ليسهل كل عسير ، ويدنوا كل بعيد •

ولنختم هذا الاستطراد بمقتطفات من كلمات لامام البلغاء المرحوم مصطفى صادق الرافعي وجهها لشباب العرب حيث قال :

الشباب هو القوة ، فالشمس لا تملأ النهار في آخره كما تملؤه في أوله ، وفي الشباب نوع من الحياة تظهر كلمة الموت عنده كأنها أخت كلمة النوم •

وللشباب طبيعة أول ادراكها الثقة بالبقاء ، وأول صفاتها الاصرار على العزم •

وفي الشباب تصنع كل شجرة من أشجار الحياة أثمارها ، وبعد ذلك لا تصنع الاشجار كلها الا خشباً •

يا شباب العرب ، اجعلوا رسالتكم ، اما أن يحي الشرق عزيزاً ، واما أن تموتوا •

يا شباب العرب ، لم يكن العسير يعسر على أسلافكم الاولين ، كان في يدهم مفاتيح من العناصر يفتحون بها •

أتريدون معرفة السر ؟ السر أنهم ارتفعوا فوق ضعف المخلوق فصاروا عملا من أعمال الخالق •

غلبوا على الدنيا لما غلبوا في أنفسهم معنى الفقر ، ومعنى الخـوف ، والمعنى الارضي •

وعلمهم الدين كيف يعيشون بالذات السماوية التي وضعت فـي كل قلب عظمته وكبرياءه •

واخترعهـم الايمـان اختراعا نفسـيا ، علامته المسـجلة عـلى كل منهم هذه الكلمة لا يذل •

حين يكون الفقر قلة المال ، يفتقر أكثر الناس ، وتخذل القـوة الانسانية • وتهلك المواهب •

يا شباب العرب ، كانت حكمة العرب التي يعملون عليها : أطلـب الموت توهب لك الحياة •

والنفس اذا لم تخش الموت ، كانت غريزة الكفاح أول غرائزهـا تعمل • والكفاح تجعل الحياة كلها نصاً ، اذا لا تكون الفكرة معها الا فكرة مقاتلـة •

غريزة الكفاح يا شباب ، هي التي جعلت الأسد لا يسمن كما تسمن الشاة للذبـح •

يا شباب العرب ، ان كلمة (حقي) لا تحيا في السياسة الا اذا وضع قائلها حياته فيهـا •

فالقوة القوة يا شباب ، القوة التي تقتل أول ما تقتل فكرة التـرف والتخنـث •

يا شباب العرب ، اجعلوا رسالتكم : اما أن يحيا الشرق عزيزا ، واما أن تموتـوا •

المسـجد

والطبقة الثالثة التي يرعاها الله ويظلها بظله يوم القيامة هي التـي تعلق قلبها في المساجد .

والمسجد في اللغة : هو اسم لمكان السجود .

وفي الشرع : هو كل موضع من الأرض ، لقوله عليه الصلاة والسلام: جعلت لى الأرض مسـجدا .

وهذا من خصائص هذه الأمة المسلمة اذ أبيح لها الصلاة في جميع الارض الا اذا تيقنت نجاستها ، بخلاف الأمم الاخرى ، اذ لا تصح صلاتهم الا في مواضع مخصوصة .

لقد نص الحديث على أن ذلك السعيد هو الذى تعلق قلبه بالمساجد أي شديد الحب لها ، والملازمة للجماعة فيها ، وليس معناه القعود فيها ، وترك شؤون الحياة .

وقد قال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : اذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالايمان .

والمسجد : هو المركز الأول لاشعاع الاسلام ، ومكان العبادة الأول ، ومصدر الثقافة والوعي الروحي ، وبداية الانطلاق في تكوين المجتمع الاسلامي، ولقد قيل: المساجدبيوت الله تضيء لأهل السماء كما تضيء النجوم لأهل الارض .

روى أبو الدرداء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : ان الله عز وجل ضمن لمن كانت المساجد بيته الأمن والجواز على السراط يوم القيامة.

وكان أبو الدرداء الانصارى الخزرجي يوصي ولده بقوله : يا بني ليكن المسجد بيتك فاني سمعت رسول الله صلى الله عليـه وسلم يقول :

المساجد بيوت المتقين فمن يكن المسجد بيته يضمن الله له الروح والرحمة والجواز على الصراط الى الجنة ، وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : من غدا الى المسجد أعد الله له في الجنة نزلا كلما غــدا أو راح .

ان أول مسجد وضع للناس هو المسجد الحرام في مكة المكرمة كما نص على ذلك الكتاب الحكيم : (ان أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركاً وهدى للعالمين . فيه آيات بينات مقام ابراهيم . ومن دخله كان آمنا) .

وانما أطلق على المسجد بيت الله ، اشارة الى أنه لا يحتاج الداخــل فيه الى استئذان ولا استئناس . وقد قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه : المساجد بيوت الله في الارض ، وحق على المزور أن يكرم زائره .

ولقد كان سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم متعلقــا بالمســجد الحرام حتى أنه لما أراد الهجرة من مكة وقف ونظر الى البيت الذى اتخذ مصلاه فيه بين الركنين ، الركن الاسود ، والركن اليماني ، وقد قال : والله انك لأحب أرض الله الي ، وانك لأحب أرض الله الى الله ، ولو لا أن أهلك أخرجوني ما خرجت .

عند ما هاجر عليه الصلاة والسلام من مكة ووصل في طريقه الى قباء التي هي ضاحية من ضواحي المدينة بقي فيها بضعة أيام ، وكان من أعماله فيها أن أقام مسجدا ، وهو أول مسجد بني في الاسلام .

وحينما انتقل الى المدينة أنشأ مسجداً يأوى اليه المسلمون ، يتعلمون فيه أمور دينهم ودنياهم ، وأخذ يبني مع أصحابه لاقامتـه ، وينقل اللبـن والحجارة بنفسه ويقول : اللهم لا عيش الا عيش الآخرة ، فاغفر للانصار والمهاجرة ، وبذلك يشجع المهاجرين والأنصار على النشاط والسرعة فـي

العمل . وقد جاء التنزيل منوهاً بهذا المسجد فقال تعالى : (لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين) .

ولشدة تعلقه عليه الصلاة والسلام بالمسجد أقام بيوت أزواجه حوله ، وقد تعلق أصحابه عليهم رضوان الله بالمسجد كرسول الله ، وأقاموا بيوتهم بقربه أيضا .

بنى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أول دخوله الى المدينة مسجدين قبل أن يبني حصناً أو قلعة ، بنى مسجدين قبل أن يبني معهداً أو ملجأ ، لأنه أراد تحصين القلوب بالايمان قبل تحصين المدن بالبنيان ، أراد تقوية النفوس وتثبيت الجنان ، لأن منه يتعلم المرأ الشجاعة والاقدام ، والنخوة والرجولة .

وقد صار المسجد عماد المجتمع الاسلامي وناديه ومجلس شوراه ، ومركز قيادته ، ومدرسة تشريعيه وثقافته ، كان معهداً للعلم ، وداراً للقضاء ، وساحة تتجمع فيها الجيوش ، ويتوجه منه الى ميادين القتال المجاهدون ، وكان منزلا لاستقبال السفراء ، وموضعا للتمريض .

لقد كانت المساجد دور تهذيب ، تصلح النفوس الحائرة ، وتطمئن القلوب المضطربة ، وتهدىء العواطف الثائرة ، وترد الغوى عن غوايته ، ويرسم للمعرض طريق الهداية ، وتفسح الأمل للبائسين ، وتشرح صدور قوم مؤمنين ، لذلك قال رسول الله : ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم الا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن ذكرهم .

وفي هذا المنتدى وهذه المدرسة تمتزج النفوس والعقليات ، وتقوى الوحدة ، وتتآلف الأرواح ، ويتكون المجتمع الاسلامي ، ومنه ينبعث

الأذان خمس مرات في اليوم يعطر الجو والأسماع ، ويعلن بأن كلمة الله هي العليا •

روى عن سمرة بن جندب أنه قال : أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ان نتخذ المساجد في ديارنا وأمرنا أن ننظفها •

وفي المسجد تعد النفوس ، وترسم المناهج ، ويعين الولاة وأمراء الجيش ، وهو شبيه بالمجالس العامة الآن ، فيه توضع الخطط الادارية والسياسية والحربية ، وفيه يتقاضى الناس ، وينظر في المظالم ، وفيه تنظم الضرائب والأمور المالية ، ومنه تصدر الأنظمة والتعليمات ، ومنه يتخرج العلماء والفقهاء والمحدثون والقراء والرواة والأدباء والشعراء ، هكذا كان المسجد وهكذا يجب أن يكون •

وكلما حزب بالمسلمين أمر ، نادى مناديهم (الصلاة جامعة) فيسارع المسلمون الى المسجد ، وهناك يتباحثون ويتشاورون وتصدر الأحكام والقرارات •

وقد كثرت المساجد وزاد انتشارها بتوسع الفتوحات الاسلامية ، وتعالت أصوات المؤذنين داعية الى أن لا كبير في الوجود الا الله ، وأن كلمة الشهادة تجمع فيما بين المسلمين القدامى والمحدثين •

لقد كتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عليه رضوان الله الى أبي موسى الاشعري وهو على البصرة ، يأمره أن يتخذ مسجداً للجماعة ويتخذ للقبائل مسجداً، ولينضموا الى مسجد الجماعة يوم الجمعة• وكتب الى سعد بن أبي وقاص وهو على الكوفة بمثل ذلك ، وكتب له عمرو بن العاص وهو على مصر بمثل ذلك •

فالمسجد هو الدعامة الأولى التي قام عليها هذا الدين ، لذلك حث الشارع على عمارته ، وجعل ذلك علامة على الايمان الصحيح ، قال تعالى : (انما

يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش الا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين) .

وعمارة المساجد تكون بشيئين كما قيل ، تعمير مادى ، وذلك يكون باقامته واصلاحه بالترميم وصونه من الامتهان ، وتعمير روحى : وذلك يكون بذكر الله من الصلاة وتلاوة القرآن والوعظ والارشاد والتعليم : (في بيوت أذن الله ان ترفع ويذكر فيها اسمه، يسبح له فيها بالغدو والآصال. رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة ، يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والابصار) . وقال صلوات الله وسلامه عليه : من بنى لله مسجدا يبتغى به وجه الله ، بنى الله له بيتا في الجنة .

قال امام الأدب المرحوم مصطفى صادق الرافعي في مقال له بعنوان (الله أكبر) : عرفت والله من معنى المسجد ما لم أعرفه ، حتى كأني لم أدخله من قبل ، فكان هذا الجالس الى جانبي كضوء المصباح في المصباح ، فاتكشف لي المسجد في نوره الروحي عن معان أدخلتني من الدنيا في دنيا على حدة ، فما المسجد بناء ولا مكانا كغيره من البناء والمكان ، بل هو تصحيح للعالم الذى يموج من حوله ويضطرب ، فان الحياة أسباب الزيغ والباطل ، والمنافسة والعداوة والكيد ونحوها ، وهذه كلها يمحوها المسجد اذ يجمع الناس مراراً في كل يوم على سلامة الصدر ، وبراءة القلب ، وروحانية النفس ، ولا تدخله انسانية الانسان الا طاهرة منزهة مسبغة على حدود جسمها من أعلاه وأسفله شعار الطهر الذى يسمى الوضوء ، فكأنما يغسل الانسان آثار الدنيا عن أعضائه قبل دخوله المسجد .

ثم يستوى الجميع في هذا المسجد استواءاً واحداً ، ويقفون موقفاً واحداً ويخشعون خشوعاً واحداً ، ويكونون جميعا في نفسية واحدة ، وليس هذا وحده ، بل يخرون الى الأرض جميعا ساجدين لله ، فليس لرأس على رأس ارتفاع ، ولا لوجه على وجه تمييز ، ومن ثم فليس

لذات على ذات سلطان ، وهل تحقق الانسانية وحدتها في الناس بأبدع من هذا ؟ ولعمرى أين يجد العالم صوابه الا ههنا •

فالمسجد هو في حقيقته موضع الفكرة الواحدة الطاهرة المصححة لكل ما يزيغ به الاجتماع ، هو فكرة واحدة لكل الرؤوس ، ومن ثم فهو حل لكل المشاكل ، ليقام المسجد فتقف الارض بمعانيها الترابية خلف جدرانه لا تدخله •

وما حركة في الصلاة الا أولها (الله أكبر) وآخرها (الله أكبر) ، ففي ركعتين من كل صلاة احدى عشرة تكبيرة ، يجهر المصلون بها بلسان واحد ، وكأني لم أفطن لهذا من قبل ، فأي زمام سياسي للجماهير ، وروحاً أشد وأوثق من زمام هذه الكلمة التي هي أكبر ما في الكلام الانساني ••• لذلك قال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : أحب البلاد الى الله مساجدها ، وأبغض البلاد الى الله أسواقها ، وقال صلوات الله وسلامه عليه: من ألف المسجد ألفه الله •

ولقد شرع نظافة المسجد وعدم تلويثه ، حتى روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : البصاق في المسجد خطيئة • وذكر العلماء أن من رأى من يبصق في المسجد لزمه الانكار عليه ومنعه منه ان قدر ، ومن رأى بصاقا أو نحوه في المسجد فالسنة أن يزيله بدفنه أو اخراجه ويستحب تطييب محله •

وأما ما يفعله كثير من الناس اذا بصق أو رأى بصاقا دلكه بأسفل حذائه الذى داس به النجاسة والأقذار ، فذلك لا يجوز لأنه تنجيس للمسجد وتقذير له •

ويكره اللغط ورفع الصوت في المسجد • روى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سمع رجلا رافعا صوته في المسجد فقال : أتدري أين أنت ؟•

كما يكره أكل ما له رائحة كريهة كالثوم والبصل والكراث ونحوه . كما يمنع أكله في المسجد حتى يذهب ريحه . فان دخل المسجد أخرج منه . وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : من أكل ثوما أو بصلا فليعتزلنا أو ليعتزل مسجدنا وليقعد في بيته .

وقد ذكر القرطبى في تفسيره : أن العلماء قد قاسوا على هذا كل ما يؤذي المصلين ، فانه يمنع من ارتياد المسجد حتى يزال ذلك .

ويستحب عقد حلق العلم في المساجد ، وذكر المواعظ والرقائق ونحوهما ، وقد قال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : من دخل مسجدنا هذا ليعلم خيراً ، أو ليتعلم كان كالمجاهد في سبيل الله .

الحب فى الله

والطبقة الرابعة التي يرعاها الله سبحانه وتعالى يوم الفزع الاكبر هم الذين تحابوا في الله اجتمعوا عليه وتفرقوا عليه .

فالمحبة كما قيل : سر الله المخزون الذى تشفى به جميع الأدواء الانسانية ، والترياق الذى تذهب به سموم الامراض الاجتماعية . وهي أنجح وسيلة لاقتلاع الشرور من النفوس .

واذا تأكدت المحبة بين قوم أحلتهم محل الصفاء ، وسارت بهم أسرع ما يكون في طريق الارتقاء ، ونقلتهم الى دائرة الأسرة الواحدة .

والمحبة ينبئك عنها قلبك أكثر مما تنبئك عنها الحدود والرسوم ، والشيء انما يحد لخفائه واستتاره كي يظهر ويتبين ، أما الذى يعرفه كل انسان لم يحتج الى حد .

وقد سئل الشيخ عبدالقادر الجيلي عن المحبة فقال : هي تشويش في القلوب يقع من المحبوب فتصير الدنيا عليه كحلقة خاتم ، والحب سكر لا صحو منه •

فالمحبة أساس الخير وجماع الفضائل وقد جعلها الرسول الكريم شرطا في الايمان ، فقال : والذى نفسى بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا •

ان للاسلام في باب الحب والبغض تعاليم هي أسمى ما يمكن ان يصل اليه علماء النفس والاجتماع والاخلاق •

ان الاسلام لا يقاوم الحب في جميع أنواعه ، لان ذلك يكون تكليفا بالمستحيل ، بل كثيراً ما حث على هذا النوع من الحب ، لأنه عماد السعادة وسبيل الخير •

لقد وصف الله تبارك وتعالى ذاته بالحب فقال : (ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين) وقال : (والله يحب المحسنين) وقال : (ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص) ، كما جعل تعالى هذا الحب علامة رضوانه فقال : (قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم) •

ولقد قيل : لولا الحب ما قامت السموات والارض ، ولا انتظم العالم، ولا عاش الانسان والحيوان ، فالسموات والارض وما بينهما وما فيهما من نعم لا تحصى ، انما هي أثر حبه تعالى لعباده ورحمته بخلقه • والحب بين الرجل والمرأة هو الباعث على الزواج الذي به وجد النوع الانساني ، وهل كانت تعمر الدنيا ، وتقوم المدنيات وتتقدم العلوم والفنون ، وتوجد المخترعات بدون هذه الالوان السامية من المحبة •

والمحبة مركزة في النفوس ، ولا نعيم للقلوب الا بها ، ولا تكون الا

اذا اتفق التناسب بين الارواح التي هي جنود مجندة ، ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف ، وما حشر المرء مع من أحب الا بكونهما من واد واحد ، ولتعميم هذه الصفة بين المسلمين رغب فيها رسول الله بقوله : قال الله تبارك وتعالى : وجبت محبتي للمتحـابين في ، وللمتجالسـين في ، وللمتزاورين في ، وللمتباذلين في .

لقد رغب رسول الله صلى الله عليه وسلم في التحابب في الله ، ورعى الله من اتصف به بعنايته يوم لا راعي الا هو . وانما قيده عليه الصلاة والسلام بقوله : تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه . ليخرج منه المحب الذى يخرج بحبه عن قانون استكمال الوجود الى تدنيس هذا الوجود .

لقد نص الحديث على أن التحاب في الله ، أن يرى كل منهما فـي الآخر مظاهر طاعة الله ودرجات القرب الى الله .

ان المحبة أصل عظيم في هناءة واستكمال التعاطف بين العباد ، فينتفع كل بصاحبه ولا يكون ذلك الا اذا صفت النفوس وخلصـت من أدران الأهواء والشهوات ، وأصبح المرأ لا يحب أخاه لمال يبتغيه ، ولا لغرض يستهدفه ، بل المحبة لذات الله . وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه . فبذلك يكون الائتلاف الصادق ، والتآلف الروحي . ولقد قال أبو ادريس الخولانى لمعاذ بـن جبل : اني أحبك في الله ، فقال له : أبشر ثم أبشر ، فاني سمعت رسـول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ينصب لطائفة من الناس كراسـي حـول العرش يوم القيامة ، وجوههم كالقمر ليلة البدر ، يفزع النـاس وهـم لايفزعون ، ويخاف الناس وهم لايخافون ، وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. فقيل من هؤلاء يا رسول الله؟ فقال: هم المتحابون في الله تعالى . وقال عليه الصلاة والسلام : ما تحاب اثنان في الله الا كان أحبهما الى الله أشدهما حبا لصاحبـه .

وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : ان رجلا زار أخاً له في قرية أخرى فرصد الله تعال على مدرجته ملكا ، فلما أتى عليه قال : أين تريد ؟ قال : أريد أخاً لي في هذه القرية ، قال : هل لك عليه من نعمة تردها عليه ، قال : لا ، غير أني أحببته في الله تعالى ، قال فاني رسول الله اليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه .

حكي القرطبي في تفسيره عن الثعلبي : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى يوما خادمه (ثوبان) مصفر الوجه ، هزيل الجسم ، فقال له : يا ثوبان ، ما غير لونك ؟ فقال : يا رسول الله ، ما بي ضر ولا وجع غير أني اذا لم أرك اشتقت اليك ، واستوحشت وحشة شديدة حتى القاك ، ثم ذكرت يوم القيامة ، وأخاف الا أراك هناك ، لأني علمت أنك ترفع مع النبيين ، واني ان دخلت الجنة أكون في منزلة أقل ، وأنا من شدة حبي لك لا أستطيع فراقك لا في الدنيا ولا في الآخرة . فنزل قول الله تعالى :

(ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا) .

لقد عظم الاسلام هذه الخصلة أيما تعظيم ، ودعا اليها بكل اسلوب حكيم ، اذ المؤمنون بها ليسوا الا أخوة متعاطفين ، ولن يجد الانسان حلاوة الايمان وبشاشته ، وطيبه في القلوب ولذته ، حتى يكون فيه ثلاث خصال : أن يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه الا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه ، كما يكره أن يقذف في النار ، بل قيل ان انتفاء خصلة المحبة هذه تؤذن بانتفاء الايمان. وقد قال سيدنا رسول الله: والذي نفسي بيده . لاتدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولاتؤمنوا حتى تحابوا وروى عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : قال الله عز وجل : المتحابون في جلالي ، لهم منابر من نور ، يغبطهم النبيون والشهداء ، ان هذه المحبة انما هي

فرع عن محبة العبد لله ، وانها لا تكون الا بين الاخيار • وقد قيل : ان المحبة بين الاخيار سريع ايصالها ، بطيء انقطاعها ، وان المودة بين الاشرار سريع انقطاعها ، بطيء اتصالها • وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان أرواح المؤمنين ليلتقيان على مسيرة يوم ، وما رأى أحدهما صاحبه قط •

لقد ضرب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في باب المحبة مثلا عليا لم يبلغها أحد من العاملين • فلقد أحب الانصار اخوانهم المهاجرين حباً جما حتى آثروهم بالمال والأهل • وقد أنزل الله فيهم قرآنا يتلى الى يوم القيامة فقال : (والذين تبوءوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) •

لقد كان الصحابة الذين تخرجوا من مدرسة رسول الله في القمة من الحب والايثار ، وكان أحدهم اذا أهدى اليه شيء يقول أخي فلان أحق به ، فتنتقل تلك الهدية من يد الى يد ، بل كان أحدهم تأتيه الشربة من الماء وهو في الرمق الأخير فيؤثر بها أخاه في الله ويموت عطشانا •

لقد كان مالك بن دينار يقول : لا يتفق اثنان في عشرة الا وفي أحدهما وصف من الآخر • وان أجناس الناس كأجناس الطير ولا يتفق نوعان من الطير في الطيران الا وبينهما مناسبة •

ان الحب في الله اذا قوى أثمر حب كل من يقوم بحق عبادة الله في علم أو عمل ، وأثمر حب كل من فيه صفة مرضية عند الله من خلق حسن أو تأدب بآداب الشرع •

ان هذه الخصلة تطهر القلوب مما يلابسها من الأثرة وحب الذات ، والتعلق بالمطامع واللذات ، وكأنها تهدم بنيان النفوس ، وتبعدها عن نوازعها ومطامحها ، وتصيرها صادقة الاخاء كريمة الوفاء ، تحب لاخيها

ما تحبه لنفسها ، وتكره له ما تكره لها ، لأن من يحب في الله لابد أن يبغض في الله • ومن أحب بسبب فبالضرورة يبغض لضده ، وقد وصف الحب بأنه لا يزيد بالبر ، ولا ينقص بالجفاء ، روى عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول : للمرء المسلم على أخيه من المعروف ست : يشمته اذا عطس ، ويعوده اذا مرض ، وينصحه اذا غاب ، ويشهده ، ويسلم عليه اذا لقيه ، ويجيبه اذا دعاه ، ويتبعه اذا مات ، وينهى عن هجرة المسلم أخاه فوق ثلاث • وفي حديث آخر : المؤمن مرآت أخيه المؤمن ، يرى فيه حسنه وقبحه ، لذلك كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عليه رضوان الله يقول : رحم الله امرأ أهدى الي عيوبي • وكان عمر بن عبدالعزيز يقول لميمون ابن مهران : قل لي في وجهي ما اكره ، فان الرجل لا ينصح أخاه حتى يقول له في وجهه ما يكره •

ان هذا الحب يهدى لحب الله صاحبه ، ومن أحبه الله كان الله معه ، من أول خطوة في طريقه • قال أبو عبدالله القرشي : حقيقة المحبة أن تهب كلك لمن أحببت حتى لا يبقى لك منك شيء ، ولقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : اذا أحب الله العبد دعا جبريل فقال : اني أحب فلانا فأحبه ، فيحبه جبريل ، ثم ينادى في السماء فيقول : ان الله يحب فلانا فأحبوه ، فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول في الارض •

ولنختم هذا الحديث عن الحب في الله بكلمة لاحد الافاضل[1] :

ولو أن المسلمين أشربوا في قلوبهم هذه المحبة كما أشربها أسلافهم من المهاجرين والانصار حتى قدمت فيهم أخوة الايمان على أخوة الانساب في كل شيء حتى في المواريث الى أن استقرت بهم الدار واختلفت الحال لاستطاعوا أن يبنوا مجتمعا لا يجد فيه الضعيف ذلة ، ولا الفقير قلة ، ولا

---

(١) محمود فرج العقدة •

المنقطع وحشة ، ولا الغريب غربة .

ولقد ضرب الانصار لهذه الأمة وللأمم جميعا أروع الامثال في المحبة والايثار : (والذين تبوؤا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما اوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) .

العفـــة والعفـــاف

ثم ذكر الطبقة الخامسة التي يرعاها الله تبارك وتعالى ويظلها بـــوم لا ظل الا ظله ، هي أن تطاب أحدهم امرأة ذات منصب وجمال ، فيرد عليها بقوله : اني أخاف الله رب العالمين .

ولنبدأ بذكر شيء عن العفة أو العفاف ، فهي في اللغة الكف والامتناع عما لا يحل ولا يجمل . وفي العرف : هي ضبط النفس عن الملاذ الحيوانية، وقمع الاهواء التي تثير الشهوات البدنية .

ان العفة من أسمى الفضائل ، وأشرف صفة للانسان ، اذ هي التي تمنع المرء عن ارتكاب الامور الخسيسة والاحوال الدنيئة .

ورأس العفة يتعلق بضبط القلب من الشهوات البدنيـــة ، وحفـظ الجوارح : (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلـــك أزكى لهم ان الله خبير بما يصنعون . وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن) . والا تكلف الجوارح الا بما يسوغه العقل والشرع دون الشهوة والهوى : (وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هي المأوى) .

ولقد حث النبي صلى الله عليه وسلم على الزواج حفظا للدين فقال :

من تزوج فقد حفظ نصف دينه ، فليتق الله في النصف الآخر •• وقال : يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فأنه أغض للبصر ، وأحفظ للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فانه له وجاء •

وقد ذكر أن الانسان لا يكون عفيفاً الا بشرائط :

أن لايكون تعففه عن الشيء انتظارا لاكثر منه ، أو لجمود شهوته ، أو للاشعار بالخوف من عاقبته ، أو لأنه ممنوع من تناوله ، فان ذلك كله لا يعد عفة ، بل هو عجز واصطبار وجهل •

وترك ضبط النفس عن الشهوة أذم من تركها عند الغضب • ولذا قيل : عبد الشهوة أذل من عبد الرق •

ان تغلغل الشهوة في القلوب وتمكنها من النفوس ـ كما قيل ـ أمر معروف ، وانما يتفاوتون في الفضل بقدر ما يبذلون من جهد للتخلص من أسارها وقهر النفس على الفرار من سيئاتها •

وقد يكون الخلاص منها لضعف تعلق النفس بها ، لانها لم تستكمل كل الرغائب أما اذا كملت رغائب النفس وهي مبنية على شهوات ، فهذا هو الامتحان حقا ، فمن أعرض عنها وقد توافرت رغباته ، فانما يكون ذلك خوفا من الله واجتناب نواهيه •

ان ذلك هو الذى لا تخدعه اللذة العاجلة ، ولا تستهويه الشهوة العاصية ، وهذا موقف امتحان ، لا يتعداه المرء الا بمعونة الله ورعايته ، كما حدث ليوسف عليه السلام حين استعان بالله ليصرف عنه السوء والفحشاء ، وقد ناداه : (والا تصرف عني كيدهن أصب اليهن وأكن من الجاهلين)

ان العفة وان كانت لازمة للرجل ، فهي للمرأة ألزم وأوكد • قال الامام الشعبي : حلية الرجال السماحة والفصاحة ، وحلية النساء العفة والقناعة ، لانه تعالى وضع النسل في بطون الامهات ، فلا يباح للنساء هتك حرمة هذا النسل ، فاذا تهاونت المرأة في عرضها فربما دست في الاسرة

ما ليس منها ، فالعفاف في المرأة هو الجوهر الذى به تقوم تربيتها والسلاح الذى تدافع به عن شرفها وكرامتها ، وهد عندها بمثابة القوة عند الرجل وهو سندها في الضعف ، ومرشدها في الغواية ، ومصباحها في الظلام ، وزينتها مدى الايام ، وأساس سعادتها وسعادة أسرتها • ولقد قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه : ما أعطى المرء بعد ايمانه خيرا من امرأة صالحة ، وسئلت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها : أي النساء أفضل ؟ فقالت التي لا تعرف عيب المقال ، ولا تهتدى لمكر الرجال ، فارغة القلب الا من الزينة لبعلها والابقاء في الصيانة على أهلها •

وقال بعض الحكماء : النساء هن معراج الشرف بعفتهن ، ونبير المصائب بابتذالهن • •

لقد كان عبدالرحمن بن عمار المعروف بالقس عابدا متنسكا ، وقد أوقعه حظه في سلامة المغنية ، فبادلته حبا بحب حتى اشتهرت به فقيل عنها : سلامة القس ، فقالت له : أنا أحبك ، فقال لها : وأنا والله كذلك ، قالت فما يمنعك ، فوالله ان الموضع لخال ، فقال لها : لقد تذكرت قول الله عز وجل : (الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين) • وأنا أكره أن تنقلب خلتنا عداوة يوم الحساب •

لقد ذكر الحديث بأن الطلب كان من قبل المرأة وهذه أول درجات الاغراء وثنى بأنها ذات شرف وحظ فلا تأنف النفس من الاتصال بمثلها وثلث بأنها ذات جمال ، وذلك أساس الرغبة • ومن هنا كان الرجل الذى تدعوه ذات حسب وجمال الى نفسها ولا يجيبها الى ما دعت اليه حقيقا بأن يكون في ظل الله يوم القيامة •

ان الرجل الذى فر من هذه المرأة التي حسنت له المنكر ، وزينت له الفاحشة ، هو قوى الايمان الذى سيطر على دوافع الطبع وسورات الغريزة • فالايمان هو الرقيب والوازع ، وهو الذى عصم الانسان وحماه

من الوقوع في الفاحشة ، وان أشرف الجهاد جهاد النفس والهوى •

ان الذى وقف حاجزا بين المرء واقتراف المنكر هو خوف الله ، وهو الذى يكون تارة لمعرفة صفاته من العلم والقدرة والعزة والجلال ، كخوف الملائكة منه تعالى : (يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون مايؤمرون) ، فهذا خوف الاجلال •

وتارة يكون الخوف لكثرة مقارفة المعاصي ، واخوف الناس لربه أعرفهم بنفسه وبربه •

والخشية أشد الخوف • وفي الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : والله لأنا أعلمكم بالله وأشدكم له خشية • واذا كملت المعرفة أورثت حال الخوف الذى يفيض على القلب فيؤثر في الجوارح ويكفها عن المعاصي • ولقد قيل : ليس الخائف من يبكي ويمسح عينيه بل يترك ما يخاف أن يعاقب عليه •

ولقد حصر الله تبارك وتعالى الخشية في العلماء فقال : (انما يخشى الله من عباده العلماء) لانها انما تكون عن علم ما يخشى منه • والعلماء هم الذين علموا قدره وسلطانه وشدة تنزيهه وبطشه ، وانه الذى يفعل ما يريد •

قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه : في تعليقه على قول رسول الله : رأس الحكمة مخافة الله ، انها تمنع النفس عن المخالفات • وقال أبو سليمان الداراني : كل قلب ليس فيه خوف الله فهو خراب • وقال الفضيل بن عياض : من خاف الله دله الخوف على كل خير • وقال يحي بن معاذ : مسكين ابن آدم لو خاف النار كما يخاف الفقر دخل الجنة •

وهذا رسول الله يقول : شيبتني هود وأخواتها (الحاقة والواقعة وعم يتسألون واذا الشمس كورت والغاشية) ، قال العلماء : لعل ذلك لما فيهن من التخويف العظيم والوعيد الشديد باشتمالهن مع قصرهن على ذكر أحوال

الآخرة وعجائبها وفظائعها ، وأحوال الهالكين والمعذبين مع ما اشتملت عليه هود من الامر بالاستقامة كما أمر . وهو كما قيل ، من أصعب المقامات الذى لا يتأهل له الا هو صلى الله عليه وسلم وهو كمقام الشكر ، ولذا قيل له عن مجاهدته لنفسه وكثرة بكائه وخوفه وتضرعه : أتفعل هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، قال أفلا أكون عبداً شكوراً .

وكان سهل التسترى يقول : خوف الصديقين من سوء الخاتمة عند كل خطوة وحركة ، وهم الذين وصفهم الله تعالى بقوله : ﴿ وقلوبهم وجلة ﴾ .

ولقد كان ابن السماك يعاتب نفسه ويقول لها : تقولين قول الزاهدين، وتعملين عمل المنافقين ، ومع ذلك الجنة تطلبين ان تدخليها ، هيهات هيهات، للجنة قوم آخرون ، ولهم أعمال غير ما نحن عاملون .

ولما احتضر سفيان الثورى جعل يبكي ويجزع ، فقيل له : يا أبا عبدالله عليك بالرجاء فان عفو الله أعظم من ذنوبك ، فقال : أو على ذنوبي أبكي ؟ لو علمت أني أموت على التوحيد لم أبال بان ألقى الله بأمثال الجبال من الخطايا . فاذا كان خوف العارفين مع رسوخ أقدامهم وقوة ايمانهم من سوء الخاتمة . فكيف لا يخاف الضعفاء .

وروى الامامان أبو داود والترمذى عن عبدالله بن الشخير أنه قال : أتيت رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وسلم‌وهو يصلى ولجوفه أزيز كأزيزالمرجل‌من البكاء (أي غليان القدر على النار) .

ومن شدة الخوف قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : ليتني كنت شعرة في صدر مؤمن . ولما اشتد المرض برسول الله صلى الله عليه وسلم قال : مروا أبا بكر فليصل بالناس ، فقالت عائشة : ان أبا بكر رجل رقيق اذا قرأ القرآن غلبه البكاء ، فقال : مروه فليصل .

وهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يسقط من الخوف اذا سمع اية من القرآن ولما قرأ : (اذا الشمس كورت) وانتهى الى قوله تعالى : (واذا الصحف نشرت) خر مغشيا عليه .

وقد قال يوما : ليتني لم أخلق ، ليتني لم أك شيئا مذكورا ، ليت امي لم تلدني . فقال له عبدالله بن عباس : ما هذا الخوف يا أمير المؤمنين وقد فتح الله بك الفتوح ومصر بك الامصار ، وفعل بك وفعل ؟ فقال له : وددت أن أنجو لا علي ولا لي . وقال رضي الله عنه : من خاف الله لم يشف غيظه ، ومن اتقى الله لم يضع ما يريده ، ولو لا القيامة لكان غير ما تريدون .

وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه : وددت اني اذا مت لم أبعث . وهو الذي يقول عنه عبدالله بن عمر رضي الله عنهما لما قرأ قول الله : (أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه) هو عثمان بن عفان رضى الله عنه .

وقال علي بن ابي طالب رضي الله عنه وقد سلم من صلاة الفجر وقد علاه كآبة وهو يقلب يده : لقد رأيت اصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فلم أر اليوم شيئا يشبههم ، لقد كانوا يصبحون شعثاً صفرا غبرا ، بين أعينهم أمثال ركب المعزى ، قد باتوا لله سجدا وقياما يتلون كتاب الله ، فاذا أصبحوا ذكروا الله فمادوا كما يميد الشجر في يوم الريح ، وهملت أعينهم بالدموع حتى تبل ثيابهم ، وكأني بالقوم باتوا غافلين .

وقد سئل عبدالله بن عباس عن الخائفين فقال : قلوبهم بالخوف فرحة . واعينهم باكية يقولون كيف تفرح والموت من ورائنا ، والقبر أمامنا ، والقيامة موعدنا ، وعلى جهنم طريقنا وبين يدى الله موقفنا .

أما الغرة بالله ، فهي كما قيل ، أن يتمادى الانسان في المعصية ويتمنى على الله المغفرة وكيف يغتر العاصي ويطمع في النجاة وهي ليست الا للعشرة

الذين بشرهم رسول الله صلى الله وعليه وسلم بالجنة ، ومع ذلك كان عندهم من الخوف ما اقتضى أن يقول الصديق وهو أكبرهم : ليتني كنت شعرة في صدر مؤمن ، وهذا عمر بن الخطاب الذى بشره رسول الله بالجنة يسأل حذيفة صاحب سر رسول الله المتعلق بالمنافقين والفتن، فقال له : يا حذيفة هل أنا من المنافقين ؟ فقال : لا والله لست منهم يا أمير المؤمنين . فخاف عمر رضي الله عنه أن يكون نفسه قد لبست عليه حاله وسترت عنه عيوبه ، وعظم ذلك عليه حتى جوز أن يكون ذلك الوعد مشروطا بشروط لم تحصل منه فلم يغتر به .

ولا يمكن أن يكون الانسان حاضر الايمان حين يفعل الفاحشة ، بل يكون غافلا عنه ، فلو أنه تذكر ايمانه أو ذكر به لما أقدم على الفاحشة .

وللحيلولة دون الوقوع في المأثم والمنكر حذر رسول الله صلى الله عليه وسلم من الخلوة باجنبية فقال :

من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يخلون بامرأة لا تحل له ، فان ثالثهما الشيطان .. وقال اياكم والدخول على النساء ، وقال احد الحكماء : العفة حجاب يمزقه الاختلاط .

الصدقات

ثم ذكر عليه الصلاة والسلام الطبقة السادسة من المقربين الى الله تبارك وتعالى فذكر منهم : رجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما صنعت يمينه .

فهذا الصنف من الناس ينالون في ذلك اليوم الرهيب الأمن والطمأنينة، لانهم خافوا الله في الدنيا ، فلم يجمع عليهم خوف الدنيا وفزع الآخرة ، بل يعافيهم من هول ذلك اليوم العظيم وحره الشديد بظله المديد يوم لا ظل

الا ظله فيكونون في كنف الله ورعايته •

لقد ورد في القران الكريم لفظ الصدقات في اكثر من خمس عشرة آية ، وكلها تحث على السبر والاحسان ، ومساعدة القادر للعاجز عن الكسب •

والتصدق كما قيل ، عمل اختيـــارى محض يقوم به الافـــراد او الجماعات او الهيئات تقربا الى الله تعالى ، وتخفيفا لويلات البؤس والحرمان، وهي متروكة لوجدان المحسن وتقديره، ودون تحديد لما يدفع اويجمع لقوله تعالى : (ما على المحسنين من سبيل) •

ان الصدقات قرض على الله لمن يقرضه ، ترد بأوفى ما يكون الوفاء : (الم يعلموا ان الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات ، وان الله هو التواب الرحيم) •

ان الصدقات قرض على الله لمن يقرضه ، ترد بأوفى ما يكون الوفاء : (ان المصدقين والمصدقات واقرضوا الله قرضا حسنا يضاعف لهم ••• من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له وله أجر كريم) •

والصدقات تربوا عند الله وتزداد ، وما نقص مال من صدقة أو زكاة، وانما ينقص ويتضاءل بالربا والشح : (يمحق الله الربا ويربى الصدقات ، والله لا يحب كل كفار أثيم ••• وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين •• وما تنفقوا من خير يوف اليكم) • وقد قال سيدنا رســـول الله صلى الله عليه وسلم : ان الصدقة لتطفىء غضب الرب وتدفع ميتة السوء ما السائل الا نائب عن ربه في قبض الصدقة •• اتق الله ولو بشق ثمرة • فمن لم يجد فبكلمة طيبة • وقال صلوات الله وسلامه عليه : ما من يـــوم يصبح العباد فيه الا ملكان ينزلان ، فيقول أحدهما : اللهم اعط منفقـاً خلفا ، ويقول الآخر : اللهم اعط ممسكا تلفا •

ولا يقبل الله الصدقات اذا لم يقصد بها ابتغاء مرضاته وامتثالا لأمره ، كما لا يقبلها تعالى اذا كانت للفخر والمباهاة والرياء ، لأن الرياء يحبـــط

الاعمال ويأكلها كما تأكل النار الحطب ، وقد سأل أحد الاصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله فيم النجاة ؟ فقال ان لا يعمل العبد بطاعة الله يريد بها الناس • وروى ابن المبارك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : ان المرائي ينادى عليه يوم القيامة يا فاجر ، يا غادر ، يامرائي ضل عملك ، وحبط أجرك ، اذهب فخذ أجرك ممن كنت تعمل له •

وقد رغب الشارع في الاسرار بالصدقات للنجاة من الرباء ، وقد أثنى تعالى على الاسرار فقال : (وان تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم) •

وقد قيل في تفسير هذه الآية : أخبر سبحانه أن اعطاءها للفقير في خفية خير للمنق من اظهارها واعلانها ، وتأمل تقييده تعالى الاخفاء بايتاء الفقراء خاصة ولم يقل وان تخفوها فهو خير لكم ، فان من الصدقة مالا يمكن اخفاؤها ، كتجهيز جيش وبناء قنطرة ، واجراء نهر أو غير ذلك • وأما ايتاؤها الفقراء ففي اخفائها من الفوائد ، التستر عليهم ، وعدم تخجيلهم بين الناس ، واقامتهم مقام الفضيحة ، وأن يرى الناس أن يدهم هي اليد السفلى ، وعدم المراءات وطلب المحمدة من الناس ، ومن هنا أثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم على صدقة السر وأثنى على فاعلها وأخبر أنه أحد السبعة الذين هم في ظل عرش الرحمن يوم القيامة • وقد قال عبدالله بن عباس : جعل الله صدقة السر في التطوع تفوق علانيتها بسبعين ضعفا ، وجعل صدقة الفريضة علانيتها أفضل من سترها بخمسة وعشرين ضعفا •

وقد جاء في كتاب الزكاة[١] ليس أشد على نفس المرء الابية من أن تستذل وتحتقر على مرأى من الغير ، ولذلك كان من المروأة الا تشعر

(١) لمحمد اسماعيل ابراهيم •

الفقير بفقره ، ولا أن تشعره بأنك محسن متفضل عليه بمالك الذى هو مال الله اصلا ، فانك ان رأيت فقيرا متعففا في جمع من الناس وأعطيته الحسنة جهاراً فقد أعلنت فقره وبينت للملأ عوزه ، وهذا يؤثر في النفس الكريمة تأثيراً سيئا ، فتنقلب الحسنة سيئة ، ويكون المحسن قد أساء من حيث أراد الاحسان ، فاذا أنت أخفيت صدقتك ، فانك قد يسرت أمره وفرجت كربته ، وصنت ماء وجهه من أن يراق أمام الناس ، وتلك حالة يجب مراعاتها مع هؤلاء النفر الذين أخنى عليهم الدهر بعد عز وجاه ، ولا يسألون الناس أصلا ويتركون أمرهم لأهل المروأة والمشاعر النبيلة يسترون مفاقرهم ، ويسدون احتياجاتهم •

لقد رغب تبارك وتعالى في اخفاء الصدقة بقوله : (ان تبدوا الصدقات فنعما هي وان تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون خبير) •

ان المحسن اذا أعطى علنا ربما يكون عرضة لوصمة الرياء الذى هو الشرك الاصغر كما قيل •

وهذا الترغيب في اخفاء الصدقة محمول على صدقة التطوع ، أما زكاة الفرض فالافضل اظهارها لانها شعيرة دينية • وليكون قدوة للاغنياء •

ويشترط في المنفق الا يتبع ما انفق منا أو معايرة بما فعل بأن يتعدى أو يتيه على الفقراء ، وكذلك لا يتبع المحسن انفاقه بالاذى والضرر ، كأن يسخر الفقير لخدمته ، وقد شبه الله الذين يمنون ويؤذون الفقراء بالحجر الاصم الاملس عليه تراب ينبت فيه الزرع • وقد نزل عليه مطر شديد ، فذهب التراب وبقي الحجر أملس لا ينبت عليه شيء •

وعلى المتصدق ان يستصغر كل ما يعطي وان كثر ، وان يشعر بواجب الشكر لله تعالى ان جعله متصدقا ولم يجعله مستعطيا •

وان الصدقات لا تحل للقوى القادر على الكسب الا اذا كان كسبه أقل من حاجته • وان الاسلام لم يحث على الصدقات لتكون سببا في القعود عن الزرق والسعي الحثيث وراءه ، لأنه لا يشجع على البطالة والتعطل • وان الاسلام يأبى وجود طبقة مهينة ذليلة تعيش على الصدقات لذلك حث على العمل •

ذكر الله

ثم ختم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بذكر السابع من هؤلاء المحظوظين الذين رعاهم الله تعالى واظلهم بظله يوم لا ظل الا ظله ، وهو رجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه •

ان ذكر الله تعالى من احب العبادات المقربة الى الله ، وبقربه الى الله يظفر بالأجر والمغفرة : (والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيما) •

وفي الحديث القدسي : انا عند ظن عبدى بي ، وأنا معه اذا ذكرني ، فان ذكرني في نفسه • ذكرته في نفسي ، وان ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه •

ان ذكر الله هو التفكير بألوهيته تعالى التي لا يشركه فيها أحد ، وعلمه الذى لا يخفى عليه شيء ، وقدرته التي تتناول كل ما في الكون ، وانعامه على عباده بالخلق والرزق وسائر ما يحتاجون اليه ، وكما له المطلق الذى لا يدانيه كمال ، ولا يرقى اليه •

روى عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الا انبئكم بخير اعمالكم وازكاها عند مليككم وارفعها في

درجاتكم وخير لكم من اعطاء الذهب والورق ، قالوا : وما هو يا رسول الله ؟ قال ذكر الله عز وجل •

وفي الصحيح مرفوعا : ان لكل شيء صقالة ، وان صقالة القلوب ذكر الله ، وما من شيء انجى من عذاب الله من ذكر الله ، قالوا : ولا الجهاد في سبيل الله ؟ : قال : ولا ان يضرب بسيفه حتى ينقطع •

وروى الشيخان مرفوعا : مثل الذي يذكر الله والذي لا يذكر الله مثل الحي والميت • وقال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله ، ان شرائع الاسلام قد كثرت علينا ، فمرني بأمر أتشبث به ، فقال : لا يزال لسانك رطبا بذكر الله تعالى :

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : اكثروا من ذكر الله تعالى حتى يقولوا مجنون •• وقال عليه الصلاة والسلام : ما من قوم جلسوا مجلسا لم يذكروا الله تعالى فيه الا رأوه حسرة يوم القيامة •

وروى الامام أحمد والطبراني : ان رجلا قال : يا رسول الله أي المجاهدين أعظم أجرا ، قال : أكثرهم ذكراً لله ، ثم ذكر الصلاة والزكاة والحج والصدقة • كل ذلك ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : أكثرهم لله ذكرا ، فقال أبو بكر لعمر : يا أبا حفص ذهب الذاكرون بكل خير ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أجل •

فذكر الله تعالى ، نور البصيرة ، وطهارة السريرة ، ومفتاح الغيث ، وأنيس المتوحشين ، ويجلى ظلمة القلوب ، ويبعث الطمأنينة ، وبريح المتعبين ، ويقوي اليقين ، ويهدي الحيارى ، ويزيل قلق النفوس ، ويغرس الأمن فيها • وبذكر الله تنفرج الأزمات ، وتقل المشكلات ، وتزول الصعوبات ، وتقضى الحاجات ، وتغفر الزلات ، ويجاب الدعاء •

بأمر الله تبارك وتعالى بالاكثار من ذكر الله المنعم عليهم بأنواع النعم ، وصنوف المنن ، على أن يكون لسانه بذكر الله مشغولا ، وقلبه عن باب مولاه لا يحول ، سره كعلانيته ، وعلانيته كسره ، ان أعطى شكر • وان منع صبر •

يقول ابن القيم الجوزية : الذكر شجرة تثمر المعارف والاحوال التي شمر اليها السالكون ، فلا سبيل الى نيل ثمارها الا من شجرة الذكر، وكلما عظمت تلك الشجرة ورسخ أصلها ، كان أعظم لثمرتها ، فالذكر يثمر المقامات كلها من اليقظة الى التوحيد • ويقول : انه رأس الاصول ، وطريق عامة الطائفة ، ومنشور الولاية ، فمن فتح له فيه فقد فتح له باب الدخول على الله عز وجل فليتطهر وليدخل على ربه يجد عنده كل ما يريد ، فان وجد ربه عز وجل ، وجد كل شيء وان فاته ربه عز وجل، فاته كل شيء •

ان الذكر الذى يحبه الله ، وتبسط له الملائكة اجنحتها وتقتاب به ، وتحيا عليه ، وهو الذى تتجلى آثاره على جوارح صاحبه وحركاته واعماله ومنهجه في السلوك العام •

ليس المقصود بالذكر ترديد اسم الله باللسان فقط ، فالتوبة من الذنوب ذكر ، والتفكير في قدرة الله وآيات صنعه ذكر ، وطلب العلم ذكر، وطلب الرزق ذكر ، وكل أمر يراعيى الانسان فيه ربه ذكر ، وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : لا يقعد قوم يذكرون الله عز وجل الا حفتهم الملائكة ، وغشيتهم الرحمة ، ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده •

وبذكر الله يسلم المرء أمره الى الله ، ويتخلص من الاحزان وغوائل

الزمان ، وقد قال رسول الله لصاحبه أبي بكر وهما في الغار : (لا تحزن ان الله معنا) •

ان معنى الذكر هو التوجه بالقلب الى الله ، واظهار العبودية لخالق الاكوان ، والتخلي عن رديء الاخلاق والتحلي بمكارمها ، والتجلي بشهود عظمة الله في كل وقت من الاوقات • وقد سأل سائل الامام البسطامي عن علامة العارف ، فأجابه بقوله : الا يفتر عن ذكر الله ولا يمل من حقه ، ولا يستأنس بغيره ••• وقال يوسف الرازى : من ذكر الله بحقيقة ذكره ، نسي ذكر غيره ، ومن نسي ذكر كل شيء في ذكره ، حفظ عليه كل شيء ، اذ كان الله عوضا له من كل شيء •

اذا ذكر الذاكر كلمة (الله) امتلأ قلبه ايمانا بالله الواحد الاحد ، الذى ليس كمثله شيء ، القادر القوى القاهر فوق عباده ، واذا امتلأ القلب بتلك الكلمة ، تجلى الايمان على العبد فلا يرهب الا الله ، ولا يجل الا الله، ولا يقرب المحرمات ، ولا يتهاون في عبادة أو طاعة ، وليعلم ان الله يراه ، لذلك يجب ان يمتلىء كمالا وخلقا وايمانا ورحمة • ولقد قال ابن عطاء الله السكندوى : وكل عمل صالح فهو ذكر لله ، فالمتفقه ذاكر ، والمدرس ذاكر ، والمفتى ذاكر ، والمتفكر في عظمة الله تعالى وجلاله وجبروته وآياته في ارضه وسماواته ذاكر ، والممتثل ما أمر الله به ، والمنتهى عما نهى عنه ذاكر • وقد يكون الذكر باللسان ، وقد يكون بالجنان ، ويكون بأعضاء الانسان ، وقد يكون بالاعلان والجهر ، والجامع لذلك كله ذاكر كامل •

روى أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال : ان لله ملائكة يطوفون بالارض يلتمسون أهل الذكر ، فاذا وجدوا قوما يذكرون الله عز وجل تنادوا هلموا الى حاجتكم ، قال فيحفونهم بأجنحتهم الى السماء الدنيا قال : فيسألهم ربهم ، وهو أعلم

بهم : ما يقول عبادي ؟ قالوا يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ، قال فيقول هل رأوني ؟ فيقولون : لا والله ما رأوك : قال فيقول : وكيف لو رأوني ؟ فيقولون : لو رأوك كانوا أشد عبادة ، واشد لك تمجيداً وتحميداً، واكثر لك تسبيحا ، قال فيقول : فما يسألوني ؟ قالوا : يسألونك الجنة ، قال : وهل رأوها ؟ قال يقولون : لا والله يا رب ما رأوها ، قال : فيقول : فكيف لو رأوها ؟ فيقولون : لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصا وأشد لها طلبا ، وأعظم فيها رغبة ، قال : فمم يتعوذون ؟ قال : يقولون من النار، قال : وهل رأوها؟ قال : يقولون لا والله يا رب ما رأوها ، قال : فكيف لو رأوها ، قال : يقولون : لو رأوها كانوا أشد منها فرارا ، وأشد لها مخافة ، قال : فيقول : فاشهدكم أني قد غفرت لهم ، قال : يقول ملك من الملائكة فلان ليس منهم ، انما جاء لحاجته ، قال : هم الجلساء ، لايشقى بهم جليسهم .

فيذكر الله يحيا الضمير ، وتستيقظ حاسة الخير ، وتسكن النفس الى الحقائق ، بهذا يطمئن القلب ، وتهون الشدة ، ويستحق الانسان معونة ربه وتوفيقه ، وفي الحديث القدسي : انا عند ظن عبدى بي ، وانا معه حيث يذكرني .

ان الغافل عن ذكر الله يشقى حتى في النعمة ويظل حتى في الطاعة فان اصابته محنة لم يجد ملجأ ولا مفزعا وتضيق الدنيا في وجهه ، وتتراكم خواطر الشر والسوء في عقله ويستولى عليه اليأس والقنوط ، مصداق قول الله : (ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا) ، واذا ناله خير استقبله بالبطر والزهو والغرور ، وفي غفلة عن ذكر الله ، يستخدم نعم الله في معصيته ، وبهذا يعرض النعمة للزوال ، ولقد قال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : اذا رأيتم الله يعطى العبد ما يحب وهو مقيم على معصيته فان ذلك منه استدراج ، ثم تلى قول الله : (فلما نسوا ما ذكروا به

فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى اذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون) آسفون حزينون •

روى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج يوما فمر على حلقة من اصحابه فقال : ما اجلسكم ؟ قالوا : جلسنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا للاسلام ومن به علينا ، قال : الله ما أجلسكم الا ذاك ؟ قالوا : والله ما اجلسنا الا ذاك ، قال : أما أني لم أسألكم تهمة لكم ، ولكنه أتاني جبريل فأخبرني أن الله عز وجل يباهي بكم الملائكة •• وقال عليه الصلاة والسلام: ما من قوم اجتمعوا يذكرون الله تعالى لا يريدون بذلك الا وجهه الا ناداهم مناد من السماء قوموا مغفورا لكم قد بدلت لكم سيئتكم حسنات •• وقال ما جلس قوم مجلسا يذكرون الله عز وجل الا حفت بهم الملائكة ، وغشيتهم الرحمة وذكرهم الله تعالى فيمن عنده •

يجب ان يكون ذكر الله تعالى بالقلب واللسان معا ، فالذكر باللسان وحده ليس له كبير شأن ، واشغال القلب بالذكر يستتبع تحرك اللسان به• ولذلك قال منصور بن عمار : سبحان من جعل قلوب العارفين أوعية الذكر • وقال ابن خبيق الانطاكي : خلق الله القلوب مساكن للذكر • وقال ابن القيم : وفي كل جارحة من الجوارح عبودية موقتة ، والذكر عبودية القلب واللسان ، وهي غير مؤقتة • ولقد وصف علي رضي الله عنه أصحاب رسول الله بقوله : كانوا اذا ذكروا الله مادوا كما تميد الشجرة في اليوم الشديد الريح ، وجرت دموعهم على ثيابهم •

ان ذكر الله هو خير ما يشغل به المؤمن وقته ، لأنه هو الذخيرة الروحية التي لا غنى عنها لانسان يعرف قيمة حياته ، وهو خير ما يجتمع عليه المسلمون ، لأنه يطهر نفوسهم ، ويحي قلوبهم ، ويسموا بأرواحهم• وقد ورد : ما من أحد يموت الا ندم ، فان كان مطيعا ندم ان لم يكن زاد

في طاعته ، وان كان عاصيا ندم ان لم يكن اقلع عن معصيته .

ولقد حث الشارع على الاكثار من ذكر الله ، وقد قال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل عندما سأله عن أى الاعمال خير وأقرب الى الله : ان تموت ولسانك رطب من ذكر الله . وقال تبارك وتعالى في كتابه الكريم : (يا ايها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا . وسبحوه بكرة واصيلا .. الذين يذكرون الله قياما وقعوداً وعلى جنوبهم .. والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما) . قال لربيع بن انس لبعض أصحابه : علامة حب الله كثرة ذكره ، فانك لن تحب شيئا الا اكثرت ذكره . وقال ذو النون المصرى : من اشتغل قلبه ولسانه بالذكر قذف الله في قلبه نور الاشتياق اليه .

وايهما أنفع الذكر منفردا او جماعة : اجاب عنه احد الافاضل فقال: الذكر منفردا انفع لأصحاب الخلوة ، والذكر جماعة أنفع لمن لا خلوة لديه .

فان قلت : فأيهما انفع الذكر جهراً أو سرا ؟ فالجواب : الذكر جهراً أنفع لمن غلبت عليه الجماعة من أصحاب السلوك .

فان قلت : فهل الاجتماع على الذكر أفضل أم هو بدعة كما يزعمه بعضهم قلنا : هو مستحب يحبه الله ورسوله ، وأى عبادة أفضل من عبادة قوم يجتمعون على ذكر الله ، ويجالسونه بذكرهم .

فان قلت : فما الدليل على ان الاجتماع على الذكر افضل . فالجواب: ان من الدليل على ذلك ما رواه الامام مسلم والترمذى مرفوعا : لا يقعد قوم يذكرون الله تعالى الا حفتهم الملائكة ، وغشيتهم الرحمة ، ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده .

وروى الامام البخارى مرفوعا : ان لله ملائكـــة يطوفون الطـرق يلتمسون اهل الذكر ، فاذا وجدوا قوما يذكرون الله عز وجـل تنادوا : هلموا الى حاجتكم ، قال : فيحفونهم بأجنحتهم الى سماء الدنيا •

وروى الامام احمد باسناد حسن مرفوعا : ما من قـوم اجتمعـــوا يذكرون الله عز وجل ، لا يريدون بذلك الا وجهه ، الا ناداهم مناد من السماء ، ان قوموا مغفورا لكم قد بدلت سيئاتكم حسنات •

وقد شبه الامام الغزالى ذكر الانسان وحده وذكر الجماعـة بأذان المنفرد واذان الجماعة قال : فكما ان اصوات المؤذنين جماعة تقطع جـرم الهواء أكثر من صوت مؤذن واحد ، كذلك ذكر الجماعة على قلب واحد أكثر تأثيرا في رفع الحجاب من شخص واحد • واما من حيث الثـواب فلكل واحد ثواب نفسه وثواب سماع رفيقه •

ووجه كون الذكر جماعة اكثر تأثيرا في رفع الحجب الكثيفـــة ، كون الحق تعالى شبه القلوب بالحجارة، ومعلوم ان الحجر الكبير لا ينكسر الا بقوة جماعة مجتمعين على قلب واحد ، لأن قوة الجماعة اشد مـــن قوة الشخص الواحد ، ومن هنا اشترطوا في الذكر ان يكون بقوة تامة ، واستدلوا بقوله تعالى : (ثم قست قلوبهم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة) • فكما ان الحجر لا يتكسر الا بقوة ، كذلك الذكر لا يؤثر في جميع شتات قلب صاحبه الا بقوة •• ا هـ •

وقد ذكر الشيخ ابو الفرج ابن رجب الحنبلي بعض المواطن التي يذكر فيها اسم الله منها :

يشرع ذكر الله وحمده عند الاكل والشرب واللباس ودخول المنزل والخروج منه ، وعند دخول الخلاء والخروج منها ، وعنـد العطـــاس ، وعند رؤية أهل البلاء في الدين او الدنيا ، وعند التقاء الاخوان وســؤال

بعضهم بعضا عن حاله ، وعند تجدد ما يحبه الانسان من النعم ، واندفاع ما يكرهه من النقم ، واكمل من ذلك ان يحمد الله على السراء والضراء ، والشدة والرخاء ، ويحمده على كل حال .

ويشرع للمرء دعاء الله عند دخول السوق ، وعند سماع اصوات الديكة بالليل ، وعند سماع الرعد ، وعند نزول المطر ، وعند اشتداد هبوب الرياح ، وعند رؤية الأهلة ، وعند رؤية باكورة الثمار .

ويشرع ذكر الله ودعاؤه عند نزول الكرب وحدوث المصائب الدنيوية ، وعند الخروج للسفر ، وعند نزول المنازل في السفر ، وعند الرجوع من السفر .

يشرع التعوذ بالله عند الغضب ، وعند رؤية ما يكره في منامه ، وعند سماع اصوات الكلاب والحمير بالليل .

ويشرع الاستخارة عند العزم على ما يظهر الخيرة فيه ، وتجب التوبة الى الله والاستغفار من الذنوب كلها صغيرها وكبيرها كما قال تعالى : (والذين اذا فعلوا فاحشة او ظلموا انفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم) ، فمن حافظ على ذلك لم يزل لسانه رطبا بذكر الله في كل احواله .

وقد ورد في الحديث : ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه . وقد علق عليه . بأن ذكر الله ان كان بالقلب فهو من الذكر بضم الذال . وان كان باللسان فهو من الذكر بكسرها .

وانما يكون ذكر اللسان مؤدبا بالبكاء اذا صحبه الذكر القلبي ، والا فحركات اللسان وحدها لا تفيد ولا تثمر . ولا تفيض منها عين ولا دمعة .

وكلمة خاليا ، ظاهرة في ان معناها خالياً من صحبة الناس ، ويؤيدها رواية في خلاء . وقال بعضهم : المراد خلو القلب من الشواغل .

والفيضان : اصله زيادة الماء ونحوه في الاناء ، او مجرى الماء حتى يسيل من جوانبه ، ويسند الى الاناء ونحوه مبالغة في نسبته للماء ، فيقول : فاض الاناء أو فاض النهر ، أى اشتد فيضان ما فيه حتى كأنه هو الذى فاض .

وقد ورد في فضل البكاء في الخلوة كثير من الاحاديث المرفوعة ، روى الحاكم من حديث انس مرفوعا : من ذكر الله ففاضت عينه من خشية الله حتى يصيب الارض من دموعه . لم يعذب يوم القيامة . وروى عن ابي هريرة مرفوعا : لا يلج النار احد بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع . وروى ان داود عليه السلام سأل ربه : ما جزاء من بكى من خشيتك حتى تسيل دموعه على وجهه قال : اسلم وجهه من لفح النار .

والسر في كل ذلك ان من يبكي من خشية الله بكاء حقيقيا في خلوة قلما يقع في منكر . واذا فرطت منه السيئة عاد فاتبعها غالبا بالحسنة ، وبادر بالتوبة والاستغفار ، والتوبة تذهب بالحوبة ، والحسنات يذهبن السيئات .

نسأل الله ان يرزقنا الاخلاص في القول والعمل والاحسان في السر والعلن ، وان يغفر لنا زلاتنا ما ظهر منها وما بطن انه بالاجابة جدير ، نعم المولى ونعم النصير .

وجائب المسلم نحو أخيه المسلم

اخرج الامام مسلم بن الحجاج القشيرى في صحيحه عن ابي هريرة عبدالرحمن بن صخر الدوسى رضي الله عنه انه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : حق المسلم على المسلم ست اذا لقيته فسلم عليه ، واذا دعاك فأجبه ، واذا استنصحك فانصحه ، واذا عطس فحمد الله فشمته، واذا مرض فعده ، واذا مات فاتبعه ...

جعل الله تبارك وتعالى هذه الامة المسلمة المرحومة وسطا بين الامم ، ووضع لها قواعد وانظمة لتكون مثال الكمال الانسانى ، بها يقتدى ، ومنها تلتمس الفضيلة ، وعلى خطاها يسير المصلحون .

لقد أرشد هذه الامة منقذها ومعلمها والحريص على كمالها محمد بن عبدالله صلوات الله عليه وسلامه الى ما يجب عليها من الحقوق وما يتحتم عليها ان تتخلق به من كريم الخلال وكرائم الفضائل والآداب ، التي تجعل منها امة واحدة ، واسرة واحدة ، ورجلا واحداً .

لقد كانت المدينة المنورة مدرسة جامعية يتلقى ابناؤها ومن هاجر اليها دروسهم وتوجيهاتهم على صاحب الرسالة العظمى ، والمربى العظيم ، وبعد ان تملوا من ذلك المعين الفياض ، واجتازوا الاختيار النهائي ، دخلوا مدرسة الحياة ، فكان منهم الحاكم والقائد والجندى والعالم والقاضي والموجه والمفسر والمحدث والفقيه ، والعامل والصانع والتاجر الى غير ذلك من الاعمال التي تقتضيها الحكومة الصالحة ، للامة الصالحة ، فكانوا كما قال الله : (خير أمة أخرجت للناس) .

ومن تلك التوجيهات التي غذى بها تلامذته واتباعه المربي الاعظم وجائب المسلم نحو اخيه المسلم ، وسماها حقا ، وعدها ستا ، ولو أن هذه

الحقوق ليست مقصورة على ما جاء في هذا الحديث ، بل تتعداه الى كثير وكثير ، وانما ذكر هذه الستة لاهميتها ، ولأن الحاجة تدعو اليها ، ولشيوعها اختصت بمزيد العناية ، ولأنه عليه الصلاة والسلام رأى ان المخاطبين احوج الى هذه من سواها الذى يدعوهم اليه عند الحاجة .

وفي حديث آخر اخرجه الامام البخاري ومسلم وابو داود والنسائي وابن ماجة عن البراء بن عازب قال : امرنا النبي صلى الله عليه وسلم بسبع ونهانا عن سبع ، امرنا باتباع الجنائز ، وعبادة المريض ، واجابة الداعى ، ونصرة المظلوم ، وابرار القسم ، ورد السلام ، وتشميت العاطس ، ونهانا عن آنية الفضة ، وخاتم الذهب ، والحرير ، والديباج ، والقسي ، والاستبرق ، والميثرة الحمراء .

فهذا الادب الذى كان سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يأخذ به تلاميذه ليتخلقوا به ، وينشروه بين الآخرين ، هو احدث طرق التربية ، اذ يطلب من المربي والمرشد ان يزن قوى المتعلم ويغذيه حسب حاجته ، سالكا سبيل التدرج ، لانه انفع في الاستفادة ، وها هو عبدالله بن مسعود يذكر لنا طريقة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في بث تعاليمه ، حيث يقول : كان النبي صلى الله عليه وسلم يتخولنا بالموعظة في الايام كراهة السئامة علينا ، لأنه الطبيب الماهر الحكيم الخبير الذى يعطى من الدواء بالمقدار الذى يحتاجه المريض . فحق المسلم الثابت الذى ينبغي مراعاته والاهتمام بشأنه على أخيه المسلم ست خصال .

فأول هذه الخصال : السلام الذى هو اسم من أسماء الله الحسنى ، وهو الامان والسلامة من كل مكروه ظاهراً وباطناً ، فالسلام معناه الأمن من كل مكروه ، واعطاء الأمان والسلامة من كل خطر ، والتباعد عن الخيانة والغدر ، فهو دعاء من المسلم لأخيه المسلم ، ينمى بينهما عاطفة

الاخوة والالفه ، ويوقظ في كل منهما معنى استشعار عظمة الله الذى ربط بينهما برباط العقيدة والتوحيد ، وهو الطريق الى الجنة كما ورد في الحديث الشريف : والذى نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا ، أفلا أدلكم على أمر اذا فعلتموه تحاببتم ، افشوا السلام بينكم • وفي الاثر : ان من موجبات المغفرة بذل السلام وحسن الكلام ، اذ بالسلام تجديد عهد الاسلام أن لا يؤذى في عرضه وماله وسائر أحواله •

لقد أمر القرآن الكريم المسلمين بافشاء السلام فيما بينهم ، وبين أنه تحية من عند الله مباركة طيبة : (فاذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم تحية من الله مباركة طيبة) ، وهذا السلام كان تحية ابراهيم عليه السلام عندما دخل عليه الرسل : (قالوا سلاما ، قال سلام) كما أن الله تبارك وتعالى ذكر بأن هذه الصيغة هي شعار أهل الجنة : (وتحيتهم فيها سلام) لقد عرف المسلمون هذه التحية وفهموا معناها ، فحرصوا على صيغتها العربية التي تعلموها من رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أن غير العربي لا يحيي اخوانه الا بهذه التحية حسب صيغتها العربية : السلام عليكم •

ولم يخصص الشارع البادىء بها ، لكنه بين أن أفضلهما من بادر بها وحصل على مزية الاسبقية • وقد ورد في الحديث : ان أولى الناس بالله من بدأهم بالسلام ، وشرع ان يكون قبل الكلام ، وقد ورد : من بدأ بالكلام قبل السلام فلا تجيبوه •

وعندما يدخل الانسان الى بيته فليبدأ بالسلام قبل الكلام • وقد ورد : عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله قال له : اذا دخلت على أهلك فسلم يكون بركة عليك وعلى أهل بيتك •

فالسلام سنة اسلامية • أما الرد فهو فريضة كفاية اذا قام به البعض سقط عن الباقين ••

والاولى أن يزيد المرء في الرد على الاصل لقول الله تبارك وتعالى : (واذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها ان الله كان على كل شيء حسيبا) • وقد ذكر أن الزيادة المأثورة تكون على الصيغة التالية : عليكم السلام ورحمة الله وبركاته • وقيل الافضل أن يكون الرد بزيادة الواو (وعليكم السلام) • وذهب جماعة من العلماء الى أن الزيادة لا تقدر بكيفية ولا بكمية • وقد كان عبدالله بن عمر رضي الله عنهما اذا سلم عليه أحد رد بقوله : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وطيب صلواته •

ويسن اهداء السلام بالفاظه الواردة لا بالاصبع والأكف ويكتفي بها • والافضل أن يجمع بين الاشارة والسلام لزيادة الاعلام • أو لبعد المقام • وقد ورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر في المسجد يوما وعصبة من الناس قعود فألوى بيده بالتسليم مقرونا به •

وقد استثنى مواطن لا يجب فيها رد الجواب : وذلك أثناء الخطبة وقراءة القرآن ، وعند قضاء الحاجة ، وعند الوضوء ، وعند التيمم •

وقد يتعين الرد اذا كان الذى القيت اليه فرداً واحداً ، ولا يتعين عليهم جميعا اذا كانوا جماعة بل اذا رد أحدهم سقط عن الباقين لأنه فرض كفاية • وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : يجزى عن الجماعة اذا مروا أن يسلم أحدهم ويجزى عن الجماعة أن يرد أحدهم• روى أن عمر بن عبدالعزيز الخليفة الأموى خرج يوم عيد ، فقام الناس اجلالا وبدأوه بالسلام ، فقال لهم : أنتم جماعة وانا فرد ، السلام علي والرد عليكم ، ثم سلم وردوا عليه السلام •

ومن آداب هذه التحية أن يسلم الراكب على الماشى ، كي لا ينسيه علوه على أخيه بالركوب تحية الاسلام • كما يسلم القادم على الحاضر ، والماشى على القاعد ، لانه وارد عليه فليبدأ بالسلام لادخال الطمأنينة على

قلبه وقد ورد في الأثر عن سيد البشر قوله • يسلم الراكب على الماشي ، والماشي على القاعد والقليل على الكثير كما يسلم الصغير على الكبير • وقد حث رسول الله على بذل السلام ، ولا تتعين المعرفة ، وذلك لاحداث التعارف والتآلف والمودة ، ودفع النفرة فيما بين المسلمين •

واذا لقي المرأ أخاه وكانا راكبين او ماشيين فالبادىء منهما بالسلام أكرم خلقا وأكثر ثوابا •

وكما شرع السلام عند اللقاء ، شرع كذلك عند الموادعة • وقد جاء في الحديث : اذا قعد احدكم فليسلم ، واذا قام فليسلم ، وليست الاولى بأحق من الآخرة •

ويسن السلام على المسلم وان غلب على الظن انه لا يرده •

فقد ذكر العلماء اذا مر امرؤ على واحد او اكثر وغلب على اته اذا سلم لا يرد عليه فينبغي ان يسلم ولا يتركه لهذا الظن ، فان السلام مأمور به ، والذى أمر به المار أن يسلم وان لم يأمل أن يحصل الرد ، فافشاء السلام هو سنام الود فيما بين المسلمين ، واذا كان كذلك فالمسلم الذى يغلب على ظنه عدم رد السلام ، عليه أن يطلق السلام، لأنه اذا كان لا يرد لأجل عداوة ، فان السلام عليه المرة بعد المرة سيذهب ببعض ما في صدره ، ويضطر الى الرد ، ويقضي على التهاجر الذى حرمه الاسلام ، حيث قال رسول الله : لا يحل لمؤمن أن يهجر مؤمنا فوق ثلاث، فان مرت ثلاث فليلقه فليسلم عليه ، فان رد عليه السلام فقد اشتركا في الاجر وان لم يرد عليه فقد باء بالاثم •

وقد أخبر عليه الصلاة والسلام ان السلام سبب لتصفية الود بين المسلم واخيه المسلم فقال : ثلاث يصفين لك ود أخيك ، تسلم عليه اذا لقيته ، وتوسع له في المجلس ، وتدعوه بأحب أسمائه اليه •

وقد سن عند اللقاء المصافحة فهي من تمام التحية وتزيد في المودة .

وقد ورد في الاثر : اذا التقى المسلمان فتصافحا قسمت بينهما مائة رحمة ، تسعة وتسعون لابشهما واطلقهما وابراهما واحسنهما مساءلة بأخيه . وفي حديث آخر : ما من مسلمين يلقيان فيتصافحا الا غفر لهما قبل ان يتفارقا .

ان السلام شعار المؤمنين فلزاما عليهم ان يلتزموا بآدابه وان يتمسكوا بالفاظه وان يذيعوه فيما بينهم . والله يوفقهم للتأدب بآداب اسلامهم ، وهو الميسر والمعين .

تلبية الدعوة

روى الامام مسلم بن الحجاج القشيرى في صحيحه عن ابي هريرة عبدالرحمن بن صخر الدوسى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : حق المسلم على المسلم ست ، اذا لقيته فسلم عليه ، واذا دعاك فأجبه ، واذا استنصحك فانصحه ، واذا عطس فحمد الله فشمته ، واذا مرض فعده ، واذا مات فاتبعه ..

تكلمنا عن التحية الاسلامية ، وكيف ان الشارع العظيم حث الامة على افشائها فيما بين المسلمين ، لانها حبل المودة والالفة والاخاء .

ونتحدث الآن عن الحق الثاني وهو اجابة الدعوة والاسراع الى تلبية النداء مما يدل على التجاوب النفسي ، والتعاطف القلبي ، والاتصال الروحي ، فان المسلم في كل ما ينويه من أمر ، او يحزبه من شأن يتطلع

دائماً الى أخيه يستمد منه العون ويلتمس المساعدة ، فهو يرى من حقه أن يدعوه الى نصرته اذا عدا عليه عاد ، أو تحيفه ظالم ويرى من حقه أن يدعوه الى مساعدته اذا احتاج أو كل أو ضعف ، واجابته في كل ذلك واجب .

والحديث هنا قد اتجه به الكثير الى ناحية تغرس في القلوب الحب وتبث فيها الود ، وتشعر بالاخاء ، وهي الدعوة الى الوليمة في مناسبة من المناسبات . وقد حث عليها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : اذا دعي أحدكم الى وليمة فليأتها .

لقد بنيت تعاليم الاسلام كلها على نشر الحب والود بين جميع أفراد المجتمع الاسلامي ، فحث على الكلمة الطيبة ، والوجه الطلق ، وافشاء السلام ، واطعام الطعام وكل مظهر من المظاهر التي تؤكد وحدة القلوب والمشاعر . وتوثق الروابط ، وتقوى الاواصر بين المسلمين .

وان مما دعى اليه الاسلام اطعام الطعام ، ونشر الموائد ، وجمع الاخوان والاحباب عليها . وقد رغب على ذلك سيدنا رسول الله حيث يقول : لا تزال الملائكة تصلى على أحدكم ما دامت مائدته موضوعة بين يديه حتى ترفع . وقال الحسن : كل نفقة ينفقها الرجل على نفسه وأبويه فمن دونهم يحاسب عليها البتة ، الا نفقة الرجل على اخوانه في الطعام فان الله يستحى ان يسأل عن ذلك .

ويقال ان أول من ضيف الضيفان سيدنا ابراهيم عليه السلام حتى انه اذا أراد الاكل ولم يجد ضيوفا خرج يبحث عنهم ويمشي في الطرقات لعله يعثر على عابر سبيل أو غريب وكان يرى ذلك من شكر النعمة كما قال تعالى : (شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه الى صراط مستقيم) .

وقد ورث عنه ابنه اسماعيل عليه السلام هذه المكرمة ، وتوارثها العرب حتى كانت ظاهرة الكرم فيهم هي كل شيء عندهم وكانوا يمدون الموائد للضيفان وغيرهم ، حتى ان بعضهم كان يمدها في الطرقات ليأكل منها البادى والحادى ، ولتأكل منها الطيور والوحوش •

وهذا سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أجود الناس كفا • وأسخاهم يداً وأقراهم للضيف ، وأبذلهم للمال ، يعطي عطاء من لا يخاف الفقر ، حتى قبل النبوة •

وقد شهدت له زوجته خديجة حين قالت : انك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق •

لقد لازم خلق الكرم العرب في جميع الظروف والاحوال ، وكانوا يتبارون في اكرام الضيف الى حد الاسراف • ذكر أن عبدالله بن جعفر خرج يريد الشام ، فالجاءه المطر الى أبيات ، فاذا قبة حمراء بفنائها رجل ينادى : الذرى ـ أي الكن من الريح الباردة ـ يقول عبدالله : فانخنا فدخلنا القبة ، وحط عن رواحلنا ، ثم أتى بجزور فنحرها فاكلنا وتحدث معنا في الليل هنيهة ثم انصرف ، فلما أصبح وقف بعيداً عن القبة وسألنا عن مبيتنا وانصرف ، فاتى بجزور فعقرها ، فقلنا : رحمك الله ما تريد الى هذا ؟ فقال : كلوا رحمكم الله طريا ، فانا لانطعم الضيف غابا ـ اى اللحم البائت ـ قال عبدالله : فدعوت بثوب فجعلت فيه زعفرانا ، وصررت في طرف منه مائة دينار ، ثم بعثت به الى أهله فقالوا انا لانقدر على أخذه الا باذنه ، فسألته أن يقبله منى فأبى ، فلما ارتحلنا وودعته أمرت فالقي الثوب بين البيوت ومضينا ، فانا لنسير اذ لحقنا على فرس مشرعا رمحه ، قد احمرت عيناه ، والثوب بين يديه ، فصاح بنا : أغفوا عني هذا ـ أي اصرفوها ـ ونبذه الينا وولى وهو يقول : ـ

واذا أخذت ثواب ما أعطيته　　فكفى بذاك لنائلي تكديرا

لقد حث الاسلام اتباعه على تلبية دعوة اخيهم اذا دعاهم الى وليمة اقامها ، وجعلها حقا من حقوق المسلم على أخيه المسلم ، لأن فيها جبرا للخاطر ، ومشاطرة في الفرح ، ولا يقصد بالاجابة الى الدعوة نفس الاكل بل ينوى به الاقتداء بالسنة واكرام اخيه .

وقد نص بعض العلماء على وجوب تلبية الدعوة مستدلا بقول رسول الله : اذا دعا احدكم اخاه فليجب عرسا كان أو نحوه .. وقال آخرون : بندبها ، اما بعض العلماء فقد جعلها واجبة اذا كانت الوليمة وليمة عرس لقول سيدنا رسول الله : اذا دعى احدكم الى وليمة عرس فليجب . وندب الاجابة في غيرها . وقد قال من استدل على انها واجبة بعصيان من دعى الى وليمة وتأخر عن تلبية الدعوة بلا عذر اذا كانت بريئة من الشبهات .

وتتحق الاجابة بالدخول الى مكان الوليمة والقعود هنيهة من الزمن وان لم يأكل ، وان كان الافضل الاكل اذا انتفت الاعذار .

وقد ذكر العلماء ان من آداب تقديم الطعام عدم التكلف بل يقدم ما حضر على قدر الاستطاعة . وقد أمر الرسول الكريم بان لا يتكلف المرء للضيف ما ليس عنده بل يقدم اليه ما حضر . فقد قال عليه الصلاة والسلام للسيدة عائشة : يا عائشة لا تتكلفى للضيف فتمليه ، ولكن اطعميه مما تأكلين .

ومنها ان يقدم الطعام للضيف بسرعة ، وان يطلب الى الضيف التقدم الى الطعام بالاسلوب المؤنس المحبوب . وليس من الذوق في شيء ان تقول لضيفك : هل تأكل ، أكلت أم لم تأكل ، وما الى ذلك من الالفاظ المحرجة للضيف . فقد يكون الضيف في حاجة الى الطعام ولكن يمنعه حياؤه بعد سماعه لهذه الاستفهامات من تناول الطعام .

وان يقدم من الاطعمة التي هيأها الطفها حتى يستوفى منها من يريد٠ وكان من سنة المتقدمين تقديم الطعام جملة واحدة ليأكل كل واحد ما يشتهى ٠

ومن الآداب الاسلامية أن يخدم المرء ضيوفه بنفسه ان استطاع ليدخل السرور على نفوسهم وليروا الاهتمام بهم وان يباسطهم بالحديث والحكايات التي تليق بالحال اذا كانوا منقبضين ٠ وان يدعو الى طعامه الابرار ، ولا يقصد الاغنياء دون الفقراء لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : شر الطعام طعام الوليمة ، يدعى اليها الاغنياء دون الفقراء ٠

ومن الآداب ان لا يسرف المرء في الاكل ، ويفرط في الشبع ، وعليه ان يرفع يده عن الطعام ونفسه تتوقه ، وقد قال رسول الله ما ملاء آدمي وعاء شرا من بطن ، حسب ابن آدم اكلات يقمن صلبه ، فان كان لامحالة، فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه ٠

وقد خطب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوما فقال : اياكم والبطنة فانها مكسلة عن الصلاة ، مؤذية للجسم ، وعليكم بالقصد في قوتكم فانه أبعد من الأشر ، واصح للبدن ، واقوى على العبادة ، وان امرأ لن يهلك حتى يؤثر شهوته على دينه ٠

ومن الادب ايضا ان لا يكثر المرء النظر الى وجوه الآكلين مما يخجلهم ويمنعهم من الهناء في الاكل ، ويكره للاكل اخراج شيء من فيه ورده الى القصعة ، ولا ينفض يده في القصعة ولا ذم الطعام ٠ وها هو رسول الله يؤدبنا في ذلك ٠ فقد روى انه ما عاب طعاما قط ، كان اذا اشتهى طعاما اكله وان كرهه تركه ٠

ومن الآداب ان لا يمتنع عن الحضور بكونه صائما ، بل يحضر ، فان

كان يسر اخاه افطاره فليفطر وليحتسب في افطاره ادخال السرور على قلب اخيه • وقد قال المربي الاعظم صلى الله عليه وسلم لمن امتنع بعذر الصوم : تكلف اخوك وتقول اني صائم •

ومن الآداب ان يخرج المضيف مع ضيفه الى باب الدار لقول رسول الله : ان من سنة الضيف ان يشيع الى باب الدار •

نسأل الله ان يوفقنا الى التمسك بدينه والعمل بسنة نبيه • انه على ما يشاء قدير •

بذل النصيحة

أخرج الامام مسلم بن الحجاج القشيرى في صحيحه عن ابي هريرة عبدالرحمن بن صخر الدوسى رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

حق المسلم على المسلم ست ، **اذا لقيته فسلم عليه ، واذا دعاك فاجبه،** وإذا استنصحك فانصحه ، واذا عطس فحمد الله فشمته ، واذا مرض فعده واذا مات فاتبعه •••

بعد ان تكلمنا عن التحية والدعوة التي وردت في هذا الحديث الشريف من حقوق المسلم على أخيه المسلم •

نتحدث موجزاً عن الاستنصاح الذى هو طلب النصيحة التي ترشد الى الخير ، وتبعد عن الشر مع الاخلاص في النصح • والنصيحة أجمع كلمة وأدلها على اخلاص الناصح ، وعنايته بالمنصوح له ، وتبصيره بالمضار حتى لا يقع فيها من لا يعرفها ، وقيامه بكل ما ينبغي له من وجوه الخير

قولا وعملا • لذلك ينبغي ان يكون الناصح ذا رأى ثاقب ، وعقل راجح ، قد جرب الأمور ، وعركته الايام والليالي ، وذاق حلوها ومرها ، وانتفع بما رآه فيها •

وما من نبي ولا رسول أرسل لقوم الا كان لهم ناصحا أمينا وحكيما مرشدا •

فهذا نوح عليه السلام ينادى قومه : (يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره اني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) • فما كان من قومه الا أن يجيبوه بصلافة وبذاءة : (انا لنراك في ضلال مبين) فرد عليهم : (يا قوم ليس بي ضلالة ولكني رسول من رب العالمين • أبلغكم رسالات ربي وانصح لكم واعلم من الله ما لا تعلمون) •

وهذا هود عليه السلام يقف بين قومه مناديا : (يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره) فيرد عليه قومه الذين تملكهم الضلال ، وسول لهم الشيطان أعمالهم : (انا لنراك في سفاهة) فيجيبهم اجابة صادق محب أمين (يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسول رب العالمين • أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين) ، الى غير ذلك من نصائح وارشادات بقية الانبياء الى قومهم ليهدوهم الى الطريق المستقيم •

وهذا سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتيه عتبة بن ربيعة في جماعة من قومه ويقول له : ان كنت تطلب الشرف فينا فنحن نسودك علينا، لا نقطع أمرا دونك وان كنت تريد ملكا ، ملكناك علينا ، وان كان هذا الامر الذى يأتيك رئياً قد غلب عليك ، بذلنا لك أموالنا في طلب الطب لك حتى نبرئك منه أو تعذر • فاجابهم عليه الصلاة والسلام : مابي ما تقولون ، ولكن الله بعثني اليكم رسولا ، وأنزل علي كتابا ، وأمرني أن أكون لكم بشيرا ونذيرا ، فبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم،

فان تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وان تردوا علي اصبر لامر الله حتى يحكم بيني وبينكم •

لقد اهتم رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذه الفضيلة حتى جعلها نفس الدين فقال : الدين النصيحة فهي عماد الدين وملاكه ، بل هي الدين كله • وعلى النصيحة تتوقف سلامة المجتمع والتعاون بين الافراد •

والنصيحة واجبة سـواء طلبت أم لم تطلب ، لأن الضر والنفع لا يقتصران على الفرد بل يتعديانه الى غيره • فمعلم الانسانية ، وهادى البشرية يريد بهذه المبادىء أن يكون المجتمع المسلم طاهرا مطهرا سليما عفيفا سعيدا متئالفا ، يعيش كل فرد فيه لغيره لا لنفسه ، لمجتمعه لا لذاته، لامته لا لأسرته •

ومن تلك التعاليم هذه الواجبات الستة التي تحتم على كل فرد أن يوجه أخاه الى الخير ، وان يعينه بالقول والفعل ، وان يدفع عنه الضر ، ويجلب له النفع ، وان يوفيه حقه من الشفقة والحنان •

والنصح للمسلم يقتضى الاخلاص كائنا من كان • ويوجب أن يبادله النصيحة ما استطاع اليها سبيلا ، على ان يكون كل منهم ناصحا ومنصوصا • وهذا التناصح هو التواصى بالحق ، فكل مسلم مدعو للنصح والتناصح كل على قدر عمله وسعة مجاله •

وقد قسم العلماء النصح الى قسمين : عام وخاص •

فالنصح العام : يدخل فيه الحلال والحرام ويستوى فيه جميع المسلمين ، وعلى كل جاهل ان يتعلم الضرورى من دينه ليعمل به وينصح فيه والا كان آثما •

واما النصح الخاص : فهو خاص بالانبياء والمرسلين والمتفقهين بأمور الدين والمطلعين على أسرار الشريعة والعالمين بمحكم الامـور ومشتبهاتها

فهؤلاء وظيفتهم شاقة دقيقة ، وهم لهذا ورثة الانبيـــاء وحمـاة الدين ، والذابون عن تعاليمه ، والناصحون لله ورسوله •

واذا عين المستنصح امرا من الامور وطلب من اخيه الاستيضاح فتلك مشورة يجب عليه مراعاتها وبذل الجهد في توجيه النصح •

وقد ورد في حديث آخر رواه الامامان البخاري ومســـلم عن تميـم الداري ان رسول الله صلى الله عليه سـلم قال : الدين النصيحة ، قالوا : لمن يا رسول الله ؟ قال : لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم •

فالنصيحة لله : صدق الايمان به ، وصحة الاعتقاد بوحدانيته ووصفه بكل كمال ، وتنزيهه عن كل نقص ، وطاعـــة أمره ، والاخـلاص في عبادته ، والحب فيه ، والبغض فيه ، وموالاة من اطاعه ، ومعـاداة مـــن عصاه ، الى غير ذلك من صفات الكمال والجمال ، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير •

والنصيحة لكتابه : هو الايمان بأنه كلام الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وأنه من عند الله ليس فيه نقص ولا زيادة ، وانه المعجزة العظمى الباقية لسيدنا رسول الله ، وأن نحلل ما حلله ، ونحـرم ما حرمه ، وان نهتدى بهداه ، ونذب عنه ، وتدعو اليه ، ونحث على حفظه وتحفيظه ، وانه لا يمكن للمخلوقين مجتمعين ومنفردين أن يأتوا بآيـــة من مثلـــه •

والنصيحة لرسول الله : تصديقه فيما جاء بـــه ، والايمان بجميـــع تعاليمه ، واتباعها عملا أو تركا ، والحرص على التمسك بسنته ، والتأدب بآدابه ، وايثاره على كل ما في الوجود من موجود ، ومحبته محبة دونهـا محبة الأهل والولد والمال •

اما النصيحة لأئمة المسلمين : وهم الرؤساء والامراء والقادة فهـــي

اعانتهم على الحق ، وطاعتهم في غير معصية الله ، وحب صلاحهم ورشادهم، والسعي لاجماع الكلمة لهم ، ونصحهم في رفق وعدل .

وقد ذكر ان منهم الداعين الى الخير ، والآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر والأخذ عنهم فيما فقهوا من الكتاب والسنة ، وفيما رووا عن أعلام الامة .

وأما النصيحة لعامة المسلمين : الذين هم غير الأئمة ، فهي ارشادهم الى مصالحهم في دنياهم واخراهم ، وكف الاذى عنهم ، وستر عوراتهم ، وتعليمهم وارشادهم ، وقضاء حاجاتهم والعفو عن مسيئهم ، وجلب الخير والنفع لعامتهم وخاصتهم ، وتوقير كبيرهم ورحمة صغيرهم ، وان يعمل على عصمة دمائهم واعراضهم وأموالهم .

فالنصيحة فرض كفاية على من هو اهل لها على قدر الطاقة . ولقد كان سلف هذه الامة يتناصحون ، ولا يتورع كبيرهم من سماع نصيحة صغيرهم .

وها هو عمر بن عبدالعزيز الخليفة الاموى ينصحه غلام لا يتجاوز احدى عشر سنة ويقول له : أصلح الله أمير المؤمنين ، ان ناسا من الناس غرهم حلم الله عنهم ، وطول أملهم ، وكثرة ثناء الناس عليهم ، فزلت بهم الاقدام ، فهووا الى النار ، فلا يغرتك حلم الله عنك ، وطول املك وكثرة ثناء الناس عليك ، فتزل بك قدمك .

فبذل النصيحة حث عليه الاسلام في كل حال سواء اطلبه أخوك أم لم يطلبه ويتأكد متى طلبه .

واليكم نصيحة رسول الله صلى الله عليه وسلم لاحد أصحابه معاذ بن جبل ، فقد جمعت الفضائل كلها : قال يا معاذ، أوصيك بتقوى الله، وصدق الحديث ، ووفاء العهد وأداء الامانة ، وترك الخيانة ، ورحم اليتيم ، وحفظ

الجوار ، وكظم الغيظ، ولين الكلام ، وبذل السلام، ولزوم الامام ، والتفقه في القرآن ، وحب الآخرة ، والجزع من الحساب وقصر الامل ، وحسن العمل ، وانهاك ان تشتم مسلماً ، او تصدق كاذبا ، او تكذب صادقا ، او تعصى اماماً ، عادلا ، وان تفسد في الارض ، يا معاذ اذكر الله عند كل شجر وحجر ، وأحدث لكل ذنب توبة ، السر بالسر ، والعلانية بالعلانية .

هذا ونسأله تعالى العون على التأدب بآداب الاسلام ، والتحلى بفضائله، انه نعم المولى ونعم النصير .

تشـميت العـاطس

روى الامام مسلم بن الحجاج القشيرى في صحيحه عن ابي هريرة عبدالرحمن بن صخر الدوسى ان رسول الله صلى الله عليه وسـلم قال : حق المسلم على المسلم ست ، اذا لقيته فسلم عليه ، واذا دعاك فاجبه ، واذا استنصحك فانصحه ، واذا عطس فحمد الله فشمته واذا مرض فعده ، واذا مات فاتبعه ..

تحدثنا عن ثلاث من الخصال الفاضلة التي حث عليها هذا الحديث الشريف وهي : افشاء السلام ، واجابة الدعوة ، وبذل النصيحة .

وها نحن نتحدث عن حق رابع الزم الرسول الكريم أمته التحلى به وافشاءه فيما بينهم الا وهو تشميت العاطس .

والعطاس - كما قيل - هو خروج الابخرة المحتقنة المحبوسة في الدماغ ولو بقيت فيه لا حدثت أدواء عسرة ، وباندفاع الهواء من الانف بشدة يحدث صوتا يسمع عاليا ، وخروجها يحدث اضطرابا في الجسم

ولا سيما الرأس والوجه والعنق فيخرجه عن سمته وهيئته وتركيبه الطبيعي ، فلا جرم أن يطلب الشارع الى العاطس ان يحمد الله شكرا له على خروج تلك المواد المؤذية وعلى سلامته من الاضطراب الذى عرض له • فهو ظاهرة من الظواهر التي تدل على ان الانسان قد سلم من انحراف كاد يلم بالبدن ، أو علة أوشكت أن تمس الجسم • وهي تستدعى ان يحمد الانسان ربه على أن عافاه من الاذى وسلمه من الداء • وتتطلب من الجليس أن يمنح الانسان عاطفته ويظهر الاهتمام به والعطف عليه ، ويستحب لمن حضر من عطس فلم يحمد الله أن يذكره بالحمد فيحمد فيشمته وهو من باب النصيحة والامر بالمعروف •

ومعنى التشميت الدعاء للعاطس بالسلامة من ضرر قد يلحق بالعاطس كاعوجاج العنق أو تشويه الوجه حتى لا يشمت به أعداؤه ، فيحمد الله تعالى على بقاء أعضائه سالمة على هيأتها ونظامها ، ولما كان الحمد طاعة لله كان من موجبات الرحمة ، فدعا له بها المشمت ، والعاطس كافأة بطلب الهداية له واصلاح حاله •

وقد ورد أن العطاس ليس بداء ولا أمر يكره وأنه نعمة من نعم الله تعالى يجب على الانسان أن يحمده عليها كما يجب أن يحمده على سائر نعمه الظاهرة والباطنة ، وأهل الطب يرون العطاس يفتح سدد الكبد ويستحسنون من المريض أن يعطس ويرون أن ذلك دليل على انفراج علته ، ويستعملون التعطيس للانسان ويجعلونه نوعا من العلاج ، ومع هذا فالامور الشرعية التي تعبد بها الناس لا مجال في اكثرها للقياس ، وعلينا ان نتلقاها بالقبول •

واذا كان العاطس غير مسلم يدعى له بالهداية كما ورد في السنن :

كان اليهود يتعاطسون عند رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجون أن

يقول لهم : يرحمكم الله ، فيقول : يهديكم الله ويصلح بالكم •

قال ابن حجر : هذا الحديث يدل على انهم يدخلون في مطلق الامر بالتشميت لكن لهم تشميت خاص ، وهو الدعاء لهم بالهداية واصلاح البال •

وقد بين لنا سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الأدب الذى يلتزمه العاطس والسلوك الذى يتبعه المشمت بقوله : اذا عطس أحدكم فليقل : الحمد لله ، وليقل له أخوه : يرحمك الله وليقل هو : يهديكم الله ويصلح بالكم • واذا لم يحمد العاطس ربه على ان عافاه من الأذى وحفظه من انتشر فلا يستحق رحمة من جليس ولا دعاء من سامع ، لما ثبت في الصحيحين : أن رجلين عطسا عند النبي صلى الله عليه وسلم فشمت أحدهما ولم يشمت الآخر فقال الرجل : يا رسول الله شمت هذا ولم تشمتني ، فاجابه الرسول الكريم : ان هذا حمد الله ولم تحمد الله •••

وروى ان عامر بن الطفيل بن مالك الفارس المشهور قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد جرى بينه وبين ثابت بن قيس بحضرة النبي صلى الله عليه وسلم حديث ، ثم عطس ابن اخيه فحمد الله ، فقال له صلى الله عليه وسلم : يرحمك الله ثم عطس عامر – وكان كافرا – فلم يحمد الله ولم يشمته رسول الله ، فقال عامر : يا رسول الله ، شمت هذا ولم تشمتني وانا اكبر منه سنا ومقاما ، فقال صلى الله عليه وسلم : هذا ذكر الله فذكرته ، وانت نسيت الله فتناسيتك •••

وفي حديث آخر : اذا عطس احدكم فحمد الله فشمتوه ، وان لم يحمد الله فلا تشمتوه • والعطاس اذا كان اقل من ثلاث كان ايذانا بزوال ظاهرة الداء • فكان من الادب ان يحمد الله العاطس وان يشمته السامع فان زاد على ثلاث كان ظاهرة من ظواهر الضعف والانحراف يستدعى ان يقول له الجليس عافاك الله او شفاك • وقد ورد في الأثر : اذا عطس

أحدكم فليشمته جليسه ، فان زاد عن الثلاثة فهو مزكوم ، ولا تشمته بعد الثلاث ، ولكن بعض العلماء ذكروا وجــوب تشميت العاطس ولو كان العطاس بسبب ، بشرط ان يحمد الله تعالى •

وتشميت العاطس واجب وجوبا عينيا على المنفرد ، وكفائيا عــلى الجماعة فيسقط بفعل البعض •

وينبغي للعاطس ان يضع يده أو منديلــه أو ثوبه على فمه ، وان يغض صوته حتى لا يؤذى جليسه • وذلك أدب نبوى أدبنا به رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى لا نؤذى أحداً أو نوقع الضرر بجليس ، فقـد ثبت ان النبي صلى الله عليه وسلم كان اذا عطس غطى وجهه بيده أو ثوبه وغض بهــا صوتــه •

ومن عطس والامام يخطب فان التشميت حتى يفــرغ الخطيب ، او يشرع له التشميت بالاشارة •

هذا وان المتأمل في هذا الحديث الشريف ، والادب النبوي الكريم يجد فيه درسا بليغاً ينبغى ان يتدبره المسلم ليزداد ايمانه بدينه ، واقتناعــه بشريعته واقباله عليها •

فان هذه الشريعة بآدابها ومحاسنها ، بفضائلها وهداها ونورها وراء كل ظاهرة تمر بالانسان عند كل حدث يلم به ، تهديه وترشده ، وتعينــه وتسدده ، وتأخذ بيده حتى لا تزل قدمه او تضل غايته •

ومن محاسن هذه الشريعة واجل مزاياها ، انها عنيت بكل كبــيرة وصغيرة في حياة الانسان فوضعت لها الدستور الملائم والنهج القويم الذى يهذب هذه الحياة ، ويحيل صعوبتها الى يسر ، وشدتها الى رخاء •

فالانسان اذا عامل اخاه في بيع او شراء ، واخذ وعطاء ، يجد الشريعة تنظم صلاته وتهذب روابطه ومعاملاته ، واذا اكل او شــرب ، أو نام او

اضطجع ، وجد امامه من آداب الشريعة ونظامها ما يهديـه عند الحيرة ، ويأخذ بيده في الظلمة ، واذا سعل او عطس وجد ايضا من نور الشريعة وسمو هداها ما يرشده ويسدده ويشعره بأن هناك قلوبا تحنو عليه وترنو الى ما يحل به او ينتابه من ظواهر واحداث •

وليس ادل على عناية الشريعة بكل ما يجلب المودة ، ويثبت المحبة ، وينمي روابط الاخاء بين المسلمين ويشعرهم بأنهم كالجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الاعضاء بالسهر والحمى •

من قوله صلى الله عليه وسلم من حق المسلم تشميت العاطس ، اى ان يدعو له برحمة الله ورعايته •

لقد كان عرب الجاهلية يتطيرون من العطاس ، وكان الرجل منهم اذا سمع عطاسا تشاءم به ويقول : بك لا بي • أى أجل الله تعالى شؤم عطاسك بك لا بي • وكانوا اذا عطس العاطس عطاسا شديدا يفزع به من يسمعه دعوا عليه بالبلاء وأقبح ما يكون من الدعاء •

يروى أن بعض الملوك دعا رجلا ليساهره ويحادثه ، فنعس الملك نفسه وعطس المحدث له عطسة منكرة ، فانتبه الملك مذعورا وقال : يا هذا ما عطست هذه العطسة الا لتروعني ، فقال : ايها الملك والله ماتعمدت ذلك ولكن هذا عطاسي ، فقال والله لئن لم تأتني بمن يشهد لك بذلك لاقتلنك ، فقال الرجل : اخرجني فلعلى اجد من يشهد لي ، فامر بعض الشرط باخراجه فاخرج ، فوجد رجلا فقال له يا سيدى ان كنت سمعت عطسي يوما فلعلك تشهد لي عند الملك بشدة عطاسي ، ووصف له ما جرى ، فقال : نعم انا اشهد لك ، فنهض معه ، ولما مثل بين يدى الملك قال له : انا اشهد باني سمعت هذا الرجل يوما قد عطس فطار ضرس من فمه ، فضحك الملك وقال له : عد الى حديثك •

فلما جاء الاسلام نهى الناس عن التشاؤم به ، وامروا بأن يجعلوا مكان الدعاء للعطاس بالمكروه الدعاء له بالرحمة .

لقد اشتمل هذا الحديث على أدب كريم ، ودستور حكيم ، يتناول دقائق الحياة واسرارها ، حتى تخف على الانسان شدتها ، وتسهل كلفتها . نسأل الله ان يوفقنا الى حسن الادب وجميل الهداية .

عيادة المريض

أخرج الامام مسلم بن الحجاج القشيرى في صحيحه عن أبي هريرة عبدالرحمن بن صخر الدوسي رضي الله عنه انه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : حق المسلم على المسلم ست اذا لقيته فسلم عليه ، واذا دعاك فأجبه ، واذا استنصحك فانصحه ، واذا عطس فحمد الله فشمته ، واذا مرض فعده ، واذا مات فاتبعه ..

بعد ان تكلمنا عن الحقوق الاربعة التي دعا الاسلام المسلم ان يتصف بها ، نتبعها بخامسها وهو عيادة المريض .

وعيادة المريض سنة اسلامية تتوثق بها روابط المحبة ، وتزول بها الاحن والعداوات ، وتسلي المريض وتروح عنه ، وتشعره بأن اخوانه لم ينسوه ، فيدخل السرور على قلبه ، وينشرح صدره برؤية اخوانه وخاصة اقاربه وأصدقاءه وجيرانه ، وهو عنوان على ما في قلوبهم له من الصلة القوية والمحبة الصادقة والاهتمام بشأنه . وهذا ما يخفف عنه كثيرا من شدة المرض وعنائه ، ويزيل السأم من نفسه ، بل ربما يؤثر ذلك على نفسه فيكون مقدمة للشفاء . وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال : اذا

دخلتم على المريض فنفسوا له في الاجل فان ذلك لا يرد شيئا وهو يطيب نفس المريض • وكان سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يعود المرضى من اصحابه ، ويسألهم عن حالهم ، ويدعو الله لهم • وقد جاء في السنة انه صلى الله عليه وسلم دخل على رجل من اصحابه يعوده وهو في النزع ، فقال له كيف تجدك ؟ فقال : يا رسول الله ، أجدني اخاف ذنوبي ، وأرجو رحمة ربي ، فقال له صلى الله عليه وسلم : ما اجتمعا في قلب عبد في هـذا الموطن الا اعطاه الله ما رجاه وامنه مما يخاف •

ولقد ذكر العلماء ان عيادة المريض واجبـة على التعيـين اذا انفـرد شخص بالعلم بمرض اخيه ، وتكون واجبا كفـائيا اذا تعـــدد العـارفون بالمرض • وقد ورد عن ثوبان : ان رسول الله صلى الله عليه وسـلم قال : أن المسلم اذا عاد اخاه المسلم لم يزل في مخرفة الجنة حتى يرجع • واراد بالمخرفة البستان[1] وفي حديث آخر : من عاد مريضا أو زار اخاً له في الله تعالى ناداه مناد ان طبت وطاب ممشاك وتبوأت في الجنة منزلا[2] •

ولا يطيل العائد الجلوس عند المريض حتى لا يضجره او يشق عليـه فبدن المريض في حاجة الى الراحة • مرض ابو عمرو بن العلاء فدخل عليه رجل من اصحابه فقال له : اريد ان اساهرك الليلة ، فاجابه ابن العـلاء : انت معافى وأنا مبتلي ، فالعافية لا تدعك ان تسهر والبلاء لا يدعني ان انام،

---

(١) المخرفة بالضم والفتح ما يجتنى من الثمر شبه صلوات الله وسـلامه عليه ما يحوزه من يعود المريض من الثواب بما يحوزه المخترف من الثمـــر •

(٢) مرض أحد الشعراء فلم يعده أحد من اخوانه فقال :

مرضت فلم يكن في الارض حر ... يشرفني ببر او سـلام
وضنوا بالعيادة وهـي أجـر ... كأن عيادتي بذل الطعام

واسأل الله أن يهب لأهل العافية الشكر ، ولاهل البلاء الصبر .

ومن آدابها المحادثة الحسنة التي تنفس عن المريض وتخفف عنه ثقل المرض وتسرى عن المريض خصوصا اذا اشتملت المحادثة على ما يذكره بحسن عاقبة الصبر ، واحتمال المشاق ، اما اذا كانت المحادثة عن أشياء معادة تملها النفس وتسأم تكرارها واعادتها ، فينبغي ان يقتصر فيها الزائر حتى لا يداخل الضيق والسأم على نفس المريض . ويقال ان الاعمش لما مرض كثر عواده والدل يسأل عن مرضه وسببه ، فكتب قصة مرضه في ورقة ودسها تحت وسادته ليقدمها لكل زائر يسأله هذا السؤال ليكفى نفسه مؤنة الرد . وقال سفيان الثورى : حمق الزوار اشد على المرضى من أمراضهم يجيئون في غير وقت ويطيلون الجلوس وهذا مما يؤذى نفس المريض ويقلق راحته ويزيد في مرضه .

دخل بعض الزوار على مريض فاطالوا الجلوس حتى برم وضاقت نفسه ، فالتفت اليهم وقال ايها الاصدقاء قد شفى الله مريضكم . فكان هذا دعوة لهم الى الانصراف ولقد دخل قوم على السرى السقطى وهو عليل فاطالوا الجلوس وقالوا : ادع لنا فقال : ارفعوا ايديكم وقولوا : اللهم اجعلنا ممن علمتهم عيادة المريض .

ودخل قوم على رجل مريض فأطالوا الجلوس ثم قالوا : اوصنا ، فقال : اوصيكم الا تطيلوا الجلوس عند المريض اذا عدتموه . ودخل ثقيل على مريض فاطال الجلوس ، ثم قال : ما تشتكى ؟ قال قعودك عندي .

وقد دخل رجل على عمر بن عبدالعزيز يعوده في مرضه ، فسأله عن علته ، فلما أخبره ، قال الرجل لعمر : من هذه العلة مات فلان ومات فلان ، فقال له عمر : اذا عدت المرضى فلا تنع اليهم الموتى ، واذا خرجت عنا فلا تعد الينا .

وقد دعا الاسلام الى زيارة المريض ان كان مسلما او ذميا ، قريبا للعائد ، أو جارا له ، وسواء كان المريض صديقا أم عدوا ، وسواء من يعرفه ومن لا يعرفه ، وهي تذكر العائد بناعي الحياة ، وتعرفه قيمة الصحة التي يتمتع بها • فليشكر مسديها • وقد جعلها الرسول صلى الله عليه وسلم حقا واجبا للجار • فقال : أتدرون ما حق الجار اذا مرض فعده •

وينبغي ان تكون الزيارة غبا فلا يواصلها كل يوم ، اذا لم يكن قريبا للمريض أو صديقا يستأنس به المريض •

ويسن ان يدعو للمريض وان يقول في دعائه : أسأل الله الكريم رب العرش العظيم ان يشفيك بشفائه ، ودعا رجل لمريض فقال : اغناك الله عن الطب والاطباء ، بالسلامة والشفاء ، وجعل علتك تمحيصا ، وتذكيرا لا تنكيرا ، وادبا لا غضبا •

ومن كل هذا نرى ان عبادة المريض وتفقده والسؤال عنه من أجل آداب الاسلام وفضائله وهي فوق انها صلة بين العبد واخيه تسر النفس وتجبر الخاطر وتشعر المريض كما قلنا بجميل العطف وكريم المواساة ، وانها طاعة لله وعبادة لانها امتثال لما دعا اليه من أدب ، وسنة للانسانية من سلوك ، ولما فيه من عبر وعظات • وليعمل عمل من يظن انه يموت غدا ، وسيشيع كما شيع أخاه •

عاد بعض الناس رجلا صالحا نزلت به علة قربته من النزع ، فقال له : كيف حالك يا أخي ؟ فقال له : حال من يريد سفرا بعيدا بلا زاد ، ويقدم على ملك عادل بغير حجة ، ويسكن قبرا موحشا بلا أنيس •

وفقنا الله للتأدب بآداب الاسلام والامتثال لشريعة خير الانام • انه خير مأمول •

تشـــييع الجنـائز

روى الامام مسلم بن الحجاج القشيري عن أبي هريرة عبدالرحمن بن صخر الدوسي رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : حق المسلم على المسلم ست ، اذا لقيته فسلم عليه ، واذا دعاك فأجبه ، واذا استنصحك فانصحه ، واذا عطس فحمد الله فشمته ، واذا مرض فعـده ، واذا مات فاتبعه .

لقد اراد الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم بهذا الحديث تعليم اتباعه ســبل الاخلاق الكريمة التي يجب ان يتصف بها المســلم ليتكون مجتمع يسوده الحب والود ، ويحف به الصفاء والوفاء .

ولقد تحدثنا فيما مضى حديثا موجزا عن خمس من تلك الفضـائل ، والآن نتحدث عن سادستها وهي تشييع الجنازة .

في الموت أعظم عبرة تخشع لها القلوب القاسية ، وتخضـع النفوس العاتية ، وتنهار أمامها قوى الطغاة والجبارين ، ومن هنـا أمر الشـارع الحكيم أن نسير خلف جنازة الميت لتكون بمشهد منا حتى تمتلىء قلوبنـا وعيوننا بمرآها ، بل تكون جميع حواسنا متصلة بها منصرفة الى العظمـة بمصيبة الموت ، معتبرة بغيبة أحد الاخوة الذى كان حياً سليماً قائما عـلى جميع مصالحه وربما مصالح اخوانه ومحبيه ، وهو اليوم يقدم على ربـه الذى يعلم خائنة الاعين وما تخفى الصدور .

لقد جعل الشارع من حق المسلمعلى أخيه المسلم أن يتبع جنازته اذا مات، ويسير معها ويصلى عليها، ولايجلس حتى توضع علىالارض، ثم يواريها في التراب . فبذلك يحسن الى الميت ، ويحسن الى اقربائه اذ يواسيهم فـي مصابهم ، ويشاركهم في تشييع فقيدهم ، كما انه يحسن الى نفسه اذ ينال الاجر والثواب ويتذكر الموت والمئاب . وقد ورد عن رسول الله صلى الله

عليه وسلم انه قال : من اتبع جنازة مسلم ايمانا واحتساباً وكان معها حتى يصلى عليها ويفرغ من دفنها فانه يرجع من الاجر بقيراطين كل قيراط مثل أحد، ومن صلى عليها ثم رجع قبل انتدفن فانه يرجع بقيراط ٠ وجاء في بعض الروايات : من شهد الجنازة حتى يصلى عليها فله قيراط ، ومن شهدها حتى تدفن فله قيراطان ٠ قيل : وما القيراطان ؟ قال : مثل الجبلين العظيمين ٠

ولقد قال العلماء : يسن اتباع الجنازة لمن عرفنا ومن لم نعرف سواء في ذلك الاقارب والاباعد ٠

ومن الآداب الاسلامية في تشييع الجنازة التي ذكرها العلماء : الصمت والتفكر بهيبة الموت والمصير المحتوم ، ليلمس مكان العبرة من الموت ٠ وان يشغل قلبه بذكر الله والانابة اليه ٠ وقد قال الامام النووى : الصواب ما كان عليه السلف من السكون حال تشييع الجنازة ، فلا يرفع صوته بقراءة ولا ذكر ولا غيرهما لأنه أسكن للخاطر وأجمع للفكر فيما يتعلق بالجنازة وهو المطلوب في هذا الحال ٠ وجاء في الفتاوى الهندية : ويكره لمتبعي الجنازة تحريما رفع الصوت بالذكر وقراءة القرآن ، فان أراد أن يذكر الله يذكره في نفسه ٠

كما ذكر ان من اتبع الجنازة عليه ان يكون وراءها ان كان راكباً ، وان يكون قريباً منها ، اما خلفها ، أو امامها ، أو عن يمينها أو عن يسارها ان كان ماشياً ٠

والسنة الاسراع بالجنازة ليس بالخبب بل يكون وسطا معتدلا بين السرعة والهوينا ففي الصحيحين ٠ ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: اسرعوا بالجنازة ، فان تك صالحة فخير تقدمونه اليه ، وان تك سوى ذلك فشر تضعونه عن رقابكم ٠٠ وعن ابي سعيد الخدرى رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : اذا وضعت الجنازة فاحتملها الرجال

على اعناقهم ، فان كانت صالحة قالت قدمونى ، وان كانت غير صالحة قالت لأهلها يا ويلها أين تذهبون بها ، يسمع صوتها كل شيء الا الانسان. ولو سمع الانسان لصعق •

ولقد مر رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبرين ، فقال : انهما ليعذبان وما يعذبان في كبير ، أما أحدهما فكان لا يستبرىء من بوله ، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة ، ثم أخذ جريدة رطبة فشقها نصفين فغرز في كل قبر واحدة ، قالوا : يا رسول الله لم فعلت هذا ؟ قال : لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا •

والحكمة في ذلك ان كل حي ونام يسبح الله دون الميت واليابس وفي هذا الحديث اشارة الى انهما يسبحان ما دامتا رطبتين دون ما اذا يبستا وهذا الاشراق الروحى لرسول الله صلى اللهعليه وسلم حيث يشاهد تسبيح النبات والجماد وهو من خصوصياته •

ولا زالت هذه العادة جارية في البلاد متأسية بالرسول الكريم ، ثم أبدلت في بعضها بالزهور لا سيما عند الخاصة • والتسبيح من كليهما واقع والتخفيف بيد الله تعالى وهو الغفور الرحيم •

وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم النساء عن اتباع الجنازة • وقد ورد عن ام عطية : نهينا عن اتباع الجنائز ولم يعزم علينا •

هذه هي السنة التي امرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم باتباعها في تشييع الجنائز لتذكر المشيعين بمصيرهم ، كي يقدموا لانفسهم الخير الذى يجدونه عند الله هو خير واعظم أجرا ، وليدعوا لاخيهم الذى سبقهم بالعفو والمغفرة •

اللهم انا نسألك حسن الخاتمة ، وارحمنا يوم نعود اليك يا ارحم الراحمين •

مـن صفـات المنافقين

روى الامام البخاري في صحيحه عن عبدالله بن عميرو رضـي الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : أربع خلال من كن فيه كان منافقاً خالصاً ، من اذا حدث كذب ، واذا وعد أخلف ، واذا عاهـد غدر ، واذا خاصم فجر ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها .

وفي حديث آخر : آية المنافقين ثلاث ، اذا حدث كذب ، واذا وعـد أخلف ، واذا اؤتمن خان ...

الفضائل النفسية محمودة لدى الله والنـاس أجمعين ، وقد اثنى تبارك وتعالى على المتخلقين بها ووعدهم وعداً حسنا .

وان من تلك الفضائل مطابقة ظاهر الانسان لما في باطنه ، وموافقة أقواله لافعاله ولما يكنه في نفسه ، التي ارشد سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث الشريف الى ما ينبغى من سلامة الصدر وحسـن الطوية ، والى ان يساير ظاهر حال المسلم لما يكنه في نفسه ، ويحذر مـن صفات هي شأن المنافقين ، اولئك الذين اذا حدثوا كذبوا ، واذا وعـدوا اخلفوا ، واذا عاهدوا غدروا ، واذا خاصموا فجروا .

وقد جمع العلماء بين الحديثين اللذين ذكرناهما بأن الرسول الكريم عليه الصلاة والتسليم ربما اخبر ببعض العلامات في وقت ، وببعضها فـي وقت آخر . قال الامام النووى : حصل من مجموع الروايتين خمـس خصال ، لانهما تواردتا على الكذب في الحديث والخيانة في الامانة وزاد الاول الخلف في الوعد ، وزاد الثاني الغدر في المعاهـدة والفجـور في الخصومـة .

لقد ذكر سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديثه هذا بعض صفات المنافقين . وقد قسم العلماء النفاق الى قسمين :

احدهما : النفاق الاكبر ، وهو ان يظهر الانسان الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، ويبطن ما يناقض ذلك كله او بعضه .

والثاني : النفاق الاصغر ، وهو نفاق العمل ، بأن يظهر علانية اعمالا صالحة ، ويبطن ما يخالف ذلك ، وهو ما يعرف بالنفاق الاجتماعى ، وهو أخطر انواعه وشر ضروبه .

لقد عانى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من أمر المنافقين ما عانى ، وسجل القرآن الكريم عليهم الخزى والعار في كثير من الآيات، بل نزلت في شأنهم سورة كاملة من سورة القرآن الكريم بتفصيل احوالهم وبيان قبائح افعالهم ، كما سجل حيرتهم واضطراب نفوسهم وشدة قلقهم : (مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما اضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون . صم بكم عمي فهم لا يرجعون). قال الحسن البصرى : ان المنافقين لما اظهروا الاسلام ظفروا بحقن دمائهم وسلامة أموالهم عن الغنيمة ، وأولادهم عن السبي ، كما ظفروا بغنائم الجهاد وسائر احكام المسلمين ، فكان ذلك نورا من نور الايمان ، ولما كان ما ظفروا به بدون حق قليلا بالنسبة الى العذاب الاليم ، شبههم بمستوقد النار الذى انتفع بضوئها قليلا ثم سلب منه ، فدامت حيرته وحسرته للظلمة التي جاءته في اعقاب النور ، فكان يسير انتفاعهم في الدنيا يشبه النور ، وعظيم عذابهم في الآخرة يشبه الظلمة .

لقد كان المنافقون يتظاهرون بالايمان ويخفون الكفر والضلال والوقيعة بالمسلمين . واليكم ماروته كتب السير عن رئيسهم وحامل لوائهم عبدالله بن ابي بن سلول فقد روى انه خرج ذات يوم ومعه اصحابه ،

فاستقبلهم نفر من الصحابة ، فقال لاصحابه انظروا كيف ارد هؤلاء السفهاء عنكم ، فلما دنوا منهم ، اخذ بيد ابي بكر الصديق رضي الله عنه وقـال : مرحباً بالصديق سيد بنى تيم وشيخ الاسلام وثاني رسول الله في الغـار ، الباذل نفسه وماله لرسول الله • ثم اخذ بيد عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقال : مرحبا بسيد بنى عدى ، الفاروق ، القوى في دينه ، الباذل نفسه وماله لرسول الله • ثم اخذ بيد علي رضي الله عنه ، وقال : مرحبا يابن عم رسول الله وختنه وسيد بنى هاشم ما خلا رسول الله ، فقال له علي رضي الله عنه : يا عبدالله اتق الله ولا تنافق ، فان المنافقين هم شر خلق الله تعالى، فقال له عبدالله : مهلا يا أبا الحسـن ، أفي تقول هذا ؟ والله ان ايماننـا كايمانكم ، وتصديقنا كتصديقكم • ثم افترقوا ، فقال ابن ابي لاصحابه : انظروا كيف رأيتموني فعلت ؟ فاذا رأيتموهم فافعلوا مثل ما فعلته • فنزل قول الله تبارك وتعـالى (واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا واذا خلـوا الى شياطينهم قالوا انا معكم انما نحن مستهزؤون ، الله يستهزىء بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون) • وهذا هو نفاق الكفر الذى يجمـع جميع خصـال الخسـة والدناءة •

لقد كان المنافقون يحضرون مسجد رسول الله ويستمعون احاديـث المسلمين ليسخروا منهم ويستهزؤا بدينهم • فاجتمـع يوما في المسجد منهم ناس ، فرآهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يتحدثون بينهم خافضي أصواتهم قد لصق بعضهم ببعض ، فأمر بهم رسول الله فاخرجوا من المسجد اخراجا عنيفا ، فقام أبو ايوب الانصارى الى رجل من بني النجار وهو عمرو بن قيس ، وهو صاحب آلهتهم في الجاهلية ، فأخذ برجله فسحبه حتى اخرجه من المسجد • ثم رجع ابو ايوب الى رافع بن وديعة احد بنى النجار فجذبه جذبة شديدة ولطم وجهه ثم اخرجه من المسجد وهو يقول : أف لك منافقا •

خبيثا ، ادراجك يامنافق من مسجد رسول الله ، وتتابع الأصحاب على المنافقين يخرجونهم من مسجد رسول الله لئلا يتلوث بخبثهم •

لقد وصف سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم المنافق بقوله : مثل المنافق مثل الشاة العايرة بين الغنمين ، تعبر الى هذه مرة والى هذه مرة •

لقد كانوا ينتقدون باذل أمواله في سبيل الدعوة أو في الصدقة ، سواء اكثر البذل ام قل • فلقد جاء عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب في الناس ذات يوم وحث على ان يجمعوا الصدقات ، فجاءه عبدالرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم وقال : كان لي ثمانية آلاف درهم فامسكت لنفسي وعيالي أربعة وهذه الأربعة أقرضتها ربي ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : بارك الله لك فيما أقرضت وفيما أمسكت • وجاء عمر بن الخطاب بنحو ذلك وجاء عاصم بن عدى الانصاري بسبعين وسقا من التمر ، وجاء عثمان بن عفان بصدقة عظيمة • فقال قوم من المنافقين : ما أعظم رياءهم •

ويقول أبو مسعود عقبة بن عمرو الانصاري : أمرنا رسول الله بالصدقة وكنا نحامل على ظهور (أي نحمل على ظهورنا) ، فجاء أبو عقيل بصاع من تمر وقال : آجرت الليلة الماضية نفسي من رجل لارسال الماء الى نخيله ، فأخذت صاعين ، فأمسكت أحدهما لعيالي ، واقرضت الآخر ربي • فقال المنافقون : ما جاؤا بصدقاتهم الا رياء وسمعة • فعندئذ نزل قول الله : (الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون الا جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب أليم) •

وروى ابو سعيد سعد بن مالك الخدري قال: بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم مالا اذ جاءه ذو الخويصرة التميمي فقال : اعدل يا رسول الله: فقال : ويلك ومن يعدل اذا لم اعدل • فقال عمر بن الخطاب رضي الله

عنه : دعني يا رسول الله اقتل هذا المنافق ، فقال الرسول : معاذ الله ان يتحدث الناس اني اقتل اصحابي ، ان هذا واصحابه يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم ، يمرقون منه كما يمرق السهم من الرمية .

واليكم القصة التالية التي تدلكم على مقدار عداء هؤلاء المنافقين لرسول الله ودرجة حمقهم . لقد نازع احد المنافقين ويدعى بشرا احد اليهود ، فطلب اليهودى ان يكون الحكم بينهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يرض المنافق بذلك بل اراد كعب بن الاشرف اليهودى لكن اليهودى اصر على قوله ، فذهبا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحكم لليهودى على المنافق ، فقال المنافق : لا ارضى ، انطلق بنا الى ابي بكر ، فحكم ابو بكر لليهودى ، فلم يرض المنافق وقال : بيني وبينك عمر بن الخطاب ، فذهبا الى عمر ، فاخبره اليهودى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم وابا بكر رضي الله عنه قد حكما على المنافق فلم يرض بحكمهما فقال عمر للمنافق : هكذا ، قال : نعم ، قال عمر : اصبر ان لي حاجة ادخل فاقضيها واخرج اليكما ، فدخل فأخذ سيفه ثم خرج اليهما فضرب المنافق فقتله ، وهرب اليهودى . فجاء أهل المنافق فشكوا عمر الى النبي صلى الله عليه وسلم ويطلبون دية القتيل ، فسأل النبي عمر عن قصته ، فقال عمر: انه رد حكمك يا رسول الله . وقد اخبر جبريل عليه السلام النبي صلى الله عليه وسلم بذلك ، فعندئذ قال الرسول لعمر : أنت الفاروق . ونزل في ذلك قول الله تبارك وتعالى (الم تر الى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك يريدون أو يتحاكموا الى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا واذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله والى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا .. الى قوله تعالى : فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم

لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما) .

فالمنافق – كما قال أحد الأفاضل – يتظاهر بالصلاح وهو من الفاسدين ويلبس لباس المتقين ، وهو من الأشقياء المجرمين ، ويظهر بمظهر الوطنيين وهو من الخائنين ، ويتزيا بزي الأحباب الصادقين ، وهو من الاعداء الكاذبين ، ويرتدي رداء الغيرة على الأمة ومصالحها ، وهو لا يغار الا على أغراضه الشخصية ومنافعه المادية .

لقد أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنفاق في حديثه هذا الخصال السيئة التي يتجافاها المؤمنون الذين تخلقوا باصلاق الاسلام ، وعملوا بما جاءهم به الرسول من احاسن الصفات . اما الذين يتخلقون بتلك الصفات التي وردت في هذا الحديث الشريف فهي شبيهة بخصال المنافقين في اعمالهم . وان كان مؤمنا بقلبه مقراً بلسانه .

ولقد قال الامام حمد بن محمد الخطابي عند شرحه لهذا الحديث : هذا القول انما خرج على سبيل الانذار للمرء المسلم والتحذير له ان يعتاد هذه الخصال فتفضي به الى النفاق لا أنه منافق ان بدرت منه هذه الخصال، او فعل شيئاً منها من غير اعتياد .

هدانا الله الى الخصال الفاضلة ، وجنبنا الاعمال المنكرة ، انه بالاجابة جدير .

الكذب

روى الامام البخاري في صحيحه عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال : أربع خلال من كن

فيه كان منافقا خالصا ، من اذا حدث كذب ، واذا وعد أخلف ، واذا عاهد غدر ، واذا خاصم فجر ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها •

ذكرنا في كلمة سابقة النفاق ونتائجه السيئة على المجتمع الانساني • ونتحدث الآن عن بعض الخصال المنبثقة عن النفاق ، وبعض مساوئها على الأفراد والجماعات بل على الامة جمعاء •

وأولى تلك الخصال السيئة الممقوتة المذمومة : الكذب ، ذاك الخلق الذميم الذى يدل على دناءة النفس وحقارة الذات •

ان من ضروريات حياة المجتمع التعاون والتآزر بين الأفراد والجماعات ، اذ لا يمكن ان يعيش الانسان منفردا مستقلا عن غيره في جميع شئونه ، بل لابد له من الاستعانة بغيره والاستناد عليه في كثير من ضروريات الحياة ، لذلك لابدله من التفاهم مع ذلك الغير على أساس صحيح كي يتيسر له ان يتعاون معه ، فاذا لم يوجد الصدق فقد التعاون الذى هو أهم شيء في هذه الحياة ، فان الصدق أجل الفضائل الانسانية وأعظمها أثراً في حياته وسعادته ، اما الكذب فانه رذيلة من اقبح الرذائل أثراً في تفسيخ المجتمع وتفتيت قواه • لذلك قال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : كل خصلة يطبع أو يطوى عليها المسلم الا الخيانة والكذب •

ان الكذب من اقبح الجرائم التي تضر المجتمع وتقضى على العدل والنظام ، فان الذى يقول الكذب لابد ان يقتطع حقوق الناس ، او يثلم اعراضهم او يؤذيهم في انفسهم • كما أن الكذب يسبب بث الفوضى واغراء المجرمين على اقتراف جرائمهم وهم آمنون من العقوبة •

لقد بين سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم جزاء هذا الكاذب عند الله فقال : من حلف على يمين ليقتطع بها مال امرىء مسلم لقي الله وهو عليه

غضبان • قيل : يا رسول الله وان كان شيئا يسيرا ؟ قال : وان كان سواكا من اراك •

قالت ام المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها : ما كان من خلق اشد على اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكذب • ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلع على الرجل من اصحابه على الكذبة فما تنحل من صدره حتى يعلم انه قد احدث لله عز وجل منها توبة • وقال عليه الصلاة والسلام : ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر اليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب اليم ، وكررها مرات • فقال ابو ذر الغفاري: خابوا وخسروا ، ومن هم يا رسول الله ؟ قال : المسبل ازاره والذي لا يعطي شيئاً الا منة ، والمنفق سلعته بالحلف الفاجر •

ومن أخس هذه الخصلة ، كذب المرء تشفية به من عدوه ونكاية فيصفه بالقبائح ، وينسب اليه أقوالا وأفعالا يرى في نسبتها اليه غنما له أو ايقاعاً بعدوه • أو حطاً من شأنه ، كل ذلك لنقص في دينه وانحطاط في مروأته •

ان الكاذب قد امتهن نفسه واحتقرها به ، كما امتهن من يحدثهم واستخف بهم ، لذلك قال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : كبرت خيانة ان تحدث اخاك حديثا هو لك مصدق ، وأنت به كاذب •

وان للكذب آثاراً سيئة ، ونتائج رديئة ، ورائحة منتنة كريهة •

روى الامام الترمذي في سننه عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : اذا كذب العبد كذبة تباعد الملك عنه ميلا من نتن ما جاء به • وقال الطيبي : اذا تباعد الملك من نتن بصل وثوم وتأذى به ، فتباعده من الكذب اولى ، وقد صدق من قال :

لا يكذب العبد الا من مهانته ... أو فعله السوء أو من قلة الادب
لبعض جيفة كلب خير رائحة ... من كذبة المرء في جدوفي لعب

وقد منع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الكذب حتى في المزاح وعده كبيرة فقال : ويل للذى يحدث بكذب ليضحك به القوم ، ويل له ويل له • لأن الاسلام حريص على الاحتياط في درء الفساد ، لئلا يستهين المرء بامر الكذب فيكون له عادة ، لذلك كرر رسول الله كلمة الويل التي تدل على العذاب والسخط •

ولقد قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه : لأن يضعنى الصدق وقلما يفعل ، احب الي من ان يرفعنى الكذب ، وقلما يفعل •

وقال الاحنف بن قيس : لا مروءة للكذوب ، ولا سؤدد لبخيل ، ولا ورع لسيء الخلق وقال عامر بن شراحيل الشعبي : ما ادرى أيهما أبعد غوراً في النار ، الكذاب أم البخيل • وقال مالك بن دينار : الصدق والكذب يعتركان في القلب حتى يخرج أحدهما صاحبه ، فالكذب داء ودواءه الصدق •

وقال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أحبكم الينا ما لم نركم احسنكم اسما فاذا رأيناكم فأحبكم الينا أحسنكم خلقا ، فاذا اختبرناكم فاحبكم الينا أصدقكم حديثا وأعظمكم أمانة •

لهذا يأمرنا تعالى بالصدق على ان يكون خلقا راسخا في نفوسنا (ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) • ومدح تبارك وتعالى كثيرا من الانبياء بالصدق ، واشاد بمكانة ابراهيم واسحاق ويعقوب عليهم السلام اذ يقول فيهم • (ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق عليا) • ومدح اسماعيل عليه السلام فقال : (انه كان صادق الوعد وكان رسولا نبياً) • ومدح ادريس عليه السلام فقال : (انه كان صديقاً نبيا ورفعناه مكانا عليا) •

كما مدح تبارك وتعالى اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله :

((رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا • ليجزى الله الصادقين بصدقهم) • لأن الصدق كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يهدى الى البر والبر يهدى الى الجنة • وهو جماع الاخلاق والفضائل ، فيه الرجولة التي تدفع الانسان الى ان يقول الحق دون خوف او خشية لوم • وبنقيضه الكذب الذى هو جماع الرذائل والاخلاق القبيحة الذى يجب ان يترفع عنها الانسان اعتزازا بايمانه وكرامته •

وقد يعفى من هذا كله عند الضرورات التي تبيح المحظورات ، فقد يجوز له ذلك لانقاذ مظلوم ، او تخليص شخص يراد قتله ، فلو استجار بك شخص واختبأ في دارك ثم جاء الظالم طالبا الايقاع به ، فالواجب عليك دفعة عن ارتكاب جريمته بجميع السبل ومنها نفى وجوده لديك ، ولايقال ان الصدق فضيلة وان الكذب رذيلة ، ففي هذه الحالة ينظر للمصلحة في ذاتها خصوصا اذا كان الاثر الذى يترتب على الكذب فيه درء مفسدة ، وانما حرم الكذب لما يترتب عليه من المفاسد ، فمتى أمكن التوفيق بينه وبين المصلحة الضرورية فلا يكون محرما • ومن ذلك الاصلاح بين فئتين ، فان التحايل على ذلك بأى وسيلة لازم مهما أمكن •

وكذلك القول في الحروب كتعظيم قوة الامة الحربية في نظر الخصم ليرهب جانبها ، او لدفع عدوانه •

وكذا ما يترتب عليه صيانة الاعراض ، او حفظ الاموال ، او فيه منفعة للامة ، ولا ينظر في هذه الاحوال الا للفائدة التي ينشدها الدين ويمتدح من اجلها الصدق •

وكذا يغتفر الكذب في الشعر عن طريق المبالغة ، لقد ذكرت كتب

السير أن النبي صلى الله عليه وسلم لما قسم الغنائم يوم حنين أمر للعباس بن مرداس باربع قلائص فاندفع يشكو في شعره ، ومما قاله :

وما كان بدر ولا حابس يسود ان مرداس في مجمع
وما كنت دون امرىء منهما ومن تضع اليوم لا يرفع

فقال صلى الله عليه وسلم : اقطعوا عني لسانه . فذهب به ابو بكر الصديق حتى اختار مائة من الابل . ثم رجع وهو من ارضى الناس ، فقال له النبي : اتقول في شعرا ؟ فجعل يعتذر اليه ويقول : بأبي أنت وأمي ، اني لأجد للشعر دبيبا على لساني كدبيب النمل ، ثم يقرصني كما يقرص النحل ، فلا أجد بداً من قول الشعر . فتبسم النبي صلى الله عليه وسلم وقال: لا تدع العرب الشعر حتى تدع الابل الحنين .

خلف الوعد

روى الامام محمد بن اسماعيل البخارى في صحيحه عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: أربع خلال من كن فيه كان منافقا خالصا ، من اذا حدث كذب ، واذا وعد أخلف ، واذا عاهد غدر ، واذا خاصم فجر ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها .

وورد في حديث آخر : آية المنافق ثلاث ، اذا حدث كذب ، واذا وعد اخلف ، واذا اؤتمن خان .

ذكرنا قبل هذا كلمة عن الخصلة المذمومة الاولى الا وهي الكذب ، واوضحنا شؤمها على الافراد والجماعات والامم .

واليوم نردفها بالخصلة الثانية وهي خلف الوعد ٠
وهو عند العلماء على قسمين :

احدهما : ان يعد وفي نيته ان لا يفى بوعده ، وهذا شر الخلق ٠ ولو قال افعل كذا ان شاء الله تعالى ، وفي نيته ان لا يفعل كان كذبا وخلفا ٠

ثانيهما : ان يعد وفي نيته ان يفى ، ثم يبدو له فيخلف من غير عذر له في الخلف ٠ ولقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال : اذا وعد الرجل ونوى ان يفي به فلم يف فلا جناح عليه ٠

والوفاء بالوعد يكون مع الجميع مع البعيد والقريب، مع الكبير والصغير٠ جاء في حديث عبدالله بن مسعود : لا يعد احد صبه ثم لا ينجز له ، وقال ابو هريرة : من قال لصبي تعال هاك تمرا ثم لا يعطيه شيئا فهى كذبة ٠

لقد روى ان عبدالله بن عمر رضي الله عنهما لما حضرته الوفاة قال : انه كان خطب الي ابنتي رجل من قريش ، وقد كان منى اليه شبه الوعد ، فوالله لا القى الله بثلث النفاق اشهدكم اني قد زوجته ابنتى ٠

فخلف الوعد رذيلة ممقوتة تدل على ان المخلف لا يقيم لنفسه ولا لغيره وزنا ، ولا يجعل لذلك العهد قيمة ، ولا يبالى بما يعود عليه من ارتباط معه بالوعد من الضرر وفوات المنافع وضياع الوقت ٠

روى عن عبدالله بن ابي الحمساء العامرى انه قال : بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل ان يبعث ، فبقيت له علي بقية فوعدته أن آتيه بها في مكانه ذلك ، فنسيت يومي والغد ، فأتيته في اليوم الثالث وهو في مكانه ذلك فقال لي : يا فتى لقد شققت علي ، انا هنا منذ ثلاث انتظرك ٠

فالوفاء من كرم السجايا ، والغدر من لؤم الطباع ، فمن عرف بالوفاء خصته القلوب بصدق الوداد ، وكسته الالسن بطارف الاحماد ٠

لما ايقن مروان بن محمد آخر خلفاء الامويين بانقضاء ملكه وظهور العباسيين عليه ، قال لكاتبه عبدالحميد الكاتب : قد احتجت الى ان تصير مع عدوى وتظهر الغدر لي ، فان اعجابهم بأدبك وحاجتهم الى كتابتك يدعوان الى حسن الظن بك ، فان استطعت ان تنفعني في حياتي والا لم تعجز عن نفع حرمي بعد مماتي .

فقال عبدالحميد : ان الذى امرت به انفع الاشياء لك واقبحها لي ، وما عندى غير الصبر معك حتى يفتح الله عليك او اقتل معك ، ولزمه ولم يفارقه حتى قضى الله في امره .

فالوعد دين على الحر واجب اداؤه ، فلا تخلف وعدك ، ولا تعد احدا بما لا تقدر على وفائه ، فان من اخلف الوعد ، فقد عصى الله ، وخالف سنته في نظامه .

ولقد جاء في المثل : انجز حر ما وعد . وقد قاله الحارث بن عمرو الكندى لصخر بن نهشل . وذلك ان الحارث قال لصخر : هل ادلك على ان لي خمسها ؟ ، قال صخر : نعم فدله على قوم من العرب ، فاغار عليهم صخر بقومه فظفروا وغنموا ، فلما انصرفوا قال له الحارث : انجز حر ما وعد .

فراود صخر قومه على ان يعطوا الحارث ما كان ضمين له ، فأبوا عليه وكان في طريقهم ثنية متضايقة يقال لها سجعات ، فلما دنوا منها سار اليهم صخر حتى قعد على رأسها ومنعهم الجواز او يعطوا للحارث الخمس. فقال له جعفر بن ثعلبة اليربوعى : والله لا نعطيه شيئا من غنيمتنا ، ثم مضى في الثنية ، فحمل عليه صخر وطعنه وقتله ، فلما رأى القوم ذلك اعطوا الخمس فدفعه الى الحارث وفاء بوعده .

لقد عرف المسلمون بالوفاء منذ عهد تاريخهم الاول بل في جميع عهودهم ومعاهداتهم ، ولم يعرفوا الغدر ونقض العهد وخلف الوعد تلك الصفات التي اصبحت من مستلزمات عصر المدنية .

لقد حدث ان حذيفه بن اليمان خرج هو وصاحب له يريدان رسول الله بالمدينة فاخذتهما قريش وقالوا لهما : انكما تريدان محمدا ، فقالا ما نريده ولا نريد الا المدينة ، فتركوهما بعد اخذ العهد عليهما الا يقاتلا معه .

ولما بلغا المدينة أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم واخبراه بما حدث فقال لهما انصرفا ، نفي بعهدكم ونستعين الله عليهم .

ولقد حاصر المسلمون حصنا حتى اوشكوا ان يقتحموه ، وفي تلك الحالة وبدون علم من احد كتب احد العبيد كتابا لاهل الحصن ورمى به اليهم في سهم ، ففتح الحصن وادعى اهله انهم وعدوا بالامان فاجابهم المسلمون بان ذلك كان من احد عبيدهم وليس بملزمهم ، فقال لهم اهل الحصن : لسنا نعرف الحر من العبد .

فكتب المسلمون الى امير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه بذلك ، فاجابهم ان الله عظم الوفاء ، فلا تكونوا اوفياء حتى توفوا لهم . وانصرفوا عنهم .

وروى ان النبي صلى الله عليه وسلم كان وعد ابا الهيثم مالك بن التيهان الانصارى ان يعطيه خادما ، فاتى بثلاث من السبي ، فاعطى اثنين وبقي واحد ، فاتت فاطمة رضي الله عنها تطلب منه خادما وتقول : الا ترى اثر الرحى بيدى ؟ فذكر عليه الصلاة والسلام موعده لابي الهيثم فجعل يقول : كيف بموعدى لابي الهيثم : فآثره به على فاطمة .

ولقد اراد سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم العمرة ، فسار هو واصحابه قبل مكة حتى وصلوا الى عسفان ، فبلغه هياج قريش لمقدمه ، وقد

اجمعوا على صده ، فعندئذ ارسل النبي صلى الله عليه وسلم عثمان بن عفان رضي الله عنه ليخبر القوم بأن الرسول واصحابه ما جاؤا الا زائرين • ولكنهم سجنوه واشيع انه قتل • فاجتمع الرسول باصحابه وجرت بيعة الرضوان • فلما سمعت قريش بأمر البيعة سعوا للصلح ، وتم على ترك الحرب عشر سنين • وان تكون العمرة في العام القابل ، وان يرد اليهم من يفر اليه منهم • ثم هرب الى المدينة رجل من قرش هو ابو بصير عتبة بن أسيد الثقفي ، فارسلت قريش في طلبه رجلين وكتبت الى النبي صلى الله عليه وسلم : ابعث لنا بصاحبنا فقد وعدتنا برد من قدم عليك من اصحابنا • فامر الرسول ابا بصير ان ينطلق مع رسولي قريش ، فقال له ابو بصير : اتردني الى المشركين ، فاجابه الرسول: انطلق الى قومك لانغدر ، وان الله جاعل لك من الضيق فرجا •

فذهب أبو بصير مع رسولي قريش حتى بلغا به ذا الحليفة ، فنزلوا يأكلون من تمر لهم ، فقال أبو بصير لاحد الرجلين : والله اني لأرى سيفك هذا جيدا يا فلان ، فاستله الآخر وقال : أجل والله انه لجيد ، لقد جربت به ثم جربت ، فقال له أبو بصير : ارني انظر اليه • فلما امكنه منه ضربه به فقتله ، وفر الآخر حتى اتى الى المدينة ، فدخل المسجد يعدو ، وقال للنبي صلى الله عليه وسلم : قتل والله صاحبي ، واني لمقتول ، فجاء أبو بصير فقال : يا رسول الله ، قد والله وفت ذمتك ، وقد رددتني اليهم ، فانجاني الله منهم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ويل امه مشعر حرب لو كان معه احد ، فلما سمع ذلك علم انه سيرده اليهم ، فخرج حتى اتى سيف البحر ، وانفلت من قريش ابو جندل بن سهيل القرشي العامري والتحق بابي بصير ، وجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم الا لحق بابي بصير ، حتى اجتمعت منهم عصابة قطعوا الطريق على

قوافل قريش واخذوا يقتلون الرجال ويأخذون الاموال فارسلت قريش الى النبي تناشده ان يمنع هؤلاء والا يرسل اليهم من يدخل في الاسلام من قريش •

فالوفاء بالوعد ـ كما قيل ـ هو غرس الامانة ، وثمرة الصدق والاخلاص ومظهر الشهامة والمروءة ، وصفة النفوس الشريفة ، وباعث الثقة والاحترام ، ودعامة حسن المعاملة ، واساس لرقي الامم وسبل سعادتها •

ومن عرف بالوفاء كان مقبول القول عند الناس ، وكانوا اكثر ثقة به ، حتى تصبح اموال الناس امواله وثروتهم ثروته ، بل يكون رأس مال تجارته وأس صناعته •

فالوفاء بالوعد دين واجب عليه اداؤه • لهذا ينبغي ان يفكر المرء قبل ان يعد ، فاذا ما وعد تحتم عليه ان ينجزه • ولقد قال الشاعر :

اذا قلت في شيء (نعم) فاتمه فان (نعم) دين على الحر واجب
والا فقل (لا) تسترح وترح بها لئلا يقول الناس انك كاذب

ومن الامثال : حسب المؤمن من مكارم الاخلاق صيانة الوعد والميثاق، ولقد مدح الله تبارك وتعالى اقواما صدقوا وعدهم ، ووفوا بما عاهدوا به بل قرن تعالى الوفاء به بالنبوة ، وقدمه في الذكر تنويها به وتنبيهاً على عظيم قدره • قال تعالى : (واذكر في الكتاب اسماعيل انه كان صادق الوعد وكان رسولا نبياً) • وقال تعالى : (ان الله لا يخلف الميعاد) • وقال صلوات الله وسلامه عليه : وعد المؤمن كأخذ باليد •

فالوعد دين ومن أخلف الوعد عصى الله وهجر سنة نبيه •

عـــدم الوفـــاء بالعهـــد

روى الامام محمد بو اسماعيل البخاى في صحيحه عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال : أربـع خلال من كن فيه كان منافقا خالصا • من اذا حدث كذب ، واذا وعد أخلف واذا عاهد غدر ، واذا خاصم فجر ، ومن كانت فيه خصلة منهن كامت فيـه خصلة من النفاق حتى يدعها •

ذكرنا من قبل تعاليق موجزة عما وود في هذا الحديث الشريف من ذكر بعض خصال المنافقين وهي الكذب وخلف الوعد •

والآن نتحدث عن الخصلة الثالثة وهي عدم الوفاء بالعهد •

ان الوفاء بالعهد فرض من الفرائض المقدسة في الشريعة الاسلاميـة ومن خالف عهداً من العهود كانت فيه خصلة من خصال النفاق •

لقد أمر الله تبارك وتعالى بالوفاء بالعهـد فقال : (وأوفوا بالعهـد ان العهد كان مسئولا •• وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها • وقد جعلتم الله عليكم كفيلا) • وقال صلوات الله وسلامه عليه : لكل غادر لواء يوم القيامة يعرف به •• وفي رواية اخرى : ان الغادر ينصب له لواء يوم القيامة فيقال : الا هذه غدرة فلان •

لقد عاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشا وغير قريش فما عرف عنه انه غدر قط •

فقد عقد صلوات الله وسلامه عهدا بينه وبين قريش وذلك في الحديبية، عندما طلبوا من الرسول عقد معاهدة على ترك القتال لمدة عشر سنين ، وان يأمن بعضهم بعضا ، وان يرجع الرسول الكريم مع اصحابه بدون أن يدخلوا

مكة ويأتوا في العام القابل ، ويخلوا له مكة ثلاثة أيام ، والا يدخلوا مكة الا بالسيوف في قرابها الى غير ذلك من البنود .

وما كادت المعاهدة تكتب حتى حدثت احداث استوجبت الخلاف في تنفيذها . فلقد غدر المشركون بعهدهم قبل تمام السنتين على توقيعه ، اذ ناصرت حلفاءها من بني بكر على خزاعة حلفاء الرسول ، وكان العهد يمنع من مناصرة حليف على حليف ، وهكذا تعجلت قريش بغدرها ، وسعت الى حتفها بظلفها .

ولقد كان عهد الحديبية رحيما بقريش ملائماً لرغباتهم ، الا ان ذلك لم يطمئن رغباتهم . ولما كان هذا التسامح غير مجد مع هؤلاء الجاحدين ، لم تبق الا الشدة علاجا ، لذلك نزل القرآن الكريم بالبراءة من هذا العهد وان تعلن تلك البراءة علانية يوم الحج الاكبر .

وقد خرج اليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بجيشه في رمضان من السنة الثامنة ، وفتح مكة وطهرها من الاصنام واعاد اليها حرمتها .

وقد بشر الله تعالى رسوله بهذا عقب توقيع معاهدة الحديبية ، فقد نزلت سورة الفتح منوهة في شأن تعظيم هذه المعاهدة ، مبينة ما فيها من الحكم الصالح ، واعدة بالنصر والمغانم ، كانت تمهيدا لفتح مكة .

كما عقد معاهدة مع أهل أيلة وأهل جرباء واذرح وبنى ثعلبة وكذا لأهل خيبر وغيرها كثير .

واذا بعث سرية كان يوصيهم بتقوى الله ويقول لهم : لا تمثلوا ولا تغدروا ولا تقتلوا وليدا ولا امرأة .

ولقد أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم عهداً للنصارى في جزيرة العرب جاء فيه :

هذا كتاب كتبه محمد بن عبدالله الى كافة الناس أجمعين ، كتبه لأهل ملة النصارى ولمن تنحل دين النصرانية من مشارق الارض ومغاربها ، قريبها وبعيدها ، فصيحها وعجمها ، معروفها ومجهولها ، جعل لهم عهداً ان احتمى راهب او سائح في جبل او واد او مغارة أو عمران أو سهل او رمل او بيعة ، فانا أكون من ورائهم اذب عنهم من كل غيرة لهم ، وليس عليهم جبر ولا اكراه على شيء من ذلك الى أن قال : ولا يهدم بيت من بيوت كنائسهم وبيعهم ، ولا يدخل شيء من مال كنائسهم في بناء مسجد المسلمين ، ولا في بناء منازلهم ، فمن فعل شيئا من ذلك فقد نكث عهد الله وعهد رسوله . الى آخر ما ورد في ذلك العهد .

ولعل هذه العدالة السمحة ـ كما قال احد الافاضل ـ التي التزم المسلمون انفسهم بها صادرة عن ايمان عميق بأن العلاقات مع الناس يجب ان تقوم على اساس احترام انسانية الغير وعاطفته ومعتقده ، ومتجاوبة مع منطوق الحديث القدسي : يا عبادى اني حرمت الظلم على نفسي ، وجعلته بينكم محرما ، فلا تظالموا .

وقد اقتدى خلفاء رسول الله برسول الله في ذلك .

عندما تغلب الجيش العربي على الجيش الفارسي وقع في الاسر احد كبار قادتهم ممن اساءوا الى العرب والمسلمين وهو الهرمزان . وعندما احضر بين يدى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال له : تكلم ، فقال الهرمزان : اكلام حي ام كلام ميت ؟ فقال عمر : تكلم لا بأس ، ثم طلب شربه ماء ، ولما اخذ القدح بيده طلب الامان حتى يشرب ما في هذا القدح . ولما أخذ العهد رمى القدح من يده وأراق الماء ، ثم قال الوفاء بالعهد ، فخلى سبيله . اذ عد عمر هذه الكلمة امانا .

ولقد عهد عمر بن الخطاب لاهل بيت المقدس عهدا في ابان ظفره

واوج انتصاره • اعطاهم امانا لانفسهم واموالهم وكنائسهم وصلبانهم • ومما جاء فيه ايضا انه لاتسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من خيرها، ولا يكرهون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم ، ولا يسكن بايلياء معهم احد من اليهود •

وجاء في هذا العهد : ان يخرجوا منها الرومانيين واللصوص ، فمن خرج فانه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل ايلياء من الجزية •

وعندما كان عمر في كنيسة القيامة حان وقت الصلاة ، فطلب البطريق من عمر ان يصلي بها • الا انه اعتذر لانه يخشى ان يصلي بالكنيسة فيدعى المسلمون فيما بعد انها مسجد لهم ، فيأخذونها من النصارى •

ولقد عهد خالد بن الوليد رضي الله عنه لاهل الشام عهدا جاء فيه : هذا ما اعطى خالد بن الوليد أهل دمشق اذا دخلها ، اعطاهم امانا على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وسور مدينتهم لا يهدم ولا يسكن شيء من دورهم ، لهم بذلك عهد الله وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم والخلفاء المؤمنين ولا يعرض لهم الا بخير اذا اعطوا الجزية •

ولما دخل الجيش الاسلامي مصر بقيادة عمرو بن العاص انتهجوا فيها سياسة التسامح التي دعا الاسلام اتباعه الى انتهاجها مع غيرهم ، وعلى هذا المنهاج وجه عمرو بن العاص الدعوة الى البطريك القطبي ، ليحضر آمنا مطمئنا ، ويدير بيعته ، ويتولى سياسة طائفته ، فكان هذا العهد حافزا لبناء الكنائس والاديرة في ظل الحكم الاسلامي ، واصلاح ما تهدم منها ، وقد عامل المسلمون النصارى المعاهدين معاملة الند للند ، ولم يكلفوهم فوق طاقتهم •

وهناك معاهدات كثيرة ملأت صفحات التاريخ تدل على ان هؤلاء المسلمين قد فطروا على التسامح وحب السلام •

والمسلم ـ كما قيل ـ مطالب ان يكون صاحب عهد مع الناس ، فان عاهدوه ووفوا بعهودهم فلا جناح عليهم ، اما اذا نقضوا العهد والميثاق ، فموقفه منهم موقف معقول ومنطقي ، وهو موقف التأديب الذى تقره الشرائع والقوانين .

وبالرغم من صراحة الامر بمحاربة ناكثي العهود ، فان الامراء المسلمين كانوا يتحرجون كثيرا من الاحتكام الى السيف معهم ، ومن ذلك ما حدث لاهالي بلدة يقال لها (عريسوس) التي كانت في منطقة ليس بينها وبين بلاد الروم حد ، وكان أهلها يمثلون دور الرتل الخامس بالنسبة للمسلمين ، ويخبرون العدو بعوراتهم ، ولا يظهرونهم على عورات العدو . بالرغم مما كان بينهم وبين المسلمين من عهد وميثاق . ولقد علم امير تلك المنطقة بعمل هؤلاء الا انه لم ينبذ اليهم بجيشه ، ولم يشهر عليهم سلاحا ، بل كتب لامير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه بنباءهم ، ويستفتيه في أمرهم ، وكان موقف عمر منهم ادعى الى الاعجاب والاكبار ، فانه لم يعجل بالنقمة ، ولم يسلك طريق العقاب الا بعد ان يبسط لهم المعذرة وسبيل الرحمة ، حيث كتب لعامله : فاذا قدمت فخيرهم بين ان تعطيهم مكان كل شاة شاتين ومكان كل بقرة بقرتين ، ومكان كل شيء شيئين . فان رضوا بذلك فاعطهم اياه وخربها ، فان ابوا فانبذ اليهم واجلهم سنة ثم خربها .

ومما يجمل ايراده في هذا المقام قضية ثعلبة بن حاطب الانصارى ، وتتلخص : في ان ثعلبة هذا كان من انصار النبي صلى الله عليه وسلم ، فجاء يوما فقال : يا رسول الله ادع لي ان يرزقنى الله مالا ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ويحك يا ثعلبة ، قليل تؤدى شكره خير من كثير لا تطيقه ، ثم اتاه بعد ذلك مرة اخرى فقال : يا رسول الله ، ادع الله لي ان يرزقني مالا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمالك في رسول

الله أسوة حسنة ، والذى نفسي بيده لو اردت ان تصير الجبال معي ذهبا وفضة لصارت ، ثم أتاه بعد ذلك فقال : يا رسول الله ادع الله لي ان يرزقني مالا ، والذى بعثك بالحق لئن رزقني الله مالا لأعطين كل ذى حق حقه ، وعاهد الله على ذلك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم ارزق ثعلبة مالا ، قال : فاتخذ ثعلبة غنما ، فنمت حتى ضاقت عليه المدينة ، فتنحى عنها ونزل واديا من اوديتها وهي تنمو ، وكان يصلي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الظهر والعصر ولا يصلي باقي الصلوات الا في غنمه ، فكثرت ونمت حتى بعدت عن المدينة ، فصار لا يشهد الا الجمعة ، ثم كثرت ايضاً حتى كان لا يشهد جمعة ولا جماعة ، فكان اذا كان يوم الجمعة خرج يتلقى الناس يسألهم عن الاخبار • فذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فقال : ما فعل ثعلبة ؟ فقالوا يا رسول الله اتخذ غنما لا يسعها واد ، فقال رسول الله : يا ويح ثعلبة • فانزل الله تبارك وتعالى آية الصدقة ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلين لأخذ الصدقة وقال لهما : مرا بثعلبة ابن حاطب وبرجل آخر من سليم ، فخذا صدقتهما ، فخرجا حتى أتيا ثعلبة فسألا الصدقةوأقرآه كتاب رسول الله ، فقال: ما هذه الا جزية ، ما هذه الا أخت الجزية ، انطلقا حتى تفرغا ثم عودا الي ، فانطلقا وسمع بهما السليمي ، فنظر الى خيار أسنان ابله فعزلها للصدقة ، ثم استقبلهما بها ، فلما رأياها قالا : ما هذا ؟ قال خذاه فان نفسي به طيبة ، فمرا على الناس وأخذا الصدقات ، ثم رجعا الى ثعلبة ، فقال أروني كتابكما فقرأه ثم قال ما هذه الا جزية ، ما هذه الا أخت الجزية ، اذهبا حتى أرى رأيي ، فانصرفا عائدين الى المدينة ، فلما رآهما رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ياويح ثعلبة ، وذلك قبل أن يتكلما ، فأنزل الله عز وجل (ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين • فلما آتاهم

من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون • فأعقبهم نفاقا في قلوبهم الى يوم يلقونه بما اخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون) • وكان عند النبي صلى الله عليه وسلم رجل من أقاوب ثعلبة فسمع ذلك فخرج حتى أتاه فقال: ويحك ياثعلبة قد أنزل الله عز وجل فيك كذا وكذا ، فخرج ثعلبة حتى أتى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله ان يقبل منه صدقة ، فقال : ان الله تعالى منعنى أن أقبل منك صدقتك ، فجعل ثعلبة يحث التراب على رأسه ، فقال له رسول الله : هذا عملك ، قد أمرتك فلم تطعني ، وقد قبض رسول الله ولم يقبل منه شيئاً • ثم أتى أبا بكر الصديق ولم يقبل منه شيئاً ، ولما ولى عمر بن الخطاب ، أتاه فلم يقبل منه شيئاً ، ولما ولي عثمان بن عفان أتاه فلم يقبل منه شيأ ، ثم هلك ثعلبة في خلافة عثمان وهكذا عاقبه الغدر خزي في الدنيا والآخرة •

فالغدر محرم على المسلم ، لأن المسلمين عند شروطهم وعهودهم ، ولقد ذم الله تبارك وتعالى المشركين لنكثهم عهودهم ، فقال تعالى : (ان شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون • الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون) •

فالغدر محرم حتى مع الكافرين ، ولقد قال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من قتل نفسا معاهدة بغير حق لم يرح رائحة الجنة ، وان ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاماً •

الخصومة الفاجرة

روى الامام محمد بن اسماعيل البخارى في صحيحه عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال : أربع خلال من كن فيه كان منافقا خاصا ، من اذا حدث كذب ، واذا وعد أخلف ، واذا عاهد غدر ، واذا خاصم فجر ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها .

تكلمنا في كلمات سابقة عن خصال ثلاث ، ونردفها بالخصلة الرابعة التي نبه عنها هذا الحديث الشريف وهي الفجور في الخصومة . والخصومة كما قيل : من طبيعة البشر في هذه الحياة الدنيا ، ولا معدى لهم عنها ، ولا محيص لهم منها ما داموا يختلفون ويتجادلون ، (ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ولذلك خلقهم) .

بيد انها تختلف قوة وضعفاً ورفقاً وعنفا ، وقصدا وسرفا ، تبعا لاختلاف الطبائع والميول .

ولا يؤاخذ الاسلام أحداً باختلاف أو خصومة في سبيل الحق ، مادام سليم القصد ، حسن الطوية ، نزاعا الى الخير ، ولو أخطأ في بعض أحيانه قصد السبيل .

اما الفجور في الخصومة فهو الخروج عن الحق عمدا حتى يصير الحق باطلا ، والباطل حقا ، والتعمد للاضرار بمن خاصمه ، ولقد ذكر القرآن الكريم صنفا من اولئك الفجرة الذين عادوا رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ان تصبك حسنة تسوءهم وان تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون ، قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا) .

ومن اسوأ الخصال المبالغة في الخصومة والاسراف في العداء ، لذلك قال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان أبغض الرجال الى الله الألد الخصم .. وقال : من خاصم في باطل وهو يعلم ، لم يزل في سخط الله حتى ينزع ، ومن أعان على خصومة بظلم فقد باء بغضب من الله .

وكفى بذلك زجرا لمن تحدثه نفسه بالخروج على ما أمر الله ورسوله به ، اذ المؤمن اذا خاصم كان رجلا شريفا لا يحيد عن الحق في الخصومة. روى أن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه قد سئل عن الخوارج أمشركون ؟ قال : لا ، هم من الشرك فروا . فقيل له : أمنافقون هم ؟ قال : لا ، ان المنافقين لا يذكرون الله الا قليلا ، وهؤلاء يذكرون الله كثيرا ، فقيل له : فما هم ؟ قال : اخواننا بغوا علينا . وروى عن الامام محمد ابن ادريس الشافعي رضي الله عنه انه قال : ما جادلت انسانا الا وأحببت ان يظهر الله الحق على لسانه ، وهكذا فليكن المؤمنون .

وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال : سباب المسلم فسوق وقتاله كفر . فالذى يرمى رجلا بالفسوق او بالكفر الا اوتدت عليه ان لم يكن صاحبه كذلك بأن يقول له : يا فاسق او يا كافر ، فان ذلك يرتد عليه بان يصير هو فاسقا او كافرا،ان لم يكن المخاطب مستحقا،وان قصد بذلك نصحه أو نصح غيره ببيان حاله جاز ، وان قصد تعبيره او ايذاءه لم يجز له ذلك لأن المسلم مأمور بالستر على غيره وموعظته بالحسنى لا التشهير به .

وهذا أنس بن مالك يقول : لم يكن رسول الله فاحشا ولا لعانا ولا سبابا ، كان يقول عند المعتبة ماله ترب جبينه ، ولقد استب رجلان عند النبي صلى الله عليه وسلم فغضب احدهما فاشتد غضبه حتى انتفخ وجهه وتغير ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : اني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه

الذى يجد ، فانطلق اليه رجل فاخبره بقول النبي صلى الله عليه وسلم وقال: تعوذ بالله من الشيطان ، فقال : أترى بي باس ، أمجنون أنا اذهب •

وعن المعرور بن سويد انه قال : رأيت على أبي ذر جندب بن جنادة الغفارى برداً وعلى غلامه بردا ، فقلت - لأبى ذر - لو أخذت هذا ولبسته كانت حلة واعطيته ثوباً آخر ، فقال ابو ذر : كان بينى وبين رجل كلام ، وكانت أمه اعجمية فنلت منها فذكرنى الى النبي صلى الله عليه وسم ، فقال لي : أسابيت فلانا ؟ قلت: نعم ، قال : أفنلت من أمه ؟ قلت : نعم ، قال : انك امرؤ فيك جاهلية • قلت على حين ساعتي : هذه كبر السن ، قال نعم ، هم اخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن جعل الله أخاه تحت يده فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس ، ولا يكلفه من العمل ما يغلبه ، فان كلفه ما يغلبه فليعنه عليه •

قال أحد الافاضل : فالكلمة ينطق بها الانسان من غير وعي ولا تدبر ربما اكسبته شقاء وأورثته تعبا وعناء ، وجرت عليه الاحقاد والاضغان ، وخلقت له في نفوس الناس صورة مجللة بالبغض والكراهة •

وهل يثير الفتن ويهيج العداوة بين الناس الا حصائد اللسان وزلاته • وسوء المنطق وآفاته ، فكم من كلمة بدرت من المرء عفواً ، فاذا بها تولد العداوات الفاجرة • والخصومات الغادرة ، والاحقاد الثائرة وتشب المهاترات ، وتثير المنازعات ، فلو سلمت من خشونة القول لما أثارت هذه الفتن •

لقد نظر الاسلام الى الذى ساء لسانه نظرة مزرية مهينة ، وعده من أهل النفاق ، وان صلى وصام وتعبد وتهجد • ولقد قبل لرسول الله صلى الله عليه سلم : يا رسول الله ، ان فلانة تقوم الليل ، وتصوم النهار ، ولكنها

تؤذي جيرانها بلسانها ، فقال صلى الله عليه وسلم : لا خير فيها هي من أهل النـــار .

فهذا كله من ضعف الايمان ، وتحلل الاخلاق ، وهو ان الدين على النفوس ونزول قيم الرجولة نزولا خسيسا .

وما شوه جمال الحياة ، وكدر صفو العلائق ، ومزق الروابط وهتك أواصر المودة ، وقطع وشائج الالفة والاخاء ، الا هؤلاء الذين تتملكهـــم شهواتهم ، وتستبد بهم نزواتهم ، وتطغى عليهم فلتات السنتهم ، وشرور منطقهم ، هؤلاء الذين لا يدعون أديما الا مزقوه ، ولا عرضا الا شـوهوه ولا حرمة الا هتكوها ، هؤلاء الذين هم أبعد النـاس عن رحمـة الله ، وأولاهم بغضب الله ، وفي الأثر : ان لسان المؤمن من وراء قلبه ، فاذا اراد أن يتكلم بشيء تدبره بقلبه ثم امضاه بلسانه ، وان لسان المنافق أمام قلبه ، فاذا هم بشيء أمضاه بلسانه ، ولم يتدبره بقلبه : (ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام) .

هل يفهم هؤلاء انهم يسيئون الى أنفسهم قبل الاساءة الى الناس ، والا يعلمون ان اللسان اذا اعتاد السوء ، والف المنكر ، ومرن عـــلى التحلل ، اندفع في كل تيار ، وجرى في كل مجال ، يكشف العورات ، ويذيـــع السوءات ، ويبتكر عن الناس المساوىء ما يجعله مادة للحديث ، واداة للهو والتسلية ، من غير ابقاء على دين ، ولا احترام لخلق . ولقد قال ســـيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يستقيم ايمان العبد حتى يستقيم قلبه ، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه .

اداء الامانة

روى الامام محمد بن اسماعيل البخارى في صحيحه عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : أربع خلال من كن فيه كان منافقا خالصا ، من اذا حدث كذب ، واذا وعد أخلف ، واذا عاهد غدر ، واذا خاصم فجر ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها .

وفي حديث آخر : آية المنافق ثلاث ، اذا حدث كذب ، واذا وعد أخلف ، واذا أؤتمن خان .

بعد ان تكلمنا عن بعض خصال النفاق نردفها الآن عن الامانة وتضييعها .

فالأمانة هي المحافظة على كل شيء له قدر يجعل في عهدة آخر ليقوم عليه بما يجب له من الحفظ والرعاية . وهي أثر كمال الايمان ، فاذا نقص الايمان نقصت الامانة في الناس . ولقد قال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا ايمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له .

فالامانة صفة كلها جلال ونور ، من اتصف بها كان قلبه تقيا نقيا ، يخشى مراقبة الله وتأنيب الضمير .

لقد عرف رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ نشأته بالصدق والامانة، فكان قومه يودعونه ودائعهم ، ويستحفظونه أماناتهم .

وقد اتى رسول الله صلى الله عليه وسلم أناس من أهل نجران يطلبون أن يبعث معهم رجلا أمينا يعلمهم أمور دينهم ويشرف على قضاياهم ، فقال لهم ليبعثن اليهم رجلا أمينا حق أمين ، حق أمين ، حق أمين ، فاستشرف لها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنادى أبا عبيدة عامر بن الجراح

فبعثه معهم ، وقال الا ان لكل أمة أمينا ، وان أمين هذه الامة أبو عبيدة بن الجراح .

فالامين مقرب من الله ، محبب من الناس ان قال قبل قوله ، وان طلب اجيب الى طلبه . أموال الناس امواله ، وثروتهم ثروته ، رأس ماله ثقةالناس واعتمادهم على صدقه .

ذاك الذى يرى الودائع لديه امانة ، كما ان حفظ السر امانة ، وحفظ اعراض الناس امانة ، والتكاليف الشرعية امانة ، فالصلاة أمانة في عنق المرء ، يجب أن يؤديها في وقتها مستوفية لشروطها واركانها ، والزكاة أمانة للفقير في مال الغني ، يجب ان يؤديها له ، والصيام امانة الله يجب اداؤه مع مراعاة ما يتطلبه الصيام من حفظ اللسان والا ينطق الا حسنا ، ولا تسمع اذنه الا طيبا ، ولا تنظر عينه الا مباحا ، ولا يسعى قدمه الا الى طاعة ومعروف ، والحج أمانة لله في عنق المستطيعين ، كما ان الوظائف التي توكل الى الانسان أمانة ، والقيام بحقها أمانة ، واسناد الامور الى الاكفاء أمانة وبذل الجهود في اتقان العمل أمانة ، كما ان الشعب كله أمانة في يد الحاكمين ، والدين أمانة في يد العلماء ، والعدل أمانة في يد القضاء ، والحق أمانة في يد المحامين ، والصدق أمانة في يد الشهود ، والمرضى أمانة في يد الاطباء ، ومصالح الناس أمانة في يد المستخدمين ، والتلميذ أمانة في يد الاستاذ ، والولد أمانة في يد أبيه ، والوطن أمانة في عنق الجميع : (فليؤد الذى اؤتمن أمانته وليتق الله) .

كما ان حفظ الانسان نفسه وعرضه وماله وعقله وصحته أمانة لديه ، وقد أمر الله تبارك وتعالى بأداء الأمانات فقال : (ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها ، واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل) . وقال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : أد الأمانة الى من ائتمنك ولا تخن

من خانك .. وقال عليه الصلاة والسلام : لا دين لمن لا أمانة له .. وقد كان اليهود يستحلون أكل أموال الناس بالباطل ويقولون : (ليس علينا في الأميين سبيل) .

وقد سأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم : متى الساعة ؟ فقال له ، اذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة ، فقال الرجل : وكيف اضاعتها ؟ قال له : اذا وسد الأمر الى غير أهله فانتظر الساعة . وقال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه : لا يعجبكم من الرجل طنطنته ، ولكن من أدى الأمانة ، وكف عن أعراض الناس فهو الرجل . وقد تشكى يوما داء فوصف له العسل ، وفي بيت المال شيء منه ، فأتى المنبر وقال : أيها الناس ، ان أنتم أذنتم فيه أخذته . والا فهو علي حرام . وقال أمير المؤمنين على بن أبي طالب : أداء الأمانة مفتاح الرزق . وعنه رضي الله عنه أنه قال : كنا جلوسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فطلع علينا رجل من أهل العالية فقال : يا رسول الله أخبرني بأشد شيء في هذا الدين والينه ، فقال : ألينه أشهد أن لا اله الا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، وأشده يا أخا العالية الأمانة ، انه دين لمن لا أمانة له ، ولا صلاة ولا زكاة له .

وروى عن عبادة بن الصامت أنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأخذ الوبرة من ظهر البعير ومن الغنم ثم يقول:مالى الا مثل مالأحدكم، اياكم والغلول ، فان الغلول خزى على صاحبه يوم القيامة ، أدو الخيط والمخيط وما فوق ذلك ، وجاهدوا في سبيل الله القريب والبعيد ، ولا تأخذكم في الله لومة لائم .

فالأمانة خلق ــ كما قال أحد الافاضل ــ يعبر عن ايمان المرء ، ويدل على حسن صدقه وكمال يقينه . وقد وصف الله المؤمنين بصفات منها : (والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون) . فالمرء من يحفظ الأمانة مع نفسه

فلا يخونها بالاثم والعصيان ، ويرعى أمانة غيره فلا يغشهم بالزور والبهتان ، ويرعى امانة دينه فلا يخالف تعاليم الاسلام •

ان في قمة تلك الفضيلة الأمانة في العلم التي يتزين بها العلماء الصالحون• وقد ساقتهم تلك الأمانة الى أن يقولوا لسائليهم : لا أدري ، اذا لم يحضرهم الجواب ، غير مبالين بما يكون وراء جملهم تلك من أقوال الناس ، ولقد سأل رجل مالك بن أنس رضي الله عنه عن مسألة ، وذكر أنه أرسل فيها من مسيرة شهر من الغرب ، فقال له : أخبر الذي أرسلك أنه لا علم لي بها ، قال : ومن يعلمها ؟ قال : من علمه الله •• وقال رضي الله عنه : ينبغي للعالم أن يورث جلساءه قول لاأدري حتى يكون ذلك أصلا في أيديهم يفزعون اليه ، فاذا سئل أحدهم عما لا يدري قال : لا أدري • وسئل عن ثمان وأربعين مسألة فقال في اثنين وثلاثين منها : لا أدري •

وقال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه : يا أيها الناس من علم شيئاً فليقل به ، ومن لم يعلم فليقل : الله أعلم ، فانه من العلم أن تقول فيما لا تعلم والله أعلم •

وسأل ابراهيم النخعي عامر بن شراحيل الشعبي عن مسألة ، فقال : لا أدري ، فقال : هذا والله العالم سئل عما لا أدري فقال لا أدري •

ان الأمانة رأس الامر • وأس النجاح ، وسر التقدم والفلاح ، وسبب تقدم الامم ، وبها تنتظم أمور العباد ، وتستقيم أعمالهم ، وتنجز شئونهم ، وتؤدى مصالحهم • وبالثقة يربح التاجر في تجارته • وينجح العامل في صنعته ، ويفوز الموظف برضى مرؤسيه وأصحاب الحاجات والناس أجمعين ، وبها ينال المرء سعادة الدارين ، ويحظى بالحسنيين ، مر عبدالله بن عمر رضي الله عنهما براع مملوك ومعه غنم سيده، فأراد أن يمتحن أمانته فقال له : هل من جزورة ـ أي شاة تصلح للذبح ـ فقال الراعي :

اس هاهنا ربها ، فقال له ابن عمر : تقول ان الذئب أكلها ، فقال له الراعي : اتق الله • فسر عبدالله بن عمر من ذلك ، وأراد أن يشعره بقيمة تلك الفضيلة فقرر رفع القيد عن حريته جزاء أمانته ، فاشتراه من سيده وأعتقه • واشترى الغنم ووهبها له • ان نعم الله تبارك وتعالى على الانسان كثيرة لا تعد ولا تحصى ، وما من نعمة الا وهي أمانة الله تعالى عنده • فاذا استعان بها على المعاصي فقد خان الأمانة •

اللهم احفظ الامة ، واكشف الغمة ، وأظلها بالامانة ، ففيها قوامها ، انك أنت نعم المولى ونعم النصير •

حلاوة الايمان

روى الامامان البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله عليه وسلم : ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان ، أن يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه الا لله ، وان يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يلقى في النار •

هذا الحديث الشريف أصل من أصول الايمان الكامل الذي يجد المرء حلاوته ، ويشعر الوجدان بجاذبيته ، وقد يوجد من آمن وخلص من الشك ايمانه ، وسلم من آفة المكابرة وجدانه ، الا انه مستغرق في غفلته، تلك التي الهته عن تقديره لنعمة الله واعطائها حقها ، وابعدته عن القيام بواجب شكرها ، فمثل هذا مؤمن ولا شك ، الا أنه لم يتذوق حلاوة الايمان التي تجدها القلوب السليمة ، والعقول الصحيحة ، والصدور النقية •

وقد شبه ذلك الامر المعنوي بأمر حسن هو هذه الحلاوة التي يجدها

ذائق المطعومات أو المشروبات الحلوة ، تقريبا للعنى وتحقيقا للمراد •

لقد أثار هذا الحديث الطريق الى نعمة السعادة الدائمة والنعيم المقيم، نعمة الايمان ، وتلك الحلاوة التي هي ثمرة أمور ثلاثة :

أولها : حب الله ورسوله على سواهما ، والحب ميل النفس الى ما تجد فيه لذة أو منفعة أو موافقة طبع • ولقد ذكر الامام الغزالى للحب خمسة أسباب وهي :

١ ـ حب الانسان لنفسه ووجوده ودوام وجوده وكماله وذلك ضروري •

٢ ـ حب الانسان من أحسن اليه وانتفع منه منفعة ما ، وهو ما يشهد به كل انسان اذ جبلت النفوس على حب من أحسن اليها •

٣ ـ وحب المحسن في ذاته لنفس الاحسان وان لم يصل أثره الى الانسان ، فانا اذا سمعنا بشخص له احسان وبر ، وقد بسط خيره وكثر منه النفع للعباد ، وجدنا من نفوسنا الميل اليه ، وعلقت محبته بالقلوب وان كنا في غنى عنه وعن احسانه •

٤ ـ وحب الجمال والحسن في ذاته بقطع النظر عن ان يعود علينا منه لذة أو منفعة والجمال يتفاوت الى أنواع ومراتب كثيرة لا تنحصر ، فمنه: حسي كحسن الازهار والالوان الجميلة والاشكال الهندسية المتقنة ، والخط الحسن ، والحيوانات المتناسبة الاعضاء ، أو الطيور الزاهية وأمثال ذلك •

ومنه : معنوى كحسن الاخلاق الكاملة والصفات الفاضلة ، كالعلم والذكاء والشجاعة والعدل وضبط النفس مع القدرة •

٥ ـ وحب الانسان لمن بينه وبينه مناسبة والفة ولم تكن تلك الاسباب السابقة او شيء منها موجوداً ، وذلك كما جرى في الحديث : الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف •

فهذه الاسباب وغيرها توجب على المرء حب الله سبحانه وتعالى ، كيف لا وهو يعلم أنه تعالى مصدر كل خير ، ومبعث كل احسان وفضل ، وهو الذى بيده الملك والخلق والرزق والانعام الى غير ذلك من صفات الكمال والاجلال،ولا عجب اذن اذا كان المؤمن الذى جال بعقله وطاف بفكره في هذا الملكوت ، وتأمل في هذه العوالم وما حوته من اسرار . فذاك هو الذى يملء نفسه حبا لله ، ويفعم قلبه بلذة تملك عليه جوارحه .

فهذه المحبة التي أساسها النظر الى ما أبدع الخالق لتجعله يقطع كل صلة له بغير الله ، ويقدم رضاه على كل ما سواه ، حتى نفسه التي بين جنبيه :

(قل ان كان آباؤكم وأبناءكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها ، وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين) .

فمحبة الله هي اسمى منازل العبودية ، وأرفع درجات السالكين الى الله ، لأن جزاءها محبة الله لعبده ، ورضاه عنه ، وهو أعلى أنواع الجزاء . فمن كملت محبته لله عظمت منزلته عنده .

حب رسول الله

وأما حب رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو من حب الله ، كيف لا وهو أمن الناس بعد الله علينا ، اذ هدانا الى طريق الحق وصراط مستقيم ، كيف لا وهو الذى استوفى سائر الكمالات الانسانية التي تفرقت في غيره .

أليس هو أحق بمحبتنا وقد أيقظ منا العقول الخامدة ، وطهر بتعاليمه النفوس المريضة ، وسلك بنا جادة السعادة في الدارين • فهو أجدر بالمحبة بعد الله ، بل ان محبته من محبة الله ، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوماً لرسول الله : لأنت يا رسول الله أحب الي من كل شيء الا نفسي ، فقال له رسول الله : لا والذى نفسي بيده حتى أكون أحب اليك من نفسك ، فقال له عمر : فانك الآن والله أحب الي من نفسي ، فقال له : ألآن يا عمر ••• وقال عليه الصلاة والسلام : لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب اليه من ولده ووالده والناس أجمعين •

ولقد كان أصحاب رسول الله من أأدب الناس معه عليه الصلاة والسلام اذ كانوا لا يخاطبونه الا بقولهم : بأبي أنت وأمي يا رسول الله • وهذا هو الحب الصحيح الذى ذاقوا به حلاوة الايمان •

لقد كانوا في حضرته كأنما على رؤوسهم الطير تعظيما وتكريما •

لقد أوفدت قريش عروة بن مسعود الثقفى يوم الحديبية ـ قبل اسلامه ـ الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورأى من تعظيم أصحابه ما رأى ، وأنه لا يتوضاء الا ابتدروا وضوءه ، ولا تسقط شعرة الا استبقوا اليها ، واذا أمرهم بأمر ابتدروا أمره ، واذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده ، ولا يحدون اليه النظر • وعندما رجع عروة قال لقريش : يا معشر قريش اني جئت كسرى في عظمته ، وقيصر في سلطانه ، والنجاشي في ملكه ، واني والله ما رأيت قط مثل محمد في أصحابه •

وكانوا يحفظون حرمته عليه الصلاة والسلام في مسجده • فعن السائب بن زيد أنه قال : كنت قائما في المسجد فصحبني رجل ، فنظرت فاذا هو عمر بن الخطاب فقال : اذهب فأتني بهذين ، فجئت بهما ، فقال: من أين أنتما ومن أين أتيتما ؟ قالوا : من أهل الطائف ، فقال لو كنتما

من أهل البلد لأوجعتكما ، ترفعان أصواتكما في مسجد رسول الله .

لقد دعا سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الى أن يكون حب الله وحبه أحب الى المرء مما سواهما ، وقد علق على هذا بأن في جمعه بين اسم الله والرسول في ضمير اشارة لطيفة هي أن المعتبر هو المجموع المركب من المحبتين لا كل واحدة منهما على انفراد فمن ادعى حب الله وحده دون رسوله فهو كاذب ، ومن ادعى حب الرسول وحده دون الله سبحانه وتعالى كان في ادعائه ذلك كاذباً .

جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : متى الساعة يا رسول الله ؟ قال : ما اعددت لها ؟ قال : ما اعددت لها من كثير صلاة ولا صوم ولا صدقة . ولكنى احب الله ورسوله ، فقال صلى الله عليه وسلم : انت مع من احببت .

فهذه الصفة تجتمع فيها كل العبادات ، لأن الحب يستلزم طاعة المحب لمحبوبه والحرص على رضاه بكل وسيلة ، انه حب لا يعدله حب ، ولعل خير ما يتصف به المؤمن ان يحكم ايمانه بالله ورسوله وايثاره لرضاهما في كل ما يأتي من الامور وما يدع .

كما ان مادة الحب تؤكد وجوب الاخلاص في العبادة ، وفي طاعة الله ورسوله ، ضرورة ان القلب وهو مقر العقيدة ، وموطن الايمان ، هو وحده مركز الحب ومصدره وهو الموجه لنيات الانسان وأعماله .

الحب في الله

الخصلة الثانية من خصال كاملي الايمان حب المرء أخاه لا يحبه الا لله ، لان الذى يحب الله اذا أحب امرءا فانما يحبه لما يراه منه من طاعة ربه واتباع أوامره واجتناب نواهيه ، فيكون منه حب في الله وبغض في الله ،

لا لدافع غرض نفسي ولا غاية شهوية ، وقد قالوا : ان من علامة المحبة الصادقة الا تزيد بالبر ، والا تنقص بالجفاء • فمحبة المسلم لاخيه في الله لا يمكن ان تتوفر الا حيث وجد الايمان الكامل ، وتنزهت النفس من المطامع والاهواء والاغراض •

لقد جعله الله تعالى من اسباب الاستظلال في ظل عرشه يوم لاظل الا ظله ، كما ورد في حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظل عرشه يوم القيامة عندما تدنو الشمس من رؤوس الخلائق •

ان محبة المرء لاخيه المسلم لا يمكن الاطمئنان اليها الا اذا امتزجت بالنفس ولازمها الاخلاص لارياء فيها• محبة تعده قطعة منك ، تفرح لفرحه، وتحزن لحزنه ، اذا اعتل فانت العليل • واذا صح فأنت الصحيح ، مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى •

ان المحبة المخلصة الكاملة يمثلها سيدنا ابو بكر الصديق رضي الله عنه في حبه لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتفانيه في ذلك وتضحية روحه وماله في سبيل الدعوة التي جاء بها رسول الله وتصديقه بكل ما جاء به • وكذا بقية الصحابة الكرام من المهاجرين والانصار الذين ربط حبهم لله ولرسوله برباط وثيق من الايمان •

والخصلة الثالثة : ان يكره المرء ان يعود في الكفر كما يكره ان يلقى في النار – اى انه يكره ان يصير ويتحول الى الكفر كراهة تعادل كراهته لأن يقذف في النار •

وقد اخبر عن ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث آخر : بأن يكبل الواحد منهم بالاغلال والسلاسل ثم يقذف به في نار تلظى لتعمل في جسمه عملها ، ولا الرجوع الى الكفر ثانية •

فالمؤمن من لا يشك في أنه ان عاد الى الكفر لا يكون جزاؤه غير النار • وهو لا يرى الكفر الا أمراً قبيحاً بشعاً ، ونارا تلظى لا يصلاها الا الاشقى •

وكما يكره المؤمن ان يلقى في النار ، يجب عليه أن يكره لأخيه المؤمن ما يكرهه لنفسه لأن عاطفة الايمان مصدر للرحمة والرأفة والحنان•

وليس يليق بالمؤمن أن يستهين بأخيه ويرى من يسوقه الى النار ثم لا تأخذه الشفقة لانقاذه واستخلاصه منها •

ولقد علق فاضل على هذا الحديث فقال : اذا أمعنا النظر في الخصلتين الثانية والثالثة وجدناهما راجعتين الى الخصلة الاولى ولازمتين لها • فأن محبة الله ورسوله تهيب بالمرء الى طاعة الله وعمل ما يرضيه ، وتجنب ما يغضبه ، فهي أساس لجميع الخلال الحسنة وفعال الخير ظاهرة وباطنة ، فمن أحب الله ورسوله عامل الخلق معاملة أساسها رضا الله ، وتكون كراهته للوقوع في الكفر مثل كراهته لأن يرمى به في معظم النار وذلك راجع لمحبته لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، بل ان كل خلال الخير وشعب الايمان اذا امعنا النظر فيها وجدناها ترجع لمحبتنا لله ورسوله •

وانما اقتصر النبي صلى الله عليه وسلم على هاتين الخصلتين اهتماما بهما لعظم شأنهما لأنهما أصلان لجميع شعب الايمان وأمور الدين • فان أحداهما :

وهي أن يحب المرء لا يحبه الا لله تتعلق بمعاملة المخلوقين •

والثانية : وهي أن يكره أن يعود في الكفر ، تتعلق بمعاملة الخالق سبحانه وتعالى ولا تخرج آثار المحبة لله ورسوله العبد عن هاتين المعاملتين• وهذا من اسرار البلاغة النبوية ، وجوامع كلمه صلى الله عليه وسلم•

تقـــوى الله

روى الامام محمد بن عيسى الترمذى السلمى في جامعه عن أبي ذر جندب بن جناده الغفارى وأبي عبدالرحمن معاذ بن جبل رضي الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : اتق الله حيثما كنت ، واتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن •

هذا الحديث الشريف من جوامع كلم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد اشتمل على نهاية الايجاز ، وما يقرب من حد الاعجاز ، وجمع ما يلزم الانسان من أداء حقوق الخالق ومعاملة المخلوق ، وقد قيل انه جامع لسائر أحكام الشريعة ، اذ هي لا تخرج عن الامر والنهي ، فهو كل الاسلام لانه متضمن لما تضمنه حديث جبريل عن الايمان والاسلام والاحسان ، ولما تضمنه غيره من الاحاديث التي عليها مدار الاسلام •

لقد اشتمل هذا الحديث على ثلاث وصايا عظيمة جامعة • ما يتعلق منها بحق الله تبارك وتعالى من عباده ، وما يتعلق منها بحق الانسان على نفسه ، وما يتعلق بحق غيره من الاحسان في المعاملة واجمال المعاشرة •

فالتقوى في اللغة : هي جعل النفس في وقاية مما يخاف • وعند أهل الشريعة هي حفظ النفس عن كل ما يؤثم • وقد سأل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضوان الله عليه أبى بن كعب عن التقوى فقال : هل أخذت طريقا ذا شوك ؟ قال : نعم ، قال أبي : فما عملت فيه ؟ قال : شمرت وحذرت، قال أبي : فذلك التقوى •

لقد ذهب جماعة من العلماء على أن مفهوم التقوى هو ترك الصغائر فضلا عن غيرها ، متمسكين بأن فرط الصيانة الذى هو أصل التقوى يقتضى التخلي عن الصغائر ، لحديث سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : لايبلغ

أحد أن يكون من المتقين حتى يدع مالا بأس به حذرا مما به بأس ٠٠وذهب جمهور العلماء الى أنه لا يشترط في المتقى شرعا اجتناب الصغائر ، وحجتهم أن الصغائر قلما ينجو منها أحد ٠

والتقى هو الذى يتقى عذاب الله بصالح عمله ، وخالص دعائه ، هو الذى يفعل الواجبات ويترك المحرمات والشبهات ، وقد يدخل فيها بعد ذلك فعل المندوبات ، وترك المكروهات ، وهي اعلى درجات التقوى ٠

ان واجب العبد أن يصون نفسه عن أوزار مخالفة الخالق ويجنبها أخطاء المنهيات ، وأن يبذل جهده في القيام بأمر الله وأداء طاعته : (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وأنتم مسلمون) ٠ وقد سئل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن التقوى فقال : هي الخوف من الجليل ، والعمل بالتنزيل ، والقناعة بالقليل ، والاستعداد ليوم الرحيل ٠

التقوى هي الحبل الذى يربط المرء بخالقه ، ويجعله قريبا من رضاه ٠

وهي طريق الفلاح ، والعروة الوثقى التي توصل الى ساحل السلامة والنجاة من كل مكروب ، والفرج من كل ضيق ، واليسر من كل عسر ٠ ذكر أن عوف بن مالك الاشجعى : أسر المشركون ابنا له يسمى سالما ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وشكا الفاقة وقال : ان العدو أسر ابنى وجزعت الأم فما تأمرنا ، فقال عليه الصلاة والسلام : اتق الله واصبر ، وآمرك واياها ٠ أن تستكثرا من قول لاحول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ، فعاد لبيته وقال لامرأته ما قاله صلى الله عليه وسلم ، فقالت : نعم ما أمرنا به ، فجعلا يقولان ، وغفل العدو عن ابنه فساق غنمهم وجاء بها الى أبيه ، فنزل قوله

تبارك وتعالى : (ومن يتق الله يجعل لـه مخرجا ويرزقـه من حيث لا يحتسب) •

ولقد جاء في التاريخ وكتب السير : أن سيدنا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يخطب يوم الجمعة في مسجد المدينة المنورة ، فقال في خطبته: يا سارية بن حصن الجبل الجبل ، من استرعى الذئب ظلم ، فالتفت الناس بعضهم الى بعض ، لانهم لم يفهموا مراده ، فلما قضى صلاته قال له علي بن أبي طالب رضي الله عنه : ما هذا الذى قلته ؟ قال : سمعته ؟ قال علي : نعم ، أنا وكل من في المسجد ، قال : وقع في خلدى أن المشركين هزموا اخواننا وركبوا اكتافهم ، وأنهم يمرون بجبل ، فان عدلوا اليه قاتلوا من وجدوه وظفروا ، وان جاوزوه هلكوا ، فخرج هذا الكلام • فجاء البشير بعد شهر ، فذكر أنهم سمعوا في ذلك اليوم وتلك الساعة حين جاوزوا الجبل صوتا يشبه صوت عمر يقول : يا سارية بن حصن الجبل الجبل ، فعدلنا اليه ففتح الله علينا •

وجاء في كتاب (رياض النفوس) في طبقات علماء القيروان : لما أراد عقبة بن نافع أن يختط مدينة القيروان واختيار موضعها ، قال له أصحابه وكان فيهم خمسة عشر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : انك أمرتنا بالبناء في شعاب وغياض لاترام ، ونحن نخاف من السباع والحيات وغير ذلك من دواب الارض ، فمضى عقبة حتى وقف على الوادى الذى كانت تسكنه السباع وبقية الحيوانات فنادى : أيها السباع ارحلوا ، فانا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنظر الناس الى السباع تخرج اليهم من الغابة تحمل أشبالها ، والى الذئب يحمل أجراءه والى الحية تحمل أولادها سمعاً وطاعة ، ثم نادى عقبة في الناس : كفوا عنهم حتى

يرتحلوا ، فلما خرج ما بها من الوحش والهوام أمرهم أن يقتطعوا ويختطوا وأسس دار الامارة .

وذكر ابن كثير في تاريخه (البداية والنهاية) وابن العماد الحنبلي في شذراته الذهبية ، أن أبا الحسن بنان بن محمد المعروف بالحمال ، قد انكر يوما على ابن طولون شيئاً من المنكرات ، فأمر به ابن طولون ، فالقى بين يدى الاسد ليقضي عليه ويعدمه الحياة ، ولكن الاسد قد اقبل على بنان يشمه ويحجم عنه ، فأخذ الامير العجب وأمر برفعه من بين يدى الاسد واقبل يعظمه ويوقره ويعتذر اليه ، وقد قيل لبنان عندما اخرج من بين يدى الاسد : ما الذى كان في قلبك حين شمك الاسد ؟ قال : كنت اتفكر في اختلاف الناس في سؤر السباع ولعابها هل هو طاهر أم نجس .

فهذه هي ثمرة التقوى ، اذ بنورها اخترق عمر الحجب وطوى المسافات الطويلة فنادى اولئك المتقين الذين تلقفت اسماعهم ذلك الصوت ، وبسرها القويم خضعت الوحوش الضارية وتلاشت ضراوتها وكأنها كالانعام، ونزحت عن عرينها لتخليه الى فرسان الايمان وأمثلة التقوى ، وبقوة الايمان ، وروح التقوى ، لم يعبأ بنان التقى بالاسد وشراسته ، ولم يخطر بباله الا ما قرأه في الكتب في فصل اسئار الحيوانات واختلاف العلماء فيها ، ذاك الذى انقلبت طبيعته المتوحشة الى حيوان اليف .

ان المتقين الذين شرفهم الله بحبه : (ان الله يحب المتقين) قد تولى تعالى امورهم بنفسه فلم يكلهم الى غيره : (ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) ، وضمن لهم الرزق الحلال ، وتفريج الكروب والنجاة من الشدائد ، (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب) . ونفى عنهم الخوف والحزن : (الا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم

يحزنون • الذين آمنوا وكانوا يتقون) •

ان المتقين هم الذين لا يدخلون في الباطل ، ولا يخرجون من الحق ، يريحون الناس من انفسهم ، فيعفون عمن ظلمهم ، ويعطـون من حرمهم ، ويصلون من قطعهم : (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به ويغفر لـكم والله غفـور رحيـم) •

اتبع السيئة الحسنة تمحها

روى الامام محمد بن عيسى الترمذى السلمى في جامعه عن أبي ذر جندب بن جنادة الغفارى وأبي عبدالرحمن معاذ بن جبل رضي الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :

اتق الله حيثما كنت ، واتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلـق حسـن •

تكلمنا في كلمة مضت عن الوصية الاولى التي نص عليها هذا الحديث الشريف وهي التقوى التي هي حفظ النفس عن الآثام •

واليوم نتحدث عن الوصية الثانية التي حثنا رسول الله صلى الله عليـه وسلم على اتباعها في حديثه هذا بقوله : واتبع السيئة الحسنة تمحها • لما علم من أن الانسان قد يقع منه تفريط في عمل المأمورات ، واقتراف لبعض المحظورات ، ان في اقتراف السيئة اضراراً بالمجتمع واساءة للحياة وتشويها

لحسنها وجمالها ، وما تزال السيئة تقوض معالم الفضيلة وتفصم الروابط والصلات بين الناس حتى يعمهم الشقاء وتستبد بهم التعاسة .

فاذا تيقظ الانسان لما يبدر منه من هفوات ، وما قد ينساق اليه من اخطاء وسيئات ، وأتبعها بالعمل الصالح والفعل الحسن ، بدد آثارها ، وازال اضرارها ، ومحا بحسناته أوزارها . لذلك أمر الله تبارك وتعالى المسلمين بالاكثار من فعل الحسنات لتمحو السيئات : (ان الحسنات يذهبن السيئات) .

وقد قيل في سبب نزول هذه الآية الكريمة ، ان رجلا اصاب من امرأة قبلة ، ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له ، فسكت النبي صلى الله عليه وسلم حتى نزلت هذه الآية ، فدعاه فقرأها عليه ، فقال رجل: يا رسول الله هذا له خاصة أم للناس عامة ؟ فقال بل للناس عامة .

لقد أراد الله تبارك وتعالى أن يلطف بهذه الأمة ، ويسبغ عليها من شآبيب رحمته ورضوانه ، فضاعف لها أجر الحسنات كي تطغى على السيئات . فقال عز من قائل : (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الا مثلها وهم لا يظلمون) .

وقد يراد من الحسنة التوبة من تلك السيئة لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل عندما بعثه الى اليمن : وان أحدثت ذنبا فاحدث عنده توبة ، ان سراً فسر ، وان علانية فعلانية .

وقد يراد بالحسنة هنا ما هو أعم من التوبة ، ويؤيده ما في الصحيحين عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال : كنت عند النبي صلى الله عليه وسلم فجاء رجل فقال : يا رسول الله اني أصبت حداً فأقمه علي ، قال : ولم يسأل عنه ، فحضرت الصلاة فصلى مع النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما

قضى النبي الصلاة قام اليه الرجل فقال : يا رسول الله ، اني أصبت حداً فأقمه على ، قال : أليس قد صليت معنا ؟ قال : نعم ، قال : فان الله قد غفر لك ذنبك أو قال : حدك •

وظاهر الحديث يقتضى ان كل حسنة تمحوا كل سيئة ، وليس كذلك، اذ ان من الذنوب كبائر وصغائر • ومن الكبائر ما هو متعلق بحق الله فقط ، وما هو متعلق بحق الله والعباد ، فالذنب اذا كان صغيرا محته الحسنة كيفما كانت ، واذا كان الذنب كبيرا ، كان محوه بحسنة مخصوصة وهي التوبة •

أما الكبائر التي للعبد حق فيها فانها لا تمحى الا بالتوبة مع استحلال العبد وصفحه • والا استغفر الله لعله برضى ، وبذلك أقامت الشريعة حواجز وحصونا بين الناس بعضهم بعضا كيما يعيشوا في أمن ودعة وسلام ، كما انحصرت العدالة في الترغيب والترهيب الى منتهى الحكمة ، فحكم تعالى بان من استحل عرض أخيه أو ماله ، فذنبه معلق برضى ذلك المجنى عليه •

وقد ميز الامام القرافي في فروقه بين السيئات حسب عظمتها وحقارتها فقال : الصغيرة في المعاصى ليس من جهة من عصي بها بل من جهة المفسدة الكائنة في ذلك الفعل ، فالكبيرة ما عظمت مفسدتها •

ورتب المفاسد مختلفة ، فادنى رتب المفاسد تترتب عليها الكراهية ، ثم كلما عظمت المفسدة ارتفعت الكراهة حتى تكون أعلى رتب الصغائر ، تليها أدنى رتب الكبائر ، ثم تترقى رتب الكبائر بعظم المفسدة حتى تكون أعلى رتب الكبائر يليها الكفر •

وقد بين الامام الغزالي في احيائه معرفة درجات السيئات ، واليك ملخصه :

لنا سبيل كلي يمكننا ان نعرف به اجناس الكبائر وانواعها بالتحقيق ، واما اعيانها فنعرفه بالظن والتقريب • وبيانه ، انا نعلم بشواهد الشرع وانوار البصائر جميعاً ، ان مقصود الشرائع كلها سياقة الخلق الى جوار الله وسعادة لقائه ، وانه لا وصول لذلك الا بمعرفة الله ومعرفة صفات رسله وكتبه ، واليه الاشارة بقوله تعالى : (وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون) ، وهذا هو المقصد الاقصى ببعثة الانبياء ، ولكن لا يتم هذا الا بالحياة الدنيا ، وهو المعنى بقوله صلى الله عليه وسلم ، الدنيا مزرعة الآخرة • فصار حفظ الدنيا مقصودا تبعا للدين ووسيلة اليه ، وحفظ الحياة الدنيا منوط بحفظ النفوس والاموال ، فكل ما يسد باب معرفة الله فهو أكبر الكبائر ، ويليه ما يسد حياة النفوس ، ويليه ما يسد باب المعايش التي بها حياة النفوس • فحصل من هذا ان الكبائر على ثلاثة مراتب الرتبة الاولى : ما يمنع من معرفة الله ورسوله وهو الكفر فلا كبيرة فوقه • ويتلوه مراتب البدع المتعلقة بذات الله وصفاته وافعاله وشرائعه • وأوامره ونواهيه •

والرتبة الثانية : حفظ النفوس ، فقتل النفس مباشرة من الكبائر ، وكذلك ما يقضي الى انعدام الحياة حقيقة او حكما ، كاذهاب الادراك بالمسكرات •

والرتبة الثالثة : حفظ الاموال على أربابها ، اذ بها بقاء الحياة عادة ، فكل ما يفضي الى ضياعها على اربابها كالسرقة بنصابها مخل بحفظ ذلك الاصل ، فيكون ذا مفسدة عظيمة وتكون كبيرة •

فعلى المسلم أن يكثر من عمل الحسنات لتطغي على السيئات ، وليتزود من عمل الفضائل لتمحو الصغائر وفقنا الله لعمل الصالحات ، وجنبنا عن السيئات ووفقنا لما يحبه ويرضاه ، انه سميع مجيب •

حسن الخلق

روى الامام محمد بن عيسى الترمذى السلمى في جامعه عن ابي ذر جندب بن جنادة الغفارى وأبي عبدالرحمن معاذ بن جبل رضي الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها . وخالق الناس بخلق حسن .

تكلمنا في الحديثين الماضيين عن وصفين من الاوصاف الثلاثة التي وردت في هذا الحديث الشريف .

واليوم نردفهما بالوصف الثالث من قول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو : خالق الناس بخلق حسن ..

لقد تتفاضل الأمم ، وتمتاز الشعوب بخواص ودلائل ، تجعل بعضها أسمى من بعض في تلك الخواص ولكنها لا تضمن لنفسها الغلب والانتصار الا اذا أعدت من أبنائها من يصلحون للسباق في كل ميدان ، لا يحول بينهم وبين ذلك ضعف في الاخلاق ولا خور في العزيمة .

لذلك قرر الاسلام أن التربية الخلقية هي أساس العمران وعنوان النهوض ، وأن الأمة التي تتغافل عن هذه التربية لابد أن ينهد كيانها ، ويتصدع شملها . لذلك قال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سئل عن الشؤم قال : سوء الخلق ، ولما سئل عن اليمن قال : حسن الخلق .

أما الخلق : فهو ملكة للنفس تصدر عنها الافعال بسهولة ويسر من غير فكر وروية .

أما الخلق الحسن : فهو ملكة نفسانية تحمل صاحبها على فعل الجميل المحمود عقلا وشرعا ، وعلى تجنب القبيح .

فحسن الخلق هو جماع التقوى وثمرتها ، وناحية هامة من نواحيها القوية ، وانما افرد ذكر حسن الخلق رداً على على من يظن أن التقوى هي القيام بحقوق الله فقط دون حقوق العباد ، ولا يعلم أنه باغفاله حقوق العباد بعيد عن التقوى ، وجاهل أسرار الدين • وان الواجب يفرض عليه أن يخالق الناس بخلق حسن • روى أن رجلا جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم فقبل عليه بين يديه وقال : يا رسول الله ما الدين ؟ قال : حسن الخلق ، ثم أتى اليه من قبل يمينه فقال : يا رسول الله ما الدين ؟ قال : حسن الخلق، ثم أتى اليه من قبل شماله فقال : يا رسول الله ما الدين ؟ قال : حسن الخلق، ثم أتى اليه من ورائه فقال : يا رسول الله ما الدين ؟ قال : أما تفقه ، هو حسن الخلق • وقيل هو الا تغضب لأنه اذا تخلق به المرء ، قاده الى سوء الخلق •

ان الله تبارك وتعالى لم يثن على رسوله وحبيبه بشيء من خصاله بمثل ما أثنى عليه بحسن خلقه فقال : (وانك لعلى خلق عظيم) • وقد قالت أم المؤمنين السيدة عائشة رضوان الله عليها واصفة رسول الله صلى الله عليه وسلم: كان خلقه القرآن • وقد قال عليه الصلاة والسلام : أثقل ما يوضع في الميزان يوم القيامة تقوى الله وحسن الخلق • وقال أيضا : ان المؤمن ليدرك بخلقه درجة الصائم القائم •• وقال : اكمل المؤمنين ايماناً أحسنهم خلقا •• وقال : ان أحبكم الي وأقربكم مني مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا وان أبغضكم الى وأبعدكم مني مجلسا يوم القيامة أسوؤكم أخلاقا الثرثارون المتفيهقون • وقال صلوات الله وسلامه عليه : انكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم •

وكان عليه الصلاة والسلام لا يصرف وجهه عن وجه مصافحه حتى يكون الرجل هو الذى يصرف • ولم ير مقدماً ركبتيه بين جلسائه قط • كيف لا وهو من بعث ليتمم مكارم الاخلاق •

قال عبدالله بن عمرو بن العاص : ثلاثة من قريش أحسنها اخلاقا • واصبحها وجوهاً، وأشدها حياء ، ان حدثوك لم يكذبوك ، وان حدثتهم بحق أو باطل لم يكذبوك : ابو بكر الصديق ، وأبو عبيدة بن الجراح ، وعثمان ابن عفان رضي الله عنهم • وصح فيهم قول ابن الرومي :

كل الخلال التي فيكم محاسنكم تشابهت فيكم الاخلاق والخلق
كأنكم شجر الاترج طاب معا حملا ونورا وطاب العود والورق

ان حسن الخلق محمود في كل أمة من امم العالم ، ولكن الاسلام جمع ما تفرق منها واحكمه على وجه لا مطمح فيه من غيرها •

لقد نص الحديث على أن خيار الناس من خالق الناس بخلق حسن، أما من ساءت أخلاقه وقبحت صفاته • فأولئك هم الاشرار ، وان كانوا يزاولون العبادات ، لانهم حرموا من الاخلاص ، اذ لو أخلصوا لاثمرت عبادتهم كرم الاخلاق ، واذا حسنت أخلاق الانسان كثر أحبابه وأصدقاؤه وقل أعداؤه وسهلت عليه الامور والصعاب ، واصبحت نفسه راضية مطمئنة وتيسرت أموره •

ولا يفوتنا بأن نذكر من أن آداباً قد حدثت بين الناس لم تكن من قبل ، وقد نص العرف على أنها من حسن الخلق ، ولم تصادم نصاً من نصوص الشريعة ، وقد تحدث عنها الامام أحمد بن ادريس القرافى في فروقه فقال : اعلم أن الذى يباح في مكارمة الناس قسمان •

الاول : ماوردت به نصوص الشريعة من افشاء السلام واطعام الطعام وتشميت العاطس والمصافحة عند الملاقاة وغير ذلك •

والثاني : ما لم يرد به نص ، ولا كان في السلف الصالح لانعدام سببه عندهم • وقد حدث سببه الآن المعتبر شرعا ، فتعين فعله لحدوث

سببه ، لا لأنه شرع مستأنف • اذ تأخير وقوع الحكم لتأخر سببه يكون شرعاً جديدا • وهذا القسم هو مافى زماننا من القيام للاعيان واحناء الرأس، والمخاطبة بالالقاب المؤذنة بالرفعة ، والمكاتبة بالنعوت الدالة على العظمة • فهذا كله لم يكن في السلف الصالح • ونحن اليوم مأمورون به مع كونه بدعة ، والسبب في ذلك أن ترك ذلك في زماننا يوقع في النفوس ، فتقع الشحناء والقطيعة المنهى عنها بحديث : لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولاتدابروا ولا تقاطعوا وكونوا عباد الله اخوانا • فهذا الحديث قاضى بأن كل مايؤدى الى تلك الافعال منهي عنه ، وترك ما اعتبد في زماننا من المكارمات يؤدى اليها فوجب تركه وارتكاب المعتاد • وقد أجاب الشيخ عزالدين بن عبدالسلام عندما سئل عن القيام للقادم مع أنه لم يكن في السلف ، حيث قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لاتباغضوا ولا تحاسدوا الحديث ، وترك القيام في هذا الوقت يفضي الى المقاطعة والمدابرة ، فلو قيل بوجوبه ما كان بعيدا •

لقد اشتملت كلمة الخلق على جميع الفضائل التي يجب ان يتحلى بها الانسان ليكون الكامل في الوجود • منها : ان يكون كثير الحياء ، قليل الأذى ، كثير الصلاح ، صدوق اللسان ، قليل الكلام ، كثير العمل ، قليل الزلل ، قليل الفضول ، برا وصولا ، وقورا صبورا ، شكورا رضيا ، حليما رقيقا ، عفيفا شفيقا ، لا لعاناً ولا سبابا ، ولا نماماً ولا مغتابا ، ولا عجولا ولا حقودا ، ولا بخيلا ولا حسوداً ، هاشا باشا ، يبغض في الله ، ويحب في الله ، ويغضب في الله ، ويرضى في الله • وان يبتعد عن كل ما يخدش الخلق الفاضل من سفه ورياء ، وغيبة ونميمة ، وتبذل وحمق ، وكذب وجهل ومكر ، وخبث وطيش ، وحقد وقحة ، وحسد وشراسة ، وعجب وزهو وجبن ، وغضب وكسل ، وحرص وهزء ، وشماته ومجون ، الى غير ذلك من نقائص وعيوب •

سيء الخلق عدو لنفسه لانه يكون معذبا في الحياة ، مكروهـا لدى الاهل والاصدقاء والاعداء •

يجب على العاقل مدراة من ابتلى بهذا المرض والصفح عن زلته ، ولو قيل لامداراة للخلق السـيء القبيح ، فهو كالشجرة المرة لو طليت بالعسـل لم تثمر الا مرا •

قال رجل لاحمد بن أبي خالد : لقد أعطيت ما لم يعط رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له أحمد : لئن لم تخرج من ذلك لاضربنك ، فقال الرجل : ان الله تعالى قال لنبيه (ولو كنت فظا غليظ القلب لا نفضـوا من حولك) وانت فظ ونحن لا ننفض من حولك •

وفقنا الله الى خير الاعمال ، وجنبا سفاسفها ، وجعلنا من الذين يألفون ويؤلفون • انه بالاجابة جدير •

الحياء شـعبة من الايمان

روى الامام محمد بن اسماعيل البخارى في صحيحه والامام أحمد بن حنبل في مسنده وأبو داود في سننه عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ان مما أدرك الناس من كـلام النبوة الاولى ، اذا لم تستح فاصنع ما شـئت ••

لقد اجمعت الشرائع السماوية والقوانين الوضعيـة ، واتفقت عليـه الحكماء والعلماء والادباء • بل لم يصدر اجماع على أمر ما كما أجمع على أن الحياء من أفضل المواهب التي منحها الله تعالى للانسان ، وهو خير كله على المجتمع •

لقد ذكر العلماء ان الحياة معناه انقباض يحصل في نفس الانسان من خوف ما يذم به ويعاب عليه • وهو غريزة في نفس كل انسان ، تلاحظ آثارها عند الاطفال في صغرهم •

والفرق بين الحياء والخجل ، ان الخجل نقص في الانسان ، وأن الحياء كمال فيه يزجره عن القبيح ، ويحفزه الى الخير • وقد ورد عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : الحياء لا يأتى الا بالخير • ومن فقد الحياء فقد فقد انسانيته ، ولا فرق بينه وبين أي حيوان • وما فقدته أمة الا وكانت نهايتها الاذلال والخذلان والفوضى والانهيار •

والحياء مشتق من الحياة ، وهو من قوة الحس ولطفه ، وعلى حسب حياة القلب ولطف الحس يكون الحياء قوة وضعفا •

ولقد روى الامام البخارى حديثا آخر عن أبي هريرة عن رسول الله : الايمان بضع وستون شعبة والحياء شعبة من الايمان • وفي رواية أخرى ، بضع وسبعون شعبة •

وقد خص النبي صلى الله عليه وسلم الحياء بالذكر ، لانه كمال الانسانية • وسمو البشرية بل هو حلية الاخلاق وزينتها ، ودستور الأمة ومنارها ، قال سيدنا رسول الله : ان لكل دين خلقا ، وخلق الاسلام الحياء •

قال أبو الحسن علي بن محمد الماوردى في كتابه أدب الدنيا والدين : ان الحياء في الانسان قد يكون على ثلاثة أوجه ، حياؤه من الله تعالى ، وحياؤه من الناس ، وحياؤه من نفسه واليك ملخصها :

فاما حياؤه من الله تعالى فيكون بامتثال أوامره والكف عن زواجره • ولقد روى الامام الترمذى والحاكم عن عبدالله بن مسعود ، ان النبي صلى الله عليه وسلم قال : استحيوا من الله عز وجل حق الحياء ، فقيل : يا رسول

الله ، فكيف نستحى من الله ، عز وجل حق الحياء ؟ قال : من حفظ الرأس وما حوى ، والبطن وما وعى ، وذكر الموت والبلى ، فقد استحيا من الله عز وجل حق الحياء •• وروى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : الحياء نظام الايمان ، فاذا انحل نظام شيء تبدد وتفرق •

أما حياؤه من الناس : فيكون بكف الأذى وترك المجاهرة بالقبيح • وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : من تقوى الله اتقاء الناس• وروى أن حذيفة بن اليمان أتى الجمعة فوجد الناس قد انصرفوا ، فتنكب الطريق عن الناس ، وقال : لا خير فيمن لا يستحى من الناس • وروى عن أبي هريرة أنه قال : قال صلى الله عليه وسلم : أن مروأة الرجل ممشاه ومدخله ومخرجه ومجلسه والفه وجليسه •

أما حياؤه من نفسه : فيكون بالعفة وصيانة الخلوات • وقيل ليكن استحياؤك من نفسك أكثر من استحيائك من غيرك •

فمتى كمل حياء الانسان من وجوهه الثلاثة فقد كملت فيه اسباب الخير • وانتفت عنه اسباب الشر ، وصار بالفضل مشهورا ، وبالجميل مذكورا •

لقد عد سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يجب على الانسان المحافظة عليه حتى يعد من المستحيين من الله • فقد ذكر من ذلك الرأس والبطن اللتين يجتمع فيهما الحواس والشهوات • ففي الرأس العقل والسمع والبصر والفم واللسان ، وفي البطن اوعية الشراب والطعام واخطر الغرائز•

فحفظ العقل : يكون بابعاده عن وساوس الشيطان والتفكير فيما يصلح عملى الدنيا والآخرة •

وحفظ السمع : يكون باعراضه عن اللغو من غيبة ونميمة وفحش

القول ، بل اعراضه عن كل ما يبعد عن الخير ولا يمنع الشر ولا ينفعه دنيا وأخرى .

وحفظ البصر : يكون بتوجيهه الى ما يزيد معارفه ، ويرشده لما يحل له وما يحرم عليه ، وان يغضه عن محارم الله .

وحفظ الفم : يكون بابعاده عما حرم الله ، والقصد فيما أحله .

وحفظ اللسان : يكون بأن لا ينطق الا بالحق ، ولا يتكلم الا بالصدق، كما يعصم لسانه عن قذف الناس والايقاع بهم .

وحفظ البطن : يكون بحل ما يستقر فيها من طعام وشراب بالقدر الذى يقيم الاصلاب ويمسك الأود . وبهذا تحفظ الغرائز وتكبح الشهوات .

ثم يذكر الموت ومرارته ، ومصيره الى البلى الذى يصير اليه كل مخلوق ، ومتى جعل الانسان نصب عينيه ان كل نعيم لا محالة زائل ، فلا بد أنه يسخر من الدنيا وزهرتها ويؤثر الآخرة على الاولى وزينتها ، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء .

ثم ان أعلى مراتب الحياء ما كان من الله تبارك وتعالى ، فلا يفعل المرء في السر ما يستحى ان يفعله في العلانية ، لانه تعالى رقيب ومطلع على دخيلة نفسه ، وقد ذكر العلماء أنه يكره للمرء كشف عورته بمكان ليس معه فيه أحد حياء من الله تعالى الذى لا تخفى عليه خافية . وهذا الحياء هو الذى يحفظ صاحبه من اقتراف الذنوب ويحوطه بهالة من التوفيق تجعل له نورا يمشى به في الناس ، فيعيش محمود السيرة ، طيب السريرة ، سليما من أذى الناس .

ان المراد من الحياء في الحديث هو الحياء المكتسب الذى يطبعه الدين

في نفس المؤمن ، وليس المراد منه الحياء الغريزى الذى يخلقه الله في فطرة الانسان ، لأن ذلك يكون في المسلم وغيره •

والحياء خلة من خلال الخير ، جامعة لكثير من الفضائل ، ترى الحيي خفيف الظل عذب الحديث ، كريم النفس ، ضعيفا في موطن الشر ، قويا في موطن الخير •

وقد اشتهر من بين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عثمان بن عفان رضي الله عنه بالحياء ، فقد خص منه بأجل السهام ، وضرب فيه بأوفر الحظوظ والاقسام •

روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه دخل عليه أبو بكر وعمر وعلي رضي الله عنهم وهو مكشوف الساق ، وبقي على حاله ، فلما استأذن عثمان بن عفان رضي الله عنه غطاها ، فقيل له في ذلك ، فقال عليه الصلاة والسلام : انى لاستحى ممن استحيت منه ملائكة الرحمن •

وحكي عن ابراهيم بن المهدي أنه قال : كنت عند هارون الرشيد فاذا برسول من عند عبدالله بن صالح ومعه هدية وكتاب ، فجعل الرشيد يقرأ الكتاب ويقول : أبره الله ، ووصله الله ، فقلت يا أمير المؤمنين ، من الذى بالغت في شكره ؟ فرفع الي الكتاب ، فقرأته فاذا فيه : قد دخلت يا أمير المؤمنين بستانا قد عمرته بنعمتك ، واينعت فواكهه ، فأخذت من كل ذلك شيئاً وهيأته في أطباق قضبان • ووجهت به الى أمير المؤمنين ليشملنى بدعائه ، كما وصل الي من عطائه • قلت : والله يا أمير المؤمنين ما في الكتاب شيء يستحق هذا الثناء ، قال : جهلت والله يا ابراهيم ، أما تراه كيف وصف الاطباق بالقضبان ولم يذكر الخيزران ، اذ هو اسم أمي وكانت تدعى به ، فانظر كيف استجلب رضاء أمير المؤمنين بحيائه وذكائه •

فالحياء برهان للمؤمن • يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام •

لذلك ورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : الحياء هو الدين كله •

واذا فقد المرء الحياء وفعل ما بدا له فقد أصبح خارجا عن دائرة العتاب لانه قد تجرد عن الخلق الفاضل ، واستهان بموازين الانسان الكامل •

ولا يجوز الافراط في الحياء لانه يسوقه الى الخجل الذى هو الافراط في الانقباض • وقد قيل : حياء الرجل في غير موضعه ضعف •

والخجل يسد على المرء جميع منافذ الانطلاق • روى أن روح بن حاتم صعد المنبر ، فلما رأى الناس قد رشقوه بأبصارهم وصرفوا اسماعهم نحوه قال نكسوا رؤوسكم وغضوا أبصاركم فان المنبر أول مركب صعب ، فاذا يسر الله عز وجل فتح قفلا ثم نزل •

وخطب مصعب بن حيان خطبة زواج فحصر فقال : لقنوا موتاكم لااله الا الله • فقالت ام الجارية : عجل الله موتك ، الهذا دعوناك ؟

ان من أوجب الواجبات على الآباء والمربين ان يحيوا فضيلة الحياء في نفوس أبنائهم وتلامذتهم ، وان يراقبوهم في أقوالهم وأعمالهم وينبهوهم الى ترك ما يخالف الحياء من قول وفعل ، كما عليهم ان يعالجوا الخجل عند الاحداث بما هدت اليه الخبرة والتجربة •

كان المسلمون بخير عندما كان الحياء مستحوذا على نفوسهم ، متغلغلا في اعماق قلوبهم فلما تقلص ظل الحياء من النفوس ، وغلب عليها التمرد وحب الخروج على الاداب والتقاليد الاسلامية وجدنا الحياة قد زلزلت دعائمها ، والفضائل قد هدمت صروحها •

على المسلمين أن يأخذوا أنفسهم بالحياء ، وليتفهموا قول رسول الله : ان مما أدرك الناس من كلام النبوة الاولى ، اذا لم تستح فاصنع ما شئت •

اذا لم تخش عاقبة الليالى	ولم تستحي فاصنع ما تشاء
فلا والله ما في العيش خير	ولا الدنيا اذا ذهب الحياء
يعيش المرء ما استحيى بخير	ويبقى العود ما بقي اللحاء

المؤمن هو الذى لا يقدم نفسه على أخيه

روى الامام محمد بن اسماعيل البخارى في صحيحه عن أنس بن مالك رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحبه لنفسه .

ذكرنا عند توضيح الحديث الشريف : من حسن اسلام المرء تركه ما لا يعنيه : ان العلماء قد ذكروا بأن جماع الخير وأزمته تتفرع عن أربعة أحاديث .

منها : لا يؤمن أحدكم حتى يحب لاخيه ما يحب لنفسه .

ان هذا الحديث قاعدة من قواعد الاسلام الاساسية في حب الخير لسائر المسلمين ، وان يسويهم بنفسه في قدر ما يحبه ، وأن يتمنى لهم ما يتمناه لنفسه . وقد جعل ذلك ميزانا لاختبار ايمان المرء . لان المرء مولع بحب نفسه ، ميال الى الاستئثار بكل ما هو خير ونافع ، ولكن الاسلام لا يتركه على سجيته ، بل يوجهه الى الايثار الذى هو الكمال الانساني وسعادة المجتمع لأن خير المرء لا يتم الا بالتساند ، لأن الفرد مهما أوتي من قوة واحاطة علم بصنوف ما يحتاج اليه ، فلا يستطيع استكمال شؤون حياته بنفسه سواء كانت دنيوية أو دينية ، بل هو محتاج الى من يعينه ويسانده .

قال أحد الافاضل : لقد جاء الدين يجمع الى تربية الفرد تربية المجموع ويضم الى تكوين النفوس تكوين الامة ، فجاء قوله تعالى : (انما المؤمنون اخوة) وجاء قوله تعالى : (كنتم خير أمة أخرجت للناس) وجاء قوله صلى الله عليه وسلم : مثل المؤمنين في تعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء في السهر والحمى ، وجاء قوله صلى الله عليه وسلم : المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا .

وعلى هذا النسق جاء هذا الحديث يقرر أن الايمان الذى هو كالشجرة المثمرة انما يكون قد ثبت أصله، وزكا فرعه، واطمأنت الى أنها أخذت حظها منه . اذا كان قد آتى ثمره وانتج أثره وأتى ثمره ، وأنه ينبغي لكل مؤمن أن يمتحن ايمانه فيما عسى ان تكون النفس لم يدركها التهذيب فيه . وليعرض عليها محابها ، وليتأمل في ميولها نحو نفسها ونحو اخوتها . فاذا كانت لاتزال قصيرة النظر تود الاستئثار ، فليحاسبها في دعواها ، حتى يرجعها الى صوابها، وليعرض عليها حكم الايمان ومقتضاه ، وليأخذها بآدابه ، وليشعرها بحكمه ومزاياه وفوائده ، وبذلك تدرك أن حياتها منوطة بحياة أخواتها ، وأنها بانضمامها اليهم تكون كتلة قوية ، وتربى أسرة واحدة متينة ، بل تربي جسداً واحداً يشعر كل عضو منه بما يشعر به غيره من لذة وألم .

وفي الحديث تحذير من الأثرة والأنانية ، وحث على الايثار والتفدية، لانه لا ينطوى على الاثرة وكراهية الخير للغير الا أحد ثلاثة كما قيل :

اما رجل يسخط قضاء الله ، ولا يطمئن لعدالة تقديره ، فهو يريد أن يقصر رحمة ربه على شهواته ، والله تعالى يقول : (نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ، ورحمة ربك خير مما يجمعون) .

ولو اتبع الحق هوى ذلك الأثر لما اذن لغيره ان يتنسم نسيم الحياة

(قل لو انتم تملكون خزائن رحمة ربي اذن لامسكتم خشية الانفاق وكان الانسان قتورا) •

واما رجل اكل قلبه الحقد والحسد وما يمت اليهما من الادران الباطنية التي قد يولدها سقم الطبع ومرض النفس •

واما رجل اذهلته شهوة طبعه عن سعة فضل الله ، حتى كأنه يخشى اذا زاحم الناس على الخير الا يبقى له حظ معهم ، ولم يعلم أن ماعند الله لا ينفـد • وانه لن يعجز الله ان يعطى لغيره مثل ما أعطاه من غير ان ينقص ذلك شيئا من نعمته عليه ، وحسبه من هذه الذكرى ان يسمع مثل قولـه صلى الله عليه وسلم : يد الله ملاءى لايغيضها ـ ينقصها ـ نفقة سحاء بالليل والنهار ، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والارض ، فانه لم يغض ما في يده ، وقوله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه في الحديث القدسـي الذى أوله : يا عبادى كلكم ضال الا من هديته ، قال : لـو أن أولكـم وآخركم ، وحيكم وميتكم ، ورطبكم ويابسكم اجتمعوا في صعيد واحـد ، فسأل كل انسان منكم ما بلغت أمنيته فأعطيت كل سائل منكم ما سـأل ، ما نقص ذلك من ملكي الا كما لو أن أحدكم مر بالبحر فغمس فيه ابرة ثم رفعهـا اليـه •

وقد ذكر ان الايثار يكون في الطعام والشراب والنفس والروح وفي الحياة وغيرها من فضائل الحياة • وقد روى التاريخ أمثالا كثيرة من ايثار الرعيل الاول من هذه الأمة ، حتى كان السائد في مجتمعها •

لقد روى أن رجلا من اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أهدى اليه رأس مشوى فقال أخى فلان وعياله أحوج الى هذا منا ، فبعثه اليه ، وبعثه ذاك الى آخر ، فلم يزل يبعث به من واحد الى واحد حتى تداولته سـبع بيوت ورجع الى الأول •

وحكي عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أنه كان مريضا ولما عوفي من مرضه اشتهى سمكة مشوية ، فأتي اليه بها ، فلما وضعت بين يديه اذا بسائل على الباب يسأل فقال لغلامه ادفع اليه هذه السمكة ، فقالوا لـه :أنت احببتها ولم تأكلها ، فاجابهم بقول الله : (لن تنالوا البر حتى تنفقوا ممـا تحبـون) .

ثم ان المراد بنفي الايمان عمن لم يحب لأخيه ما يحب لنفسه ـ كما قيل ـ نفي الايمان الكامل ، أو نفي بلوغ حقيقته ونهايته ، بدليل روايـة الاحاديث الأخرى التي تقول : لا يبلغ عبد حقيقة الايمان حتى يحب للناس ما يحب لنفسه من الخير .

لقد سأل معاذ بن جبل النبي صلى الله عليه وسلم : ما أفضل الايمان ؟ فقال : أفضل الايمان أن تحب لله ، وأن تبغض لله ، وتعمل لسانك في ذكر الله قال معاذ : وماذا يا رسول الله ؟ فأجاب : أن تحب للناس مـا تحـب لنفسك ، وتركه لهم ما تكره لنفسك ، وان تقول خيراً أو تصمت . وقال عليه الصلاة والسلام ليزيد بن أسد : أتحب الجنة ؟ قال : نعم .

فقال النبي : فأحب لاخيك ما تحب لنفسـك .

ولقد جعل بعض السلف الحب شاملا لكل كبيرة وصغيرة من الاشياء . ولقد قال مالك بن مرارة لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله ، قد قسم لي من الجمال ما ترى فما أحب أحداً من الناس يفضلنى بشراكين فما فوقهما ، اليس ذلك هو البغي ؟ فقال رسول الله : لا ليس ذلك بالبغي ، ولكن البغي من سفه الحق ، وغمط الناس .

لقد كان سلف هذه الامة يضربون روائع الامثلة في حب الخـير للغـير .

ولقد قال ابن رجب الحنبلي عند شرحه لهذا الحديث : وينبغي للمؤمن ان لا يزال يرى نفسه مقصرا عن الدرجات العالية ، فيستفيد بذلك أمرين نفيسين : الاجتهاد في طلب الفضائل والازدياد منها والنظر الى نفسه بعين النقص • وينشأ من هذا أن يحب للمؤمنين أن يكونوا خيراً منه ، لانه لا يرضى لهم أن يكونوا على مثل حاله ، كما أنه لا يرضى لنفسه بما هي عليه بل يجتهد في صلاحها •

وان علم المرء أن الله قد خصه على غيره بفضل فأخبر به لمصلحة دينية، وكان اخباره على سبيل التحدث بالنعم ويرى نفسه مقصراً في الشكر كان جائزا • فقد قال ابن مسعود : ما أعلم أحداً أعلم بكتاب الله مني • ولايمنع هذا أن يحب للناس وأن يشاركوه فيما خصه الله به • فقد قال ابن عباس: اني لأمر على الآية من كتاب الله فأود ان الناس كلهم يعلمون منها ما أعلم ، وقال الشافعي وددت ان الناس تعلموا هذا العلم ولم ينسب الي منه شيء • وكان عتبة الغلام اذا أراد ان يفطر يقول لبعض اخوانه المطلعين على أمره وأعماله: اخرج الي ماء وتمرات أفطر عليها ليكون لك أجر مثل أجري •

على المسلم ترك ما لا يعنيه

روى الامام محمد بن عيسى السلمي الترمذي في جامعه عن أبي هريرة عبدالرحمن بن صخر الدوسي رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من حسن اسلام المرء تركه مالا يعنيه •

هذا الحديث أصل من أصول أدب النفس ودرة من بحر حكم سيد المربين ، وهادي الضالين ، ومرشد الهادين ، وقائد الانبياء والمرسلين محمد

ابن عبدالله عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم انه حكمة تهـذب النفس ، وتحجبها عن الرذائل والنقائص ، وتبعدها عما لا ينفع وما لا جدوى فيه .

قال أبو داود سليمان بن الاشعث الازدي صاحب السنن : كتبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسمائة ألف حديث ، وانتخبت منها ما تضمنه هذا الكتاب ـ يعني كتاب السنن ـ جمعت فيه اربعة آلاف وثمانمائة حديث ، ويكفي الانسان لدينه من ذلك أربعة أحاديث ، منها : من حسن اسلام المرأ تركه ما لا يعنيه .

وقد قال أحد فضلاء العلماء : جماع الخير وأزمته تتفرع من أربعة أحاديث ، قول النبي صلى الله عليه وسلم : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت . وقوله في الذى اختصر له في الوصية : لا تغضب ، وقوله : لا يؤمن احدكم حتى يحب لاخيه ما يحب لنفسه . وقوله : من حسن اسلام المرء تركه مالا يعنيه .

ان هذا الحديث ـ كما قيل ـ من الحكم التي لم يصح نظيرها عن أحد قبله عليه الصلاة والسلام ، لأن المرأ اذا حسن اسلامه ترك مالا يعنيه من أقوال وأفعال ، لانه يرى أن أوقات العمر محدودة ، وأن ما صرف منها في الباطل لا يرجع الى الحق ، وان القلب لا يتسع الا لشيء واحد اذا حل فيه شغله عن غيره ، فاذا ترك ما لا يعنيه انحصر همه فيما يعنيه ، وأفرغ جهده في اجادته واتقانه ، فليحرص المرء على الا يضيع تلك اللحظة الا في طاعة تحمد عاقبتها ، وترجى بركتها ، وهكذا كان شأن السلف الصالح من هذه الامة ، يتركون كل ما ليس من مطلوبهم بحكم الدين حرصا على أعمارهم أن تضيع سدى ، وعلى قلوبهم أن تدنسها المخالفات ، وانما آثر النبي صلى الله عليه وسلم ناحية الترك على ناحية الفعل ، لأن المتروك على كثرته لا يكلف الناس شيئا ، ولقد اعتنى رسول الله صلى الله عليه وسلم

بالمتروك ، فكانت عنايته بها أشد ، وتحذيره من المناهى أغلب ، فقال صلوات الله وسلامه عليه : ذرونى ما تركتكم فانما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، فاذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم ، واذا نهيتكم عن شيء فدعوه ٠

والذى يعنى الانسان هو ما يتعلق بضرورة حياته في معاشه وغيرها مما يدفع الضرورة ، وما ينفعه في معاده ، بل كل ما يهمه في دينه ودنياه ، وآخرته وأولاه ، من علم نافع ، وعمل صالح ، وسعي حميد الى غرض مجيد ، وبذلك يسلم من سائر الآفات وجميع الشرور والمخاصمات ، والذى لا يعنيه هو ما لا تدعوا الحاجة اليه وهو الفضول على اختلاف أنواعه ، وكل ما يخل بالمروأة وكذا حفظ اللسان عن اللغو ، لئلا ينزلق به شرعا أو عقلا أو خلقا ٠ وقد نفى الله الخير عن كثير مما يتناجى بـه الناس بينهم : (لا خير في كثير من نجواهم الا من أمر بصدقة أو معروف أو اصلاح بين الناس) ٠

كيف لا يترك المرء ما لا يعنيه مما لا يطلبه الدين ، ولا يرضاه الله ، وهو كما قيل - ينقلب في أعطاف النعم الالهية التي تقتضيه القيام بواجب الشكر، وهيهات أن يقوم بشكر نعمة واحدة منها ، لأن شكره لله تعالى على نعمائه نعمة أخرى تستوجب الشكر ، فهل تركت نعم الله تعالى على عبده وقت فراغ يضيعه فيما لا يرضى رب النعم ، هذا فضلا عن الواجبات والطاعات الملزم بأدائها ، وواجب السعى والعمل في معترك الحياة لاكتساب قوت أسرته ، كما أن عليه واجبات لامته وبلاده ، فلا يدخر وسعاً في رفعتها واعلاء شأنها، فاذا لم يترك ما لا يعنيه فلا يمكن أن يقوم بتلك الواجبات الموضوعة على عاتقه ٠

ومن الفضول أن يفتش المرء عن خصوصيات الآخرين ، أو يسأل

عن أشياء لا تعنيه • وقد ذكر أن رجلا مر على لقمان الحكيم وهو في حلقة يتكلم بالحكمة فقال له الرجل : الست عبد بنى فلان ؟ فاجابه لقمان ببلى ، قال الرجل : فما بلغ بك ما أرى ؟ قال لقمان : قدر الله ، وصدق الحديث، وطول السكوت عما لا يعنيني • وقد أراد رجل أن يعيب الاحنف بن قيس فقال له : بم سدت قومك ؟ فقال الاحنف : بتركي من أمرك ما لا يعنيني ، كما عناك من أمرى ما لا يعنيك •

فحديث رسول الله هذا قد اشتمل على حكمة بالغة ، وموعظة جلية ، وثقة بالنفس ، والاعتماد عليها ، والاعتزاز بها ، ولو قدرها الناس حق قدرها لنعموا بالحياة ، ولا نتفت من بينهم الشرور والاحقاد •

روى أبو عبيدة عن الحسن أنه قال : من علامة اعراض الله تعالى عن العبد أن يجعل شغله فيما لا يعنيه •

وقد روى الامام الترمذى في جامعه وابن أبي الدنيا في مسنده عن أنس بن مالك أنه قال : استشهد غلام منا يوم أحد فوجد على بطنه صخرة مربوطة من الجوع ، فمسحت أمه التراب عن وجهه وقالت هنيئا لك يا بني، فقال عليه الصلاة والسلام : وما يدريك لعله كان يتكلم فيما لا يعنيه ، أو يمنع ما لا يضره • وفي حديث آخر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نقد كعبا فسأل عنه فقالوا : مريض ، فخرج يمشى حتى أتاه ، فلما دخل عليه الصلاة والسلام من هذه المغالبة على الله : قال : هي أمي يا رسول الله عليه قال له : أبشر يا كعب ، فقالت أمه : هنيئاً لك الجنة يا كعب ، فقال قال : وما يدريك يا أم كعب ، لعل كعباً قال ما لا يعنيه أو منع ما لا يغنيه •

واذا حسن اسلام المرء ، وأعرض عما لا يعنيه ضوعفت حسناته ، وكفرت عنه سيئاته • روى أبو سعيد الخدرى رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : اذا أسلم العبد فحسن اسلامه ، كتب الله له كل

حسنة كان أزلفها ، وحجبت عنه كل سيئة كان أزلفها ، ثم كان بعد ذلك القصاص ، الحسنة بعشرة أمثالها الى سبعمائة ضعف ، والسيئة بمثلها الا أن يتجاوز الله .

والناس مختلفون فيما يعنيهم اختلافهم في النزعات والميول بما أودع الله كلا من عدة ، وما وهب لكل من هبة . وجماع القول فيما يعنى المرء هو ما ينفعه في حاله وماله ، وعاجل امره وآجله وكل ميسر لما خلق له .

فعلى كل مسلم يريد أن يكمل اسلامه أن يترك مالا يعنيه ، وليتفرغ لما يعنيه من الواجبات كما عليه الا يشغل نفسه بما لا يعنيه من امور الخلق الا بمقدار ما يحتمه عليه الدين من أداء الواجبات العامة ، ولينشغل كل انسان بما يفيد وينفع ، منصرفا عما يسيء ويضر ، لينال رضا الله والناس أجمعين ، ولينتفع بحياته فيما يرفعه عند الله .

نسأله تعالى أن يمن علينا باتباع الحق ، وترك كل ما لا يعنينا من الباطل ، انه ولي التوفيق .

شر الناس

روى الامام البخارى ومسلم في صحيحيهما وأبو داود والترمذى في سننهما عن أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها أنها قالت : قال النبي صلى الله عليه وسلم : ان شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة من تركه أو ودعه الناس اتقاء شره . وفي رواية أخرى : اتقاء فحشه .

روى أن السبب الذى قيل فيه هذا الحديث كما روته السيدة عائشة : ان رجلا استأذن على النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما رآه قال : بئس أخو

العشيرة ، وبئس أخو العشيرة ، فلما جلس بش النبي صلى الله عليه وسلم في وجهه وانبسط اليه ، فلما انطلق الرجل ، قالت له عائشة : يا رسول الله حين رأت الرجل قلت فيه كذا وكذا ، ثم تطلقت في وجهه وانبسطت اليه ، فقال صلى الله عليه وسلم : يا عائشة متى عهدتني فحاشا ؟ ان شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة من تركه الناس اتقاء شره .

قيل ان هذا المستأذن هو عيينه بن حصن الفزارى ، وكان يسمى بالاحمق المطاع ، لانه كان رئيس قومه ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتألفه اتقاء شره ، ويداريه ليسلم قومه ، وقد أسلم عيينة هذا في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، وارتد في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه وحارب عيينة هذا المسلمين في صفوف المرتدين ثم رجع الى الاسلام .

ولقد استأذن هذا في الدخول على أمير المؤمنين عمر الفاروق رضي الله عنه ومعه ابن أخته الحر بن قيس ، فلما دخل قال : يا بن الخطاب والله ما تعطينا الجزل ، وما تحكم بيننا بالعدل ، فغضب عمر حتى هم بأن يوقع به ، فقال الحر بن قيس : يا أمير المؤمنين ان الله قال لنبيه صلى الله عليه وسلم : (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) ، وان هذا من الجاهلين . فوالله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه .

وفي هذا الحديث الشريف ارشاد وتوجيه ، وتنبيه وتحذير ، ودعوة من حكيم الأمة ومرشدها الى أقوم آداب السلوك ، واجمل ضروب الاخلاق، والتنفير مما يتسم به الجاهلون من الحمق والغلظة وفظاظة القول ، مما قد يكف عنهم بعض الالسنة ، ولكنه يملاء القلوب بالسخط والموجدة ، ويفعمها بالحقد والكراهة .

وللاسلام في موازين الرجال ومعرفة قيم الافراد وأقدارهم معايير صائبة لا يتسرب اليها الضعف ولا يلحقها الخطأ . انها معايير السماحة والعفة والخلق الطيب ، والشيم الكريمة ، والخلال القويمة ، والآداب الرفيعة .

فمن صفت نفسه من الحقد والغل ، وبرأت يده من الايذاء والضر ، وسلم لسانه من الغيبة والكذب والفحش في القول ، والولوغ في أعراض الناس ، فهو حقاً المؤمن الذى يستحق اكرام الله ورعايته ٠

ومن استسلم لنزوات النفس ، ووسوسة الشيطان ، وأعطى لنفسه وللسانه العنان ، وخشى الناس منه سلاطة لسانه وفحش خطابه فهو الذى عناه رسول الله بقوله ، وهو أبغض الناس الى الله ورسوله ٠

لقد درج البعض على أن يرهبوا الناس بشتائمهم ، ويخيفوهم بلاذع القول وفاحش الكلام ٠

لقد تفنن هؤلاء الاشرار في اختراع المساوىء ولصقها بالاخيار وهتك اعراض من يخالفونهم في آرائهم ٠ وتمزيق حرماتهم ليرهبهم الناس ، ويتقوا مضرة السنتهم ، ومعرة سفههم ، مع أن الرسول صلى الله عليه وسلم يقول : ان أربى الربى هتك عرض الرجل المسلم ٠

ان هؤلاء الذين طبعوا على الشر واستعذبته نفوسهم لا حياة ولا متعة لهم الا في الدس وايقاع الأذى بالناس ، ان هذه الزمرة لا يفيدها العلم ولا التهذيب ولا الموعظة ولا الارشاد ، واذا أسدى أحد اليهم نصحاً قابلوه بحمق وارغاء وسفه كالارض الخبيثة المعدن لا يزيدها الماء العذب الا خبثا ، واذا نبتت فلا يكون نتاجها الا شوكا وسعدانا : (والبلد الطيب يخرج نباته باذن ربه والذى خبث لا يخرج الا نكدا) ٠

ومن احسن ما قيل في شقاء الكرام بالاشرار اللئام قول الطرماح بن حكيم :

لقد زادنى حبا لنفسي أنني	بغيض الى كل امرء غير طائل
وانى شقى باللئام ولا ترى	شقيا بهم الا كريم الشمائل
اذا ما رآنى قطع الطرف بينه	وبينى فعل العارف المتجاهل

ملاءت عليه الارض حتى كأنها ... من الضيق في عينيه كفة حابل

أكل امرىء الفى أباه مقصرا ... معاد لأهل المكرمات الاوائل

اذا ذكرت مسعاةوالده اضطنى[1] ... ولا يضطنى من شتم أهل الفضائل

هؤلاء ينبثون في كل بيئة وينتشرون في كل مجتمع ، ويخرجون على كل نظام ، ويبثون الفتن بين أبناء الامة ، فهم يعيشون على هذه الصفات التي كرهها الاسلام وحذر منهـا ، فلا يسلم منهم حريص ، ولا يفلت من أذاهم عدو أو صديق . وقد مكن لهم في الضلال ومد لهم في الغى سكوت المجتمع عنهم واغضاؤه عن سيئاتهم ، فاستفحل فيهم الشر ، وافرخ لديهم السوء .

(قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدا . حتـى اذا رأوا ما يوعدون اما العذاب واما الساعة فسيعلمون من هو شر مكانا وأضعـف جنـداً) .

وللتخلص من أضرارهم يحسن مداراتهم تفاديا من شرورهم ، وبراءة للدين والعرض . والمداراة ــ كما قيل ــ محمودة شرعا ، لأن القصـد منها المسالمة والتحرج من مشايعة الظلم ، وترك الظالم للمنتقم الجبار الذى يمهل ولا يهمل . بخلاف المداهنة ، فهي مذمومة شرعا ، لانها ضرب من النفاق ، والقصد منها انما هو ترك الدين لأجل الدنيا .

فالمداهنة ارضاء الناس بما لا يرضاه الدين ، اما المداراة فهي ارضـاء الناس بما يقي شرورهم .

لقد ذكر عليه الصلاة والسلام ان مما يوصل المرء الى الجنة أن يأمن الناس بوائقه ، أي شره ، ذاك الامين في الغيب والشهادة ، الكريمة صحبة ، السليم طوية ، الكاف عن الاذى لسانه ويده ، الذى لا يقـع في عرض ،

---

(١) اضبطنى : افتعل من الضنى واصابه الهزال .

ولا يتمرغ في كذب ، ولا يستمرىء الطعن والكيد في خفاء وفي نذالـة .
ذاك الذى فاز بحب الناس وزكا بحمدهم ، ونال رضا الله واستحق اكرامه ورعايتـــه .

اولئك الذين هدى الله ، فبهداهم اقتده .

(الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، اولئك الذين هـــداهم الله وأولئك هم أولو الالباب) .

آمنت بمـا جئـت بـه

روى الامامان البخارى ومسلم في صحيحيهما عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال : بينما نحن جلوس مع النبي صلى الله عليه وسلم في المسجد، دخل رجل على جمل فأناخه في المسجد ثم عقله ثم قال : أيكم محمـــد ؟ والنبي صلى الله عليه وسلم متكىء بين ظهرانيهم ، فقلنا : هذا الرجل الابيض المتكىء ، فقال له الرجل : أبن عبدالمطلب ، فقال له النبي صلى الله عليـه وسلم : قد أجبتك فقال الرجل : انى سائلك فمشدد عليك في المسألة فـلا تجد علي في نفسك ، قال : سل عما بدا لك فقال : أسألك بربك ورب من قبلك آلله أرسلك الى الناس كلهم ، قال : اللهم نعم ، قال الرجل : أنشدك بالله تعالى ، آلله أمرك أن نصلى الصلوات الخمس في اليوم والليلة ؟ قال : اللهم نعم ، قال : أنشدك بالله تعالى آلله أمرك أن نصوم هذا الشهر من السنة؟ قال : اللهم نعم ، قال : أنشدك بالله تعالى ، آلله أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا فتقسمها على فقرائنا؟ قال: اللهم نعم، فقال الرجل: آمنت بما جئت به، وانا ضمام بن ثعلبة أخو بنى سعد بن بكر ، ثم ولى الرجل وهو يقول :

والذى بعثك بالحق لا أزيد عليهن ولا أنقص منهن ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لئن صدق ليدخلن الجنة ..

لقد بلغت دعوة الاسلام بنى سعد بن بكر على أثر الكتب والرسائل التي بعث بها رسول الله صلى الله عليه وسلم الى جميع الجهات لتعميم الدعوة الى الاسلام وقد أراد بنو سعد أن يتعرفوا حقيقة هذا الدين ويأخذوه من فم صاحب الدعوة نفسه ، حتى يكونوا على بينة من أمرهم ، فأرسلوا ضمام بن ثعلبة وكان عربياً فيه غلظة ، يدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذه الصورة ، وقد قال الصحابي الجليل أنس بن مالك رضي الله عنه : بينما نحن جلوس مع النبي صلى الله عليه وسلم في مسجد المدينة اذ بضمام بن ثعلبة هذا يدخل المسجد على جمل بصورة منكرة لا تصدر الا من جفاة اعراب البادية وأجلافها الذين لم يعرفوا بعد حرمة المساجد وآداب الدين ، بدليل أنه أبرك جمله ثم ربط ساقيه بحبل معد لذلك ، وهذه صورة تستدعى العجب ، وبالضرورة لم يجرأ أحد منا نحن الجالسين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على الانكار على هذا العربي ، لأن بين ظهرانينا صاحب الشرع صلوات الله وسلامه عليه يرى ما نرى وهو الاحق بالانكار أو عدمه . فان أنكر سارعنا الى امتثال أمره والاخذ به كعادتنا في الادب معه .

دخل هذا الاعرابي المسجد ببعيره فاناخه ثم عقله ، غير مكترث بما يلوث به بعيره المسجد ومع هذا فان رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يزجره ولم ينهه رفقاً به ، ولو وقع قذر لأمرنا بازالته كما فعل مع الاعرابي الذى بال في المسجد . فقد ورد في الصحيح عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال : بينما نحن في المسجد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ جاء أعرابي فقام يبول في المسجد ، فقال أصحاب رسول الله للرجل : مه مه

ـ أي كف عن هذا الفعل ـ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لاتزرموه ـ لاتقطعوا عليه بوله ـ دعوه، فتركوه حتى بال ، ثم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم دعاه فقال له : ان هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول والقذر وانما هي لذكر الله عز وجل والصلاة والقرآن ، ثم أمر رجلا من القوم فجاء بدلو من الماء فشنه عليه • أي صبه عليه حتى طهر •

هكذا عامل الرسول الكريم الجاهل الذى لا يعلم مغبة عمله ، بل عامله بترفق ورأفة ورحمه ، أخلاق كلها لين وهوادة ، وحكمة وسياسة ، عجزت عن وصفها الاقلام ، أو أحاطت بحكمتها الافهام •

لقد انحدر ضمام الى المجلس سائلا عن رسول الله ، لأنه لم يجد فرقا بين الجماعة الجالسة ولم يعرف الرسول من بينها ، لانه كان جالساً بين أصحابه كأحدهم يتحدث اليهم ، وهم منصتون كأن على رؤوسهم الطير ، أخذ هذا الرجل يسأل : أيكم محمد ؟ وهو تعبير يدل على جهله بالادب مع النبي صلى الله عليه وسلم ، ويظهر أن ضمام لم يكن مسلما حين قدومه ، والا لنادى : أيكم رسول الله ، ومع هذا فقد أرشده الصحابة الكرام الى رسول الله ، فقال الرجل مخاطبا اياه : اني سائلك فمشدد عليك في المسألة ، فلا تجد علي في نفسك ، فقدم الاعتذار قبل الوقوع في الخطأ ، وما أحسن هذا التمهيد ـ كما قيل ـ وما اجمل هذه التقدمة من الاعتذار قبل الزلة ، فقال له الرسول : سل عما بدا لك بكل حرية • فبدأ في توجيه الاسئلة مع استحلاف النبي بالايمان المؤكدة عند كل مسألة ، وهذا انما يصنعه السائل عادة اذا كان ضعيف الثقة في المسئول ، وكان أول سؤاله : آلله أرسلك الى الناس كلهم ، وهذا لا يجترىء عليه الا جريء ، لما فيه من مواجهته عليه الصلاة والسلام بافتراض أبعد الاحتمالات فيه ، وهو الصادق الامين ، فلم يزده على أن قال : اللهم نعم ، ذاك الجواب الذى حوى اللطف والرفق والحكمة ، وهو جواب تأكيدي في مقابلة هذا السؤال •

ثم خاطب ذلك الاعرابي الرسول بقوله حسب رواية أخرى : يا محمد أتانا رسولك فزعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك ، قال الرسول : صدق ، فقال الاعرابي : فمن خلق السماء ؟ قال : الله قال الاعرابي : فمن خلق الارض ؟ قال : الله ، قال الاعرابي : فبالذى خلق السماء وخلق الارض ونصب هذه الجبال . آلله أرسلك الى الناس كلهم ؟ قال : اللهم نعم ـ الى آخر أسئلته التي كان يؤكدها بالقسم ، عند ذلك قال الاعرابي : آمنت بما جئت به ، وأنا ضمام بن ثعلبة أخوبنى سعد بن بكر ، ثم ولى الرجل وهو يقول : والذى بعثك بالحق لا أزيد عليهن ولا أنقص منهن ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ان صدق ليدخلن الجنة . وهذا دليل على أن القيام بهذه الاركان الخمسة من غير أن ينقص منها توصل صاحبها الى ساحل النجاة .

ويؤكد ما روى في الصحيح أن أعرابياً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : دلنى على عمل اذا عملته دخلت الجنة . قال : تعبدالله ولا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة المكتوبة ، وتؤدى الزكاة المفروضة ، وتصوم رمضان ، قال الاعرابي : والذى نفسى بيده لا أزيد على هذا . فلما ولى قال النبي صلى الله عليه وسلم : من سره أن ينظر الى رجل من أهل الجنة فلينظر الى هذا .

وقد ذكر العلماء أن هذا خاص بهذين الرجلين لأنهما من أعراب البادية ، وحسبهما من الايمان أداء المفروض ، على أن من ذاق حلاوة الواجب انتقل منه الى المسنون والمستحب حتما ، والا فمن ترك السنن تهاوناً بها عده العلماء مقصرا لقول رسول الله : من رغب عن سنتي فليس مني . ثم ولى الرجل ذاهباً الى قومه ليبلغهم نتيجة وفادته ، فخرج حتى قدم على قومه ، فاجتمعوا اليه ، فكان أول ما تكلم به : بئست اللات والعزى ، قالوا : مه ياضمام ، اتق البرص ، اتق الجذام ، اتق الجنون ، فقال لهم : ويحكم انهما لا تنفعان ولا تضران ، ان الله قد بعث لكم رسولا ، وأنزل

عليكم كتابا استنقذكم به مما كنتم فيه . انى أشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وقد جئتكم من عنده بما أمركم به ونهاكم عنه فما أمسى ذلك اليوم حتى لم يبق رجل ولا امرأة من قومه الا وقد أسلم . وقد قال عبدالله بن عباس : فما سمعنا بوافد قوم كان أفضل من ضمام بن ثعلبة .

وهكذا سياسة النبي صلى الله عليه وسلم في أخذ الناس بالهوادة والتدريج وكان يوصى رسله أن يأخذوا الناس بهذه السياسة ، لانه عليه الصلاة والسلام يرى أن الحكمة تقتضى أخذ الناس بهذا الاسلوب في في الدعوة الى الله ، وقد أتى هذا الاسلوب بثماره ، ودخل الناس في الاسلام أفواجا ، وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا .

هذا ما يسره الله ، وهو الهادى الى سواء السبيل .

الحلال بين والحرام بين

روى الامامان البخارى ومسلم في صحيحيهما عن النعمان بن بشير رضى الله عنه أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ان الحلال بين ، وان الحرام بين ، وبينهما أمور مشبهات ، لا يعلمهن كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام ، كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يرقع فيه ، الا وان لكل ملك حمى ، الا وان حمى الله في أرضه محارمه ، الا وان في الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله ، واذا فسدت فسد الجسد كله ، الا وهي القلب .

لقد علق بعض العلماء على هذا الحديث فقال : ان المرأ الذى يجاهد نفسه لا يزال متردداً بين نفس أمارة بالسوء ، نزاعة الى الهوى ، ونفس لوامة على التفريط ، جاذبة الى الخير ، تواقة الى التوفيق ، أما النفوس المطمئنة الراضية فتلك نفس المخلصين الصديقين ، والانسان مهما قارف مشتهى ،أو شارف هوى ،ان طلق يتلمس لنفسه المعاذير ، ويبحث لها عن مختلف التأويل ، حرصا على أن يجمع لها بين الاستمتاع بما تهوى ، والظفر بالنجاة من البلوى ، وكيف لا وهو دائما بين هوى متغلب وعقل رادع ، والعراك بين العقل والهوى لا يفتر ، والمعركة لاتنتهى ، وللعقل سلطان ، ولكنه كثيراً ما يغفو أو يلهو ، والهوى يقظان مترقب للفرص ينتهزها ، والارادة بينهما كرة بين صوالجه •

وان أكبر الخطر في اعوان الهوى يرجع الى التلبيس والتدليس ، وقلما يحصل العراك والنزاع بين قوى النفس المختلفة فيما استبان أمره من حلال خالص أو حرام محض ، ونما يجيء هذا التردد فيما اشتبه من الاعمال ، وتردد أمره بين الحرام والحلال •

لقد اجمع العلماء على عظم هذا الحديث وعلو قدره ، وانه أحد الاحاديث التي عليها مدار الاسلام ، بل قال جماعة منهم انه ثلث الاسلام ، وان الاسلام يدور عليه وعلى حديث : انما الاعمال بالنيات ، وحديث : من حسن اسلام المرء تركه ما لا يعنيه • وأشار بعضهم الى أنه يمكن أن ينتزع منه وحده جميع الاحكام ، لأنه اشتمل على التفصيل بين الحلال والحرام وغيره ، وعلى تعلق جميع الاعمال بالقلب ، فمن هنا يمكن أن نرد اليه جميع الاحكام •

فالحلال ما أذن فيه الشارع ولم يمنع منه وورود نص يحله من كتاب الله أو من سنة رسوله • والحرام ما ورد نص بحرمته من كتاب الله أو سنة رسوله ، وكلاهما بين واضح معلوم من الدين بالضرورة • وقد ذكر بعض

العلماء أن الاصل في الاشياء الحل الا ما ورد نص من الكتاب والسنة بحرمته لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان الله فرض فرائض فلا تضيعوها ، وحد حدوداً فلا تعتدوها وحرم أشياء فلا تنتهكوها ، وسكت عن أشياء رحمة لكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها • فالحلال ظاهر بين ، والحرام واضح معروف • وقد غرس الله تعالى في نفس الانسان والحيوان الشعور بالحلال والحرام ، فالحيوان كالانسان في ادراك ماله وما ليس له من طريق الغريزة والالهام : (ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) •

فمثلا نرى الهرة تقف تتمسح بالمرء ، فاذا منحها شيئا جلست تأكله • واذا خطفت شيئاً فرت بعيداً وقفزت سريعا • فمن أعلم هذه الهرة أن ما صنعته حرام يعرضها للعقوبة • الحلال بين والحرام بين •

هذا وان بين الحلال والحرام امورا تشتبه على كثير من الناس • وقد تعارضت فيها الادلة من غير ترجيح ، او لم برد فيها نص لا بالحل ولا بالحرمة ، فهي تخفى على كثير من الناس ، ولا يعلمها الا قليل ممن منحهم الله نعمة العلم وسعة الاطلاع عن طريق نص او اجماع او قياس او استصحاب او اجتهاد ، وافهام العلماء تتفاوت في هذا المجال ، لذلك رأى بعض العلماء ترك الامور الغير الواضحة الحل والحرمة لئلا توقع الانسان في الشك والريبة لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : دع ما يريبك الى ما لا يريبك • وقاله : لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع مالا بأس به حذرا حماية بأس •

وقد تكفلت السنة النبوية المطهرة ببيان الحلال والحرام • قال ابن وجب الحنبلي : فما ترك الله ورسوله حلالاً الا مبينا ، ولا حراما الا مبينا ، لكن بعضه كان اظهر بيانا من بعض ، فما ظهر بيانه واشتهر وعلم من الدين بالضرورة من ذلك لم يبق فيه شك •

ولقد قسم الحديث من اشتبهت عليهم هذه الامور الى قسمين :

قسم يتقيها لاشتباهها عليه كليا لسلامة دينه ، وقسم يأتيها ، وهــذا لابد من ان يؤول امره الى الوقوع في الحرام المحض ، لأن مــن اعتــاد التساهل والتسامح واستسهل بعض الشبه لابد من وقوعه في الحرام .

وقد شبه الحديث من يأتي الشبهات بالراعي الذى يرعى حول المكان المحظور فانه لا يأمن الوقوع فيه فيستحق العقاب بسبب ذلك ، فكذلك من اكثر من الشبهات لابد أن يقع في الحرام . فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه . وقد احتاط من الوقوع في الحرام والهلكة بالاثم ، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه . فمن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقفن مواقف التهم ، ومن عرض نفسه لمواطن الشبهـات فلا يلومــن الا نفســه .

وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يسير مع زوجته صفية ، فـيراه رجلان من أصحابه فيسرعان في المشي فيناديهما عليه الصلاة والسلام : على رسلكم انها صفية ، خوفا عليهما أن يظنا به شراً ، فأجاباه بقولهما : سبحان الله ، أو نظن بك ذلك . فقال : ان الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم ، وقد خشيت أن يقذف في قلوبكما شرا .

وقد استدل العلماء بهذا الحديث على تحريم الوسائل المؤديــة الى المحرمات ، وقد قال عبدالله بن عمر رضي الله عنهما : انى لاحب أن أدع بيني وبين الحرام سترة من الحلال لا أخرقها .

ولما كان القلب سلطان الجوارح ، ومبعث الارادات ومبـدأ الميـول ، والسر الالهى الذى صار به الانسان انسانا ، فلا ريب أن العواطف والميـول والاستحسان والاستهجان ، تستند هذه كلها الى القلوب ، وان له صلاحـا وفساداً بحسب ما يعتاد من الاعمال حسنها وقبيحها ، خيرها وشرها ، فان للاعتياد والمران أقوى تأثير في صلاح القلب وفساده .

والقلب من الجوارح بمنزلة السلطان الآمر الناهي ، وهي خاضعة له أيما خضوع ، فان استضاء القلب بنور الايمان وامتلاء بعواطف الخير والبر فاضت أضواءه على الاعضاء والجوارح ، فمن شاء أن يصلح جوارحه ويحسن أعماله ، فلينظر من أين يجيئها الفساد ، فيقطع عليه الطريق ، ومن أين يرجى لها الصلاح ، فيصل بينها وبينه ، حتى يتم له ما يريد من صلاح حاله وحسن أعماله . وهذا هو القلب ، فهو الذى اذا صلح صلح الجسد كله ، واذا فسد فسد الجسد كله ، لانه محل الاعتقادات والعلوم والافعال الاختيارية ، ومبدأ الحركات البدنية والارادات النفسانية ، فان صدرت عنه ارادة صالحة تحرك البدن حركة صالحة ، وان صدرت عنه ارادة فاسدة تحرك البدن حركة فاسدة . ومن دعاء سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم اني اسألك قلبا سليما . ويقول : لا يستقيم ايمان عبد حتى يستقيم قلبه .. وذكر أن لقمان الحكيم طلب منه سيده ذبح شاة على أن يأتيه بأطيب مضغتين منها ، فأتاه بالقلب واللسان ، ثم دفع اليه شاة أخرى ، وقال له : اذبحها واثتنى بأخبث مضغتين منها ، فأتاه بالقلب واللسان ، فلما سأله عن ذلك قال : ماشيء أطيب منهما اذا طابا ، ولا أخبث منهما اذا خبثا .

فاللهم أصلح قلوبنا ، وحسن أعمالنا ، وارزقنا سداد الرأى وصدق القول وثبات اليقين . انك على ما تشاء قدير .

المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده

روى الامام محمد بن اسماعيل البخارى في صحيحه عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه ... وفي رواية للترمذى والنسائي : المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم .

ما اكثر ما يدعى الانسان ما ليس فيه ، ويظهر بغير ما يبطن ، بل ما اكثر ما يخدع المرء نفسه ويرضى عنها وهي ليست أهلا للرضا ، ومن رضي عن نفسه كثر الساخطون عليه ــ كما قيل ــ وقد يظن بعض الناس أن الاسلام لفظ يلاك باللسان ، وحسب المرء أن يكون مسلما أن ينطق بالشهادتين ، وان يتردد الى المساجد ، وان يكثر بلسانه من الدعوة الى الفضيلة والتنفير من الرذيلة ، وان كان مع ذلك يؤذى الناس بلسانه ، ويغتاب ، ويكذب ويشى وينم ويخدع ويؤذيهم بقلبه ، يحقد ، ويكيد ويحسد ، ويؤذيهم بيده ، يقتل ويسرق ، وينهب ويهتك ويدمر ويخرب .

ومثل هذا لا يرى الرسول الكريم انه مسلم حقا ، لأن المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، ومن لم يتجنب مضارة المسلمين اما بلسانه واما بيده فهو ليس من الاسلام في شيء وان كان ممن يدعى الاسلام . فالمسلم هو الذى أثمر الاسلام في نفسه وأينع . وملك عليه جوارحه ، وقيد باحكامه تصرفاته .

لقد اشتمل هذا الحديث ــ كما قيل ــ على أساسين عظيمين من أسس اصلاح المجتمع ، واستقرار الحياة فيه .

فالاساس الاول : ما يجب على المسلم ان يأخذ به نفسه من كف أذى لسانه وشرور يده عن غيره ، فان استطاع أن يتحلى بهذا الخلق ويأخذ

نفسه بذلك المبدأ الكريم احس المجتمع بالسعادة ترفرف عليه ، والاخـوة تظله ، والحب يسيطر عليه ، وان معظم ما نشاهده بين الناس من شرور وآثام انما يرجع في الاغلب الى اسـتطالة الالسنة البذيئة بالفاحش مـن القول ، والهجر من الكلام ، والوقوع في الاعراض والكرامات بغير حساب ، فرب كلمة اهلكت قبيلة ، ودمرت مدينة ، بل رب كلمة افسدت ملكا كبيرا ، وبهذا يتبين سر تقديم اللسان على اليد ، فخطره أشد ، والتحذير منه آكد، وكذلك يرجع الى امتداد الأيدى الباغية الى اموال الناس ودمائهم وحقوقهم بالسلب والسفك والضياع ، وتعرضها لحرياتهم ومصالحهم بالبطش والعدوان ، فلو ان المجتمع خلا من كل هذه المفاسد التي تنشأ عما تجترمه الالسنة والايدي لساد المعروف واستقر الوئام بين الافراد والجماعات • ونجا الانسان ممـا يتهدده من عقوبة وعذاب ، وصدق رسول الله : وهل يكب الناس في النار على مناخيرهم الا حصائد السنتهم •

والفرق بين الاذى باللسان والاذى باليد • ان ايذاء اللسان عام لانه يتناول الحاضرين والغائبين ، والاحياء والاموات ، بخلاف اليد ، فان ايذاءها مخصوص بالموجودين •

وقد اكتفى الرسول صلى الله عليه وسلم باللسان واليد من بين سائـر الجوارح ، لأن الايذاء بهما اكثر واشد من غيرهما ، فاعتبر الغالب •

والاساس الثاني : ما يجب على المسلم من ترك المعاصي ، وهجـران السيئات ، والهجرة لا تحصل الا بطاعة الله وامتثـال أوامره ، واجتناب نواهيـــه •

ولقد كانت الهجرة في مبدأ الدعوة حفاظا على العقيدة وفراراً بالدين من الفتن من أعظم المقربات الى الله ، ينال بها العبد حسن الثواب وموفور الجزاء • فلما انقطعت الهجرة وفضلها بعد فتح مكة ، حزن على فواتها مـن

لم يدركها ، واعتبروا أنهم قد فاتهم بسبب ذلك خير عظيم ، فأعلمهم النبي صلى الله عليه وسلم أن المهاجر على الحقيقة هو من هجر السيئات ، وترك ما نهى الله عنه ، وأن هذه هي الهجرة الباقية مدى الدهر •

فالمسلم في كل حالاته عرضة لفتنة الشيطان ، ووسوسة النفس • ومنازعة الهوى ، وكل هذه جنود سوء تحاول أن تستولى عليه حتى تفسد عليه دينه ، فكل من هجر هذه الوساوس والنزعات وبواعث الشهوات ، فقد هجر ما نهى الله عنه •

ولا يراد من هذا الحديث العقيدة وحدها ، بل تشمل جميع الواجبات، ومسالمة المسلمين هي احدى شعبه الواجبة ، ولقد أول بعض المتحللين من العبادات • هذا الحديث حسبما يشتهون ، ويقولون : الدين المعاملة ، وبما أنهم لم يعتدوا على أحد فهم خير من المصلين والصائمين ، فهم يحسنون المعاملة مع الناس ، الا أنهم يسيئون المعاملة مع الله تعالى ، وفاتهم أن الحديث ينص على أنه لا يتسم بالاسلام الا من سالم المسلمين ، ويكف عنهم شروره وعدوانه ، فكل ما يدل عليه هو انه لابد في الاسلام من المسالمة ، فالمعنى انه لاتتم اركان الاسلام الا لمن كف أذاه عن المسلمين • فمن لم يسلم المسلمون من أذاه فهو غير حرى بأن يطلق عليه لقب المسلم في معرض المدح والثناء ، لانه ضيع من الاسلام روحه ومعناه •

فالاسلام عبادة ومعاملة ، ولا تمام له الا باجتماع شطريه واكتمال ركنيه ، ولقد بلغ من عنايته بأمر العبادات أن الحقها بالاصول الاعتقادية ، وأنها من الدين بمنزلة الاساس من البنيان ، بل بمنزلة الروح السارية في الاعضاء ، فانه ليس حق من حقوق الناس الا وفيه حق من حقوقه تعالى •

فالحديث يشير الى أنه ليس بالمسلم الذى لا يتورع عن أذى الخلق ، وانما المسلم هو من كف عن الناس أذاه ، وأراحهم من شره • فمعنى

أسلم ، جعل الناس سالمين من أذاه وليس معناه فقط جعل نفسه سلما لله ، فالذى يؤذى الناس وهو يحمل لقب الاسلام ، كأنه يحمل زوراً ، وينتحله انتحالا ، وهو ليس له بأهل • فالمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم ، ولأن الايمان مأخوذ من الأمن ، كما أن الاسلام مأخوذ من السلام ، وقد جرى بحضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم مدح امرأة ، فقيل انها تصوم نهارها وتقوم ليلها ، الا أنها تؤذى جيرانها بلسانها ، فقال عليه الصلاة والسلام : لا خير فيها ، هي من أهل النار •

نسأله تعالى أن يقينا شرور أنفسنا ، والا يجعلنا ممن اتخذ الهه هواه • انه سميع مجيب •

الاصلاح بين الناس

روى الامامان البخارى ومسلم عن أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط رضي الله عنها انها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ليس الكذاب الذى يصلح بين الناس ، ويقول خيراً ويمنى خيراً ، ولم أسمع يرخص في شيء مما يقول الناس كذب الا في ثلاث ، الحرب ، والاصلاح بين الناس ، وحديث الرجل امرأته ، وحديث المرأة لزوجها •

وفي حديث آخر رواه الامام الترمذى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا يحل الكذب الا في ثلاث ، يحدث الرجل امرأته ليرضيها ، والكذب في الحرب ، والكذب ليصلح بين الناس •

هذا حديث جليل ، يحث المسلم على أن يكون سباقاً لعمل الخير وجمع صفوف المسلمين ، وازالة اسباب التفرقة والقطيعة والتنازع فيما بينهم ، ليكونوا صفا واحداً يسودهم الحب والالفة • اذ لا قوة للمسلمين ولا عزة

لجماعتهم ، ولا علو لرايتهم ، الا اذا كان يظلهم الحب والوئام ، ويرفرف على ربوعهم الاخاء والسلام . واذا حدث بينهم ما يخالف ذلك وجب على المستطيع ان يعمل جهده لازالة الجفاء والقطيعة ليعود الصفاء والوفاق ، لذلك قال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لاصحابه الكرام : الا أخبركم بأفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة ؟ قالوا : بلى ، قال : اصلاح ذات البين ، فان افساد ذات البين هي الحالقة ، لا أقول تحلق الشعر ، ولكن تحلق الدين .

لقد أعلن الاسلام الحرب على الكذب ، وقد سئل عليه الصلاة والسلام: أيكون المؤمن جباناً ؟ قال : نعم ، قيل أفيكون بخيلا ؟ قال : نعم ، قيل أفكون كذاباً ؟ قال : لا .. وقد ثبت عنه أنه صلوات الله وسلامه عليه قال : ان الصدق يهدى الى البر ، وان البر يهدى الى الجنة ، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا ، وان الكذب يهدى الى الفجور والفجور يهدى الى النار ، ولا يزال الرجل يكذب ، ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا .

ان هذا الكذب قد يباح في بعض الاحيان للضرورة متى كان في الجهر بالصدق خشية ضرر أو فتنة أشد شراً من الكذب ، لأن الكذب ليس حراماً لعينه كما قال العلماء بل لما فيه من الضرر على الغير ، وربما كان واجبا في بعض الاحيان . فلو رأيت رجلا يسعى خلف آخر يريد قتله فدخل دارك ، فانتهى اليك الرجل يسألك ، هل رأيت فلانا ؟ فماذا كنت قائلا ؟ ألا تقول ما رأيته ؟ وهذا كذب ولكنه خير من الصدق . بل واجب عليك لأن فيه حقن دم امرىء معصوم .

لقد اباح الاسلام الكذب للاصلاح بين الناس ، لأن الخلاف شر قد يمتد الى اطراف كثيرة لذلك حرص الاسلام على ازالته بجميع الطرق

الممكنة حتى من طريق الكذب • اذ ليس الذى يستعمله للاصلاح بين المتخاصمين ، فيبلغ كل فريق خيراً عن الفريق الآخر اثماً ، لانه أراد بذلك جلب الخير وابعاد الشر ، روى عن أبي كاهل قيس بن عائذ الاحمسي أنه قال : وقع بين اثنين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كلام حتى تصارما ، فلقيت أحدهما فقلت : مالك ولفلان ، فقد سمعته يحسن عليك الثناء ، ثم لقيت الآخر فقلت له مثل ذلك حتى اصطلحا ، ثم قلت : أهلكت نفسي وأصلحت بين هذين ، فأخبرت النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا أبا كاهل ، اصلح بين الناس ولو - أي ولو بالكذب - فهذا من أوضح الدلائل على خطر الاصلاح وجليل شأنه حتى رخص في الكذب فيه •

والكذب في الاصلاح أن يبلغ المصلح كلا من المتنازعين ما لم يقله صاحبه كما فعله الصحابي الكريم أبو كاهل ، قصداً الى تأليف القلوب حتى يحل الوئام محل الخصام ، والوفاق محل الشقاق ، الا ان الاصلاح بين الناس - كما قال أحد الافاضل - خصلة من خصال الشرف والمروءة ، وخلة من خلال الفضل والنبل ، وجزء من شرائع الانبياء والمرسلين ، بل هو عماد دعوتهم وأساس رسالتهم ، وما أحوج هؤلاء البشر وقد اصطخبت بينهم المعارك واشتعلت فيهم نيران الخصومة ، الى من ينهج في اصلاحهم نهج المصلحين الصادقين المخلصين •

ولقد رخص النبي صلى الله عليه وسلم للرجل أن يكذب على زوجته ليرضيها توطيداً لعقدة الزواج والالفة ، وتوثيقا لأواصر المحبة والمعاشرة ، فهو من وسائل السعادة الزوجية ، وهو وقاية للزوجين من الشقاق ومساوىء الاخلاق ، والوقاية خير من العلاج •

لقد كان معاذ بن جبل عاملا لسيدنا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه فلما رجع قالت له امرأته : ما جئت به مما يأتي به العمال الى أهلهم؟

وما كان قد أتاها بشيء فقال لها: كان على رقيب ، قالت: كنت أميناً عند رسول الله وعند أبي بكر ، فبعث عمر معك رقيبا ، وقامت بذلك بين النساء واشتكت عمر ، فلما بلغه دعا معاذاً وقال له : أبعثت معك رقيبا ؟ قال ما أجد ما أعتذر به اليها الا ذلك ، فضحك عمر وأعطاه شيئا ، وقال له أرضها به . وقد أراد بالرقيب الله تعالى .

أما في الحرب فالكذب فيها سلاح حاد ، ولا يسمى ذلك كذباً ، لأن حال المتحاربين تنادى بأن يتحدث كل فريق عن قوته وصبره وقوة جيشه ومعداته ، ويخدع عدوه في خططه ويكيد له ، كما تقضى بالايصدق أحد صاحبه وان كان صادقا ، ورب كذبة أنقذت دولة وهوت بأخرى والحرب خدعة .

ومن الكذب الممدوح ما يقصد به الايثار على النفس ، كما فعل ذلك الصحابي الجليل الذى جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم فوجده عنده ضيفاً ، ولم يكن عند النبي ما يقدمه الى ضيفه فذهب بالضيف الى أهله ثم وضع بين يديه الطعام وأمر امرأته باطفاء السراج ، وجعل يمد يده الى الطعام كأنه يأكل ولا يأكل حتى أكل الضيف الطعام كله ، فلما أصبح قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد عجب الله من صنعك الليلة الى ضيفكم ، ونزل قول الله تبارك وتعالى : ﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴾ .

وهذا كله في موضع الحاجة ، لأن المحذور من الكذب تفهيم الشيء على خلاف ما هو عليه في نفسه الا أن كان ذلك مما تمس اليه الحاجة وماتقتضيه المصلحة في بعض الاحوال وكتأديب الصبيان ومن يجرى مجراهم ، وفي الحذر من الظلمة ، وفي قتال الاعداء والاحتراز عن اطلاعهم على أسرار الملك ، فمن اضطر الى شيء من ذلك فلا اثم عليه وان كان كلامه غير ما هو

عليه لأن الصدق ما أريد لذاته ، بل للدلالة على الحق والدعاء اليه ، فلا ينظر الى صورته ، بل الى معناه ٠

قال أحد الافاضل : لقد بني الاسلام على أسس ثابتة ، ومناهج محكمة تكفل لمن استمسك بها في جملتها وتفصيلها ، سعادة الآخرة والاولى ، ذلك بأنه لم يقف فيما أمر ونهى ، وأحل وحرم موقف التنطع والجمود ، ولم يذهب مذهب السرف والمغالاة ، وانما سار مع المصلحة متى كانت ، فيما هو يرفع شأن الصدق الى أن يجعله رأس الفضائل ، تراه يحرمه اذا أدى الى ضرر أو فساد ، كما حرم الغيبة ، وجعل المغتاب آكل لحم أخيه ميتا ، وحرم النميمة وأخبر بأنه (لا يدخل الجنة نمام) ، وبينما هو يخفض شأن الكذب الى أن يجعله رأس الرذائل ، تراه يحله بل يوجبه اذا أدى الى حقن دم مصون ، أو حفظ حق واجب فاذا اختفى امرؤ من ظالم يريد قتله أو أخذ ماله وسأل انساناً عنه ، وجب على المسؤول أن يكذب في اخفائه ٠ وكذا لو كان عنده وديعة وأراد الظالم أن يغتصبها وجب الكذب في اخفائها، ولو حلف في سبيل ذلك اعظاماً للدماء وصونا للحقوق ٠

فالكذب حرام الا لضرورة ملحة ، أو رخصة مسوغة ، ومن قواعد الشريعة أن الضرورات تبيح المحظورات ٠

كياسة المؤمن

روى الامامان البخارى ومسلم في صحيحيهما عن أبى هريرة عبدالرحمن بن صخر الدوسى رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين ٠

هذا الحديث من جوامع كلم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وحكمة من

حكم النبوة ، كلام لم يسبق اليه ، هو درس النبوة لتربية أتباعه على حصانة العقل ، وعمق الغور ، وبعد النظر ، وأن يكون كل فرد منهم حازماً عاقلا حذراً يقظاً ، لا يلعب به الدهاة الخادعون .

ذكر أن سبب ورود هذا الحديث أن رجلا يقال له أبو عزة عمرو بن عبدالله الجمحي ، وكان شاعراً سليط اللسان كثير الهجاء ، أسر يوم بدر فيمن أسر،فشكا للنبي صلى الله عليه وسلم فقره وكثرة عياله فرق له قلب الرسول صلى الله عليه وسلم ومن عليه بأن أطلق سراحه بغير فداء ، وعاهده على أن لا يهجوه ، ولا يظاهر عليه ، فلما لحق بقومه لعب المشركون بعقله حتى نقض ما كان عاهد عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال له صفوان بن أمية قبيل غزوة أحد : يا أبا عزة ، انك امرؤ شاعر فاعنا بلسانك واخرج معنا ، فقال أبو عزة : ان محمداً قد من علي فلا أريد أن أظاهر عليه ، قال له صفوان : بلى فاعنا بنفسك ، فلله ان رجعت أن أغنيك ، وان قتلت أن أجعل بناتك مع بناتي يصيبهن ما أصابهن من عسر أو يسر ، فأخذ أبو عزة يحرض القبائل على قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم واصحابه ، واستنصر الناس للقضاء على الاسلام والمسلمين .

ويشاء الله تعالى أن يقع عزة هذا مرة ثانية في الاسر في غزوة حمراء الاسد ، وعاد يستعطف النبي صلى الله عليه وسلم أن يمن عليه ويشكو له فقره وعياله ، ويعاهده الا يعود لمثل ما فعل ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تمسح عارضيك بمكة تقول ، سخرت بمحمد مرتين .

لقد كان صلوات الله وسلامه عليه في الاولى مضرب المثل حلماً ورفقاً ورحمة ، كما كان في الثانية مضرب المثل سياسة وكياسة وحكمة ، وهذه - كما قيل - هي الخطة المثلى للذين يقودون الأمم ، ويسوسون الجماعات ، ويحملون لواء الهدى ، عفو في غير ضعف ، ورحمة من غير عنف ، واحسان

لا تكدره مساءة ، فاذا لم يصادف شيء من ذلك موضعه ، ولم يصب موقعه ، وكان كالبذر الطيب في الأرض السبخة فلا مناص من الشدة والعزم ، واليقظة والحزم ، ليعتبر ماكر ، ويرتدع غادر ، وتعلو كلمة الحق .

فالمؤمن الكامل ليس من شأنه أن يكون مغفلا غير مجرب ، يتخذ سخرية للاعداء ، يضارونه في دينه ودنياه ، فالمؤمن كيس فطن متثبت كما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولقد كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : لست بخب ، والخب لايخدعني . ووصفه أحد معارفه فقال : هو أكبر من أن يخدع ، وأرفع من أن يخدع . وكان الامام ابراهيم بن يزيد النخعي اذا تلا قول الله تبارك وتعالى : (قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ليجزى قوماً بما كانوا يكسبون) . كأن يقول : كانوا يكرهون أن يذلوا أنفسهم فيجترىء عليهم الفساق .

فالرسول الكريم عليه الصلاة والتسليم يدعو الى أن يتحلى المؤمن بالحزم والفطانة حتى اذا نكب من وجه مرة منعته فطنته أن ينكب منه مرة أخرى ، أي من جحر واحد . وقد علق على هذه العبارة أحد الافاضل فقال : وما أجمل تقييده الجحر بواحد حتى لا يكون نقصاً في ايمان المؤمن ، ولا ثلما في فطنته وكياسته أن يلدغ في جحر آخر ليس من نوع الاول ولا من قبيله ، وان يكن من تمام الفطنة الاعتبار بالحوادث والالتعاظ بالكوارث ، وقياس الامور بأشباهها .

وانما خص المؤمن بهذه الوصية الحكيمة ، لما يغلب عليه من سلامة النية وحسن الظن فيقع في الشرك من حيث لا يدري .

وقد ذكر البعض أن البلاهة والغفلة من سمات الصلاح والتقوى ، وأن الكياسة والفطنة من آيات الخديعة . وهذا وهم خاطىء جر على المسلمين نكبات وبلايا ، ولم يعلموا بأن الأبله المخدوع لا يصلح لامر من أمور الدين،

ولا لشأن من شؤون الدنيا ، وقد فاتهم أن القرآن الكريم يخاطب العقول وينبه الالباب على ما احتوى عليه من عبرة وما اشتمل عليه من حكم . وان الله تبارك وتعالى لم يصطفِ رسولا ولا نبياً الا وهو القدوة في اليقظة والفطنة والحزم ، ولم تأذن الشريعة للمسلمين أن يولوا أمرهم أو قضاءهم لامرىء الا اذا كان معروفا برجاحة العقل ، واصابة الرأي ، وبعد النظر .

وأما ما ورد في الاثر : أن المؤمن غر كريم ، والمنافق خب لئيم ، فانه يريد أن المؤمن طيب القلب ، عنده حسن الظن بالناس ، فاذا جازت عليه حيلة خبيث مرة ، فلا تجوز عليه مرة أخرى ، لأن الايمان يصفي النفوس وينقيها من أدران الخبث والمكر ، ولا يمكن أن يخدع مرتين من خادع واحد وبشيء واحد .

وكان لهذه التوجيهات النبوية أثرها البالغ في حياة المسلمين الاولين - كما قيل - ولكن أكثرية المسلمين في عصرنا لم يتعظوا بهذه الوصية الحكيمة ، فلقد لدغوا من الجحر الواحد مراراً ، وتكالبت عليهم الحوادث، وتوالت النكبات من الاستعمار وعملائه ، ولكنهم لم يتعظوا بها ، ما أجدر المسلمين ان يتحلوا باليقظة والكياسة والاخذ بتوجيهات رسول الله ، ليكونوا خير أمة أخرجت للناس .

ما أجدرهم أن ينتبهوا الى أن أعداءهم لايمكن أن يخلصوا لهم قلوبهم .

عليهم أن يعلموا بأن غيرهم لا يحنوا عليهم . وليستمعوا الى قول الله : (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ماعنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر ، قد بينا لكم الآيات ان كنتم تعقلون) وقول الله تبارك وتعالى : (كيف وان يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم الا ولا ذمة ، يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم

فاسقون) الى قول الله : (لا يرقبون في مؤمن الا ولا ذمة وأولئك هـــم المعتدون) •

ليـنظر المرأ الى من هو اسفل منه

روى الامامان البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريرة عبدالرحمن بن صخر الدوسي رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنظروا الى من هو أسفل منكم ولا تنظروا الى من هو فوقكم ، فهو أجدر الا تزدروا نعمة الله عليكم •

وفي رواية أخرى : اذا نظر أحدكم الى من فضل عليه في المال والخلق فلينظر الى من هو أسفل منه ممن فضل عليه •

وروى الامام الترمذي عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من نظر في الدنيا الى من هو فوقه ، وفي الدين الى من هو دونه لم يكتبه الله صابراً ولا شاكرا •

هذه أحاديث ثلاثة تضع دستورا للانسان كي يعيش سعيداً في حياته، معافى في بدنه ، قانعاً برزقه ، فرحاً بقسمه ، غير حاسـد لغيره •

لقد علم الشارع الحكيم بأن النفس الانسانية فطرت على حب المال • لو كان لابن آدم واد من ذهب لتمنى أن يكون له الثاني ، ولا يملأ عـين ابن آدم الا التراب • لذلك تطلعت الى ما متع الله به غيرها من نعم الحياة ، وزينة الدنيا • وربما سول الشيطان لبعض الانفس أن تتمرد على وضعها ، وتتسخط نصيبها وحظها ، وتقارن بينها وبين من هو أكثر منها مالا وأوفر رغداً ومتعة ، وتظل هكذا متمردة ساخطة تستولى عليها هواجس الطمـع ،

وتتمكن منها رذيلة الحسد ، فتتمنى زوال نعمة الغير لعلها تصل اليهـا . وهكذا يظل الانسان تتقاذفه الهموم والغموم ، ويصبح ساخطا على الحياة ، متمرداً على القدر ، الى أن يلفه القبر ، وهناك الحساب والعقاب .

لقد عالجت هذه الاحاديث النفوس الحائرة والشقاء الروحي ، وذلك برضا المرء بما ناله من متاع هذه الحياة ، والقناعة بما قدر الله وقضاه . وان ينظر الى من هو دونه في الاحوال الدنيوية ، وبذلك يجلب لنفسه السرور والاغتباط ، وينتبه لنعم الله التي أسبغها عليه ، ويؤدى ما وجب من الشكر والطاعة لله تعالى ليتفضل عليه بزيادتها وتكثيرها .

لقد أمرنا سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ننظر الى من هـو أسفل منا في أمور هذه الحياة الدنيا ، ولا ننظر الى من فوقنا فيها . لأننـا لن يصيبنا الا ما كتب الله لنـا . ولنترك الامر لقاسم الارزاق ، ولا يمنعنـا ذلك من السعي والعمل .

لينظر المرء الى من ابتلى بالاسقام من هؤلاء الاغنياء ، فانه يتمنى أن لو أخذ ماله كله نظير التمتع بالصحة والعافية . فيكون المعافى في بدنه أسـعد منه حظاً ، وقد ورد في الأثر : من أصبح آمنا في سربه ، معافى في بدنه ، عنده قوت يومه ، كأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها .

لينظر المرء الى ما منحه الله من دين وعقل وعافية وصحة ، فما قيمـة المال اذا لازمه الضلال والجهل والمرض والحمق ، فانه يجد أن من أعطي هذه النعم من الكفاف أسعد حظاً ممن أعطى الغنى مع هذه النقائص . وقد قال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : من سره أن يكون أعز الناس فليتق الله ، ومن سره أن يكون أغنى الناس ، فليكن بما في يد الله أوثق منه بما في يده ، ومن سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله .

وقال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضوان الله عليه : ان الطمع فقر ،

وان اليأس غنى ، وان من يئس مما عند الناس استغنى عنهم • ثم قال رضي الله عنه وأرضاه : الا أخبركم بما استحق من مال الله عز وجل ، جلبابي لشتائي وقيضي ، وما يسعف من الراحلة لحجي وعمرتي ، وقوتي بعد ذلك كقوت رجل من قريش لست بأرفعهم ولا بأوضعهم ، ووالله ما أدرى أيحل ذلك لي أم لا •

فالغنى الحقيقي هو غنى النفس والتحلي بصفة القناعة التي تجعل المرء منشرح الصدر ، شاكرا مولاه الذى أعطاه عقلا وكفافا ، ونفسا مطمئنة راضية ، وايمانا بما قدره الله وقضاه •

التقى عبدالملك بن قريب الاصمعي بغلام من أولاد العرب ، فاعجبه حديثه وفصاحته ، فقال له الاصمعي : أيسرك أن يكون لك مائة ألف درهم وأنت أحمق ؟ فاجابه الغلام من فوره : لا والله ، فقال له الاصمعي : ولم ؟ قال الغلام : أخاف أن يجني علي حمقي جناية تذهب بمالي ، ويبقى حمقي •

اما نظر المرء الى من كان فوقه في الدين والعلم والمروأة وصالح الاعمال فانه مطلوب ليحفز فيه الرغبة الى الترقي في مدارج الكمال • فالعاقل ينظر الى من هو أكثر منه عبادة ، وأوفر طاعة ليغبط المحسن ، ويحاكي الاعمال الصالحات ، ويحوى صفة الغبطة التي عناها رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله : لا حسد الا في اثنتين ، رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله القرآن يتلوه آناء الليل وآناء النهار وفي رواية أخرى: الحكمة يتلوها ويعلمها الناس •

يجب على المرء الرضا بما قسم الله ليعيش هادىء البال ، متمتعا بالحياة السعيدة ، سالما قلبه من رذيلة الحقد والحسد ، متمنيا للناس الخير والعافية ، وليردد قول الشاعر :

من رام عيشا رغيدا يستفيد بـه في دينه ثم في دنياه اقبالا
فلينظرن الى من فوقـه أدبـا ولينظرن الى من تحته مالا

وفقنا الله للتأدب بآداب الاسلام ، والرضا بما قدره وقضاه ، وأن يمن علينا بخيرى الدنيا والآخرة . انه سميع مجيب .

البشائر برفعة هذه الامة

روى الامام أحمد بن حنبل في مسنده والحاكم في مستدركه وابـن حبان في صحيحه والبيهقي في شعب الايمان عن أبي بن كعب رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : بشر هذه الامة بالسناء والرفعـة والتمكين في الارض ، ومن عمل منهم عمل الآخرة للدنيـا لـم يكن لـه في الآخرة من نصيب .

حديث شريف في دلائل النبوة الظاهرة ، وعلاماتها الباهرة ، وشواهدها النيرة بما ستكون عليه هذه الامة المرحومة من التمكين في الارض ، وتثبيت ملكها فيها بالقوة والتوفيق ، وقضائها على الضلال الذى استحكم في الارض ، وأن ينقاد لها أولئك الطغاة المعاندون صاغرين خاضعين .

واقد وردت بشائر أخرى من صاحب الرسالة العظمى لهذه الامـة بالرفعة والسناء .

روى أن عدي بن حاتم الطائي لما قدم على رسول الله صلى الله عليـه وسلم ، قام اليه عليه الصلاة والسلام وأخذه الى بيته وأجلسه على وسـادة من جلد محشوة ليفا ، ثم عرض عليه الاسلام وقال له : يا عدي ، لعلـه

يمنعك من الدخول في هذا الدين ما ترى من حاجتهم ، فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه ، ولعلك انما يمنعك من الدخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم ، فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور البيت - أي الكعبة - لا تخاف ، ولعلك انما يمنعك من الدخول فيه أنك ترى الملك والسلطان في غيرهم ، وأيم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم .

وعن عدى أيضا أنه قال : بينما أنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ أتاه رجل فشكى اليه الفاقة ، ثم أتاه آخر فشكى اليه قطع السبيل ، فعندئذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا عدي هل رأيت الحيرة ؟ قلت : لم أرها وقد أنبئت عنها ، فقال رسول الله : ان طالت بك حياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لاتخاف أحداً الا الله قلت في نفسي ، فأين دعار طيء الذين سعروا في البلاد - قال الرسول : ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى ، قلت : كسرى بن هرمز ، قال كسرى بن هرمز ، ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يخرج ملء كفه ذهباً أو فضة يطلب من يقبله منه فلا يجد أحداً يقبله منه .

ثم قال عدي بن حاتم : فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالبيت لا تخاف الا الله ، وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز ، ولئن طالت بكم حياة لترون ما قال أبو القاسم صلى الله عليه وسلم يخرج الرجل ملء كفه ذهباً أو فضة فلا يجد من يقبله منه .

وقد ورد في الحديث الصحيح : أن سراقة بن مالك المدلجي لما تعقب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم هجرته الى المدينة ساخت قوائم فرسه في الارض عند ما لحق به ، وقد خاطبه عليه الصلاة والسلام بقوله : كيف

بك اذا لبست سوارى كسرى • فعجب سراقة من ذلك ، فلما أتى بهمـــا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وبتاجه ومنطقته بعد فتح العراق دعا سراقة فألبسه السوارين وقال له : ارفع يديك وقل الله أكبر ، الحمدلله الذي سلبهما كسرى بن هرمز وألبسهما سراقة بن مالك أعرابيـا من بني مدلج •

ولما أتي عليه الصلاة والسلام بكر بن وائل قال لهـم : ممن القوم ؟ قالوا : من بكر بن وائل ، فقال من أي بكر بن وائل ؟ قالوا من بني قيس ابن ثعلبة ، قال : كيف العدد ؟ قالوا : كثير مثل الثرى ، قال : فكيف المنعة؟ قالوا : لامنعة ، جاورنا فارس ، فنحن لا نمتنـــع عنهم ، ولا نجيز عليهم ، فاجابهم رسول الله : فتجعلون لله عليكم أن هو أبقاكم حتى تنزلوا منازلهم ، وتستنكحوا نساءهم ، وتستعبدوا أبناءهم ، أن تســـبحوا الله ثلاثا وثلاثين وتحمدوه ثلاثا وثلاثين ، وتكبروه أربعة وثلاثين ، فقالوا : من أنت ؟ قال أنا رسول الله ، ثم انطلق ، ثم مر أبو لهب بهم (وهو عمه) فقالوا له :هل تعرف هذا الرجل ؟ قال : نعم في الذروة منا ، فعن أي شأن تســـألون ؟ فأخبروه بما دعاهم اليه وقالوا : زعم أنه رسول الله ، فقال لهم أبو لهب : الا لا ترفعوا برأسه قولا فانه مجنون يهذي من أم رأسه ، قالوا قد رأينـــا ذلك حين ذكر من أمر فارس ما ذكر •

ولما عرض صلوات الله وسلامه عليه الاسلام على بني شيبان وكان فيهم مفروق بن عمرو وهانيء بن قبيصة والنعمان بن شريك والمثنى بن حارثة ، أخذ كل منهم يتكلم ويذكر الاعذار التي تمنعهم من اجابة دعوته ، ثم تكلم المثنى بن حارثة مجيبا رسول الله بقوله : قد سمعت مقالتك واستحســـنت قولك يا أخا قريش ، وأعجبني ما تكلمت به ، والجواب هو جواب هانيء ابن قبيصة ، وتركنا ديننا واتباعنا اياك لمجلس جلســته الينا ، وانا انما نزلنا بين صربين أحدهما اليمامة والآخر السماوة ، فقال له رسول الله صلى الله

عليه وسلم : ما هذان الصربان ؟ فقال له المثنى : أما أحدهما فطفوف البر وارض العرب ، وأما الآخر فارض فارس وانهار كسرى ، وانما نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى أن لا نحدث حدثا ولا يؤى مدثا ، ولعل هذا الامر الذى تدعونا اليه مما تكرهه الملوك ، فاما ما كان مما يلي بلاد العرب فذنب صاحبه مغفور وعذره مقبول ، وأما ما كان يلي بلاد الفرس فذنب صاحبه غير مغفور وعذره غير مقبول ، فان أردت ان ننصرك ونمنعك مما يلي العرب فعلنا • فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أسأتم الرد اذ أفصحتم بالصدق ، انه لا يقوم يدين الله الا من حاطه من جميع نواحيه ، ثم قال عليه الصلاة والسلام : أرأيتم ان لم تلبثوا الا يسيراً حتى يمنحكم الله بلادهم وأموالهم ويفرشكم بناتهم ان تسبحون الله وتقدسوه ؟ فقال له النعمان بن شريك : اللهم وان ذلك لك يا أخا قريش ، فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم : (انا ارسلناك شاهداً ومبشراً ونذيرا • وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا) • ولو عددنا بشائره عليه الصلاة والسلام لأمته بالرفعة والسناء لطال بنا المقال لذلك اكتفينا بما ذكرنا •

لقد بشر رسول الله أمته بهذه البشائر في وقت كان الفرس يستهزؤون بالعرب حينما كانوا يدعونهم الى الاسلام أو الجزية أو القتال ، ويعيرونهم لضئالة قسيهم ، بأنهم انما جاؤوا ليحاربوهم بالمغازل •

لقد تحقق ما أخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم والتقى الجمع العربي بالجمع الفارسي فأخذت تتساقط المدن وتفر الجحافل ، وغدت سهام الفرس تتساقط وكأنها أوراق الخريف •

لقد أتى أصحاب السهام المغازل من الآيات العظام مالا يخطر على البال ، حتى أن بعض عامتهم ينطق بالكلمة لا يدرى هو ولا من معه ماهي جواباً على رسالة لكسرى فيطير لها قلب رسول كسرى رعبا ، حتى اذا

ما بلغها اليه فر من وجوههم تاركا ما وراءه من أزواد وأموال ... فقد روى المؤرخون عن أحد الجنود الذين كانوا في حملة العراق بقيادة سعد بن أبي وقاص أنه قال : بينما نحن محاصرون بهرسير - وهي المدائن الدنيا غربي دجلة - أشرف علينا رسول من الفرس فقال : ان الملك يقول لكم : هل لكم المصالحة على أن لنا ما يلينا من دجلة وجبلنا ، ولكم ما يليكم من دجلة وجبلكم ؟ أما شبعتم لا أشبع الله بطونكم ؟ فتصدى له الاسود بن قطبة ، وقد أنطقه الله بما لا يدرى ما هو ولا نحن ، فرجع الرجل ، ثم رأيناهم يقطعون الى المدائن - أي القصور عاصمة كسرى - هاربين تاركين المدينة المسلمين فلما سئل بعض أسراهم عن سبب ذلك ، قال : ما أجبتم الملك من أنه لا يكون بينكم وبينه صلح أبداً حتى تأكلوا عسل أفرندين بأترج كوتى ، فقال الملك يا ويله ، ان الملائكة تتكلم بالسنتهم ترد علينا ، وتجيبنا عن العرب .

لقد رأى أولئك المبشرون بالغلبة والنصر ما وعدهم الله ورسوله ، فقد روى أنهم حين دخلوا مدينة بهرسير وكان ليلا لاح لهم الابيض قصر كسرى وايوانه ، فصاح ضرار بن الخطاب ، الله أكبر ، أبيض كسرى ، هذا ما وعد الله ورسوله ، وتابعوا التكبير حتى أصبحوا ، لقد بشرهم رسول الله بامتلاكه يوم الخندق عندما كانوا يحفرون وقد اعترضتهم صخرة لا تعمل فيها المعاول فشكوا ذلك الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخذ معولا وقال : باسم الله ، وضربه ضربة فكسر ثلث الصخرة ، فبرقت برقة أضاءت ما بين لا بتيها فقال : الله أكبر أعطيت مفاتيح الشام ، والله اني لابصر قصورها الحمر من مكاني هذا ، ثم ضرب أخرى وقال : بسم الله ، فكسر ثلثا آخر ، فبرقت برقة أضاءت ما بين لا بتيها - أي لابتى المدينة وهما ما يحيط بها من الحجارة السود - فقال : الله أكبر أعطيت مفاتيح فارس ، والله اني لابصر قصر المدائن الابيض الآن ، ثم ضرب ثالثة وقال : بسم الله فقطع

الصخرة ، فبرقت برقة أضاءت ما بين لابتيها فقال : الله أكبر ، أعطيت مفاتيح اليمن ، والله انى لابصر أبواب صنعاء من مكاني الساعة .

لقد كانت هذه الامة المبشرة بالتأييد والسناء موفقة في جميع حروبها ، وان الله تبارك وتعالى قد سخر لها جميع وسائل النصر والظفر .. لقد ذكر المؤرخون أن الفرس لما انهزموا من القادسية تعقبهم الجيش العربي حتى انتهوا الى دجلة وهي تطفح بماء لم ير مثله قط واذا الفرس قد رفعوا السفن والمعابر وحرقوا الجسور ، ولم يجد الجيش الى العبور سبيلا فانتدب رجل من الجند فسبح فرسه وعبر واقتدى به بقية الجند ، ولما رأى الفرس ذلك قالت : والله ما تقاتلون الا جنا ، فانهزموا وتركوا مدينة كسرى بما فيها من متاع فيئا للمسلمين ، ومكن الله لهم في الارض التي يرثها عباده الصالحون . (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين انهم لهم المنصورون . وان جندنا لهم الغالبون) .

نحن مبشرون بالنصر ، ولا يفت في عضدنا ما أصابنا من نكسة في هذه الايام ، بعد أن تجمع علينا القوم الظالمون كما تجمع على رسول الله اليهود والمنافقون والمشركون ، تجمعوا علينا كما تجمع كعب وجفينة والهرمزان لايقاف الاندفاع الاسلامي ، وبدأوا باغتيال عمر بن الخطاب ، ثم أوقدوا نار الفتنة بين المسلمين .

لقد تجمعوا علينا كما تجمع على اخواننا من قبل ريشارد الاول قلب الاسد ، وفليب اغسطس والبابا أوربان ، وأوقدوها صليبية ماحقة ، تجمع علينا اليهود والانكليز والامريكان ومن يلوذ بهم ، ليعيدونا الى الذل والخنوع والاستسلام ، وأعلنوها حربا صليبية يهودية لمحو العرب من الوجود .

لقد اخذنا من تجمعهم هذا دروسا علمنا منها مقدار قوتنا وضعفنا . ومقدار ما ينقصنا من معدات الظفر والغلبة ، وعلمنا من هم أعداؤنا الذين

يبيتون الايقاع بنا ، وعلمنا منها أننا كنـا في غفلة وسبات ، كنـا نمد أعداءنا بجميع المقومات ليدمرونا بها ويذلونا .

كلنا ثقة بالله بأننا سنقضي على هذا التجمع ، لاننا نستمد قوتنا وعزيمتنا من جهاد رسول الله وأصحابه الغر الميامين . وكلنا أمل بأن الله لن يخذلنا، لاننا حملة رسالته ، وجنود دينه ، وقوم نبيه ، وهو يقول : (وان جندنا لهم الغالبون) .

وان البشرى لتتوالى على احفاد اولئك العرب البررة بانهم سيمثلون عما قريب دور أجدادهم ، وسيعلوا منار الاسلام كما علا من قبل ، وسترفرف رايته على الآفاق ، وستزول هذه الفقاقع من الوجود . وسيتم الله نوره ولو كره الكافرون .

المجاهرة بالمعاصي

روى الامامان البخاري ومسـلم في صحيحيهمـا عن أبي هريرة عبدالرحمن بن صخر الدوسي رضي الله عنه أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : كل أمتي معافى الا المجاهرين وان المجانة أن يعمل الرجل بالليل عملا ثم يصبح وقد ستره الله فيقول : يا فلان ، عملت البارحة كذا او كذا . وقد بات يستره ربه ويصبح يكشف ستر الله عنه .

وروى الامام مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : لا يستر الله على عبد في الدنيا الاستره يوم القيامة .

وفي حديث آخر : لا يستر عبد عبداً في الدنيا الا ستره الله يـوم القيامـة .

الانسان بشر يخطىء ويصيب ، ويعصي ويطيع ، وتصدر عنه الهفوات، ويوفق للأعمال الصالحة ، والخلال الطيبة .

والمؤمن الصالح ، والعبد الخير اذا صدرت منه هفوة ، أو بدرت منه بادرة زلل ، عاد على نفسه بالندم وتاب ، ورجع الى الله ، وأجمع أمره على التخلص من ذنبه ، والبراءة من خطيئته .

أما الفاجر الغادر فيباهي بالمعصية ، ويفاخر بالخطيئة ، ويجاهر بما اقترف من اثم ومعصية وهتك من عرض وحرمات .

وهذه الأحاديث الشريفة تصور بعض الطبائع البشرية تمام التصوير فان المرأ ربما صدرت عنه معصية ، أو ارتكب مخالفة لا تخرجه عن دينه . فيجب عليه في تلك الحالة التستر على مخالفته اذا كان عنده بقية من حياء ، لأن الله تبارك وتعالى قد يعفو عن السوء لمن تاب وآمن وعمل صالحا ، لاسيما الذى يتستر على اثمه ولم يجاهر به ، ولم يطلع عليه أحداً حياء من الله ومن الناس ، ولقد روى الامامان البخارى ومسلم عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ان الله يدنى المؤمن فيضع عليه كنفه ويستره فيقول : أتعرف ذنب كذا ، أتعرف ذنب كذا ؟ فيقول نعم أى رب ، حتى اذا قرره بذنوبه ورأى في نفسه أنه هلك ، قال : سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم .

فالانسان كما قيل له داعيان قويان يتجاذبان حينما يهم بمعصية ، داعى العقل وداعى الشهوة ، وليغلبنه أشدهما قوة وأكثرهما اغراء .

وليس بقادح في ايمان المرء ويقينه أن تزل قدمه وتغلبه خطيئته ، وانما يضعف ايمانه أن يجمع بين معصيته معصية أشد منها اثماً وحرمة ، هو مجاهرته بجريمته وانتهاكه لحرمات الله على مرأى ومسمع من الناس ، وتحدثه لجلساء السوء بما سولت له نفسه وما ارتكب من آثام ، غير آسف

ولا مستغفر ، فهذا المجاهر حقيق بأن لا ينظر الله اليه ولا يرحمه ، وان يخزيه في الدنيا والآخرة ، فذاك هو الذى استثناه رسول الله صلى الله عليه وسلم من المعافين من كل أمته ، كيف لا وهو يستبيح ما حرم الله في هدأة الليل وسكوته ، وبدل أن يرجع الى الله بالتوبة والانابة ، وحمده على ستره عليه، يروح يقص على الماجنين أمثاله ما جناه ليلة أمسه ، ويكشف الستر الذى أسد له عليه الله • فهذا هو السفيه الاحمق ، الآفن الماجن ، عدو نفسه وعدو مجتمعه •

وانما كان التستر بالمعصية خليقا بمعافاة الله وستره ، لأن فيه كما قيل بقية من الحياء ، ان لم يكن من الله فمن خلقه ، ومن استحيا من الناس أوشك أن يستحى من الله ، والحياء لا يأتي الا بخير ، واستحياء المرء من الجهر بالمعاصي دليل على أنه يبغضها ويستقذرها ، ومن استقذر المعصية فهو حري بأن يقل من غشيانها ان لم يقلع عنها •

ثم طلب الشارع الحكيم من المسلم التستر على أخيه المسلم والا يهتك ستره ، ولا يفشي أمره ولا يكشف عن معايبه ومستوراته •

أخرج أبو داود عن أبي برزة نضلة بن عبيد الاسلمي أنه قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الأيمان قلبه ، لا تتبعوا عورات المسلمين فان من تتبع عورات المسلمين فضحه الله تعالى في قعر بيته •

وانما نهى الشارع عن تتبع عورات المسلمين ، لأنه يزرع في القلوب العداوة والبغضاء ، ويلقى ظلالا من الشك والريبة بين أفراد الامة • هذا الى ما فيه من انتهاك حرمة المسلم التي هي أعظم الحرمات عند الله وفيه افساد للجتمع بفساد أفراده • وقد قال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : انك ان تتبعت عورات الناس أفسدتهم أوكدت تفسدهم • وفي حديث آخر:

من رأى عورة فيسترها كان كمن أحيا مؤودة •• لأنه أحيى صاحب العورة حياة أدبية كريمة ، وربما كانت تلك الحياة أعلى من الحياة النفسية •

ولكن يوجد أناس طبعت نفوسهم على الشر ، يحبون أن تشيع الفاحشة وأخبارها بين الناس ، ولم يعلموا بأن من يخوض في أعراض الناس لابد أن يخوض الناس في عرضه ، والذى لايستر على أخيه لابد أن يفضحه الله •

ولقد قال بعض السلف : أدركنا اقواماً لم يكن لهم عيوب • فذكروا عيوب الناس ، فذكر الناس لهم عيوباً ، وأدركنا أقواماً كانت لهم عيوب ، فكفوا عن عيوب الناس فنسيت عيوبهم •

ان الاسلام لا يريد أن يكون انزجار الناس من المعاصي عن طريق التجسس والمباغتة ، وانما يريد أن يكون للناس وازع من دينهم وضمائرهم، وحينئذ يكون صلاحهم واستقامتهم على أساس من الرغبة ومراقبة الله • روى أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يعس بالمدينة فسمع صوت رجل في بيت يتغنى ، فتسور عليه فوجد عنده امرأة وعنده خمر ، فقال له عمر : يا عبدالله أظننت أن الله يسترك وانت على معصيته ، فقال له الرجل : وأنت يا أمير المؤمنين لا تعجل علي ان كنت عصيت الله واحدة فقد خالفت في ثلاث • فقد قال الله سبحانه وتعالى (ولا تجسسوا) وقد تجسست ، وقال : (وأتوا البيوت من أبوابها) وقد تسورت ، وقال : (لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها) وقد دخلت بغير اذن • قال عمر : فهل عندك من خير ان عفوت عنك ؟ قال : نعم • فعفى عنه وتاب الرجل وصلح حاله •

ان احق الناس بستر عوراتهم أولئك الذين ترحلوا عنا الى ربهم

وهو أعلم بهم ، وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : لاتسبوا الاموات فانهم قد أفضوا الى ما قدموا •• وروى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : أذكروا محاسن موتاكم •

وقد علق أحد الافاضل على هذا الحديث فقال : ان العورة التي أمرنا بسترها هي التي يكون في دفنها مصلحة أرجح من مصلحة كشفها • أما اذا كان في كتمانها مفسدة مظنونة أو محققة كمن رأى آخر يسفك دماً ، أو يهتك عرضاً ، أو ينهب مالا ، ولم يكف الا بكشف أمره واظهار جرمه فان على من اطلع عليه حينذاك أن يذيع سره ويطلع الحاكم عليه ، حقنا للدماء ، وصونا للاعراض ، وحفظا للاموال ، وتأديباً للمفسدين في الارض، وكذلك من بلغه أن فلانا سيرتكب جريمة مفسدة كان حقا عليه أن يعمل ما في وسعه للحيلولة بين المجرم وجريمته ، فليس المحافظة على هذا المجرم المتستر بأولى من العناية بذلك الوادع الآمن •

فطوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس ، وكف لسانه الا عن الخير •

هدانا الله لصالح الاعمال ، وجنبا سفاسف الامور ورذائلها ، وأعاننا على اصلاح أنفسنا ، انه نعم المولى ونعم النصير ••

الاسلام يحث على التداوى والتوقى من الامراض والحجر الصحى

روى الامام البخارى في صحيحه عن اسامة بن شريك رضي الله عنه أنه قال : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه كأنما على رؤوسهم الطير • ثم قعدت ، فجاء الاعراب ها هنا وها هنا فقالوا : يا رسول الله ، أنتداوى ؟

قال : تداووا فان الله لم يضع داء الا وضع له دواء غير داء واحد ، الهرم ..

جاء الاسلام وللأهل الجاهلية عادات في دفع المرض منها : استعمال الرقى والتعاويذ والتمائم والأعمال السحرية ، وغيرها من الشعوذات ، فابطل هذه العادات وربط الأسباب بمسبباتها ، فأمر بالمعالجة والتداوي وحث على ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم . ففي صحيح الامام مسلم بن الحجاج القشيري أن رسول الله قال : لكل داء دواء ، فاذا أصيب دواء الداء برىء باذن الله .. ما أنزل الله داء الا وأنزل له شفاء . ودخل عليه الصلاة والسلام على مريض فقال : أرسلوا الى الطبيب ، فقال قائل : وأنت تقول ذلك يا رسول الله ؟ قال : نعم ان الله لم ينزل داء الا أنزل له دواء .

لقد وضع الاسلام أسسا وقائية لا تزال تبنى على أركانها دعائم الطب الواقي في العصر الحاضر . من ذلك قول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : اياكم والبطنة في الطعام والشراب فانها مفسدة للجسم ، تورث السقم ، ومكسلة عن الصلاة ، وعليكم بالقصد فيهما . فانه أصلح للجسم وأبعد من السرف . وهذا هو العلاج الواقي من أمراض المعدة والامعاء .

ولقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكل ما لا يغطى من الطعام والشراب . وفي الحديث : غطوا الاناء وأوكسوا السقاء .

ونهى عليه الصلاة والسلام عن التنفس في الماء ، والنفخ في الطعام والشراب . قال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ما نهى عن النفخ في الطعام والشراب : القذارة أراها في الاناء ، فقال له : اهرقها ثم قال الرجل : فاني لا أروى في نفس ، فقال له : فأبن القدح اذا من فيك ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن العب نفسا واحدا . وكان يتنفس في الشراب ثلاثا ويقول : انه أروى وأبرأ وأمرأ . لأن ذلك أقمع للعطش وأقوى على الهضم ، وأقل أثراً في تبريد المعدة ، واضعاف الاعصاب . كما يقول الاطباء .

ولقد نهى عليه الصلاة والسلام عن الشرب من أفواه الاسقية ، وهو أن يقلب رأسها ثم يشرب منه . كما نهى عن الشرب من ثلمة القدح .

ولقد حث الاسلام على الرقابة الصحية في المأكل والمشرب والملبس والهيئة والمسكن حيث يقول المرشد الاعظم صلى الله عليه وسلم : اغسلوا ثيابكم وخذوا من شعركم ، واستاكوا ، وتزينوا وتنظفوا . وروى عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان الاسلام نظيف فتنظفوا فانه لا يدخل الجنة الا نظيف .

كما أنه حث على غسل اليدين قبل الأكل وبعده . فقال صلوات الله وسلامه عليه : اذا أكل أحدكم فليغسل يده من وضر اللحم . اذ في عدم الغسل تكثر الجرائيم الملتصقة بالايدي فتنتقل الى الفم والأنف والعين عند أدنى لمس أو مس .

كما أمر العاطس أن يضع كفيه على وجهه فقال عليه الصلاة والسلام: اذا عطس أحدكم فليضع كفيه على وجهه وليخفض صوته . وهذا أعظم وقاية من انتشار جرائيم الامراض التي ربما يكون العاطس مصاباً بها .

لقد حث الاسلام على حفظ الحياة التي وهبها الله تعالى للانسان ، وانها وديعة في عنقه فأمره بعدم الاعتداء على نفسه وعلى غيره ، وان يعطي تلك الحياة حقها ، وأن لا يعرضها للتلف ، وأن يرسم لها طريق الوقاية من الامراض التي تعترى الاجسام . كما أوجب التوقى من الامراض السارية التي تنتقل بالعدوى ، وأن يعزل المصاب عن بقية الاصحاب طيلة فترة حضانة المرض ، ووضعه تحت الرقابة الطبية . وقد عد الاطباء الامراض السارية التي تقتضي الحجر الصحي خمسة ، الطاعون والكوليرا ـ أي الهيضة ـ والجدري والحمى الصفراء . والتيفوس .

ولقد وضع الرسول الكريم الحجر الصحي عن مرض الطاعون ،

وجعل العزل هو الاساس داخل المنطقة المصابة • ومنع السفر الى بلد ظهرت فيه احدى الوافدات أو الخروج منه • فعن عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : اذا كان الوباء بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها فراراً منه • واذا سمعتم به في أرض فلا تقدموا عليها •

وقد عمل بقاعدة الحجر الصحي فاروق الاسلام عمر بن لخطاب رضوان الله عليه وهو خارج الى الشام لما بلغه أن الوباء فيها • فقد روى الطبرى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه اعتزم أن يزور الشام مع فريق من المهاجرين والانصار ، ولما بلغ (المدورة) وهي آخر حدود الحجاز وأول حدود سوريا ، جاءته الانباء بانتشار مرض الطاعون في الشام ، فاستشار عمر أصحابه في الدخول الى الشام أو الرجوع الى المدينة ، فقال فريق منهم : لقد خرجت تريد وجه الله ولا نرى أن يصدك عن هدفك بلاء• وقال فريق آخر انه بلاء وفناء ولا أن نقدم عليه ، ومال عمر لهذا الرأى ، فاعزم الرجوع الى المدينة ، وبينما كانوا يتحدثون بذلك حضر أبو عبيدة عامر بن الجراح فاستشاره عمر وأظهر له أنه قد اعتزم الرجوع • فقال له أبو عبيدة : يا أمير المؤمنين أفراراً من قضاء الله ؟ فقال له عمر : فرارا من قدر الله الى قدر الله • ثم قال: أرأيت لو أن رجلا هبط وادياً له عدوتان ، أحداهما خصبة والاخرى جدبة أليس يرعى من يرعى الخصبة بقدر الله ، ثم قال له عمر : لو غيرك يقول هذا يا أبا عبيدة • وبينما هما يتحاوران اذ جاء عبدالرحمن بن عوف فذكروا له الامر ، فقال : أنا عندى الخبر اليقين ، لقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : اذا سمعتم بهذا الوباء ببلد فلا تقدموا عليه • واذا وقع وأنتم به فلا تخرجوا فراراً منه •

وقيل : ان في نهي النبي صلى الله عليه وسلم عن الدخول للارض التي حلها الوباء فائدتين :

احداهما : لئلا يستنشقوا الهواء الذى قد عفن وفسد فيمرضوا •

والثانية : لئلا يجاوروا المرضى الذين قد مرضوا بذلك فتتضاعف عليهم البلية • وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : في القرف التلف • وفسر بأنه ملابسة الداء ومداناة المرضى • وفي هذا الحديث الذى رواه أبو داود عن فروة بن مسيلك الذى يقول : قلت : يا رسول الله أرض عندنا يقال لها أرض أبين (وهي قرية الى جانب البحر من ناحية اليمن) أرض ريفنا وميرتنا وبيئة ، أو قال : وباؤها شديد ، فقال له عليه الصلاة والسلام : دعها عنك ، فأن القرف التلف •

لقد وضع الاسلام قانون الحجر الصحي حتى على الحيوانات حيث يقول عليه الصلاة والسلام لا يورد صاحب الابل المريضة بابله على صاحب الابل السليمة فيعدى مريضها سليمها •

وقد تعجب حين تعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن بيع الثمرة وشرائها عند وقوع الوباء وذلك قبل أن يبدو صلاحها • وطبيعي أن الصلاح يشمل كذلك خلوها من الجراثيم • ومثل ذلك الخضر •

لقد حرص الاسلام على تنفيذ قانون الحجر الصحي فوعد الذين ينفذونه بالثواب • وذكر أن الذى يموت بذلك المرض بعد أن امتنع عن الخروج من مكانه ولم يلوث المناطق الأخرى بأنه شهيد • لانه فدى وطنه بنفسه وساهم في حماية أرواح سائر الامة • فقال عليه الصلاة والسلام : الطاعون شهادة لكل مسلم •

ولقد أمر الرسول الكريم بالابتعاد عن موارد الهلكة والتوقي من العدوى • فعن عمرو بن الشريد الثقفي عن أبيه قال : كان في وفد ثقيف رجل مجذوم يريد مبايعة رسول الله ، فأرسل اليه رسول الله : أنا بايعناك فارجع •

وقال : اتقوا المجذوم كما يتقى الاسد . فرسول الله لم يسمح للمجذوم أن يضع يده في يده مبايعا ، ارشاداً لامته حتى لا تجازف في الورود على المصابين بالامراض المعدية ..

الايام العشر من ذى الحجة

روي الامام البخاري في صحيحه عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : ما من أيام العمل الصالح أحب الى الله من هذه الايام ، قالوا : يا رسول الله : ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: ولا الجهاد في سبيل الله الا رجل خرج بنفسه وماله ، فلم يرجع من ذلك بشيء ..

من محاسن الاسلام أنه لم يدع خلة من خلال الخير والبر الارغب فيها وحض عليها ، ويسر سبيلها ، كما لم يدع خصلة من خصال الشر والاثم الا نفر منها وكره النفوس اليها .

وقد أعد الله تبارك وتعالى لعباده مواسم كريمة في أزمنة محدودة وأيام معدودة ، ضاعف فيها الحسنات ليسارعوا فيها الى الخيرات ، ليعوض مقصر ما فاته ويدرك مؤمل ما تمناه .

ينبه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أمته في حديثه هذا الى أعظم فترة من فترات العبادة والتقرب الى الله تعالى وهي العشر الاوائل من شهر ذي الحجة التي هي أفضل أيام الدنيا ، وأدناها الى رضوان الله اذ يضاعف فيها الثواب أضعافا كثيرة ، لانها اجتمع فيها أمهات العبادات الصلاة والصوم والصدقة والحج ويوم عرفة . حتى قال عبدالله بن عمر

والعيد فرصة من فرص الحياة الطيبة ، ويوم من أسعد الايام ، ينسى فيه الانسان همومه ، ويتخلص من آلامه ، ويحاول أن يجدد همته ، ويضاعف نشاطه ومرحه ، ويلقى الناس بقلب مفتوح ونفس قد تطهرت من البغض والكراهة ، وارتفعت على الحقد والضغينة ، وآثرت أن تعيش في جو من الصفاء والوفاء والالفة .

ولعل الحكمة في هذا أننا نتعب ونكد ، ونحسن ونسيء ، ونخطيء ونصيب ، وقد يصادفنا من المشاق والمتاعب ما تعي دونه قوتنا ، وتقصر لديه طاقاتنا ، وقد تستولي على قلوبنا السآمة ويجثم على صدورنا الملل والضجر ، فنضيق بهذه الحياة وما تقتضيه من كفاح ودأب وتستدعيه من نضال لا يسكن ولا يهدأ ، ومن هنا نحاول أن نفيء الى المرح ، ونسكن الى بعض السرور الذى ينسينا المتاعب ، ويخلصنا من غمرة المشاكل وزحمة الاحداث .

قال الامام الغزالي : السماع في أوقات السرور مباح ان كان ذلك السرور مباحا ، كالغناء في أيام العيد ، وفي العرس ، وفي وقت قدوم الغائب، وفي وقت الوليمة والعقيقة ، وعند ولادة المولود ، وعند ختانه ، وعند حفظه القرآن الكريم ، وكل ذلك مباح لاجل اظهار السرور به . ويدل على هذا من النقل انشاد النساء على السطوح بالدف والالحان عند قدوم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة :

طلع البدر علينا ... من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ... ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا ... جئت بالامر المطاع

لقد يبتسم في العيد الفم العابس ، ويفرح القلب الحزين ، وينطلق

الوجه الكئيب ، ويلتقي المسلم بأخيه في الفة حانيـة ، ومودة صافية ، ليس فيها ضيق ولا تزمت ولا جحود ولا تحرج .

وفي العيد تتصافح الايدى ، وتتصافى القلوب ، وتنسى الخصومـات والعداوات ، ويلقى الصديق صديقه والبشر يعلوه ، والفرحة تشرق فـي جوانب نفسه .

وفي العيد توصل الارحام ، وتتوثق الروابط والصلاة ، ويذكر الغني أخاه الفقير المحتاج واليتيم الذى حرم العطف والحنان ، ويعود عليهمـا بما يملأ حياتهما أملا وفرحة وبهجة .

مر النبي صلى الله عليه وسلم على أطفال يلعبون ويمرحون في يوم عيد ، وكلهم يلبس الجديد . ورأى طفلا منزويا عنهم ، ومهلهل الثياب ، كسير الخاطر ، عيناه تفيضان بالدمع ، فدنا منه الرسول وابتسم في وجهه وسأله عما يبكيه ، والاطفال من حوله في بهجة وحبور . فقال : فقـدت والدي وليس لي من يعطف علي ، فتأثر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأخذ بيده وكساه ثوباً جديداً ، وظل يلاطفه ويطعمه حتى زال ما به من الأسى والألم ، ثم قال له : الا ترضى أن يكون محمد لك أبا ؟ وعائشة لك أما ، وفاطمة لك أختاً ، ثم ضمه الى أسرته .

وقد يجتمع في العيد مع المرح والسرور عبادة وطاعة ، وتهليل وتكبير وذبح يعود نفعه للفقراء والمحتاجين . وقد قال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما عمل آدمي يوم النحر أحب الى الله تعالى من اهراق الدم ، ليقع من الله بمكان قبل أن يقع من الارض فطيبوا بها نفسا .

من كل هذا نجد من هدى الاسلام أنه لا يريد أن يكون في هـذا اليوم عيون دامعة ، ولا قلوب كسيرة ، ولا نفوس حزينة ملتاعـة ، ولا انسان يحس بالبؤس أو يشعر بالشقاء ، بل يريد ان يعيش الجميـع

فرحين مسرورين ، تغمرهم الفرحة ، وتشرق على محياهم عـزة الاسلام وسماحة الاسلام •

ooooooooooooo

شـر الناس ذو الوجهين

روى الامامان البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريــرة عبدالرحمن بن صخر الدوسي رضي الله عنه أنه قال : قال رســول الله صلى الله عليه وسلم : ان شر الناس ذو الوجهين الذى يأتي هؤلاء بوجـه وهؤلاء بوجه •

درج بعض الناس على التلون والسعي بين الناس بأشكال وألــوان مختلفة ، والتردد بين الافراد والجماعات بأوجه مختلفة وألفاظ متباينة ، صيغت من الخبث الدفين والمنبت الآسن • ويبذل هؤلاء أقصى ما يستطيعون من اغراء ، وكلام منمق ، وايمان مغلظة كل ذلك في سبيل افســاد العلاقات بين الناس ، واثارة كوامن الاحقاد في قلوب بعضهم على بعض ، لاسيما بين الاصدقاء والاقارب ، وقد نصبوا من أنفسهم معاول تمزيــق روابط المحبة فيما بين العباد ، ونشروا الفوضى في المجتمع •

هذه الزمرة هي شر الناس عند الله ، هؤلاء الاشرار هم المنافقــون المخادعون المفسدون في الارض ، يلبسون مع كل فريق من الناس لبوسا ، وينفثون في المجتمع سموم العداوات والاحقاد •

هم الذين أتقنوا طريق النفاق ، حيث يأتون كل طائفة بما يرضيها ، ويظهرون لها انهم معها على من سواها ، هؤلاء هم الذين نزل فيهم قول الله (مذبذبين بين ذلك لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء) •

هذه الزمرة الخبيثة القذرة قد رأت لها أذنا صاغية من ضعاف النفوس في مجتمعنا ، وأخذت توزع أكاذيبها يمنة ويسرة لبث النفرة والتباعد بين الاخوان والأصدقاء ، فضلا عن الافراد والمجتمعات المتباعدة، لانها تعلم ان الالفة قوة تشد بين أفراد الامة ، وتنشر في المجتمع التعاون والتعاضد وتزيل العقبات والمعوقات • لذلك قال سيدنا رسول الله : من كان له وجهان في الدنيا ، كان يوم القيامة انسانا من نار •

لقد درج سلفنا رضوان الله عليهم على الصراحة في القول والاخلاص في العمل ، والسعي لخير المجتمع واسعاده ، وبث روح الاخوة والمحبة بين الافراد والجماعات • وردع المفسدين ، والضرب على أيدي العابثين •

لقد كان أوائلنا يعتبرون المداهنة ذلا وصغاراً ، اذ لا خير في نفع تهدر فيه الكرامة ، وتخدش العزة الانسانية •

ان داء النفاق والمصانعة يضعف في صاحبه عناصر الرجولة والمروأة ، ويقتل فيه موهبة التحرر والتفكير ، ويضيق في وجهه أفق العيش الفسيح ، واذا سرى هذا الخلق الوضيع في أفراد الامة تفككت عرى ألفتها • وتقطعت الاواصر فيما بينها ، وأصبح ضرها أكثر من نفعها •

لقد ذكر التاريخ أن عامر بن سعيد الشعبي خرج مع ابن الاشعث على الحجاج بن يوسف الثقفي فيمن خرج • وعندما تغلب الحجاج على ابن الاشعث كان فيمن أسر من جماعته عامر الشعبي ، ولما أدخل على الحجاج ورآه قال له : وأنت أيضا يا شعبي فيمن أعان علينا وألب ، فقال الشعبي ، أصلح الله الأمير ، اني أقول فأصدق القول ، أحزن بنا المنزل ، وأحدب بنا الجناب ، واكتحلنا السهر ، واستحلسنا الخوف ، وضاق بنا البلد العريض ، فوقعنا في حرب لم نكن فيها بررة أتقياء ، فقال له الحجاج : انطلق يا شعبي فقد عفونا عنك • وهكذا أنقذه صدقه وصراحته •

لقد كان سلفنا رضوان الله عليهم يعرفون أن ذا الوجهين منافـــق ، عدو الامة الرابض في قلبها ، يضعف قوتها ، ويوقف حركتها ، ويتركهـا حيرى مما يصيبها ٠

وقد ترضى أعمال هذه الزمرة الخبيثة بعض الناس ، لان فيهـــا منفعة لهم أو متعة لنفوسهم ، كما يستميل ضعفاء النفوس الشكر الكاذب ٠

فهؤلاء لا تقل مسؤولينهم عن هذا المخاتل المرائي الذى يطمـع أن يرتفع بغير يده ، وأن ينال أجر مدحه وهذره ٠

قال رجل للمهدى الخليفة العباسي : عندى نصيحة يا أمير المؤمنين، فقال له المهدى : لمن نصيحتك هذه ؟ لنا أم لعامة المسلمين ، أم لنفسك ، فقال الرجل : لك يا أمير المؤمنين ، قال المهدي : ليس الساعي بأعظم عورة ولا أقبح حالاً ممن قبل سعايته ، ولا تخلو أن تكون حاسد نعمة فلا نشفى غيظك ، أو عدواً فلا نعاقب لك عدواً ٠ ثم أقبل على الناس فقال : لاينصح لنا ناصح الا بما فيه رضي الله وللمسلمين صلاح ٠ فانما لنا الابدان وليس لنا القلوب ، ومن أخطأ أقلنا عثرته ، فاني أرى التأديب بالصفح أبلغ منـــه بالعقوبة ، والسلامة مع العفو ، أكثر منها مع العاجلة ، والقلوب لا تبقى لوال لا يتعطف اذا استعطف ، ولا يعفو اذا قدر ، ولا يغفر اذا ظفر ، ولا يرحم اذا استرحم ٠

لقد حذر الله تبارك وتعالى من هؤلاء المخربين وبين أوصافهم بقوله : (يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم اذ يبيتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطا) ٠ وقال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : تجدون الناس معادن ، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام٠ اذا فقهوا ، وتجدون شر الناس ذو الوجهين الذى يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجـــه ٠

لقد قال قوم لعبدالله بن عمر رضي الله عنهما : انا ندخل على سلاطيننا فنقول لهم بخلاف ما نتكلم اذا خرجنا من عندهم ، فقال لهم : كنا نعد هذا نفاقا على عهد رسول الله • لان الاسلام قد حارب الكذب في جميع الاحوال ، ورغب في الصدق الذى هو منجاة للمرء في جميع الظروف والاحوال •

ذكر أن الحجاج بن يوسف الثقفي خطب يوما فأطال ، فقال رجل من الحاضرين : الصلاة فان الوقت لا ينتظرك ، والرب لا يعذرك ، فأمر بحبسه • فأتاه قومه وزعموا أنه مجنون ليخلصوه من السجن • فقال لهم الحجاج : ان أقر بالجنون أفرجت عنه ، ولما علم الرجل السجين بذلك قال : لا يسوغ لي أن أجحد نعمة الله التي أنعم بها علي ، وأثبت لنفسى صفة الجنون وقد نزهنى الله عنها ، ولما علم الحجاج صدق هذا الرجل واخلاصه في قوله خلى سبيله •

وروى عن الشيخ عبدالقادر الكيلاني رضي الله عنه أنه قال : بنيت أمرى على الصدق ، وقد كنت خرجت الى بغداد أطلب العلم ، وكانت والدتي قد أعطتني أربعين ديناراً ، وعاهدتني على الصدق • فلما وصلنا أرض همدان طلع علينا عرب فأخذوا القافلة ، فمر بي واحد منهم وقال لي : ما معك ؟ قلت : أربعون دينارا ، فظن أني أهزأ فتركنى ، فرآنى رجل آخر فقال : ما معك ؟ فاخبرته بالصدق كالاول فأخذني الى كبيرهم فسألني، فقلت : أربعون دينارا ، فقال : ما حملك على الصدق ؟ قلت : عاهدتني أمي على الصدق فأخاف أن أخون عهدها ، فصاح الرجل ومزق رداءه وقال : أنت تخاف أن تخون عهد أمك ، وأنا لا أخاف أن أخون عهد الله •

ثم أمر برد ما أخذوه من القافلة وقال : أنا تائب على يدك ، فقال من معه : أنت كبيرنا في قطع الطريق ، واليوم أنت كبيرنا في التوبة ، تبنا الى الله • وتابوا جميعا ببركة الصدق •

لقد أباح الشارع السعي بالكذب في سبيل اصلاح ذات البين ، بأن يأتي لكل من المتخاصمين بكلام من عند نفسه فيه صلاح واعتذار عن الآخر • وينقل الى كل منهما أطيب الاحاديث التي تطفىء نار الحقد حتى تؤلف بين قلبيهما • ولقد قال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليس الكذاب الذى يصلح بين الناس بقول خيراً وينمى خيرا •

أما الكذب الذى يأتيه ذو الوجهيين يريد به الافساد بين الناس ، فهو من المحرمات ، وفاعله شر الناس عند الله ، وهو من خصال المنافقين • ولقد قال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : عليكم بالصدق ، فان الصدق يهدى الى البر ، والبر يهدى الى الجنة ، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق ، حتى يكتب عند الله صديقا ، واياكم والكذب ، فان الكذب يهدى الى الفجور ، وان الفجور يهدى الى النار ، وما يزال العبد يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا • جعلنا الله من الصادقين ، وهدانا الى الحق والى الصراط المستقيم •

ليس الايمان بالتمنى

أخرج الامام البخارى في تاريخه عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ليس الايمان بالتمني • ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل ، وان قوماً غرتهم الاماني حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم ، وقالوا نحسن الظن بالله تعالى ، وكذبوا لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل •••

لقد قام هذا العالم منذ فجر التاريخ على تبادل المنافع ، وتشابك

المصالح ، والتزاحم على اسباب العيش ، وتفرق الاهواء والمنازع ، والانسان محب لنفسه ، لا يقنع ولا يشبع ، لو كان له واديان من ذهب لتمنى علـــى الله ثالثـــا .

لقد اخترع هذا الانسان انواع المهلكات والمدمرات في سبيل الغلبـة والسيطرة والاستغلال .

لذلك فرض الاسلام على المسلم أن يكون قوياً عزيزاً ، قويـــاً في روحه ، قوياً في نفسه وفي بدنه ، قويا في دينه وفي أدبه ، قويا في قصده وفي عزمه وفي عمله ، لا يرضى لنفسه المهانة والاستكانة ، لأن الله تعالى لا يقيم وزنا للمسلم المستكين الجبان ، المتخاذل المتماوت الراضي بالخذلان .

ذكر أن الحسن بن على رضي الله عنهما رآى رجلا يمشي مشـية فيها قوة وسمو ، فقال لمن حوله : أنظروا خيلاء الشباب . فسمعه عبدالله بن عباس فقال : لا يا ابن أخي ، ليست هذه خيلاء الشباب ولكنها عزة المؤمنين . ورأى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رجلا مطأطئاً رأسه فقال له : ارفع رأسك ، فان الاسلام ليس بمريض . ونظر رضي الله عنه يوماً الى رجل مظر النسك متماوت ، فخفقه بالدرة وقال : لا تمت علينا ديننـــا أماتك الله . ورأت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها رجلا يطاف به حول الكعبة وهو محمول على الاكتاف يلبي الله بصوت خافت ، فقالت : من هذا مـــن هؤلاء ؟ قالوا : هذا رجل فطر قلبه الخوف من الله ، فقالت : ان الزهد صبر وعزم وجلادة ، لا يضعف المؤمن بل يزيده قوة على قوة ، لقد كان عمر بن الخطاب أخوفنا من الله ، وكان اذا مشى أسرع ، واذا نطق أسمع . واذا ضرب في ذات الله أوجع .

أن المسلم او فتش بين أعطاف الارض وأطرافها ، فانه لايجد الجبان المؤمن ، ولا المؤمن الجبان ، وكيف يؤمن الجبان وهو أبعد ما يكون من

الصلة بالله ، والثقة به ، كيف يكون مؤمنا من اذا سمع صيحة انخلع قلبه ، وان لمح بارقاً طار لبه ، وان رأى قويا خارت قواه .

كيف يجبن المؤمن وهو قد أسلم وجهه وقلبه الى الله ، وجعل شعاره كلمة الصديق الخالدة : أطلب الموت توهب لك الحياة .

رأى سعد بن أبي وقاص فتى بين صفوف المقاتلين في القادسية يحمل سيفاً أقصر من سيوف الناس فقال له : يا ابن أخي ما بال سيفك قصيراً ؟ فقال الفتى : ياعم اني أطليه بخطوة الى الامام . فقال سعد : يا ابن أخي أكرم بها من خطوة تنيل النصر ، أو تدنى من الجنة .

يجب على المسلم أن يؤمن بقوة الروح وقوة القلب قبل أن يؤمن بقوة الجسد ، فان أقل الاشياء غناء في الشدة جسم قوى بحركة قلب فاسد وروح ضعيف .

يجب على المسلم أن يملأ الايمان قلبه ، فلا ترهبه العواصف ، ولا تبهره الزخارف ، ولا تفتنه المادة ، ولا يثقله الشك ، ولا تنهكه الشهوات. ولا تزعزعه المصائب ، ولا تزلزله النكبات . يجب على المؤمن الا تخور نفسه . ولا تضعف عزيمته لاوهى الصدمات ، بل يثبت عند العواصف والأنواء ، هو الذى يتصور أقدار الحياة ومصائبها خيراً ورحمة من الله . لأن في ذلك امتحاناً واختباراً : (ليبلوكم أيكم أحسن عملا) . ولقد قال بعض السلف : أحببت الله حباً هون على كل مصيبة ، ورضائي بكل بلية . فلا أبالي مع حبي اياه علام أصبحت وعلام أمسيت .

فليت الذى بيني وبينك عامر
وبيني وبين العالمين خراب
اذا نلت منك الود ياغاية المنى
فكل الذى فوق التراب تراب

لقد كان بلال بن رباح الحبشي يعالج سكرات الموت وهو يبتسم ويقول : وافرحتاه ، غداً القى الاحبة ، محمداً وصحبه .

نحن في حاجة الى الشجاعة والاقدام والاستهانة بكل شيء من هذه الحياة ومتعها ، لمواجهة كل مشكلة من مشكلاتنا الاجتماعية والاخلاقية والدينية .

نحن في حاجة الى الشجاعة في أقوالنا وآرائنا وأفكارنا . ومن لم تظهر عليهم آثار الايمان في التضحية والجهاد بالنفس فهم كاذبون في دعواهم الايمان . (انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون) .

وما أحوجنا الآن الى الصبر والثبات ، والنظر الى الحياة بعين الاستخفاف ، ولنعتقد اعتقاداً جازما بأن كل شيء ما خلا الله باطل ، وكل نعيم لا محالة زائل ، ولنكن كآبائنا الذين لم يجبنوا عند ملاقاة الحوادث ، ولا وهنوا ولا ضعفوا ولا استكانوا ولا جزعوا من حوادث الدهر ، ولقد استوت لديهم الحياة والممات ، ما دام ذلك في صالح الجماعات والعزة والكرامة ، ما دام ذلك في سبيل الله واعلاء كلمته ، ما دام ذلك في سبيل وطنه وأمته ، ولقد قال لقمان لابنه : يابني ان الذهب يجرب بالنار ، وان العبد الصالح يجرب بالبلاء . وان السلف الصالح كانوا يمتحنون بانواع العذاب ، وتفرى أجسامهم بأمشاط الحديد ، وكان الواحد منهم يشق نصفين ، فما يفتنه ذلك عن ايمانه ، ولا يصرفه عن دينه .

لقد حدثنا التاريخ بما لاقاه أصحاب رسول الله من عنت وجور في سبيل عقيدتهم وايمانهم ، من قتل وتعذيب وسجن وتشريد ، وهذا كله لم يفت من عزيمتهم ولم يزعزع من عقيدتهم ، بل زادهم ذلك صلابة وعزما .

ان الرجل الصحيح الايمان تتكون فيه معاني الخشـونة والصبـر واحتمال المكاره ، والخشية من الله لا من أحد سواه • كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عليه رضوان الله وفي يده الدنيا يفرقها بين الناس ، ومـع ذلك كان يشتهى الاكلة من الطعام وثمنها درهم واحد فيؤخرها سـنة كاملة لانه كان يملك نفسه لا تملكه •

وهذا عروة بن الزبير كان قد أصيب في رجله بالسرطان ، وأشـار عليه الاطباء بقطعها لئلا تفسد كل جسمه • ولما جاء الطبيب لقطعها قـال له : نسقيك خمرا حتى لا تجد لقطعها ألماً ، فقال عروة : لا أستعين بمـا حرم الله على ما أرجو من عافية ، فقالوا له نسقيك المخدر فقال : ما أحب أن أسلب عضوا من أعضائي وأنا لا أجد ألم ذلك فاحتسبه • ثم دخـل رجال أنكرهم عروة فقالوا له : ليمسكوك فان الالم ربما عزب معه الصبر • قال عروة : أرجو أن اكفيكم ذلك عن نفسي ، ثم قطع القاطع رجلـه بالسكين والمنشار وهو لا يلتفت ، ثم غشي عليه ساعة • ولما أفاق جعـل يمسح العرق عن وجهه ويحمد الله ويشكره ، ولم يسمع منه في كل هذه الآلام الشديدة أنة ولا آهة •

أيها المسلم هذا تاريخك الذى قام عليه رجال يغضبون لله ، ويرضون لله ، وينبذون هذه الدنيا اذا أدخلت الضعف الى ايمانهم ونفوسهم ، طالعوا أيها المسلمون تاريخكم وتدارسوه ، واعيدوا فصولـه من جديد • لتقولوا لابناء العالم نحن ابناء أؤلئك الآباء وانا على آثارهم مهتيدون • (اصبـروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون) •

يسروا وقاربوا وبشروا

روى الامام البخارى في صحيحه عن أبي هريرة عبدالرحمن بن صخر الدوسى رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : ان الدين يسر ، ولن يشاد الدين أحد الا غلبه ، فسددوا وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة .

ان من ينظر الى تعاليم الاسلام التي جاء بها هذا الدين يجد اليسر من جميع نواحيه ومماشاة الواقع ومسايرة الفطرة ، وتهذيب الروح في نواحيه كلها . دين كله يسر ، ليس فيه عسر ولا مشقة . وهل يوجد أيسر من كلمة الاسلام التي هي أسه وسنامه ، هل يوجد أيسر من كلمة لا اله الا الله محمد رسول الله ، التي هي مفتاح الاسلام ودعامته .

لقد أمر سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتدرج في التعليم ، واللطف في التأديب ، والتخفيف في التكليف فقال : يسروا ولا تعسروا ، وبشروا ولا تنفروا . وهذا ما كان عليه الصدر الاول من هذه الامة .

لقد كان مولانا رسول الله يختار الايسر على النفس في جميع أموره . فلقد اختار العفو على النقمة ، والتسامح على الانتقام ، والصفح على القصاص، واذا خيره ربه بين أمرين اختار أيسرهما . واذا اعتدى على ذاته الكريمة ، لا يرد الاعتداء بمثله ، ولا يجزى بالسيئة السيئة ، ولكن يعفوا ويصفح . روى الحاكم وغيره عن زيد بن سعنة عن سبب اسلامه ، حيث قال : لم يبق من علامات النبوة شيء الا وقد عرفته في وجه محمد صلى الله عليه وسلم الا اثنتين لم أخبرهما منه ، لم يسبق حلمه غضبه ، ولا تزيده شدة الجهل عليه الا حلما ، فكنت أتلطف له أخالطه لاعرف حلمه وغضبه ، فابتعت منه تمراً الى أجل ، وأعطيته الثمن ، وجئت اليه قبل حلول الاجل، فأخذت بمجامع ثوبه ، ونظرت اليه بوجه غليظ ، ثم قلت : الا تقضيني

حقي يا محمد ، فانكم والله يا بني عبدالمطلب قوم مطل ، فقال عمر وكان حاضرا : يا عدو الله ، أتقول لرسول الله ما أسمع ؟ فوا الله لو لا ما أحاذر فوته لضربت بسيفي على رأسك ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر الى عمر في سكون وتوأدة ويبتسم ويقول : انا وهو كنا أحوج الى غير هذا منك يا عمر ، فتأمرنى يحسن الاداء ، وتأمره بحسن التقاضي ، اذهب اليه يا عمر فاقضه حقه وزده عشرين صاعا مكان ما روعته ، ففعل ، فقلت : يا عمر ، كل علامات النبوة قد عرفتها في وجه محمد حين نظرت اليه ، الا اثنتين لم أخبرهما ، فقد اختبرتهما ، أشهدك أني قد رضيت الله رباً وبالاسلام ديناً وبمحمد رسولا ونبياً .

وقد كان لهذه الطريقة الحكيمة من الاثر في هداية النفوس الجامحة ، وارشاد القلوب الشاردة .

لقد بال أعرابي في المسجد بمحضر من رسول الله ، فغضب الصحابة وهموا به ، فقال صلوات الله وسلامه عليه : لا تزرموه (أي لا تقطعوا عليه بوله) ، وأمرهم بعد انتهائه أو يطهروا بالماء مكان البول وقال لهم : قربوا ولا تنفروا . ثم قال للرجل : ان هذه المساجد لا تصلح لشيء من القذر والبول والخلاء .

ولقد كان يجيء الاعرابي الى رسول الله من البادية فيسلم ، ولا يخرج من عنده الا بعد أن يتعلم ما أوجب الله وما حرم وذلك في مجلس واحد .

ومن يسر الاسلام أنه لم يقم بين المسلم وبين ربه واسطة ، وليس به حاجة الى من يمهد سبيل المعذرة له : (ان الله يغفر الذنوب جميعاً انه هو الغفور الرحيم) .

وهذه تكاليف الاسلام ما قامت فيها مشقة الا قامت بازائها رخصة ، ولا وجد عسر الا قام بازائه عذر ، ولقد قال سيدنا رسول الله صلى الله عليه

وسلم : ان الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه : (وما جعل عليكم في الدين من حرج) .

ولم يكلف الاسلام أحداً بما لا طاقة له باحتماله ، بل تخفف تكاليفه حتى تكافىء طاقة المأمور ويتسع لها ذرعه . وقد قال رسول الله : يا أيها الناس ان منكم منفرين ، فأيكم أم الناس فليوجز فان من ورائكم الكبير والصغير وذا الحاجة .

ان الواجبات التي يشق على المرء أداؤها ، اما أن تسقط عنه ويعوض عنها ببدل ، واما أن تسقط عنه موقتاً الى حين زوال العذر .

فالسقوط ببدل مثل الصوم للمريض الميؤوس من شفائه ، فانه يسقط عنه سقوطا نهائيا ولكن ببدل هو الفدية التي تصرف على الفقراء .

لقد رخص الاسلام للمريض التيمم اذا خاف المرض أو زيادته ، وأباح الصلاة له جالسا أو مضطجعاً أو ايماء على قدر المستطاع . وأباح في السفر الفطر في رمضان ، وقصر الصلاة الرباعية الى ركعتين .

فالاسلام كله يسر ولن يشاده أحد الاغلبه . ونهى عن التشدد في الدين ، وحث على القصد والتوسط في أداء التكاليف بدون افراط أو تفريط .

ولقد قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها : ما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أمرين قط الا أخذ أيسرها مالم يكن اثما ، فان كان اثما كان أبعد الناس منه .

فأخبرت بهذا من هي أعلم نساء رسول الله بآدابه ، أنه عليه الصلاة والسلام كان يختار الاسهل والايسر في كل الامور الا ما كان معصية ، فلقد خير بين الافطار والصوم في السفر والمرض فاختار الايسر . وخير بين أن يقوم نصف الليل أو ثلثه أو يزيد على النصف فاختار الاسهل .

ولقد أراد أصحابه أن يحاكوه في صوم الوصال وقيام أكثر من نصف الليل فلم يقرهم على ذلك ونهاهم عنه • ولما علم بأن عبدالله بن عمرو بن العاص قد أخذ يقوم الليل ويصوم النهار قال له : صم وافطر ، وقم ونم ، وأت أهلك •

وكان عليه الصلاة والسلام اذا خيره أهل بيته بين أمرين اختار أيسرهما ، وان استشار أصحابه ، في أى الطريق يسلك في سفرة أو غزوة، وفي أى الاماكن ينزل ، فاشاروا بأمرين اختار الايسر منهما • ولقد قال عليه الصلاة والسلام : كان أحب الاعمال الى الله أدومها وان قل •

لقد رأى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عليه رضوان الله رجلا مطأطئا رأسه ، فقال له : ارفع رأسك ، فان الاسلام ليس بمريض • ونظر يوما الى رجل مظهر النسك متماوت ، فخفقه بالدرة وقال : لاتمت علينا ديننا أماتك الله • ونظرت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها الى رجل كاد يموت تخافتاً ، فقالت : مالهذا ؟ فقالوا : أحد القراء ، قالت : قد كان عمر بن الخطاب سيد القراء ، فكان اذا قال أسمع ، واذا مشى أسرع ، واذا ضرب أوجع • وروى عنها أنها قالت : كانت عندى امرأة من بنى أسد ، فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : من هذه ؟ قلت فلانة لاتنام الليل، فذكرت من صلاتها ، فقال : عليكم بما تطيقون من الاعمال ، فان الله لايمل حتى تملوا •

وقد أوصى المصطفى صلوات الله وسلامه عليه السيدة عائشة قائلا : يا عائشة عليك بالرفق ، فان الرفق ما كان في شيء الا زانه ، ولا نزع من شيء من شانه • ودخل عليه الصلاة والسلام المسجد يوما فوجد حبلا مشدودا الى سارية من سواريه ، فقال : ما هذا ؟ فقيل له : انه لفلانة ـ أى زينب احدى زوجاته ـ وكانت بدينة وتحب الصلاة ، فهي تصلي حتى اذا تعبت تعلقت به وصلت ، فرىء الغضب في وجهه عليه الصلاة

والسلام ، وأمر بفك الحبل ، ثم قال : ليصل أحدكم وقت نشاطه . فاذا تعب فليكف فان الله لا يمل حتى تملوا .

وقد رخص عليه الصلاة والسلام لعبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام في لبس الحرير من أثر حكة كانت بهما .

ولقد درأ الاسلام الحدود بالشبهات ، كما أباح المحرمات عند الضرورة : (انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله ، فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا اثم عليه ان الله غفور رحيم) .

وروى أن أبا عبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنه لما فتح أنطاكية صلحا وكانت بلدة ذات شهرة عظيمة في التاريخ ، مناخها معتدل ، وهواؤها عذب ، كتب الى عمر بن الخطاب رضوان الله عليه يستأذنه في عدم اقامة الجيش فيها خوف أن يخلد أفراده الى الراحة ويستعذبوا الهواء . فرد عليه عمر بقوله : وأما قولك أنك لم تقم بأنطاكة لطيب هوائها ، فالله عز وجل لم يحرم الطيبات على المتقين الذين يعملون الصالحات . وقال تعالى : (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا اني بما تعملون عليم) ، وكان يجب عليك أن تريح الجنود من تعبهم ، وتدعهم يرغدون في مطعمهم، ويريحون الابدان من نصبها ، أنت الشاهد وأنا الغائب .

وقد أباح بعض الائمة ترك النص وتأويله للاخذ بالعادة ، لان العادة هي المنظور اليها . وتتغير الاحكام بتغير الازمان . وقد رأى هذا الرأى الامام أبو يوسف صاحب الامام أبي حنيفة رضي الله عنهما عندما تولى القضاء . فقد ورد في الحديث في بيع البر والشعير : البر بالبر كيلا بكيل ، والشعير بالشعير كيلا بكيل . ولكن العادة تغيرت فيما بعد . فجوز أبويوسف التعامل بهما بالوزن حسبا لعادة الجارية .

وعلى ذلك جوز بعض الأئمة اثبات أوائل الشهور العربية وخاصة شهر رمضان بالحساب الفلكي ، وقالوا بأن الحديث الشريف الذى أمر

باعتماد رؤية الهلال وحدها لاجل الصيام انما جاء معللا بعلة منصوصة وهي أن الأمة أمية لا تكتب ولا تحسب ، فاذا خرجت الامة عن أميتهـا وصارت تكتب وتحسب وأمكن الناس أن يصلوا الى اليقين والقطع في حساب أول الشهر ، وجب أن يرجعوا الى اليقين الثابت ، وأن يأخذوا في اثبات الأهلة بالحساب وحده • وأن لا يرجعوا الى الرؤية حين يستعصى عليهم العلم به •

وقال الامام نجم الدين الطوفى الحنبلي : اذا تعـارضت المصلحــة في الشريعة يتبع العوائد ، بتغيير الحكم به عند تغير العادة الى العادة المتجددة •

وقال الامام نجم الدين الطوفي الحنبلي البغدادي : اذا تعارضت المصلحة مع النص والاجماع ، وجب تقديم رعاية المصلحة عليهما بطريق التشخيص والبيان لهمـا •

وقال الامام مالك بن أنس : تحدث للناس فتاوى بقـدر ما أحدثوا • وقال الزرقاني : مراده أن يحدثوا أموراً تقتضي أصول الشريعة فيها غـير ما اقتضته قبل حدوث ذلك الامر •

وقال عمر بن عبدالعزيز : تحدث للناس اقضية على قـدر ما أحدثوا من الفجور •

لقد أمر سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث بالزام التوسط في الاعمال من غيرافراط ولاتفريط حسب الطاقة ، وان الله لايضيع أجر من أحسن عملا ، وأن يستعان بالغدوة والروحة وشـيء من الدلجة ، أي يختار أوقات النشاط التي لا يملون فيها ، كما يختار المسافـر الاوقات المناسبة لسفره ، أما أن تكون أول النهار أو بعد الزوال أو آخـر الليل ، لا أن يشغلوا جميع أوقاتهم في العبادة فتدركهم السآمة ويلحقهم الملل • فقد مثل المؤمن في هذه الحياة بالمسافر الذى يكد الى بلوغ الغاية القصوى وهي السعادة الخالدة والفوز برضا ربه • والمسافر ينبغي أن يتلمس في سـيره أوقات النشاط الذى يكسبه القوة في سيره فكأنه يقول : انكم جادون فـي

السير الى السعادة التي أعدت لكم ، فالتمسوا لمسيركم أوقات النشاط ، وأن السائر في عمل دينه هو كالمسافر يجب عليه الرفق في العبادة لتتم الرغبة والنشاط • ولقد قال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : كان أحب الاعمال الى الله أودومها وان قل •

روى أن أحد المسلمين نزل ضيفاً على أخ له ، فرأى زوجته رثة ولما سألها عن حالها قالت له : ان أخاك منصرف الى عبادة الله ، فلما جن الليل قام صاحب المنزل للصلاة فمنعه الضيف ، ولم يزل به حتى قرب الفجر فقاما معا للعبادة وقال له : ان لبدنك عليك حقا ، وان لزوجك عليك حقا • وقد قال سيدنا رسول الله : ان هذا الدين متين • فأوغل فيه برفق ، فان المنبت لا أرضا قطع ولا ظهراً أبقى • والمنبت : الذى يكلف مطيته من السير فوق طاقتها ، حتى هلكت وهو في أثناء الطريق •

يعلم من هذا أن مخالفة هذا الدين الذى جاء بكل الفضائل ، ونهى عن كل الرذائل • أن مخالفته شر مطلق • وبعد عن الخير والصلاح والسعادة في الدارين •

يجب على المسلمين ان ينتهوا عما هم فيه من شهوات فاسدة ، وعليهم ان يذكروا ان الله يأمرهم بالاقتصاد في أموالهم ، والمحافظة على أبدانهم من الافراط في الشهوات ، ويأمرهم بأن يعدوا لاعدائهم كل ما استطاعوا من قوة وبأس • وعليهم ان يذكروا هذا ، وأن يستمسكوا به لعلهم يفلحون •

نسأله تعالى أن يمن علينا برضوانه ، ويجنبنا الخذلان ، انه هو المستعان •

التراحم الاجتماعي

روى الامام مسلم بن الحجاج القشيرى في صحيحه عن أبي هريرة عبدالرحمن بن صخر الدوسي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليهم وسلم : من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة . ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة ، والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه .

جاء الاسلام وسنامه الحب والتعاون بين أبنائه حتى يتم التقارب بينهم، وينعدم التباعد ويسود التراحم والتعاطف ، والتساند والتناصر في المجتمع، ويقضى على التفاوت الكبير بين الأفراد والجماعات ، وتزول العداوات والبغضاء .

لقد جاء الاسلام بأسمى ما في الوجود من غايات ، وأشرف ما فيه من أهداف ، لذلك كان دين البشرية الخالد ، الدين الوسط الذى يلائم كل زمان ومكان ، وقد بين فيما بين بأن الناس ليسوا متساوين في متع الدنيا . ولا في حظهم من هذه الحياة ، بل منهم المجدود والموسع عليه رزقه، ومنهم من قدر عليه رزقه ، ومنهم من بسط له الجاه العريض والمكانة المرموقة والكلمة المسموعة ، ومنهم المغمور الذى لا يحس به الناس ولا ينظرون اليه بعين الاكبار . لذلك حدث الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم أن يمد هؤلاء المنعم عليهم بالمال والجاه أو العلم يد العون الى من يحتاجون اليها لتتوفر الطمأنينة ، ولتسود المحبة فيما بين الطبقات .

لقد جاء في هذا الحديث الشريف جزاء من يعين أخاً له ويفرج كربته ويزيل شدته ، لينالوا الجزاء يوم أن يكونوا في أشد الحاجة لذلك في يوم الفزع الاكبر ، يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم .

يقرر الرسول الكريم في هذا الحديث الشريف أقوم مبدأ من مبادىء التراحم الاجتماعي الذى ما ساد في مجتمع الا سادت معه جميع الفضائل الانسانية ، وانتشرت في ربوعه الاخوة البشرية ٠

من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ٠

والتنفيس هو التفريج ، والكربة هي الشدة والغم والضيق الذى يستولى على النفس ، فمن عمل على ازالة هذا عن أخيه المؤمن فسيكون جزاؤه من جنس عمله ، وسيفرج الله عنه كرب يوم القيامة ، ذلك اليوم الذى يتمنى فيه المرء أن ينصرف من موقفه ولو الى النار : (يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه) ٠ وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم في الارض سبعين ذراعا ، ويلجمهم حتى يبلغ آذانهم ٠ وبما رواه مسلم عن رسول الله : تدنو الشمس من العباد حتى تكون قدر ميل أو ميلين ، فتصهرهم الشمس ، فيكونون في العرق بقدر أعمالهم ، فمنهم من يأخذه الى عقبيه ، ومنهم من يأخذه الى ركبتيه ، ومنهم من يأخذه الى حقوبه ، ومنهم من يلجمه الجاما ٠ وما روى عن عبدالله بن مسعود : يحشر الناس يوم القيامة أعرى ما كانوا قط ، وأجوع ما كانوا قط ، وأظمأ ما كانوا قط ، وانصب ما كانوا قط ، فمن كسا لله كساه الله ، ومن أطعم لله أطعمه الله ، ومن سقى لله سقاه الله ، ومن عفا لله أعفاه الله ٠

وروى الامام الترمذى عن أبي سعيد الخدرى رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : أيما مؤمن أطعم مؤمنا على جوع أطعمه الله يوم القيامة من ثمار الجنة ، وأيما مؤمن سقى مؤمنا على ظمأ سقاه الله يوم القيامة من الرحيق المختوم ، وأيما مؤمن كسا مؤمنا على عرى كساه الله من خضر الجنان ٠

وقد قيل : ان المرء لو قايس بين كربه في ذلك اليوم الرهيب وبين كرب المحتاج في الدنيا الى القليل من العون يسد به حاجته ويفرج ضائقته ، وحاجته هو الى رحمة الله وغفرانه ، لعرف أنه هو الرابح الفائز • كما أن ذلك يعود على المجتمع بالخير والنفع العميم ، ويزيل الاحسن والاحقاد ، ويوطد العلاقات بين الافراد ، ويقيم صلاتهم على المحبة والوئام •

ثم يقول عليه الصلاة والسلام : ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة •

العسر : هو الضيق والشدة ، والتيسير عليه انظاره ان كان مدينا الى وقت ميسرته : (وان كان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة) ، أو يوضع جزء من الدين أو بابرائه منه ، ويكون ذلك صدقة منه : (وان تصدقوا خير لكم ان كنتم تعلمون) • وقد قال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : من أنظر معسراً أو وضع عنه أظله الله في ظله يوم لا ظل الا ظله •

والتيسير على المعسر يكون في جميع الاعمال التي يحتاج اليها من مال وجاه وشفاعة • وقد قال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : من سره أن ينجيه الله من كرب يوم القيامة فلينفس عن معسر أو يضع عنه•••وقال: من أراد أو تستجاب دعوته ، وتكشف كربته ، فليفرج عن معسر •• وورد عنه صلوات الله وسلامه عليه أنه قال : كان تاجر يداين الناس ، فاذا رأى معسراً قال لصبيانه تجاوزوا عنه لعل الله أن يتجاوز عنا ، فتجاوز الله عنه •• وروى عنه أنه قال : مات رجل فقيل له بماذا غفر الله لك ، فقال : كنت أبايع الناس ، فأتجاوز عن المعسر ، وأخفف عن الموسر • وجواباً على ذلك يقول الله كما في الحديث الصحيح : نحن احق بذلك منه تجاوزاً عنه •

ثم يقول عليه الصلاة والسلام : ومن ستر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة •

أي من ستر عيوب أخيه المسلم ولم يفضحه ستر الله تعالى عورته عن

الناس في الدنيا والآخرة • ومن كشف ستر أخيه وشنع عليه كشف الله ستره •• وقد ورد عنه صلوات الله وسلامه عليه أنه قال : من ستر عورة أخيه المسلم ستر الله عورته يوم القيامة ، ومن كشف عورة أخيه المسلم ، كشف الله عورته حتى يفضحه بها في بيته •• وورد عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : يا معشر من أمن بلسانه ولم يدخل الايمان في قلبه لاتغتابوا المسلمين ، ولا تتبعوا عوراتهم ، فان من تتبع عوراتهم تتبع الله عورته ، ومن تتبع الله عورته يفضحه في بيته •

وقد قيل[1] : ستر العيوب من الحياء والكرم ، وفيه التخلق بأخلاق الله ، والله يحب التخلق بأخلاقه ، وهو مقيد للامم والافراد ، لأن الامة التي يمكنها أن تظهر بمظهر الكمال ، وان تتفادى اثارة العيوب والنقائص في وجهها ، تستطيع أن تتبوأ مكانه عظيمة بين الامم ، لأن الفرد المستور العيب يستطيع أن يعيش مكرماً بين الناس ، فضلا عما يكون بينه وبين من يستر عليه عيبه من الفة ومودة وتراحم •

وقيل ان الناس في ذلك على ضربين :

أحدهما : من كان مستوراً لا يعرف بشيء من المعاصي ، فاذا وقعت منه هفوة أو زلة ، فانه لا يجوز هتكها ولا كشفها ولا التحدث بها ، وهذا هو الذى ورد فيه مثل قوله تعالى : (ان الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب اليم في الدنيا والآخرة) • وذلك اشاعة الفاحشة على المؤمن فيما وقع منه واتهم به مما هو برىء منه ، وقد قال سيدنا رسول الله : أقيلوا ذوى الهيئات عثراتهم • ولهذا قيل : لا يعزر ذو الهيئة على هفوة أو زلة صدرت منه • وقد قال بعض الوزراء الصالحين لبعض عن يأمر بالمعروف : اجتهد أن تستر العصاة ، فان ظهور معاصيهم عيب في أهل الاسلام ، وأولي الامور ستر العيوب •

---

(١) لواء الاسلام •

أما من كان مشتهراً بالمعاصي معلنا بها . لا يستحي ولا يخجل ، فهذا يجب اظهار حاله للناس أو التشهير به حتى يتقوه ، أو رفع أمره الى الحاكم حتى يقيم عليه الواجب من العقوبة .

ثم يقول صلوات الله وسلامه عليه : والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه .

يخبر مولانا رسول الله بأن عون الله محقق لمن أعان أخاه وقضى حوائجه ، وهذه الاعانة مطلقة في سائر الاحوال والازمان ، ودائمة بدوام عون العبد لأخيه . وقد قال عليه الصلاة والسلام : أفضل الاعمال ادخال السرور على المؤمن ، كسوت عورته ، أو أشبعت جوعته ، أو قضيت له حاجته .

وقد ورد عن أنس بن مالك أنه قال : كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في السفر فمنا الصائم ومنا المفطر، ثم قال : فنز لنا منزلا في يوم حار.أكثرنا ظلا صاحب الكساء ، ومنا من يتقي الشمس بيده ، قال فسقط الصوام . وقام المفطرون وضربوا الأبنية، وسقوا الركائب،فقال رسول الله : ذهب المفطرون اليوم بالأجر .

وخرج الامام أحمد بن حنبل من حديث بنت الخباب بن الأرت قالت: خرج خباب في سرية ، فكان النبي صلى الله عليه وسلم يتعاهدنا حتى يحلب عنزة لنا في جفنة لنا فتمتلىء حتى تفيض ، فلما قدم خباب حلبها فعاد حلابها الى ما كان .

وهذا أبو بكر الصديق رضوان الله عليه كان يحلب للحي أغنامهم (لأن العرب كانوا يستقبحون أو تحلب النساء ، فلما استخلف قالت جارية لامها : من يحلب لنا الآن ؟ فلما سمعها أبو بكر قال : انى لارجو الا يغيرنى ما دخلت فيه عن شيء كنت أفعله . واستمر بحلب لهم .

وهذا عمر بن الخطاب رضوان الله عليه كان يتعاهد عجوزاً عمياء يخرج عنها الاذى ويصلح حالها ويقدم لها حوائجها ، وقد رآه طلحة بن عبيد الله في أحد الايام داخلا بيت امرأة ليلا ، فدخلها نهارا . فاذا هي امرأة عجوز عيماء مقعدة، فقال لها: ما يصنع هذا الرجل عندك؟ فقالت له: منذ كذا يتعاهدني بما يقوم بي من البر ، وما يصلح لي شأني . فقال طلحة لنفسه : ثكلتك أمك يا طلحة ، أعورات عمر تتبع .

ولقد كان عبدالله بن عمر رضي الله عنهما اذا سافر اشترط على أصحابه أن يقوم هو بخدمتهم رغبة في اعانتهم لينال عون الله .

ونختم شرح هذا الحديث الشريف بكلمة لاحد الافاضل : هذا هو الاسلام يبين الطريقة المثلى للتراحم الاجتماعي ، وبرسم الخطوط الحكيمة السليمة للتآخي بين الناس،والتآلف بين قلوبهم فمن كان مخلصا للانسانية، عطوفاً عليها ، مبتغيا لخيرها وسعادتها ، فليأخذ بتعاليم الاسلام وليعتنق مباده، وليدع الى التحلي بفضائله .

واما اولئك الذين يظهرون للناس في صورة الآدمين ، وينطوون على أنفسهم على غرار الوحوش ونفسيات الشياطين ، فهؤلاء نرجو أن ينجي الله الانسانية منهم ، وأن يقي العالم شر أفاعيلهم . انه سميع مجيب .

الجندي المجهول

روى الامام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة عبدالرحمن بن صخر الدوسي رضي الله عنه أنه قال : تعس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة ، ان أعطي رضي ، وان لم يعط سخط ، تعس وانتكس واذا شيك فلا انتقش ، طوبى لعبد آخذ بعان فرسه في سبيل الله ، أشعث رأسه ،

الغبرة قدماه ، ان كان في الحراسة كان في الحراسة ، وان كان في الساقة كان في الساقة ان استأذن لم يؤذن له وان شفع لم يشفع .

حديث عظيم ، وضع موازين لاقدار الرجال ، وأنزل كل انسان على مقدار عمله لأمته ودينه وكرامته . وضع الفارق العظيم بين انسان لا تهمه الا نفسه ونفسه فقط . وبين من نذر نفسه لأمته واعزاز دينه ، لا يبغى بهما بديلا ، ولا يريد جزاء ولا شكورا .

بين عليه الصلاة والسلام في هذا الحديث ، أن من الناس من يصرف همه ومسعاه للمال وجمعه . متهافتاً عليه كتهافت الذباب على الاوساخ ، وقد استرقته الشهوة والمطامع والملذات واستعبده المال ، غير ملتفت الى شرف أو خلق أو كرامة أو دين .

لقد حارب الاسلام المبدأ الذى يعتبر المال غاية لمنع الاسراف في تحصيله وادخاره ، وان أكثر ما تنشأ العداوة بين الناس تكون بسبب حب المال واعتباره غاية ، لذلك اعتبره وسيلة الى استيفاء الحاجات الضرورية للافراد والجماعات في جميع نواحي الحياة ، وما زاد منه على قدر الحاجة فهو أمانة تحت يد صاحبه يوجهه لخير الصالح العام .

المال ليس خيرا لذاته فلا يصح أن يعبد ، وليس شراً في ذاته حتى يفر منه الانسان ، فقد يأتي بالخير ان أنفق على طريق الخير ، وقد يجلب الشر ان كنز أو أنفق على الشهوات ، فهو سبيل للاصلاح في يد الكريم ، ووسيلة الدمار في حوزة الشحيح اللئيم .

لقد أعمت فتنة حب الدينار والدرهم كثيراً من الناس ، فشغلتهم عن حقوق الله وحقوق أمتهم وأوطانهم ، ومنهم من يثلم شرفه لأجل ذلك .

ووجد بين الناس من وضع هذه الفانيات وراء ظهره ، واندفع يبغي شرف الحياة والممات ، لا يبغي الا الدفاع عن دينه ووطنه وأمجاده ، وآثر على شهواته اعلاء كلمة دينه .

هؤلاء الناس كما وصفهم الحديث ، أن فرض عليهم أن يكونوا حراسا وحفاظا على من وراءهم من المجاهدين ، تلقوا ذلك فرحين مستبشرين ، وسدوا بصدورهم ثغور المخاوف والمخاطر ثابتين راسخين ، وان أمروا أن يكونوا في أخريات الناس وساقتهم ، صدعوا لامر اخوانهم المؤمنين راضين مذعنين ، لايكاد أحدهم يعرف مكانه ولا يقدو غير الله منزلته وقدره ، ان استأذن على ذوى السلطان لم يعرف فيؤذن له ، وان شفع لاحد عند ذوى المكانة لم يشفع ، لانه لا ينبيء عنه رواء ولا مظهر ، ولا يتحدث عنه رونق ولا منظر .

فالعبد بين هذين الفريقين بعيد ، فالذين فتحوا الفتوح ومصروا الامصار وسدوا الثغور ، واذلوا المشركين كالذين غرتهم الدنيا ، وأذلهم الطمع واستبعدهم المال ، وغرقوا في الشهوات ، ولم يفكروا الا في أنفسهم .

روى التاريخ أن المسلمين في غزوهم لسجستان في عهد عبدالملك بن مروان صالحهم ملكها (رتبيل الثاني) على الجزية ، فلما كانت أيام يزيد بن عبدالملك لم يعط عماله شيئا ، وقال : ما فعل قوم كانوا يأتوننا خماص البطون ، سود الوجوه من الصلاة ، نعالهم خوص ، فقالوا له : اتقرضوا ، فقال : أولئك أوفى منكم عهداً، وأسد بأساء وان كنتم أحسن منهم وجوها.

لقد جارى الاسلام الطبائع البشرية في تحصيل المال واستثماره الا أنه عمد الى هذه الطبائع فهذبها بما لم يعهد في الاديان الاخرى ، لانه أوجب على الفرد أن ينظر الى المجتمع الذى يحيط به ، وان يجعل من الدينار والدرهم اللذين في يديه قوة وهناء للمجموع .

روى أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضوان الله عليه أخذ أربعمائة دينار فجعلها في صرة وقال لغلام له اذهب بها الى أبي عبيدة بن الجراح ، وتله ساعة في البيت حتى تنظر ما يصنع ، فذهب الغلام وسلم الصرة الى أبي عبيدة وقال له : يقول لك أمير المؤمنين اجعل هذه في بعض حاجتك ،

فقال أبو عبيدة : وصله الله ورحمه ، ثم قال : تعالى يا جارية ، اذهبي بهذه السبعة الى فلان ، وبهذه الخمسة الى فلان ، وبهذه الخمسة الى فلان ، حتى انفذها كلها ، فرجع الغلام الى عمر فأخبره ، فوجده قد اعد مثلها لمعاذ بن جبل فقال : اذهب بها الى معاذ بن جبل ، وتله في البيت ساعة حتى تنظر ما يصنع ، فذهب اليه وقال له : يقول لك أمير المؤمنين اجعل هذه في بعض حاجتك ، فقال : رحمه الله ووصله ، تعالى يا جارية ، اذهبي الى بيت فلان بكذا ، وبيت فلان بكذا ، فأشرفت عليه امرأته وقالت : ونحن والله مساكين فاعطنا ، ولم يبق في الخرقة الا ديناران فدفعهما اليها ، فرجع الغلام الى عمر فأخبره بذلك فقال عمر : انهم اخوة بعضهم من بعض .

ولقد كان حكيم بن حزام يحج فيهدى ألف بدنة وألف شاة ، ووقف بعرفة ومعه مائة وصيف في أعناقهم أطواق من الفضة منقوش فيها : عتقاء لله عن حكيم بن حزام . ولقد باع دار الندوة التي كانت بيده بمائة ألف درهم وتصدق بها وقال : اشتريت بها داراً في الجنة .

قال الحسن البصري : والله لقد أدركت أقواما كانت الدنيا أهون عليهم من التراب الذى تمشون عليه ، لا يبالون أشرقت الدنيا أم غربت ذهبت الى ذا أو ذهبت الى ذا .

وانما خص العبد بالذكر في الحديث الشريف ليؤذن بانغماسه في محبة الدنيا وشهواتها كما قال الطيبي ، فهو كالاسير الذى لا يجد خلاصا ، ولم يقل مالك الدنيا ولا جامع الدنيا مثلا . لأن المذموم ليس مجرد الملك والجمع ، وانما المذموم التهالك على ذلك حتى يكون المرء كل همه مجرد الجمع .

وليس مراد النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : وعبد القطيفة والخميصة ، هذين الثوبين بالذات ، بل المقصود كل ما كان من مظاهر

الدنيا وزينتها مما يستهوى النفوس الضعيفة حتى يسترقها في سبيل الحصول عليه •

وكرر عليه الصلاة والسلام كلمة (عبد) مع كل واحدة ، لأن هذا الشخص لشدة تعلقه وتهالكه على الدنيا كأنه عبد لكل شيء من وسائلها ، فهو مبالغة في ذمه وحرصه •

لقد برهن الرسول الكريم على عبودية هذا الشخص للدنيا وزينتها بقوله : ان أعطى منها رضي وان لم يعط سخط • يعنى ان أعطاه الله مالا رضي عن خالقه • وان لم يعطه لم يرض بما قدر له ، لانه ذهب عنه معبوده فلا يهمه رضاء الله عنه برضائه بالقضاء والقدر •

ثم يصف الحديث هذا العابد للمال بأنه اذا شيك فلا انتقش ، اى اذا دخلت فيه شوكة فلا يجد من يخرجها بالمنقاش ، لانه أصبح عاجزا عن الحركة ، وقد خص انتقاش الشوكة بالذكر ـ كما قيل ـ لانه أسهل ما يتصور من المعاونة لمن أصابه مكروه • فاذا انتفى الاسهل انتفى ما فوقه بطريق الاولى •

وبعد أن بين عليه الصلاة والسلام صفة عابد المال الذى لا يهمه الا جمعه وادخاره ، درج على من قصر حياته لخدمة دينه ومجتمعه ووطنه فقال : طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله ، فهو متأهب مستعد لخوض غمار الحرب ، آخذ بجميع الوسائل التي تعين على الغلبة ، منصرف عن كل شيء في سبيل ذلك ، وقد أهمل نفسه حتى أصبح أشعث رأسه ، مغبرة قدماه ، لا يهمه أن يكون في الساقة أو في المؤخرة ، لا يقصد السمو والمباهاة • جاء أعرابي الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : أود أن أهاجر معك ، فأوصى به النبي بعض أصحابه ، ثم كانت غزوة غنم فيها النبي شيئا فقسم وقسم له • فقال الاعرابي : ما هذا ؟ قال : ما على هذا اتبعتك يا رسول الله • ولكن اتبعتك على أن أرمي الى ههنا بسهم ـ وأشار الى حلقه ـ

فأموت فأدخل الجنة ، فأجابه رسول الله : ان تصدق الله يصدقك . فلبثوا قليلا ثم نهضوا في قتال العدو ، فأتى به النبي محمولا قد أصابه سهم حيث أشار ، فقال النبي أهو هو ؟ قالوا : نعم ، قال : صدق الله فصدقه ، ثم كفن في جبة النبي ، ثم قدمه فصلى عليه وقال في دعائه : اللهم هذا عبدك خرج مهاجرا في سبيلك فقتل شهيداً وأنا شهيد على ذلك .

وعندما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في احدى غزواته قال لاصحابه : والذى نفس محمد بيده لايقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلا غير مدبر الا أدخله الله الجنة ، فسمعه عمير بن الحمام وكان بيده تمرات يأكلها ، فنادى بخ بخ ما بيني وبين أن أدخل الجنة الا أن يقتلني هؤلاء . ثم قذف التمرات من يده وأخذ سيفه وقاتل حتى قتل .

ولما كانت وقعة اليرموك وكان فيها عكرمة بن أبي جهل ، فرأى عكرمة أن جبهة المسلمين قد أخذت تتأخر وتتزعزع ، فصاح بشباب العرب: من يبايعني على الموت ؟ فتقدم جماعة من الفدائيين الذين أعاروا الله جماجمهم ، فهاجم بهم قلب جيش الروم حتى أصبحوا خلفه ، واخذوا يضربون الجيش من الخلف حتى زعزعوا أركانه ، والحقوا به الهزيمة ، واسفرت المعركة عن انتصار المسلمين ، الا أن هؤلاء الفدائيين قد استشهدوا وفيهم عكرمة .

وهذا عقبة بن نافع يقف على ساحل البحر الاطلسي وقد غارت قوائم جواده في لجة الخضم وقد أنشد قائلا : اللهم رب محمد لولا هذا البحر لفتحت الدنيا في سبيل اعلاء كلمتك ، اللهم اشهد .

وانما خص الحديث الشريف هذا الجندى المجهول دون أشباهه من المجاهدين فقد قيل ان ذلك أبلغ في الايثار وانكار الذات ، والتسامي الى ارادة وجه الله وحده بالاعمال الصالحات ، لأنه مجهول بين المجاهدين ، ان استأذن على الامير لم يؤذن له ، وان شفع لديه لم تقبل شفاعته ، وانما

قصد بجهاده اعلاء كلمة الله ، لا يبغي شهرة أو رياسة أو نحوها من الامور التي تطمح فيها النفس المغرورة ، بل يقوم بواجبه في أي موضع بوضع فيه ، ولا يسعى الى رؤسائه ، فهو لا يعرفهم ولا يعرفونه ، ولا يقترب اليهم ولا يقربونه .

ذكر في التاريخ ان المسلمين قد حاصروا حصناً من حصون الروم بقيادة الامير مسلمة بن عبدالملك الاموى ، ولما طال الحصار ندب الناس الى نقب في ذلك الحصن لفتح الابواب فتسلل الى ذلك النقب رجل من عامة الجيش وقاتل الحراس حتى فتح الابواب ودخل الجيش ذلك الحصن ثم أمر مسلمة منادياً فنادى على صاحب النقب ، فما جاءه أحد ، ثم نادى المنادى بأن الامير قد عزم على صاحب النقب الا جاءه ، فجاء رجل وقال للآذن : استأذن لي على الامير ، فقال له : أأنت صاحب النقب ؟ قال : أنا أخبركم عنه ، ولما دخل على مسلمة قال له : ان صاحب النقب يأخذ عليكم ثلاثاً ، الا تسودوا اسمه في صحيفة الخليفة . والا تأمروا له بشيء ولا تسألوه من هو ، فقال له مسلمة : فذلك له ، قال الرجل : أنا هو ، ثم عاد مسرعا .

فكان مسلمة لا يصلي بعدها صلاة الا قال : اللهم اجعلني مع صاحب النقب .

لقد دل هذا الحديث الشريف على ذم التكالب على طلب الدنيا وزينتها ، وان المتهالك في حرصه عليها سيكون محل سخط الله ، كما يجب على المرء الرضا بما قدره الله وقضاه ، ففيه راحة للنفس وطمأنينة للقلب .

كما فيه مدح للمجاهد الذى لا يبغي بجهاده سوى وجه الله واعلاء كلمته ، لا يبغي من أحد جزاء ولا شكورا .

البر والاثم

روى الامام مسلم بن الحجاج القشيرى في صحيحه عن النواس بن سمعان الانصارى أنه قال : سألت رسول اللهصلىاللهعليهوسلم عن البروالاثم، فقال : البر حسن الخلق ، والاثم ماحاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس •

وروى الامام أحمد بن حنبل عن وابصة بن سعيد الاسدي أنه قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أريد أن لا أدع شيئا من البر والاثم الا سألته عنه ، فقال لي : أدن ياوابصة ، فدنوت منه حتى مست ركبتي ركبته ، فقال : ياوابصة أخبرك ما جئت تسأل عنه وتسألني ؟ قلت: يا رسول الله أخبرني ، قال : جئت تسأل عن البر والاثم ، فقلت : نعم ، فجمع أصابعه الثلاثة ، فجعل ينكت بها في صدرى ويقول : يا وابصة استفت قلبك ، البر ما اطمأنت اليه النفس ، واطمأن اليه القلب ، والاثم ما حاك في النفس ، وتردد في الصدر وان أفتاك الناس وأفتوك •

هذا من جوامع الكلم التي أوتيها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد جمع في هذين الحديثين أو الحديث الواحد الذى جاء الثاني موضحا له • جميع أنواع البر بكلمة مختصرة : حسن الخلق ، ثم أوضحها بقوله : ما اطمأنت اليه النفس •

ان جميع خصال البر وكل أفعال الخير تجتمع في حسن الخلق ، وهو كما قيل ، طلاقة المحيا ، وكف الأذى ، وبذل الندى ، ومراعاة الادب مع الخلق ، وقال أحد العلماء : حسن الخلق مع الله صدق العبد في العبودية ، بألا يجدك مولاك حيث نهاك ، ولا يفقدك حيث أمرك ، ومع العباد حسن العشرة والصحبة ، فلا اعتداء ولا خيانة •

لقد جاء في تفسير قول الله تعالى : (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون) .

ان هذه الآية قد اشتملت على جميع فعال الخير وصفات الكمال ، وقالوا ان البر يرجع الى ثلاثة أمور : صحة الاعتقاد ، وتهذيب النفس ، وحسن المعاملة مع العباد ، وهذه تشتمل على خمس عشرة خصلة .

فخمسة منها وردت في صحة الاعتقاد في قوله تعالى : (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين) . وهذا هو مبدأ الخير ، وأسس كل فضيلة . هو الذي بصير الانسان خيراً ، يفعل الخير لذاته ، ابتغاء مرضاة الله وامتثالا لأمره .

وستة منها تتعلق بالكمالات النفسية التي هي حسن المعاملة مع العباد ، وقد جمعها قوله تعالى : (وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب) . وبهذا يطالب المرء بالبذل وأن يتبادل مع أجزاء مجتمعه ما يحفظها ويعود عليها بالخير والبركة ، ولم يقبل الله الانفاق ولم يجعله براً الا حيث يكون المال المبذول محبوباً .

ثم تأتي الاربعة الباقية بالكمالات الانسانية التي هي تهذيب النفس . وأشار اليها تعالى بقوله : (وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس) وبذلك تطهر النفس من المساوى والادران .

قال الطيبي : فسر البر في حديث آخر بما يقربك الى الله تعالى من قول وصمت وفعل وترك •

وقيل : البر هو طلاقة الوجه ، وكف الاذى ، وبذل القرى ، وأن يحب للناس ما يحب لنفسه ، والانصاف في المعاملة ، والرفق في المجادلة ، والعدل في الأحكام ، والاحسان في اليسر ، والايثار في العسر ، وحسن الصحبة ، ولين الجانب ، واحتمال الاذى واجتناب المحرمات • ولقد كان عبدالله بن عمر رضي الله عنهما يقول : البر شيء هين ، وجه طلق وكلام لين •

وقد يكون المراد بالبر معاملة الخلق بالاحسان في قوله تعالى : (وتعاونوا على البر والتقوى) • كما يكون المراد بالتقوى هو معاملة الحق بفعل طاعته واجتناب محرماته •

وبعد أن بين عليه الصلاة والسلام البر ومستلزماته عقبة بذكر الاثم ونزواته ، فذكر أنه ماحاك في نفسك ، أى أثر فيها وأوجد ضيقا ونفوراً كما قال عبدالله بن مسعود : اياكم وحزائز القلوب، وما حز في القلب فدعه• لان العمل القبيح يحز في القلوب ويؤثر فيها • فالقلب الذى دخله نور الايمان وانشرح به وانفسح سكن للحق واطمأن به وتقبله ، وينفر عن الباطل ويكرهه •

وقد قيل ان النفس لها شعور من أصل الفطرة بما تحمد عاقبته وتندم نهايته ، ولكن غلبت عليها الشهوة حتى أوجبت لها الاقدام على ما يضرها ، كما غلبت على السارق والزاني مثلا فأوجبت لها الحد ، ووجه كون كراهة اطلاع الناس على الشيء يدل على أنه اثم • ان النفس بطبعها تحب اطلاع الناس على خيرها وبرها وتكره ضد ذلك ، ومن ثم أهلك الرياء أكثر الناس ، فبكراهتها اطلاع الناس على فعلها يعلم أنه شر واثم •

روى عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أنه قد قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أرأيت شيئاً يحيك في صدورنا ، لا ندرى حلال هو أم حرام ؟ فقال : اياكم والحكاكات فانهن الاثم ، أو هو الذى يؤثر في القلب ضيقا وحرجا ونفوراً وكراهة •

وروى عن وائلة بن الاسقع أنه قال : قلت للنبي صلى الله عليه وسلم: افتنى عن أمر لاأسأل عنه أحداً بعدك • قال : استفت نفسك • قلت : كيف لى بذلك ؟ قال:تدع ما بريبك الى ما لايريبك وان أفتاك المفتون، قلت: كيف بذلك ؟ قال : تضع يدك على قلبك ، فان الفؤاد ليسكن للحلال ولا يسكن للحرام •

وقد قيل ان للاثم علامتين ، احدهما : باطنة ، وهي قلق النفس وترددها وعدم اطمئنانها عند الاقدام على الخطيئة ، فالسعيد حينئذ يكف ويقلع ويتوب ، والشقي يتمادى ويتعادى ويتغاضى عن شر يسير عليه ، وسوء ما يصير اليه ، ثانيهما : ظاهرة • وهي ذم الاشراف العدول لافعال أخساء العقول الذين فسدت طبائعهم وزين لهم سوء أعمالهم ، وغلبت عليهم شقوتهم ، وانقادوا لشهوتهم •

ان ماحاك في صدر الانسان بأنه اثم فهو اثم وان افتاه المفتون بخلاف ذلك وجعلوا فيه رخصة وجوازاً، وهذا انما يكون اذا كان صاحبه ممن شرح صدره للايمان ، وكان المفتي يفتى له بمجرد ظن أو ميل الى هوى من غير دليل شرعي ، فأما ما كان مع المفتى به دليل شرعي فالواجب على المستفتى الرجوع اليه وان لم ينشرح له صدره •

قال الامام الغزالي : وما وقع الشك فيه استفتي فيه القلب • ثم يقول فالمفتي يفتى بالظن ، وعلى المستفتى ان يستفتى قلبه ، فان حاك في صدره

شيء فهو الاثم بينه وبين الله ، فلا ينجيه في الآخرة فتوى ، فانه يفتى بالظاهر والله يتولى السائر .

روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : اذا سمعتم الحديث عني تعرفه قلوبكم وتلين له أبشاركم ، وترون أنه منكم قريب ، فأنا أولاكم به ، فاذا سمعتم الحديث عني تنكره قلوبكم وتنفر أشعاركم وأبشاركم ، وترون أنه منكم بعيد ، فأنا أبعدكم منه .

ويستفاد من هذا الحديث كما قيل ، ان قلب الانسان المجرد من الاهواء والاغراض والامراض ، مفطور على معرفة الحق وتقبله والاطمئنان اليه ، وهو ينفر من الباطل ويضيق به ، ولعل هذا هو السر في أن الاسلام يسمى الشيء الطيب الذي يحبه ويدعو اليه معروفاً ، ويسمى الشيء الخبيث الذي ينهى عنه منكرا .

وفقنا الله لعمل البر والخير ، وباعد بيننا وبين الاثم والمنكر ، انه سميع مجيب .

◇◇◇◇◇◇◇◇◇◇◇◇

الاسرة ومكانتها في الاسلام

روى الامام البخاري في صحيحه عن انس بن مالك رضي الله عنه انه قال : جاء ثلاثة رهط الى بيوت ازواج النبي صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادته عليه الصلاة والسلام ، فلما اخبروا كأنهم تقالوها ـ اعتبروها قليلة ـ وقالوا :

واين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، فقال أحدهم : اما انا فاني اصلي الليل ابدا ، وقال

آخر : انا أصوم الدهر ولا أفطر ، وقال آخر : انا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا . فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : انتم قلتم كذا وكذا ، أما والله انى لاخشاكم لله واتقاكم له ، لكنى أصوم وأفطر واصلي وارقد وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني .

جاءت تعاليم الاسلام وهدفها الاول والآخر هو اسعاد المجتمع الانساني ، وايجاد تعاليم تربط بين بني الانسان وتنظم شؤونهم حسب مصلحتهم ، وتتمشى مع الفطرة السليمة والخلق القويم . وكان من اوائلها الاسرة التي هي دعامة المجتمع ، ورابطة الحب والتعاون ، بل هي التي تربط الفرد باسرتين عامتين ، اسرة عمومته ، واسرة خئولته . وتتضامن معه طائفتان كبيرتان في الحقوق والواجبات ، فضلا عن انتمائه الى اسرته الخاصة المؤلفة من الابوين وأولادهما .

وقد كانت الاسرة عند العرب تضم جميع الاقارب ، فتبتدىء بالفصيلة ويليها الفخذ ثم البطن ويليها العمارة ، ومنها الى القبيلة ثم الشعب .

لقد دعا الاسلام الى تكوين الاسرة ورغب فيها وهيأها للعباد لتستقر الحياة وتصفو من اكدارها ، وهي أصل من أصول الحياة البشرية ، وأساس البناء الاجتماعي ، بل هي أول حلقة من حلقات السلسلة الانسانية ، وأصل طبيعي لحفظ الانواع ، والانسان مفتقر اليها في مراحل عمره ، اذ المتأمل في هذا الكون كما قيل ، يرى ان الله عز وجل قد جعل لتحقيق هذا المرمى العمراني عوامل من ضروب شتى . ومن أولها الالفة والحنان الذى طبع قلب الابوين عليه لتربية ما ينتج من تزاوجهما من النابتة وصفة الالفة والحنان ملازمتان لجميع الكائنات الحية ، لم يختص بهما الانسان دون الحيوان .

لقد بلغ الاسلام بالاسرة ارقى ما يمكن ان تصل اليه ، وبنى الامة برباط التماسك بحيث لا تقوى على هدمه العوامل ، لقد بناها على حقوق وواجبات طبيعية مقررة متبادلة بين الرجل والمراة وأولادهما .

فالاسرة في الاسلام ـ كما قال احد الافاضل ـ اشبه بمحكمة دستورية يخضع كل من فيها لنظام عام مقرر ، ولكل فرد منها حقوق وعليه تبعات موزعه على أفرادها بنسبة طبيعية محكمة بحيث لا يعدو بعضها على بعض ليتالف من كل أسرة جزئية وحدة كلية عامة بنيت على مثالها وهي الامة.

وقد ذكر بانها العامل الوحيد للحضانة المقصودة في المراحل الأولى للطفولة ولا تستطيع اية مؤسسة عامة أن تسد مسد المنزل في هذه الشؤون، ولا يقصد من دور الحضانة أو الكفالة التي تنشئها الدولة والهيئات لايواء الاطفال في مراحلهم الاولى الا تدارك الحالات التي يحرم فيها الطفل من الأسرة ، أو تحول فيها ظروف قاهرة بين الاسرة وقيامها بهذه الوظيفة .

وعلى الاسرة يقع قسط كبير من واجب التربية الخلقية والوجدانية والدينية في جميع مراحل الطفولة ، بل في المراحل التالية لها كذلك .

ويفضل الحياة في الاسرة يتكون لدى الفرد الروح العائلي والعواطف الاسرية المختلفة ، وتنشأ الاتجاهات الاولى للحياة الاجتماعية المنتظمة . فالاسرة هي التي تجعل من الطفل حيوانا مدنيا ، وتزوده بالعواطف والاتجاهات اللازمة للحياة في المجتمع والبيت .

فاذا حرم الانسان النشأة في اسرة امتد الخلل الى آفاق حياته ، وأحس بالضماء الى رحيق الحنان والالفة ، وبالشوق الى أن تظله اسرة . ومما يدل على أن الاسرة ضرورة لا يمكن التحول عنها . فهي التي تمنح الانسان خصائص سامية ، وصفات نبيلة ، من الايثار والتحمل والتضحية والفداء . وهي التي تعلم الانسان كيف يعمل للجماعة ، وكيف يكد

ويبذل دون أن يرجو فائدة ، أو ينتظر منفعة ، وكيف ينكر نفسه ويتذكر الآخرين ، وكيف تجمع افرادها على الحب ، وتؤلف بين قلوبهم على الخير والتعاون على البر والتقوى .

وان من أول دعائم الاسرة هو الزواج الذى تتفرع منه الاسرة، وتتكون المجتمعات ، وتتفرع الامم والشعوب .

وقد ذكر العلماء الشيء الكثير عن حكمة مشروعية الزواج ، لأن الله تعالى قد خلق الانسان في هذه الدنيا ليعمرها ، وسخر له كل شيء ليحفظ النوع الانساني حتى نهاية هذه الحياة ، فلهذا كان عمار الكون متوقفا على وجود الانسان ، ووجوده متوقف على شرعية الزواج اذ به يكون التناسل ، وترتبط الاسر برباط من المودة والرحمة ، وتنظم شؤون التعايش .

والانسان لا يستقيم له حال ولا يهدأ له بال الا اذا انتظمت أحوال بيته ، وحسن تدبير عشه الذى يأوى اليه . ولا يكون ذلك الا بوجود شريكة له بجواره ترعى امره الداخلي ، وتحيطه بالرعاية والعناية ، وهي التي تسعد زوجها وتوافقه وتطيع رغباته وتشاركه افراحه واحزانه ، وتجعل من بيتها جنة فينانة وعشا جميلا يأوى اليه الزوج فينسى همومه ومتاعبه واسقامه . هذه هي التي عناها الله تبارك وتعالى بقوله : (ومن آياته ان خلق لكم من انفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة) .

وهو الذى يغرس في الانسان حب الغير وايثاره على النفس بما يبذله كل من الزوجين من راحة وطمأنينة للآخر . لذلك رغب الشارع الحكيم على الزواج ويحرض عليه في شتى المناسبات . وقد قال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما افاد رجل بعد الاسلام خيرا من امرأة

ذات دين ، تسره اذا نظر اليها ، وتطيعه اذا أمرها ، وتحفظه في نفسها وماله اذا غاب عنها ، وفي رواية اخرى ان الرسول أجاب من سأله : أى النساء خير بقوله : التي تسره اذا نظر ، وتطيعه اذا أمر ، ولا تخالفه في نفسها ولا ماله بما يكره .

هذا ومن الله الهداية .

الاسلام بحث على الزواج

روى الامام مسلم بن الحجاج القشيرى في صحيحه عن عمرو بن العاص رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : الدنيا متاع وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة .

وروى أبو داود في سننه والحاكم في مستدركه عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال : الا أخبركم بخير ما يكنز المرء المرأة الصالحة اذا نظر اليها سرته ، واذا غاب عنها حفظته . واذا أمرها أطاعته .

الزواج ركن من أركان الحياة الاجتماعية التي لاجلها خلق هذا النظام الكوني ، ووضعت لها القوانين العادلة والشرائع السماوية على اختلاف أنواعها .

ان الزواج هو السبب الاعظم في بقاء هذا النوع الانساني على أحسن وجه وأكمل نظام ، وفيه حفظ النوع البشري عن الفناء والانقراض ، وفيه عمران الارض وصلاحها . لهذا حث الاسلام على الزواج ونهى عن التبتل والعزوبة . وقد نبه الرسول الكريم الى الفتن والفوضى التي ستحدث

في المجتمع من جراء الانقطاع عن الزواج ، لأن في ذلك مخالفة لطبيعة الانسان التي فطره الله عليها ، حتى ان بعض الفقهاء اوجبوا على المرء الزواج اذا كانت له فيه رغبة مخافة الوقوع في الحرام ، وانه فرض اذا خاف الوقوع في الزنا ، كما ان الفقهاء ذكروا بأن من ملك المهر والنفقة ولم يتزوج يكون آثما ، اما اذا كانت الرغبة معتدلة فهو سنة ، لأن فيه المصلحة الدينية والدنيوية .

لقد اهتمت الشريعة الاسلامية بالزواج ورغبت فيه ، وافاض الذكر الحكيم والرسول الكريم في تعداد محاسنه وطيب آثاره ، فبالزوجة عمارة الارض ، اذ بتناسلهما يحفظ النوع ويتكاثر . وبتعاونهما وائتلافهما يتم هناء الاسرة وسعادتها ، ويخف اعباء الحياة التي لابد لكل انسان من ملافاتها .

ان الزواج عقد يربط الرجل بزوجته ارتباطا مقدسا كله حب ومودة وحنان . ومتى تم الزواج اصبح ميثاقا غليظا ليس الانفكاك منه بالامر الميسور . ان الاسلام يريد للحياة الزوجية ان تظل مستقرة ليعمل الزوجان على تربية أولادهما تربية تحقق لهم التوازن النفسي .

لذلك يهتف بالرجال على معاشرة ازواجهم بالمعروف ، ويبغض اليهم مفارقة أزواجهم ، فيقول الرسول الكريم : أبغض الحلال الى الله الطلاق .

قال العلماء ان الاصل في الطلاق هو الحظر الا لحاجة ، لما فيه من قطع النكاح الذى تعلقت به المصالح الدينية والدنيوية . وقد قال ابن عابدين في حاشيته على الدر المختار : اذا كان - أى الطلاق - بلا سبب أصلا ، لم يكن فيه حاجة الى الخلاص ، بل يكون حمقا وسفاهة رأى ، ومجرد كفران النعمة . وخلاص الايذاء بها وبأهلها وأولادها ، فحيث

تجرد عن الحاجة المبيحة له شرعا يبقى على أصله من الحظر ، ولهذا قال تعالى : (فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا) أى لاتطلبوا الفراق ، فان الطلاق قد كرهه الشارع وبغضه وشدد فيه ورتب على الرجل ان أوقعه واجبات غير سهلة .

لقد حدث عكاف بن رقاعه الهلالى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : يا عكاف ألك امرأة ؟ قال : لا ، قال : فأنت اذأ من اخوان الشياطين ، فان كنت من رهبان النصارى فالحق بهم ، وان كنت منا فمن سنتنا النكاح .

كما ان الرسول صلى الله عليه وسلم ارشد الى اختيار الزوجة الطيبة المنبت والخلق فقال : اياكم وخضراء الدمن ، قيل وما خضراء الدمن يا رسول الله ؟ قال : المرأة الحسناء في المنبت السوء .. وقال : تخيروا لنطفكم فأن العرق دساس . أىأن العرق نزاع ، ينزع الى أصل الأم وطباعها . وقال : تخيروا لنطفكم ولا تضعوها الا في الاكفاء .

وقال اكثم بن صيفى لبعض بنيه : اياك واختيار اللئيمة بما عندها من المال فانه يذهب وتبقى في حالك اللؤم .

ولقد اجمل الله تبارك وتعالى حقوق الزوجية في جملة وجيزة في قوله تعالى : (ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف ، وللرجال عليهن درجة) فما اجملها من قانون عادل ناطق بمساواة النساء للرجال في جميع الحقوق الا في شيء واحد وهو (وللرجال عليهن درجة) . ولهذا كان عبدالله بن عباس يقول : اني لاتزين لامرأتي كما تتزين لي . وهذا من كمال الادب واللطف في المعاشرة بالمعروف ، اذ هما متماثلان في الحقوق والاعمال ، فكل منهما بشر له تمييز يفكر به في مصالحه . وها هو رسول الله صلى الله عليه وسلم يبايع المؤمنات كما بايع المؤمنين ، وأمر النساء بتعلم الكتاب

والحكمة كما أمر الرجال ، وانهن مجزيات على أعمالهن في الدنيا والآخرة كالرجال على سـواء .

ان هذه المنزلة التي رفعت اليها المرأة في الاسلام لم يعرف لها مثيل في شريعة من الشرائع ، ولم ترفع اليها في دين من الاديان .

ثم ان على ولي المرأة اان يتحرى جهده عن سيرة الخاطب واخلاقـه وآدابه ، فلا يزوج من يتولاها ممن ساء خلقه أو ضعف دينه أو من يقصر في القيام بحقوقها . ومن زوج من يتولاها فاسقا أو سيء الخلق فقد جنى عليها وأساء اليها . وتعرض لسخط الله تعالى .

وليكن اختيار الزوج على أساس الاخلاق الكريمة والصفات النبيلة . وصلاح الانساب والتقوى لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : اذا اتاكم من ترضون دينه وخلقه فزوجـوه ، ان لاتفعلوه تكن فتنـة في الارض وفسـاد كبـير .

وان الواجب يقضي على الوالدين توصية بنتهما وتوجيهها الى ماترضى بـه زوجا لها . واليكم وصية أسماء بن خارجه الفزارى لابنته عند زفافها لزوجها حيث قال : يا بنية قد كانت والدتك أحق بتأديبك منى ان لـو كانت باقية اما الآن فانا أحق بتأديبك من غيرى . فافهمي عني ما أقول : انك خرجت من العش الذى فيه درجت . وصرت الى فراش لاتعرفينـه، وقرين لاتأ لفينه فكوني له أرضا يكن لك سماء ، وكوني له مهدا ، يكن لك عمادا ، وكوني له أمة يكن لك عبـداً ، ولا تلحفى به فيقلاك ، ولا تتباعدى عنه فينساك ، ان دنا منك فادنى منه وان نأى عنك فابعدى عنـه ، واحفظى انفه وسمعه وعينه ، فلا يشم منك الا طيبا ، ولا يسمع الا حسناء ولا ينظر الا جميلا .

وقد أوجب الاسلام على الزوج لزوجته ان يراعيها ، بل هو مأمور

بالاحسان اليها ومعاشرتها بالمعروف وحسن الخلق وحفظ لسانه عن الزلل ، والانفاق عليها بما تحتاجه من مؤنة وكسوة وبأثم اذا قصر في ذلك . وقد قال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : كفى بالمرء اثما ان يضيع من يقوت - أى من يلزمه قوته - . وقد سئل عليه الصلاة والسلام : يا رسول الله ، ما حق زوجة احدنا عليه ؟ قال : ان تطعمها اذا طعمت ، وتكسوها اذا أكتسيت ، ولا تضرب الوجه ، ولا تقبح - أى لا تسمعها مكروها - وروى عبدالله بن مسعود رضي الله عنه : ان النبي صلى الله عليه وسلم قال : اذا انفق الرجل على أهله نفقة يحتسبها فهو له صدقة . وأخرج الامام مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : دينار أنفقته في سبيل الله ، ودينار أنفقته في رقبه ، ودينار تصدقت به على مسكين ، ودينار انفقته على أهلك ، أعظمها اجرا الذى أنفقته على أهلك . وعن أم المؤمنين عائشة رضوان الله عليها وعلى أبيها انها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : خيركم خيركم لاهله وأنا خيركم لاهلي .

ولنختم هذه الكلمة بما ذكر مما تتم به المودة بين الزوجين وتصفو المعاشرة .

يجب على كل من الزوجين الادب في المحادثة والمحاورة فيما بينهما ، وتجنب بذيء الكلام وفاحش القول ، وان يسعى كل منهما في تخفيف ما قد ينزل بالآخر من مرض أو بلاء في المال أو الاولاد ، والعمل في تهوينه على النفس ما أمكن ، وان يصبر كل على ما قد يقع عليه من سوء المعاملة خصوصا حالة الغضب ، ويسعى جهده في السكون والمداراة وتهدئة الخاطر ، حتى لا يؤدى الامر الى الخصام أو المفارقة ، بهذا تتم السعادة وبحسن العيش ويسود السلام .

والله الهادى الى سواء السبيل .

كيف تختـار المـرأة

روى ان أمير المؤمنين سيدنا عمر بن الخطاب رضوان الله عليـه نهى الباعة عن غش اللبن ، وقد خرج في احدى الليالي يتفقد الرعية ، واذا بـه يسمع امرأة تقول لابنتها : الا تمزقين اللبن بالماء فقد أصبح الصباح ؟ وسمع البنت تقول لها : كيف ذلك وقد نهى عنه أمير المؤمنين ؟ فأجابتهـا أمهـا قد فعل فافعلى مثلهم ، فما يدرى أمير المؤمنين ؟ فقالت لها أبنتهـا : أن كان عمر لا يعلم فاله عمر يعلم ، ما كنت لافعله وقد نهى عنه . فسر عمر بذلك، فلما أصبح دعا عاصما ابنه وقال له : يا بني اذهب الى موضع كذا وكـذا فاسأل عن الجارية ووصفها له . فذهب عاصم فاذا جارية من بني هـلال . ثم قال عمر : اذهب يا بني فتزوجها فما احراها ان تأتى بفـارس يسـود العرب . فتزوجها عاصم بن عمر ، فجاء من نسـلها عمر بن عبدالعزيز الخليفة الاموى .

ولقد وضع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم دستورا لاختيـار المرأة التي يسعد الرجل بمشاركتها حيث قال : لا تزوجوا النساء لحسنهن ، فعسى حسنهن أن يرديهن ، ولا تزوجوهن لاموالهن ، فعسى أموالهن أن تطغيهن . ولكن تزوجوهن على الدين .

فالرسول الكريم يدعو لترجيح كفة الدين في الخطوبة على سـواها ليفوز المرء بالحسنى وينجو من البوار .

وفي حديث آخر يقول عليه الصلاة والسلام : من تزوج امرأة لعزها لم يزده الله الاذلا ، ومن تزوجها لمالها لم يزده الله الا فقرا ، ومن تزوجها لحسبها لم يزده الله الا دناءة ، ومن تزوج امرأة لم يرد بها الا أن يغض بصره ويحصن فرجه ، أو يصل رحمه بارك الله له فيها وبارك لها فيه .

لقد وجه الرسول الكريم ، عليه أفضل الصلاة والتسليم الازواج والزوجات الى الخير وأرشدهم الى هنائهم ، وبين بأن الزواج تعاون على هذه الحياة ، والقيام بحقوقها ، وتحمل لمسؤوليتها ، اذ به تحفظ الكرامات، وتصان الاموال ، هو الوقاية من المقت وسوء السبيل وبه تربط الاسرة ، وتتآلف العائلات وتكون الامة وحدة قوية البنيان شديدة التماسك •

وانه صلوات الله وسلامه عليه وجه الزوجة الى أدب الزوجية ، وأرشدها الى رعاية حقوق الزوج ، لانها اداة النعمة التي تتم على من يسره الله للخير • وعرفان حق الزوجة ، ورزقه امرأة صالحة نافعة • وها هو رسول الله صلى الله عليه وسلم يصف لنا الزوجة الصالحة النافعة فيقول : خير ما يكنز الرجل المرأة الصالحة ، اذا نظر اليها سرته ، واذا أمرها اطاعته واذا غاب عنها حفظته في عرضه وماله • وكما قال : الدنيا متاح وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة • أى هي التي تبذل طاقتها لتوفير الراحة لزوجها وادخال السرور عليه ، وتخفف عنه اعباء الحياة ، وتدفع المئازم عن نفسه ، هي التي لا تكلفه ما لا طاقة له به من مال أو جاه أو مظهر ، ولا تعصى له أمرا ما لم يكن فيه معصية ، هي التي لا تفرط في مال زوجها بمختلف أنواعه وأشكاله ، بل عليها أن تحافظ عليه وتعمل على اصلاحه وتوفيره ، فان أعطت منه شيئا فليكن بعلمه ورضاه • فقد ورد في حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قوله : ولا تعطي شيئا من بيته الا بأذنه • فان فعلت ذلك كان له الاجر وعليها الوزر •

ان المرأة الصالحة هي التي عناها رسول الله بقوله حينما سئل : أى النساء خير ؟ فقال : التي تسره اذا نظر ، وتطيعه اذا أمر ، ولا تخالفه في نفسها ، هي التي تؤمن بأن اولى الناس بالطاعة هو الزوج وان حقه اعظم الحقوق ، وقد سئلت السيدة الصديقة عائشة رضي الله عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى الناس أعظم حقا على المرأة ؟ فقال : زوجها •

وروى عن ابن ابي اوفى انه قال : لما قدم معاذ بن جبل من الشام سجد للنبي صلى الله عليه وسلم ، فقال له النبي : ما هذا ؟ قال : يا رسول الله قدمت الشام فرأيتهم يسجدون لبطارقتهم وأساقفتهم فاردت أن أفعل ذلك بك ، فقال له الرسول : فلا تفعل فاني لو أمرت شيئا ان يسجد لامرت المرأة ان تسجد لزوجها ، والذى نفسي بيده لا تؤدى المرأة حق ربها حتى تؤدى حق زوجها .

فعليها أن ترضى بما يتيسر لزوجها من العيش ، لان الارزاق قد قسمها الله تبارك وتعالى فعليها أن تكون راضية على الحالات جميعها ، فان الرضا يرد الفقر غنى ، والضيق سعة والشدة رجاء .

أما الزوجة التي لا ترضى بحظها وحظ زوجها ، وتطلب ما لا يقوى عليه الزوج ولا يقدر على تنفيذه ، فهذه الزوجة قد مقتها الاسلام ولا ينظر الله تعالى اليها ، حيث قال الرسول الكريم : لا ينظر الله تبارك وتعالى الى امرأة لا تشكر لزوجها وهي لا تستغني عنه .. وقال : ايما امرأة ماتت وزوجها راضي عنها دخلت الجنة .

واليكم مثالا للزوجة المؤمنة الصالحة الراضية . فقد اخرج الامام البخارى والامام مسلم في صحيحيهما عن اسماء بنت ابي بكر الصديق رضي الله عنهما انها قالت : تزوجني الزبير وما له في الارض من مال ولا شيء غير فرسه وناضحه (اى بعيره الذى يستقى عليه) : فكنت اعلف فرسه ، وأدق النوى لناضحه،واستقى الماء،وأخرز غربه ـ أي أضبط دلوه ـ وأعجن وكنت انقل النوى على رأسي من ثلثي فرسخ ، حتى ارسل الي أبو بكر بخادم يكفيني سياسة الفرس ، فكأنما اعتقني، فجئت يوما والنوى على رأسي فدعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : اخ اخ يستنيخ ناقته ليحملني خلفه فاستحييت أن أسير مع الرجال ، وذكرت الزبير وغيرته ـ وكان اغير الناس ـ فعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم اني قد استحييت ، فجئت

الزبير فحكيت له ما جرى • فقال والله : لحملك النوى على رأسك أشد علي من ركوبك معه صلى الله عليه وسلم •••

واجبات كل من الزوجين نحو الآخر

عن ابي سعيد سعد بن مالك الخدري رضي الله عنه ، انه قال : قالت النساء للنبي صلى الله عليه وسلم : غلبنا عليك الرجال ، فاجعل لنا يوما من نفسك ، فوعدهن يوما لقيهن فيه ، فوعظهن وأمرهن ••

لقد اعتنى الاسلام بالمرأة ورفع شأنها • وحماها من وخامة الابتذال ، وفرض لها حقوقا وواجبات ، واعلى قدرها بما لم تعله شريعة ولا قانون من قبل ولا من بعد ، وساواها بالرجل الا فيما تأباه طبيعتها ، وتقصر عنه فطرتها ، وحرص على تعلمها وارشادها ، وتعهدها بالحكمة والموعظة الحسنة • وقد ورد عن ام المؤمنين السيدة عائشة رضوان الله عليها انها قالت: نعم النساء نساء الأنصار ، لم يمنعهن الحياء ان يتفقهن في الدين •

يظهر لنا من هذا حرص نساء الصدر الاول على التفقه في الدين ، ولم يمنعهن الحياء عن ذلك ، فكن يسألن رسول الله صلى الله عليه وسلم واصحابه عما يجهلن منه ، ولم تكن رعايتهن حقوق الزوج والولد والبيت لتحول بينهن وبين المنافسة في الهدى والخير •

لقد اجتمع هؤلاء النسوة في بيت احداهن ذاك الذى عينه رسول الله وفي الموعد المضروب جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فحدثهن وعلمهن ما هن بحاجة اليه •

ولقد جاء في خطبة حجة الوداع لسيدنا رسول الله : ايها الناس ، ان

لنسائكم عليكم لحقا ، ولكم عليهن حق ، وان لا يوطئن فرشكم غيركم ، ولا يدخلن احدا تكرهونه بيوتكم الا باذنكم ولا يأتين بفاحشة ، فان فعلن فان الله اذن لكم ان تعضلوهن في المضاجع ، وتضربوهن ضربا غير مبرح ، فان انتهين واطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، وانما النساء عندكم عوان – أى اسيرات – لا يملكن لانفسهن شيئا ، اخذ تموهن بامانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله فاتقوا الله في النساء ، واستوصوا بهن خيرا ، الأهل بلغت اللهم اشهد •

فالزواج لم يشرع الا ومعه قوانين تحفظ التوازن في الحقوق الزوجية من الجهتين • وسمي عقد الزواج والقران ميثاقا غليظا • وهو غليظ حقا بالنسبة لكل من الزوجين لان الزواج ليس فقط لغرض جنسي وينتهي أمره، وانما هو تدبير واتصال دائم وتكوين لاجيال جديدة تكوينا يتفق مع الاخلاق والواجبات، والاخلال بقيود الزواج خيانة للميثاق الغليظ الذى ذكره تعالى في كتابه واكد في المحافظة عليه •

لقد حرص الاسلام على اسعاد المرأة واعلاء شأنها ، ونظر اليها بعين الرحمة والعدل ، ولاحظ ضعفها وقوة الرجل ورأى عجزها دونه عن النهوض باشق أعمال الحياة فقضى على الرجل بأشقها ، وعلى المرأة بأيسرها• واوجب عليه أن ينفق عليها ويسد جميع حاجاتها ، ويحفظها من الاذى ، ويجنبها مواقف الزلل ، ويصون شرفها ، بل اوجب عليه ان يمهد لها طرق السعادة في الاخرة وكلفه ان يعلمها أمر دينها •

ان الاسلام ما اغلق في وجه المرأة بابا لأى عمل تستطيع النهوض به فتجنى ثماره لنفسها، او يعود بنفعه على المجتمع، فهي والرجل أمام الشريعة وتكاليفها وانظمتها سواء لا فرق بينهما الا فيما يقتضيه الفرق بينهما بالفطرة والاستعداد •

لقد فرقت الفطرة بين الرجل والمرأة ، كما فرقت السنن الكونية بينهما ، فجعلت لكل منهما عملا منوطا به ووظيفة لايتعداها • اوجبت على الرجل باعتبار انه اقوى من المرأة جسما ، وأشد منها صبرا على احتمال المكاره والصعاب ، حمولا للاعباء والاثقال ، يزاول أشق المهن واقساها ، فهو ينقل الجبال ويخترقها ، ويقطع الصخور ويذيب الحديد ، ويركب متون الاخطار • ينزل المناجم ، ويغوص في قاع البحار ، ويطفىء النيران ، ويجوب الصحارى والقفار ، الى غير ذلك مما لا تتحمله المرأة •

كما أوجب على المرأة ان تعنى بشؤون منزلها وتربية اطفالها وتهذيبهم، ومشاطرتها للرجل فيما يتعلق بحياة الاسرة وسعادتها ، ولم يفرض الاسلام عليها امرا متعبا لها أو شاقا عليها بل ما أوجب عليها هو الا تخرج من بيت زوجها بغير اذنه الا لضرورة ملجئة • وان لا تأذن بدخول احد بيته الا باذنه ، والا تهجر فراشه •

ان الاسلام قد شرع احكاما كثيرة راعى فيها مصلحة المرأة واحتفاظها بشرفها وكرامتها ومستقبلها ، اذ رأس مال المرأة شرفها وكرامتها وطيب سمعتها •

لقد اعترف الاسلام بوجود المرأة بعد تلك الاحقاب التي نسيت فيها ، فقد كان ذلك في بيعة العقبة الثانية ، اذ شارك الرجال في البيعة امرأتان تكفلتا بما تكفل به الرجال امام رسول الله ، وبعد عودتهم الى يثرب بدأت المرأة تساهم في الدعوة وتبصر النساء بشؤون الدين وغرس حميد الخلال•

وقد كانت المرأة تبايع الرسول الكريم كما يبايع الرجل ، وكما كان الرجل يضع يده في يد رسول الله صلى الله عليه وسلم عند البيعة ، فكذلك كانت المرأة تفعل ذلك •

وعن عبدالله بن عباس انه قال : شهدت الصلاة يوم الفطر مع رسول

الله صلى الله عليه وسلم وابى بكر وعمر وعثمان رضوان الله عليهم فكلهم يصليها قبل الخطبة ثم يخطب بعد ، ثم ذكر بأنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم يجلس بين الرجال ، ثم اقبل يشقهم حتى اتى النساء مع بلال ، فتلى قول الله تبارك وتعالى : (يا أيها النبي اذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئا ، ولا يسرقن ، ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين ايديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف فبايعهن واستغفر لهن الله ان الله غفور رحيم) • ثم قال حين فرغ : انتن على ذلك ؟ فقالت امرأة واحدة لم يجبه غيرها : نعم يا رسول الله قال : فتصدقن ، وبسط بلال ثوبه فجعلن يلقين الفتخ والخواتم في ثوب بلال •

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مثال العطف الكريم على اهله ، رقيق العاطفة قالت السيدة عائشة : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم اني لأعلم اذا كنت علي غضبي ، قالت : فقلت من اين تعرف ؟ فقال اما اذا كنت علي راضية فانك تقولين لاورب محمد واذا كنت غضبى قلت لاورب ابراهيم ، قالت : قلت اجل والله يا رسول الله ما اهجر الا اسمك •

هدانا الله جميعا للتخلق باخلاق الاسلام ، والسير على سننه ، وجعل نساءنا مودة ورحمة لنا انه سميع مجيب •

مكانة المرأة في الاسلام

كان للمرأة في عصر النبي صلى الله عليه وسلم مكانة ومنزلة رفيعة ، حتى قال فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أكرم النساء الا كريم ، ولا اهانهن الا لئيم • ويقارن عمر بن الخطاب بين حال المرأة في الجاهلية وما وصلت اليه في ظل الاسلام حيث يقول : والله ان كنا في الجاهلية ما نعد للنساء أمرا حتى انزل الله فيهن ما أنزل ، وقسم لهن ما قسم •

وقد أتاح لها الاسلام ان تجير على المسلمين فيحترم جوارها. وهذه أم هانيء فاخته بنت ابي طالب تجير رجلين من احمائها ، فيجير النبي جوارها. فلقد فر هاذان الرجلان بعد أن أهدر الرسول الكريم دمهما واختبئا في بيت أم هانيء ، فتوعدهما شقيقها على بن ابي طالب واقسم ليقتلنهما ، انفاذاً لايعاد النبي صلى الله عليه وسلم وجزاءا لما اجترحا من الآثام .

فذهبت أم هانيء فاخته الى رسول الله صلى الله عليه وسلم تشكو أخاها ، وقد صادفت الرسول يغتسل ، فسلمت من وراء حجاب ، فقال من هذه ؟ فقيل : أم هانيء بنت ابي طالب ، فقال : مرحبا يا أم هانيء . فلما فرغ من غسله قام فصلى ثماني ركعات صلاة الضحى كاملة ، أو صلاة الشكر لله جلت آلاؤه . وكان ملتحفا في ثوب واحد ، فقالت له : يا رسول الله ، زعم ابن امي على أنه قاتل رجلا قد اجرته جعدة بن هبيرة ، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قد اجرنا من اجرت يا أم هانيء .

وهذه زينب كبرى بنات رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت متزوجة من ابن خالتها ابى العاص بن الربيع ، وقد فرق الاسلام بينها وبن زوجها، فتهاجر الى المدينة ، ويبقى زوجها بمكة حتى يقع اسيرا في قافلة كان بها ، وهنالك يستجير أبو العاص بزينب فتعده خيرا . فنادت بعد صلاة الفجر : اني قد اجرت ابا العاص بن الربيع ، فلما سمعها رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ايها الناس هل سمعتم ما سمعت ؟ قالوا : نعم ، قال فوالذى نفسي بيده ما علمت بشيء مما كان حتى سمعت الذى سمعتم ، المؤمنون يد على من سواهم ، يجير عليهم ادناهم ، وقد اجرنا من اجارت . ثم يسلم ابو العاص فيرد عليه الرسول الكريم زوجه زينب ويثنى عليه .

لقد بوأ الاسلام المرأة اوج العلى ، وانزلها منزلة تتطاول اليها الانظار بالحرمة والرعاية . وذكر ان أمير المؤمنين سيدنا عمر بن الخطاب خرج يوما ومعه الناس ، فمر بامرأة فاستوقفته فوقف ، وجعلت تحدثه ويحدثها،

فقال له رجل : يا أمير المؤمنين حبست الناس على هذه العجوز ؟ فقال له عمر : ويلك اتدرى من هي ؟ هذه امرأة سمع الله شكواها من فوق سبع سماوات هذه خولة بنت مالك بن ثعلبة التي انزل الله فيها : (قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي الى الله والله يسمع تحاوركما ان الله سميع بصير) .

وهذه السيدة عائشة الصديقة رضوان الله عليها التي كانت تسمع شكوى خولة لدى رسول الله صلى الله عليه وسلم تحدثنا عن نفسها فتقول: تبارك الذى وسع سمعه كل شيء ، واني لاسمع كلام خولة ويخفى علي بعضه ، وهي تشتكي زوجها الى رسول الله وتقول : يا رسول الله اكل شبابي ، ونثرت له بطني ، حتى اذا كبرت سني ، وانقطع ولدى ، ظاهر مني ، اللهم اني اشكو اليك ، فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الايات : (قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي الى الله ، والله يسمع تحاوركما ان الله سميع بصير . الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن امهاتهم ، ان امهاتهم الا اللائي ولدنهم ، انهم ليقولون منكرا من القول وزورا ، وان الله لعفو غفور) .

وكان للمرأة مطلق حريتها في التصرف باموالها كالرجل سواء بسواء ، فان لها ان تبيع وتتاجر وتعقد الصفقات ، وتؤجر البيوت وترهنها بلا فائدة وتقوم بالغرس والزراعة والفلاحة والحصاد ، الى غير ذلك من الاعمال التي لاتنافى كرامتها ومكانتها وحرمتها .

ولا يجوز للزوج ان يأخذ منها شيئا بغير رضاها . وقد جاء الذكر الحكيم مؤيدا لذلك (ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض ، للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن ، واسألوا الله من فضله ، ان الله كان بكل شيء عليما) .

ولقد سوى بين دم الرجل ودم المرأة فيقتل قاتلها ، كما سوى بينهما في حد القذف ، ومنع استيلاء الولى على مهر المرأة لأنه حقها المشروع ولها ان تطلبه به : (وآتوا النساء صدقاتهن نحلة) • وعين لها حقوقا اصلية نص عليها الذكر الحكيم على أن يكون : (للذكر مثل حظ الانثيين) سواء كانت زوجا أو بنتا ، وسواء كانت أما أو اختا ، ولها أن تقاضى غاصبه لأنه حقها المشروع • (للرجال نصيب مما ترك الوالدان والاقربون ، مما قل منه أو كثر نصيبا مفروضا) •

لقد تمتعت المرأة في عصر النبي نفسه بحريتها القانونية الى ابعد الحدود • حتى وسع الجارية الضعيفة (بريره) أن تعتذر الى الرسول الكريم عن قبول شفاعته في زوجها المتعلق بها •

وبريرة هذه جارية من جوارى الحبشة ملكها عتبة بن أبي لهب ، وزوجها كان عبدا للمغيرة الا انها ما كانت ترضاه لو كان لها أمرها ، فأشفقت أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها فاشترتها وأعتقتها ، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : ملكت نفسك فاختارى ، فآثرت أن تترك زوجها المسكين مغيثا ، وهام مغيث على وجهه في سكك المدينة يبكي في لوعة ظاهرة ، والجارية على قولها : لاحاجة لي فيك • فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرق لمغيث ، وقال لبريره : لو راجعته قالت : اتأمرني ؟ قال انما أنا شافع ، فعادت تقول لا حاجة لي فيه • فعجب النبي صلى الله عليه وسلم للامر ، وقال لعمه العباس : يا عباس ، الا تعجب من حب مغيث بريرة وبغضها اياه ؟ •

المرأة تشارك الرجل في النضال

كانت المرأة في صدر الاسلام تشارك الرجل في الشؤون الاجتماعية مشاركة فعالة ، وتقف بجانبه موقفاً مشرفا وكريماً ، وتمثل بطولة قل نظيرها في تاريخ الامم ، فلقد كانت تحضر الحروب والمواقف الخطيرة .

لقد كانت المرأة — كما قال أحد الافاضل — تسير مع الرجل جنبا لجنب تروى ظمأه وتأسوا جرحه ، وتجبر كسره ، وترفأ دمه ، وتثير حميته ، وتهيج حفيظته ، وربما غشيت حر القتال ، واصطلت جمرة الحرب ، وصالت بين الصفوف ، وعرضت نحرها للحتوف ، وصدرها للسيوف ، فكانت لها مواطن صادقات ، ومواقف صالحات .

لم تفرض الشريعة الاسلامية الجهاد على المرأة لما روته السيدة عائشة رضي الله عنها قالت : قلت يا رسول الله ، هل على النساء جهاد ؟ فقال : جهاد لا قتال فيه ، الحج والعمرة .

ولكن كتب السير والتاريخ والسنن طويت على كثير من فضليات النساء خرجن في رفقة رسول الله الى غزاته ليداوين المرضى ، ويأسون الجرحى ، ويسقين الماء ، ولا يجدن بدا من انتضاء السيوف اذا اجفل الرجال ، ورجفت قلوبهم ، ورأين من لوائح الهزيمة مالا خير في الحياة بعدها .

روى انس بن مالك رضي الله عنه ، انه لما كان يوم احد انهزم الناس عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ولقد رأيت عائشة بنت ابي بكر وام سليم ، وانهما لمشمرتان ارى قدم سوقهما تنقلان القرب على متونهما ثم تفرغانه في افواه القوم ثم ترجعان فتملآنها ثم تجيئان فتفرغانه في افواه القوم .

وهذه أمية بنت قيس الغفارية جاءت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم في نساء من غفار فقالت له : انا نريد أن نخرج معك فنداوى الجرحى ونعين

المسلمين بما استطعنا ، فقال لها رسول الله : على بركة الله . وكان ذاهبا الى خيبر .

ولقد شهدت نسيبة بنت كعب الانصارية احدا مع زوجها وولديها وكانت تحمل السقاء والضماد وعند القتال غلب المسلمون ثم نالتهم الهزيمة واذ بجموع الشرك تقصد الرسول ، فلم يكن منها الا ان ألقت سقاءها واشرعت السيف تذود عن رسول الله ومعها عشرة من كبار أصحاب رسول الله منهم : أبو بكر وعمر وعلى وسعد وطلحة والزبير والعباس وكان رسول الله يقول : ما ألتفت يمينا لا شمالا الا وأنا أراها تقاتل دوني .

وعن أم سعد قالت : دخلت على أم عمارة نسيبة فقلت لها : يا خالة اخبريني خبرك . فقالت : خرجت أول النهار يوم أحد لانظر ما يصنع الناس ومعي سقاء فيه ماء أسقى به الجرحى ، فانتهيت الى رسول الله وهو في اصحابه والدولة والنصر للمسلمين ، فلما انهزم المسلمون انحزت الى رسول الله فقمت أباشر القتال وادافع عنه بالسيف . وارمي عن القوس ، حتى خلصت الجراح الي . قالت أم سعد : فرأيت على عاتقها جرحا اجوف له غور . فقلت لها : من اصابك بهذا ؟ قالت : ابن قمئة ، لما ولى الناس عن رسول الله أقبل يقول : دلوني على محمد ، فلا نجوت ان نجا ، فاعترضت له أنا ومصعب بن عمير واناس ممن ثبت مع رسول الله ، فضربني هذه الضربة ، ولقد ضربته على ذلك ضربات ، ولكن عدو الله كانت عليه درعان فنجا .

ونسيبه هذه عندما خلصت اليها الجراح ، واصيبت بثلاثة عشر جرحا وارتمت على الارض مصروعة ، وضمدوا لها الجراح ، وسقوها الماء ، فلما أفاقت قالت : واين رسول الله ، ما صنع المشركون معه ، أما جراحها أما زوجها اما ولداها الذين كانوا في صفوف المقاتلين فشيء دون محمد ودون

رسالة محمد وبرأت نسيبه وبقي الفخر بذلك مسطرا في صفحات الخلود ، وهكذا ادت أشرف رسالة في الحياة .

وهذا ابنها عبدالله يحدثنا عن تلك الموقعة فيقول :

جرحت يومئذ جرحا في عضدي اليسرى ، ضربني رجل كأنه الرقل - اى النخلة العالية - ومضى عني ، ولم يعرج علي ، وجعل الدم لا يرقاء ، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : اعصب جرحك ، فاقبلت امي الي ومعها عصائب في حقوبها قد أعدتها للجراح ، فربطت جرحي والنبي واقف ينظر الي ، ثم قالت انهض يا بني فضارب القوم ، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول : ومن يطيق ما تطيقين يا أم عمارة . ثم ظفرت بضارب ولدها فاجهزت عليه حتى قتلته فقال لها رسول الله : الحمد لله الذى اظفرك وأقر عينيك من عدوك وأراك ثأرك بعينيك . لهذا قال لها ولولدها رسول الله صلى الله عليه وسلم : بارك الله عليكم من أهل بيت مقام امك -يريد عبدالله- خير من مقام فلان وفلان . فلما سمعت نسيبة ذلك قالت لرسول الله والدم ينفجر منها : ادع الله أن نرافقك في الجنة ، فقال : اللهم اجعلهم رفقائي في الجنة . فعندئذ قالت : ما ابالي ما اصابني في الدنيا .

ونسيبة هذه كان لها ولد ثان يدعى حبيبا ارسله رسول الله صلى الله عليه وسلم الى مسيلمة الكذاب حينما ادعى النبوة ليرجعه عن ادعائه ، الا ان مسيلمة قبض على حبيب واوثقه ولم يرع حرمة الرسل ، وطلب منه الاعتراف بنبوته فقال له حبيب : لا اسمع . فجعل مسيلمة يقطعه عضوا عضوا حتى مات . فاقسمت نسيبه ان تقاتل مسيلمة حتى يقتل أو تقتل .

وبعد ان تولى أبو بكر الصديق الخلافة ارسل جيشا الى اليمامة الى بني حنيفة ، فخرجت مع الجيش نسيبة وولدها عبدالله ، لتفى بنذرها ، وترى مصرع مسيلمة وكان سنها قد تجاوز الستين عاما .

ولما اشتبك المسلمون مع جيش مسيلمة واشتدت المعركة وتزعزعت أقدام المسلمين أخذ سيف الله خالد بن الوليد ينادي : وامحمداه ، فجمعت صيحته الرجال وعادوا يهاجمون اعداء الله ، وما كان من نسيبه بعد أن رأت هذا المشهد الا أن تستل سيفها وتهاجم الاعداء وبالغت في هجومها فالتف حولها بعض جنود مسيلمة للقضاء عليها ، واصابوها باثنى عشر جرحاً وقد قطعت يدها . الا انها لم تبال وظلت على اقدامها حتى وصلت الى مع كوكبة من المجاهدين الى مكان مسيلمة فقتلوه .

ولما عادت الى المدينة ذهب أبو بكر الصديق الى بيتها يعودها ويبارك جهادهـا .

هذه نماذج للرعيل الاول من هذه الامة فيه العبرة والذكرى للاحفاد لعلهم يهتدون بهديهم ، ويتبعون خطاهم . فيسعدوا كما سعدوا .

والله الهادي الى سواء السبيل .

النسـاء المثاليـات

ذكرنا في كلمة سالفة نبذاً عن المرأة وكيف ان الاسلام رفع قدرها ، وانزلها منزلة تتطاول اليها الانظار بالحرمة والرعاية ، حتى شاركت الرجل في غزواته ونضاله ، وذكرنا أمثالا من ذلك .

واليكم أمثالا اخرى للعبرة والعظمـة :

هذه أسماء بنت ابي بكر الصديق عليهما رضوان الله تعد من اعاظم النساء ، فلقد كانت كبيرة بعقلها وعزة نفسها وقوة ارادتها . اسلمت بعد اسلام سبعة عشر انسانا . وبايعت النبي صلى الله عليه وسلم .

لقد كانت شديدة في ايمانها • حريصة على اتباع نبيها ، من ذلك ان امها قتيلة بنت عبد العزى قدمت عليها وهي لم تسلم بعد وكان أبو بكر طلقها في الجاهلية ، قدمت عليها بهدايا ، فأبت اسماء ان تقبل منها هديتها أو تسمح لها بدخول بيتها ، ثم ارسلت الى اختها أم المؤمنين عائشة طالبة منها أن تسأل رسول الله عن ذلك الذى فعلته ، فاخبرتها عائشة بأن تدخلها بيتها وتقبل منها هديتها •

سميت بذات النطاقين لانها شقت نطاقها شطرين ، فجعلت واحدا لسفرة رسول الله ، والاخرى عصاما لقربته ليلة خرج مع ابيها الى الغار •

لقد خرج أبوها أبو بكر عند هجرته بجميع ما يملكه من الدراهم ولم يترك لعياله شيئاً ، فجاء أبو قحافة والد ابي بكر الى داره بعد سماعه بخروج ولده مع رسول الله وقد ذهب بصره ، فخاطب أسماء قائلا : والله اني لاراه فجعكم بماله كما فجعكم بنفسه ، فاجابته أسماء كلا يا أبت ، انه قد ترك لنا خيرا كثيراً • فأخذت احجارا فوضعتها في كوة في البيت الذى كان ابوها يضع ماله فيها ، ثم وضعت عليها ثوبا ، وأخذت بيد جدها ، وقالت له : يا أبت ضع يدك على هذا المال ، فوضع يده عليه وقال : لا بأس اذا كان ترك لكم هذا فقد أحسن ، وفي هذا بلاغ لكم •

ولقد شهدت مع زوجها الزبير بن العوام وقعة اليرموك وأبليت فيها بلاء حسنا •

كانت أسماء هذه ذات شجاعة نادرة قل ان رواها التاريخ ، يدل على ذلك محاورتها مع ولدها عبدالله بن الزبير حينما دخل عليها وقد بلغت مائة سنة وفقد بصرها • دخل عليها وقد احيط به من كل جانب وخذله أعوانه وانصاره ، فقال لها : يا اماه ما ترين وقد خذلني الناس حتى أهلي وولدى ، ولم يبق معي الا اليسير ومن لادفع له أكثر من صبر ساعة من النهار ، وقد أعطاني القوم ما أردت من الدنيا ، فما رأيك ؟ قالت : الله الله

يا بني ان كنت تعلم انك على حق تدعو اليــه فامض عليه ولا تمكن من رقيبتك غلمان بني امية فيلعبوا بك ، وان كنت اردت الدنيا فبئس العبد أنت أهلكت نفسك ومن معك وان قلت اني كنت على حق فلما وهن اصحابي ضعفت نيتي ، فليس هذا فعل الاحرار ولا من فيه خير ، كم خلودك فـي الدنيا ، القتل أحسن مما يقع بك يا ابن الزبير • والله لضربة بالسيف في عز أحب الي من ضربة السوط في ذل ، فقال لها : يا اماه اني أخاف ان قتلني اهل الشام ان يمثلوا بي ويصلبوني ، قالت : يابني ان الشاة لايضرها السلخ بعد الذبح ، فامض على بصيرتك واستعن بالله • فقبل رأسها وقال لهــا : هذا والله رأيي ، والذى قمت به داعيا الى الله ، والله ما دعاني ألى الخروج الا الغضب لله عز وجل ان تهتك محارمه ، ولكني احببت أن اطلع على رأيك فيزيدني قوة وبصيره • والله ما تعمدت اتيان منكر ولا عمـــلا بفاحشة ، ولم أجر في حكم ، ولم أغدر في أمان ، ولم يبلغني عن عمالي حيف فرضيت به ، بل انكرت ذلك ولم يكن شيء عندي آثر من رضـاء ربي ، اللهم اني لا اقول ذلك تزكية لنفسي ، ولكن أقوله تعزية لامـي لتسلوا عنى ، فقالت والله اني لأرجو أن يكون عزائي فيك جميــلا ، ان تقدمتني احتسبتك ، وان ظفرت سررت بظفرك ، اخرج حتى انظر الآم يصير أمرك • ثم قالت : اللهم ارحم طول ذلك القيام بالليل الطويل ، وذلك النحيب والظماء في هواجر مكة والمدينة ، وبره بأمه ، اللهم اني قد سـلمت فيه لامرك ، ورضيت فيه بقضائك ، فاثبني في عبدالله ثواب الشـاكرين • فخرج عبدالله فقاتل حتى قتل •

وهذه الخنساء تماضر بنت عمرو بن الحارث المضـرية التي ملأت الدنيا شعرا وتوجعا على اخويها معاوية وصخر ، ولازمتها تلك الحالة بعـد اسلامها ، حتى ان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضوان الله عليه رآهــا ذات يوم أثناء طوافها بالكعبة وهي مرتدية ثوبا خلقا من الخيش الاسـود •

فتقدم اليها ونصحها للاقلاع عما هي عليه من الحزن والاسى ، فأجابته : لم تصب امرأة بمثل ما أصبت به فكيف احمل مضض فراق فارسين فقدتهما ، فقال لها سيدنا عمر بما هون عليها المصيبة وان ماهي عليه من بدع الجاهلية التي حرمها الاسلام ، فامتثلت لامره •

هذه الخنساء تضرب للمرأة العربية المسلمة ابعد الامثال من جلال الصبر وقوة الايمان • كانت اما لاربعة أولاد من أشجع فرسان العرب ، دفعتهم جميعا الى الحرب ، وعدت موتهم في سبيل الاسلام شرفا ما بعده من شرف •

حضرت حرب القادسية ومعها بنوها الاربعة ، ثم نظرت اليهم وهي تقول : يا بني انتم اسلمتم طائعين ، وهاجرتم مختارين ، وانكم لاب واحد وأم واحدة • ماخنت أباكم ، ولا فضحت أخوا لكم ، وأنتم لتعلمون ما أعد الله للمسلمين من الثواب العظيم في حروب الكافرين ، وأعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية ، فاذا أصبحتم غدا أن شاء الله سالمين ، فاغدوا الى قتال عدوكم ، مستبصرين ، وبالله على أعدائه مستنصرين ، فأذا رأيتم الحرب شمرت عن ساقها ، وأضطرمت لظى مساقها ، فتيمموا وطيسها وجالدوا رسيسها عند احتدام خميسها ، تظفروا بالغنم والكرامة في دار الخلد والمقامة • فلما أصبح الصباح تقدم كل واحد منهم الى الحرب ، وقاتلوا حتى استشهدوا جميعا • فلما بلغها الخبر قالت : الحمد لله الذى شرفني بقتلهم ، وارجو من ربي ان يجمعني بهم في مستقر رحمته • ولما عادت الجيوش الى المدينة ظافرة ، كانت الخنساء معهم يتهلل وجهها اشراقا وبهاء ، ولم يكن يدرى الناس ايهنئونها على موقفها أم يعزونها في أولادها •

وقد اجرى عليها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضوان الله عليه ارزاق بنيها مائتي درهم عن كل واحد حتى توفاها الله تعالى •

وهذه ازدة بنت الحارث بن كلده ، كانت مجاهدة خاضت ساحات

الوغى بكل بسالة ورباطة جأش وحازت النصر •

ولقد أجمع أهل ميسان على مناصبة المسلمين العداء فتجهز اليهم المغيرة بن شعبة فلقيهم بالمرغاب وهو نهر قريب من البصرة • وعندما أشتد القتال بين الجيشين قالت ازدة للنساء اللاتي كن معها : أن رجالنا في نحر العدو ونحن هنا ، ولا آمن أن يخالفوا الينا وليس عندنا من يمنعنا، واخرى أخاف أن يكثر العدو على المسلمين فيهزمونهم فلو خرجنا لامنا مما نخاف من العدو ، ويظن المشركون أنا عدد ومدد اتى المسلمين فيكسرهم ذلك وهي مكيدة • فأجبنها الى ما رأت ، فعقدت لواء واتخذت النساء رايات من خمرهن ومضين وهي أمامهن تنشد وتقول :

يا ناصر الاسلام صفا بعد صف ان تهزموا وتدبروا عنا نخف
ان يغلبوكم يغمزوا فينا القلف

فلما رأى المشركون الرايات مقبلة ظنوا أن مددا أتى المسلمين فانكشفوا واتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون •

المرأة البطلة

ذكرنا في كلمتنا السابقة شذرات من بطولات المرأة العربية المسلمة وذودها عن كرامتها ، ودفاعها عن حوزة دينها وامتها ، وجهادها لاعلاء كلمة الله •

وهذه طرف اخرى من تلك البطولات ، نسردها أمام اولئك الذين يظنون بأنفسهم في ميادين العزة ، وليزنوا رجولتهم في ميزان الكرامة •

فهذه خولة بنت الازور الكندية ، كانت من الشجاعة ورباطة الجاش والاستبسال في القتال بالمكان الرفيع • كانت لها مواقف مشرفة في القتال الذى

جرى بين العرب والروم • حضرت موقعة اجنادين مع أخيها ضرار بن الازور بقيادة بطل الاسلام وسيفه البتار خالد بن الوليد • وفي احدى المصادمات أسر أخوها ضرار ، فتقدم خالد بثلة من جنده لانقاذ ضرار وبينما هو في الطريق اذ مر به فارس تلوح عليه مخايل الفروسية ولا يبين منه الا الحدق ، وقد سبق أمام الناس لايلوى على ما وراءه ، فلما نظره خالد قال : ليت شعرى من هذا الفارس ؟ وايم الله انه لفارس شجاع ، ثم اتبعه خالد والناس من ورائه حتى ادرك جند الروم ، فحمل عليهم كأنه النار المحرقة ، فزعزع كتائبهم وحطم مواكبهم ، فلم يكن غير جولة جائل حتى خرج وسنانه ملطخ بالدم ، وقد قتل رجالا وجندل ابطالا ، وقد عرض نفسه للهلاك • ثم اعاد الكرة واخترق صفوف الروم غير مكترث ولا خائف ، وظنه الناس انه خالد بن الوليد • فلما قدم خالد قال له رافع بن عمير : من الفارس الذى تقدمك ؟ فلقد بذل نفسه ومهجته ، فقال خالد : والله انني أشد أنكارا منكم له ، ولقد أعجبني ما ظهر منه ومن شمائله ، فقال رافع لخالد : أيها الامير ، انه منغمس في عسكر الروم يطعن يمينا وشمالا ، فقال خالد : معاشر المسلمين أحملوا باجمعكم وساعدوا المحامي عن دين الله ، واطلقوا الاعنة ، فحملوا وخالد أمامهم ، وقد نظروا الفارس وهو يخرج من بين صفوف الروم كأنه الشهاب الثاقب والخيل تعدوا في أثره ، وكلما لحقت به الروم لوى عليهم وجندل ، وقد وصل هذا الفارس الى اخوانه فاحاطوا به وقد تخضب بالدماء ، فناشده الناس والقائد خالد كشف اسمه ورفع لثامه ، فمال عنهم ولم يخاطبهم وانغمس في الروم ، فصاح به المسلمون : ايها الرجل الكريم أميرك يخاطبك وأنت تعرض عنه ، اكشف عن اسمك ، فلم يرد عليهم ، فلما بعد عن خالد سار اليه بنفسه وقال له : ويحك لقد شغلت قلوب الناس وقلبي بفعلك ، من أنت ؟ فلما أكثر خالد

من تساءله ، اجابه وهو ملثم : ايها الأمير ، اني لم اعرض عنك الأحيـــاء منك ، لانك أمير جليل ، وانا من ذوات الخدور ، وبنات الستور ، فقـال خالد : من انت ؟ قالت خولة بنت الازور ، واني كنت مع بنات العـــرب فاتاني أن اخي اسير ، نرلبت وفعلت ما رأيت ، فصاح خالد في جنده ، فحملوا وحملت معهم خولة ، وكانت تجول يمينا وشمالا وهي لا تطلب الا اخاها لعلها تعرف أين ذهب القوم بأخيها • اما الروم فقد عظم عليهم ما نزل بهم من نكبات وأظهر الله المسلمين على اعدائهم وقتلوا من قتلوا •

ثم اقبلت تسأل الناس عن اخيها ، فلم تر من يخبرها عنه ، ولكـــن خالدا علم أن قائد الروم قد أنفذ ضرارا الى حمص بحراسة مائة فارس ، فانتدب خالد جماعة بقيادة رافع بن عمير ليلحق بالقوم ويفك أسر ضرار ، ولما علمت خولة بذلك جاءت الى خالد بن الوليد طالبة مرافقة القوم ، فأذن لها ، وسارت مع رافع الى أن لحقوا بالقوم فحملوا عليهم وقتلوهم عـــن اخرهم وخلصوا ضرارا •

ومن مواقفها الشهيرة الرائعة ، هي يوم أسر النساء ومعهن خولـــة في موقعة (صحورا) من أعمال الشام ، ولما رأت انها مع أخوانها في قبضة الاعداء ، أخذتها الحمية العربية ، ودفعتها الغيرة الاسلامية وأدركت انهـا أن بقيت في الأسر سيعتدى عليها وعلى أخواتها ، وسيكن ذليلات مهانات ، فعمدت الى زميلاتها تحرضهن وتضرم نيران الحماسة في قلوبهن وممـــا قالته : يا بنات حمير وبقية تبع ، أترضين لانفســكن علوج الروم ويكون أولادكن عبيدا لأهل الروم ، فأين شجاعتكن وبراعتكن التي تتحدث بهـــا عنكن احياء العرب • فقالت لها عفراء بنت غفار الحميرية : صدقت يا بنت الازور ، والله ما دعوت الى ما هو احب الينا مما ذكرت ، فقالت خولة خذن أعمدة الخيام وأوتاد الاطناب ونحمل بهـا عـــلى هؤلاء اللئام ، فلعل الله ينصرنا عليهم • ثم تناولت كل واحدة عمودا من عمد الخيام ، وصحـــن

صيحة واحدة ، وألقت خولة على عاتقها عمودا وتتابع النساء وراءها ، ثم قالت لهن : لا ينفك بعضكن عن بعض ، وكن كالحلقة الدائرة ولا تتفرقن فتملكن ، فيقع بكن التشتيت واحطمن رماح القوم ، وأكسرن سيوفهم ، وهجمت خولة وهجم النساء وراءها وقاتلت بهن قتال المستيئس المستميت ، وكان النصر حليفها • فخرجت تقول :

نحن بنات تبع وحمير وضربنا في القوم ليس ينكر
لاننا في الحرب نار تسعر اليوم تسقون العذاب الاكبر

وهذه حمنة بنت جحش الاسدية فهذه السيدة حضرت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم غزوة أحد وكان موقفها مما تزل دونه اقدام الرجال ، فقد كانت تغشى الموقعة فتحمل الجريح وتعود به حيث تاسوا جراحه، واصيبت في هذه الموقعة بزوجها مصعب بن عمير •

وبعد غزوة أحد قام النساء يسألن الناس عن أهلهن فلم يخبرن حتى أتين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلا تسأله واحدة الا اخبرها • فجاءت حمنة بنت جحش فقال : يا حمنة ، احتسبي أخاك عبدالله بن جحش ، قالت : انا لله وانا اليه راجعون • رحمه الله وغفر له ، ثم قال : يا حمنه احتسبي خالك حمزة بن عبدالمطلب ، قالت : انا لله وانا اليه راجعون ، رحمه الله وغفر له ، ثم قال ياحمنه ، احتسبي زوجك مصعب بن عمير ، فقالت : ياحرباه • فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ان للمرأة لشعبة من الرجل ما هي له في شيء •

قال ابن اسحاق : شهد خيبر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم نساء من نساء المسلمين ، فرضخ لهن رسول الله صلى الله عليه وسلم من الفيء حيث اعطاهن يسيرا ولم يضرب لهن بسهم •

ولقد مدح شجاعة المرأة العربية (ادوارد جيبون) في كتابه سقوط الدولة الرومانية حيث قال :

ان هؤلاء النساء اللاتي تعودن الضرب بالسيف والطعن بالرمح والرمي بالنبل ، هن اللاتي اذا وقعت احداهن في الاسر تكون قادرة على حفظ عفتها وصون دينها من اى انسان تحدثه نفسه بارادتها بسوء .

فالمرأة المسلمة هي التي تحافظ على شرفها حتى الرمق الاخير من حياتها ، ولا تتهاون في نفسها وكرامتها .

هذه هي المرأة العربية المسلمة ، نريد أن تكون نساؤنا على غرارها ، لنعتز بهن كما اعتز أوائلنا بنسائهم .

كيف ربى الاسلام المرأة

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يربي اتباعه على الشجاعة والتضحية والاقدام ، ويدفعهم الى العزة والمجد والحياة الحرة الرغيدة ، وليكونوا قدوة حسنة للابناء والاحفاد والاجيال الصاعدة ، ومثلا عليا يهتدى بها ويحتذى خطاها ..

كما ربى عليه الصلاة والسلام النساء على مبادىء الاخلاق السليمة ، وعلى البذل في سبيل اعزاز الامة والدفاع عن عقيدتها ، والحفاظ على كيانها ، واذا اقتضى الامر أن تحمل السلاح فالتحمله للذود عن بيضة الاسلام من أن تثلم ، أو لدفع العدو من أن يطأديارها ، أو يغلب حماتها .

ولقد ذكرنا في كلمات سالفة نماذج من نساء الصدر الاول وكيف حملن السلاح أو أعن حملته للدفاع عن رسول الله أو عن جنده .

ونذكر هنا طرفا اخرى تذكرة للمرأة المسلمة كي تتبع خطا أمهــا التي كانت عزا للاسلام وفخراً للمسلمين .

لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى بدر قالت له ام ورقة : يا رسول الله ائذن لي في الغزو معك ، امرض مرضاكم لعل الله يرزقنــي الشهادة ، فقال لها : قرى في بيتك ، فان الله يرزقك الشهادة .

والسبب في ذلك انها كانت قد قرأت القرآن ، وأخذت تعلمه النساء، فأراد رسول الله أن يحافظ عليها ، ولا يكلفها مشقة القتال خشية قتلها .

وكان عليه الصلاة والسلام يزورها ويسميها الشهيدة .

وفي خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه عدا عليهــا غلام وجارية لها ، فغمياها بقطيفة الى ان ماتت . فجيء بها الى عمر فأمــر بصلبهما فكانا أول مصلوب بالمدينة . وقال عندئذ عمر : صدق رســول الله حيث كان يقول : انطلقوا بنا نزور الشهيدة .

ولقد كانت لرفيدة خيمة في المسجد تداوى فيهــا الجرحي مــن الصحابة ، ممن لم يكن لهم من يقوم عليهم . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لقوم سعد بن معاذ حين اصابه السـهم بالخندق . اجعلوه في خيمة رفيدة حتى اعوده من قريب .

وفي غزوة احد خرجت السيدة فاطمة بنت رسول الله مع النســاء لمعاونة المجاهدين فلما رأت رسول الله اعتنقته وجعلت تغسل جراحه بالمـاء فيزداد الدم . فأخذت شيئا من حصير فاحرقته حتى صار رمادا وكمدتــه به حتى لصق بالجراح فتوقف الدم .

وهذه أم أيمن بركة بنت ثعلبة قد اسلمت في مكة وبقيت تحتمل اذى المشركين الى ان هاجرت الى المدينة مشيا على قدميها ، وكانت تحضر غزوات النبي صلى الله عليه وسلم تسقي الماء وتداوى الجرحى ، فحضرت غزوة

احد وغزوة خيبر . وفي عزوة احد وقفت في وجه الغازين تحتو التراب في وجوههم وتقول لهم : هاك المغزل فاغزل به ، وهلم سيفك اعطني اياه لاقاتل بــه .

ولقد استشهد زوجها زيد بن حارثة في سرية مؤتة ، واستشهد ابنها أيمن في غزوة حنين ، فصبرت وصابرت .

وفي وقعة اليرموك كان النساء يحملن العمد يضربن بها وجوه الخيل اذا ولت ، وينادين الى أين يا حماة الاسلام وطلاب الشـهادة الى أيـن يا ابطال العرب .

وهذه صفية بنت عبدالمطلب عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأم الزبير بن العوام ، لما ثار الاحزاب من المشركين على رسـول الله وطوقوا المدينة ، جمع النساء والصبيان في حصن بني حارثة ، حتى لايمسهم السوء ، وكانت صفية يومئذ بين النساء ، فبينما هي مشرفة على الحصن اذ بصرت بفارس يهودى يطوف بالحصن فخشيت أن يقتحمه أو يدل عليه ، فاحتجزت بثوبها ، واحتملت عمودا ونزلت اليه ، وهو حامل للسلاح فنازلته فقتلته .

حدث مشرج بن زياد عن جدته أم أبيه قالت : خرجنا مع رسـول الله في غزوة خيبر وأنا سادسة ست نسوة ، قالت : فبلغ النبي أن معه نساء ، فارسل الينا فدعانا ، قالت : فرأينا في وجهه الغضب ، قال : ما أخرجكـن وبأمر من خرجتن ، قلنا : خرجنا نناول السهام ونسقى السويق ومعنـا دواء للجرحى ، ونغزل الشعر نعين به في سبيل الله ، قال : فانصرفن ، قالت: فلما فتح الله عليه خيبرا أخرج لنا سهاما ، فقلت لها يا جده : ما الـذى أخرج لكن ، قالت : تمرا .

وهذه خزانة ابنة خالد بن جعفر كانت على جانب عظيم من الفروسية، وقد حضرت فتوح العراق مع القائد العظيم سعد بن أبي وقاص ، وحضرت

فتوح الحيرة مع بعض النسوة ، وقد حمل بعضهن السيوف والتحمن بالفرسان وأظهرن من البراعة والمهارة ما كان موضع الاعجاب .

وهذه امرأة من بني دينار يصاب في موقعة أحد زوجها وأبوها . وعندما أخبرت بذلك لم تسأل الا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيقال لها هو بحمد الله كما تحبين ، فتقول : أرونيه حتى أنظر اليه . ولما نظرته قالت : كل مصيبة بعدك جلل .

وهذه أسماء بنت يزيد الأنصارية التي كانت محدثة خطيبة مجاهدة وهي التي قال فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أتته مندوبة عن نساء الاصحاب هل سمعتم بمقالة امرأة قط أحسن من مسائلها في أمر دينها . فهذه المحدثة المجاهدة تشهد حرب اليرموك والفتح الاسلامي وتحمل عمود خبائها وتقتل تسعة من الروم .

وهذه سمية بنت خياط أم عمار بن ياسر كانت أول شهيدة في الاسلام ، عذبت عذابا شديدا فصبرت وصابرت ، وكان آل المغيرة يخرجون بها اذا أشتدت الظهيرة والتهبت الرمضاء الى الصحراء ويلبسونها دروع الحديد هي وزوجها وابنها ، وأهالوا عليها الرمال المتقدة ، الا انها كانت تعتصم بالصبر ، وابت أن تعطي القوم ما سألوها من الكفر بعد الايمان فطعنها أبو جهل بن هشام بحربته فماتت . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمر بسمية وزوجها ياسر وابنها عمار وهم يعذبون بالابطح في رمضاء مكة فيقول : صبرا آل ياسر موعدكم الجنة .

وكانت أم سليم مع زوجها ابي طلحة في غزوة حنين وهي حازمة وسطها ببرد لها وفي حزامها خنجر وكانت حاملا بابنها عبدالله ، فقال لها زوجها . ما هذا الخنجر معك يا ام سليم ؟ قالت : ان دنامنى أحد من المشركين بعجته به ، فقال أبو طلحة لرسول الله : الا تسمع يا رسول الله

ما تقول أم سليم ، فاعادت عليه القول ، فجعل رسول الله يضحك ويقول لها : قد كفى الله يا أم سليم •

وهذه الربيع بنت معوذ تقول : كنا نغزو مع النبي صلى الله عليه وسلم فنسقي القوم ونخدمهم ونرد القتلى والجرحى الى المدينة •

وهذه أم عطية بنت الحارث تحدثنا من انها غزت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبع غزوات وتقول : كنت أخلفهم في رحالهم • وأضع لهم الطعام وأداوي الجرحى وأقوم على المرضى •

وفي سنة (٦٠٧ هـ) ارسل نساء دمشق الى سبط ابن الجوزي شعورهن لتستعمل في الادوات اللازمة للجهاد • ولما صعد السبط المنبر أمر باحضار تلك الضفائر فأحضرت فكانت ثلاثمائة ضفيرة ، فلما رآها الناس صاحوا صيحة عظيمة ، وعندئذ سافر الناس للجهاد ولحقوا بالملك المعظم بنابلس وهجموا على البلاد التي تحت احتلال الافرنج وأسروا جماعة منهم ، ولم يجسر أحد أن يخرج من عكا ، وخاف الافرنج فأرسلوا الى الملك العادل وصالحوه •

هكذا كانت المرأة في الرعيل الاول من هذه الامة الكريمة التي حملت راية الاسلام باخلاقها قبل سيوفها هذه هي الامة العربية أيها العرب •

فالى الاسوة والى القدوة والى الامام •

لقد احاط الاسلام المرأة بسياج الكرامة

لقد عمل الاسلام على صيانة المرأة وحفظها ، واحاطها بهالة من الشرف والطهر ، وابطل أسباب كل غيرة لا أساس لها من الحق ، وأبعد عنها الريب والشبهات والظنون ما لم تكن عن علم وبينة واعترافات . حدثوا أن اعرابيا يسمى ضمضم بن قتادة جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله أن امرأتي ولدت غلاما أسود فقال له الرسول : هل لك من ابل ؟ قال الرجل : نعم ، فقال له الرسول : ما ألوانها ؟ قال الرجل : حمر ، قال له : أفيها أورق - جمع بين السواد والبياض - قال نعم ، قال له الرسول : فأنى كان ذلك ؟ قال الرجل : اراه عرق نزعه ، فقال له : لعل ابنك هذا نزعه العرق . اى ان أصلا من اصول نسبه جذبه اليه . فالرسول الحكيم عليه الصلاة والتسليم أقنع الرجل بالمثال الذى لايشك فيه للمحافظة على عفة المرأة ونقاء ذيلها .

لقد أحاط الاسلام المرأة بسياج من الكرامة والحرمة وأعلن النكير على قاذفي الاعراض ، وجعل عقوبة مقترفها قاسية رادعه تناسب ذلك الجرم الكبير ، وجعل مرتكبه أشد جرما من القتلة وقطاع الطرق . ولقد حفظ عرض الفرد من الكلمة التي يكرهها ولو كانت صادقة ، فكيف بالكلمة المفتراة . وفي الحديث : من ذكر امرءا بشيء ليس فيه ليعيبه به حبسه الله عليها في نار جهنم حتى يأتي بنفاذ ما قال فيه . وروى عن أم المؤمنين عائشة رضوان الله عليها انها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لاصحابه : تدرون أربى الربا عند الله ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : فان أربى الربا عند الله استحلال عرض امرىء مسلم . ثم قرأ رسول الله : (والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما أكتسبوا فقد احتملوا بهتانا وإثما مبينا) .

لقد عد الاسلام رمي المؤمنات العفيفات بالفاحشة من الكبائر السبعة الموبقات ، وها هو القرآن الكريم يذكر لنا جزاء هذه الزمرة المفسدة عند الله : (أن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم • يوم تشهد عليهم السنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ••• ان الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون) •

لقد أوجب الاسلام جلد هؤلاء المفترين ثمانين جلدة ، وطرح شهادتهم فلا تقبل لهم شهادة اذ كيف يؤتمن من لاذمة ولا مروءة له ، ووسمهم بميسم الفسق والفجور : (والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا باربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون) • فهذه ثلاث عقوبات ، جلد ونبذ وفسق • فاما الجلد فللزجر ولمقابلة الايذاء بالايذاء • وأما رد الشهادة فهي كما قيل عقوبة لسانية تشبه قطع يد السارق ، فكأنما روعي أن جزاء هذا اللسان الذى اقترف ذلك الاثم العظيم ان يهدر ويقطع أثره فلا يعتد بما يقوله ويشهد به فيما بين الناس ، فهو والعدم سواء واما تفسيقه فهو مبالغة في الزجر واشارة الى أن ما لقي من جزاء في الدنيا من الحد ورد الشهادة فلم يعفه من اعتباره فاسقا خارجاً عن أمر ربه وطاعة بارئه •

واما من رمى زوجته في عرضها فعليه أن يشهد أربع شهادات بالله انه لمن الصادقين فيما ادعاه ، والخامسة ان لعنة الله عليه أن كان من الكاذبين فان لم يشهد تلك الشهادات الخمس جلد ثمانين جلدة ولا تقبل له شهادة • وهذا كله ليحفظ للمرأة كرامتها ، ويصون لها شرفها وعرضها ويحول بين الافاكين الذين يلغون في أعراض الناس •

وان في حديث الافك ، وما أفاض الله في شأنه لموعظة وذكرى لقوم يعقلون •• وذلك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج الى غزوة بني

المصطلق واصطحب معه زوجه السيدة عائشة فلما فرغ من الغزاة وقفل راجعا الى المدينة ، نزل قريبا منها ، ثم أمر بالرحيل . فمشت عائشة حتى جاوزت الجيش لقضاء بعض شأنها ، ثم اقبلت الى رحلها فافتقدت عقدا لها كان في عنقها ، فرجعت تلتمسه حيث كانت ، فجاء الرهط الذى كانوا يحملون هودجها فرحلوه على بعيرها وهم يحسبونها فيه ، وكانت حديثة السن . خفيفة اللحم ، فلم يستنكر القوم خفة الهودج ، فلما وجدت عقدها ورجعت واذا بالجيش قد سار وليس بالمكان داع ولا مجيب ، فأمت المنزل الذى كانت به ظانة انهم سيرجعون اليها حين يفقدونها، فجلست حتى غلبها النوم، وكان صفوان بن المعطل السلمى يتخلف عن الجيش عادة ليتتبع منازلهم بعد رحيلهم عسى أن يكون أحدهم قد نسي شيئاً فيحمله الى المنزل الآخر، فلما اقبل عليها عرفها فاناخ راحلته بجوارها وولاها ظهره ، وأخذ يردد أنا لله وأنا اليه راجعون ، فاستيقظت ووجدت الراحلة بجنبها فركبتها ، وأخذ هو بزمام الناقة يقودها لكي لا يقع بصره عليها حتى وافى القوم ، وهم نزول في المنزل الآخر ، فمر بجماعة فيهم شيخ المنافقين عبدالله بن ابي سلول فسأل ، فقيل هذه عائشة ، فقال كلمة الافك وفتن كلامه جماعة .

فلما قدموا المدينة مرضت عائشة واستمر ذلك شهراً وهي لا تدري ما يقول الافاكون ، ثم اخبرتها أم مسطح بقالة القوم ، فاستأذنت رسول الله للذهاب لدار أبيها تريد أن تستيقن الخبر من قبلهما ، فاذن لها ، فأتت أمها وسألتها بما يتحدث الناس ، فقالت : يابنية هونى عليك فقلما كانت امرأة وضيئة عند رجل ولها ضرائر الا أكثرن عليها ، فقالت عائشة : سبحان الله، ولقد تحدث الناس بهذا . وملكها البكاء ليلتها لايرقاء لها دمع ولا تكتحل بنوم ، ومكثت هكذا ليلتين ويوما .

ثم ان الرسول صلى الله عليه وسلم اتى المسجد وصعد المنبر وقال

فيما خطب : يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني اذاه في اهل بيتي ؟ فوالله ما علمت على أهلي الا خيرا • يريد عبدالله بن ابي •

ثم دخل الرسول على عائشة وكلمها ، فما كان منها الا أن تقول : والله ما أجد لي ولكم مثلا الا قول العبد الصالح ابي يوسف : (فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون) • قالت عائشة : فوالله ما قام صلى الله عليه وسلم من مجلسه ولاخرج أحد من البيت حتى انزل الله الوحي على نبيه ، ثـم سـرى عنه وهو يضحك ، فقال : ابشرى يا عائشة ، اما والله لقد برأك الله، فقالت امها : قومي اليه ، فقالت لا أقوم ولا أحمد الا الله الـذى برأنى ، فنزلت عشر آيات تبرأة للمرأة الطاهرة ، وفيها سخطه تعالى ولعنته عـلى المرجفين ، ولومه وتأنيبه لمن سواهم ممن سمعوا قولهم فلم يردوهم وبرؤا الى الله منهم : (ان الذين جاؤا بالافك عصبة منكم لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم ، لكل امرء منهم ما اكتسب من الاثـم • والـذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم • لولا اذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بانفسـهم خيرا وقالوا هذا افك مبين) • الى آخر الآيات العشر من سورة النور •

لقد حازت عائشة رضي الله عنها شهادة ببراءتها يقينا واصبح التصديق ببراءتها وطهارتها جزءا من ايمان كل مؤمن ومن شك فيه فهو كافر •

ان هذا النكير أعلنه الله تبارك وتعالى على الافاكين الذين يتخذون الاتهام الكاذب ذريعة لخدش أعراض الناس والنكاية بهم ، تلك الطغمة التي تحب أن تشيع الفاحشة بين الناس •

ولا زال حفدتهم وورثتهم في مجتمعنا يتلذذون بثلم الاعراض والوقيعة بالابرياء ، ولا يسلم من خبثهم كبير ولا صغير • ينفس هؤلاء على الرجـل علمه ، أو ينقمون منه رأيه ، أو يحقدون عليه ظهور أمره ، أو يحسدونه على منصبه ومركزه ، فلا يجدون وسيلة للنيل منه ، الا الطعن في عرضـه،

والحط من شرفه وشرف أهله ، وكل هدف هؤلاء المجرمين تشويه قيم الناس والحط من مكانتهم ، الاساء ما يعملون ٠

جنبنا الله كيد الافاكين المرجفين ٠ ووفقنا للعمل الصالح انه سميع مجيب ٠

اخلاص المرأة لزوجها

ان الاسلام أوجب على الرجل صون كرامة المرأة وان ينزع من نفسه كرهها وبغضها ، كما أوجب عليها أن تحفظ عرض زوجها من أن يدنس، وشرفه من أن يمس ، وسره من أن يفشى ، وان تقف بجانبه تكافح وتنافح وتذود عنه الاذى ، وترد عنه العوادى ، وأن تعاشره على الوفاء له في حياته وبعد مماته ، وأن تكون كريمة مدة مقامها معه ، أو بعد مفارقتها اياه ٠

ان كتب التاريخ والسير لتروى الشيء الكثير من اخلاص المرأة المسلمة لزوجها في حياته وبعد مماته ، وانها لترى الوفاء لزوجها بعد الموت آثر مما تراه لابيها وأمها وذوى قرابتها ٠

لقد عمد بعضهن لتشويه مواطن الجمال ومواضع الحسن بعد وفاة أزواجهن حتى لا يطمع في زواجهن أحد ٠

فهذه نائلة بنت الفرافصة زوج سيدنا أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه قد كثر راغبوا الاقتران بها بعد استشهاد زوجها سيدنا عثمان، فأبت عليهم جميعا ومانعت في أن يقربها انسان بعد الخليفة المظلوم الذى تآمرت عليه القوى الشعوبية واليهودية وذوى الاطماع ٠ ولما خطبها معاوية

قالت : ما أعجب أمير المؤمنين مني ؟ قيل لها : حسن ثغرك وكانت كأحسن الناس ثغرا ، فدقت ثناياها وقالت : اذات ثغر تراتي بعد عثمان .

وقد حضرت نائلة هذه مصرع سيدنا عثمان ، والقت بنفسها عليه حين احاط به البغاة الفجرة وضربوها وقطعوا اصابعها من يدها ، فقامت بعد ذلك تحرض الناس ببلاغة لسانها على الاقتصاص من اولئك القتلة لئلا يذهب دم الخليفة هدرا ، ويكون سنة سيئة فيما بعد .

ثم قامت هذه الزوجة الوفية ترثي زوجها ، وخاطبت الناس بقولها : معاشر المؤمنة وأهل الملة لا تستكثروا مقامي ، ولا تستكثروا كلاميَ ، فاني حرى (عطشى) عبرى رزئت جليلا ، وتذوقت من عثمان بن عفان ثالث الاركان من أصحاب رسول الله . الى أن قالت : فلله هو ، فحين فقدتم سطوته وامنتم بطشه ، رأيتم ان الطريق قد انشبت لكم ، والسبيل قد اتصلت بكم ، ظننتم ان الله يصلح عمل المفسدين ، عدوتم عدوة الاعداء ، وشددتم شدة السفهاء على التقي ، الخفيف بكتاب الله عز وجل لسانا ، الثقيل عند الله ميزانا ، فسفكتم دمه ، واستحللتم منه الحرم الاربع ، حرمة الاسلام ، وحرمة الخلافة ، وحرمة الشهر الحرام ، وحرمة البلد الحرام ، فليعلمن الذين سعوا في أمره ، ودبوا في قتله ، ومنعونا من دفنه ، ان بئس للظالمين بدلا . وانهم شر مكاناً واضعف جندا ، ولتذكرن بعدها عثمان ولا عثمان ، هيهات والله ، ما مثله بموجود ، ولا مثل فعله بمعدود .

وبعد مقتل عثمان انفتح باب الشر على المسلمين ، وكان سببا في الفتن التي وقعت بعد ذلك ، كما انه كان سببا في زعزعة مكانة الخلافة من النفوس وازال عنها رونقها وحرمتها ، وهكذا كان .

ان المرأة لما تشربت تعاليم الاسلام ، قويت نفسها ، وسمت روحها ، وقوى ايمانها ووفت لزوجها ، وبادلته الحب والاخلاص ، وعملت طاقتها لابعاد ما يؤلمه ، أو يدخل الاساءة اليه .

واليكم واحدة من تلك النسوة اللاتي هذبها الاسلام ، وصقل شعورها وعواطفها ، فجعلها انسانا كامل الخلق والايمان .

يحدثنا انس بن مالك خادم رسول الله ، يحدثنا عن أمه ، أم سليم بنت ملحان الانصارية زوج أبي طلحة زيد بن سهل . قال انس : مرض أخ لي من أبي طلحة يدعى أبا عمير ، فبينهما أبو طلحة في المسجد مات الصبي أى عمير ، فهيأت أم سليم أمره وقالت : لاتخبروا أبا طلحة بموت ابنه فرجع من المسجد وقد تطيبت له وتصنعت ، فقال : ما فعل ابني ؟ قالت : هو اسكن مما كان ، وقدمت له عشاءه ، فتعشى هو وأصحابه الذين قدموا معه ، ثم أتما ليلتهما على أتم وأوفق ما يكون الزوجان . فلما كان آخر الليل قالت : ألم تر الى أهل فلان استعاروا عارية فتمتعوا بها ، فلما طلبت اليهم شق عليهم ؟ قال : ما أنصفوا ، قالت : فان ابنك فلانا كان عارية من الله فقبضه اليه ، فاسترجع وحمد الله وقال : والله لا أدعك تغلبينني على الصبر . حتى اذا أصبح غدا على رسول الله فلما رآه قال : بارك الله لكما في ليلتكما ، فأشتملت منذ الليلة على عبدالله بن أبي طلحة ، ولم يمت عبدالله حتى رزق عشرة بنين كلهم حفظ القرآن ، وأبلى في سبيل الله .

ولقد حدثوا أن مصعب بن الزبير لما تغلب على المختار بن أبي عبيد الثقفي وأستولى على الكوفة ، عرض جماعته فمن لم يقر بكفر المختار ويبرأ منه أطاح برأسه ، وكلما عرض واحد منهم برىء من المختار وأعلن كفره ، فعندئذ يطلق سراحه ، ولم يبق على عهده والوفاء له الا امرأته عمرة بنت النعمان بن بشير ، فقد قالت حين سئلت : أشهد لقد كان عبداً من عباده الصالحين . فأمر بها فقتلت ، ولم تفتد نفسها حين ضربت ثلاث مرات دون القتل .

كما ذكر أن خولة بنت منظور بن زيان زوجة عبدالله بن الزبير قد

خطبها عبدالملك بن مروان الخليفة الاموى بعد مقتل زوجها ، فأبت عليه ذلك ، وانحت على اسنانها تحطيما لتشوه أجمل ثغر ابدعه الله لتصرف الناس عنها .

وهذا هدبة بن الخشرم العذرى قد قتل رجلا من أبناء عمومته ، وكان للمقتول صبي لم يتجاوز الثامنة ، فاعتقل هدبة حتى يبلغ الصبي ، فان شاء رضي بالديه ، فلما بلغ الصبي ذهب اليه كثيرون يرغبونه في العفو ويتقدمون اليه بالديات حتى بلغ ما تقدموا به عشر ديات ، وكان ممن تقدموا بالدية الحسن بن علي وعبدالله بن جعفر وسعيد بن العاص ومروان بن الحكم ، كل ذلك لأن هدبه كان بطلا من أبطال العرب ومن فحول الشعراء ومن أوائل الخطباء ، وكان محدثا بديع السمر عذب الحديث ، لذلك حرص هؤلاء الافاضل على حياته ، ولكن الصبي أبي الا أن يقتل قاتل أبيه . ولما علم هدبة بأن لا مفر من القتل أخذ على زوجته الا تتزوج بعده أحمق ولا لئيما . وبعد أن فرغ من كلامه عمدت زوجه الى سكين فقطعت انفها ، وقالت : أفي مطمع لما تقوله بعد ذلك ، فقال : الآن طاب ورود الموت .

هذا قليل من كثير مما اتسمت به المرأة العربية المسلمة من اخلاص لزوجها وتفان في سبيله حتى ضرب بها المثل . ولعل فيه العبرة والعظمة للعاقات المتبرمات .

والله الهادى الى سواء السبيل .

البر بالامهات

لقد أجتمع للمرأة المسلمة من وسائل التربية ومجالات العمل ما لم يجتمع لاخرى ممن سواها ، فالاسلام أمعن في احترامها ، وأقر بتساوى حقها بالرجل • وقد بلغ بعضهن الغاية من التمسك بالدين وفرط اليقين ، مما جعلهن أعرف مخلوقات الله بتكوين الرجال ، والتأثير فيهم ، والنفاذ الى قلوبهم ، الى غير ذلك من الصفات الكريمة والاخلاق النبيلة ، ومن ذلك كان أبناء النابهات من النساء أنبل وأفضل من أبناء النابهين من الرجال •

وكان للمرأة أثر في الجهاد والدفاع عن الاسلام ، والاندفاع مع من اندفع في نشره ورفع لوائه وبث تعاليمه •

وان المرأة كأم قد أحاطها الاسلام بكثير من عنايته ورعايته ، لما لها من دور في بناء صرح الاسرة الاسلامية ، لذلك اهتم بحمايتها وأوجب على الرجل معاونتها ورعاية شؤونها وتوفير أسباب الراحة لها ، وأوجب على الابناء السمع والطاقة لها •

لقد كرم الاسلام الاومة ودعا الى احترامها ، لانه يمجد الاسرة ويقوى روابط أفرادها ويمكن بين أولئك الافراد أسباب المودة والالفة، ويشجع على الزواج الذى هو خير نظام اجتماعي صالح يوصل الى الاومة التي هي محل التقدير والتكريم • ولا تكون اومة الا مع نسل • يروى عن معقل بن يسار انه قال : جاء رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله أصبت امرأة ذات جمال وحسب ، وانها لاتلد ، افأتزوجها ؟ قال له الرسول : لا ، ثم أتاه الثانية فنهاه ، ثم أتاه الثالثة فقال : تزوجوا الودود الولود • فاني مكاثر بكم الامم •

لقد راعى الاسلام الام في أدوارها الاربعة : زوجة وحامل ومرضع ثم راعية وموجهة لمن أرضعته •

انه ينصح الرجل في مرحلة الزواج بأن يتخير ذات الدين لتكون الام المقبلـــة لولـده ٠

وبعد العلاقة الزوجية أوجب الاسلام على الرجل أن يرعاها ويعاملهـا بالحسنى حتى يتوفر لها الاطمئنان والسعادة ، فاذا حملت توفر لها ولحملها الصحة والنمو ، واذا قدر للحامل أن تنفصل عن زوجها وجب على الرجل الانفاق عليها طول مدة الحمل ٠ واذا ولدت الحامل لزم رعايتها ، وتسهيل متطلباتها لتقوم برعاية طفلها والسهر عليه وعلى صحته ونموه ، واذا قدر لها ان تنفصل عن زوجها وقت الرضاعة ٠ أوجب على الزوج النفقة مراعيـا ظروف الرضيع وظروف والدته التي ترضعه ٠ وحرص الاسلام على ان ترضع الام ابنها ليكون بذلك عواطف الترابط بين الطفل وامه ٠

ثم يأتي دور الحضانة واختصاص الام بها ، فاذا قدر لها الانفصـال من زوجها الزم الزوج بالانفاق على ولدها مدة قدرها الشارع حسب نوع المـولـود ٠

ثم يأتي دور توجيهها ، فاذا كانت ذات دين وجهت ولدها توجيهـا رسمه الاسلام وسلكت به المسلك القويم ، وهـــي بذلك ترضى الله تعالى والمجتمع الذى تعيش فيه ، وأرضت نفسها حيث قامت بتربية ولدها ووجهته وجهة صالحة تعود عليه بالسعادة والهناء ٠

لذلك أمر الشارع الحكيم بالبر بها وجعلـه في مقابلة الجهاد فـــي ســبيل الله ٠

روى عن انس بن مالك رضي الله عنه أن رجلا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : اني اشتهى الجهــاد ولا اقدر عليه ، فقال هـل بقى من والديك أحد ؟ قال أمي ، قال : قابل الله في برها ، فاذا فعلت ذلك فانت حاج ومعتمر ومجاهد ، وروى عن معاوية القشيري قال : قلت يا رسول الله من ابـر ؟ قال : امك ، قلت : ثم من ؟ قال : أمك ، قلت ثم من ؟

قال : أمك ، قلت ثم من ؟ قال : أباك ، ثم الاقرب فالاقرب . وفي رواية أخرى : جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، من أحق بحسن صحابتي ، قال : أمك ، قال ثم من ؟ قال : أمك ، قال ثم من ؟ قال أمك ، قال ثم من ؟ قال أبوك .

فيؤخذ من هذه الاحاديث على أن منزلة الام ونصيبها من الرعاية أضعاف ما للأب ، فقد ذكر الرسول الأم مرات ثلاثا ، وذكر الأب مرة واحدة ، لأن مشقة الحمل ، ومشقة الوضع ، وتعب الرضاع ، والتربية الاولى ، تنفرد بها الام وحدها ، ولا يقوم الاب بأى منها .

روى عن أبي سعيد سعد بن مالك الخدرى انه قال : هاجر رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم من اليمن واراد الجهاد ، فقال عليه الصلاة والسلام : هل باليمن أبواك ؟ قال : نعم ، قال : هل أذنا لك ؟ قال : لا ، فقال عليه الصلاة والسلام : فارجع الى أبويك فأستأذنهما فأن فعلا فجاهد والا فبرهما فأن ذلك خير ما تلقى الله به بعد التوحيد .

ومما يؤثر ان رجلا كان له أم كبرت عنده فطفق يخدمها بنفسه . ويسهر على راحتها ، ويقضي جميع حوائجها ، ويؤكلها بيده ، وقد طلبت منه الحج الى بيت الله الحرام ، فحملها على كتفيه وسار بها حاجا ، وبينما يطوف بها حول الكعبة ، اذ أبصر عبدالله بن عمر رضي الله عنهما ، فقال له : اترى انه قد بقي لامي علي من حق ؟ وذكر له خدماته معها ، فقال له عبدالله : نعم لا يزال حق الام قائما عليك ، فانك تفعل معها ذلك وأنت تتمنى لها الموت والفناء ، اما هي فكانت تفعل ذلك وهي تتمنى لك الدوام والسعادة والبقاء .

واليكم ما جاء في صحيحى البخارى ومسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم انبأ أصحابه رضوان الله عليهم بظهور رجل وكشف عن سناء

منزلته عند الله ورسوله لبره بأمه هو اويس بن عامر القرنى ، فأخذ البررة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يلتمسون التعرف عليه ، فكان عمر ابن الخطاب رضي الله عنه اذا أتى عليه امداد أهل اليمن سألهم : أفيكم اويس بن عامر ، حتى أتى على اويس بن عامر فقال له : أنت اويس بن عامر فقال له : نعم ، قال : من مراد ، قال : نعم قال عمر : كان بك برص فبرأت منه الا موضع درهم ، قال اويس : نعم ، قال عمر : هل لك والدة ؟ قال : نعم ، قال عمر : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يأتي عليكم اويس بن عامر مع امداد اليمن من مراد ثم من قرن ، كان به أثر برص فبرأ منه الا موضع درهم ، له والده هو بار بها ، لو أقسم على الله لابره ، فان استطعت أن يستغفر لك فافعل ، فاستغفر لي • فاستغفر له • فقال له عمر : أين تريد ؟ قال الكوفة، قال : الا أكتب لك الى عاملها ؟ قال : أكون في غبراء الناس أحب الي •

لقد أوصى الله تبارك وتعالى الانسان بوالديه عامة ، وخص الام بالعطف والرعاية لما تحملته من مشقة في تربيته والسهر على راحته ، وان أسعد وقت لديها هو الوقت الذى تراه مبتسما مسرورا صحيح الجسم ذكي العقل ، حسن الخلق ، فصيح اللسان ، تغذيه بكل ما تملكه من غال ورخيص ، الى غير ذلك من العطف والحب ، فهل ينسى الابن حسن صنيعها هذا وهل يجحد جميلها أو ينكر معروفها •

فالاسلام دافع عن الام دفاعا مجيدا ، ورفع شأنها ، وجعلها موضع الاجلال والاكرام ، والتبجيل والتوقير ، وأوجب خدمتها في كل حال لتكون حياتها بعد تلك المشاق هانئة سعيدة ، وخاصة اذا تقدمت بها السن ونال منها الكبر • وليردد في كل وقت وحين •

(رب ارحمهما كما ربياني صغيرا) •

عقـوق الوالديـــن

روى الطبراني في الكبير والحاكم في مستدركه عن أبي بكرة نقيـع بن مسروح الثقفي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال : كل الذنوب يؤخر الله تعالى ماشاء منها الى يوم القيامة الا عقوق الوالدين فان الله يعجله لصاحبه في الحياة الدنيا قبل الممات ٠

وفي حديث آخر : رضا الرب في رضا الوالدين ٠ وسخط الرب في سخط الوالدين ٠

قضت الفطرة السليمة بأن الوالدين لهما حقوق على أولادهما لايمكن أن يفوا بجزء منها ٠ اذ هم مدينون لهما بتربيتهم وتنشئتهم ورعايتهم ٠ وان يذكروا كم بذل الابوان في سبيل راحتهم وأسعادهم من جهد وسهر وحنان ٠

ثم ليذكر الولد من رعاه ، من أطعمه وسقاه ، ومن علمـه ورباه ، ومن بذل راحته لهناه ، ليذكر الولد من ضحى بسعادته ، واحتمل العنـاء في سـبيله ٠

ولقد صدق من قال : انه لا يوجد في الحياة من يعتبر بحق مثـال التضحية الصامتة الصابرة ، المثابرة الراضية المطمئنة كالوالدين بالنسـبة لولدهما ، لذلك كان برهما مقتضى الفطرة ، لانه شكر للنعمة واعتراف بالجميل ٠

لقد أمر الشارع الحكيم بالاحسان الى الوالدين في غير موضع مـن الكتاب الكريم وجعل تعالى طاعتهما مقرونة بطاعته ، وقضى بالبر اليهمـا بجانب عبادته ، وأعلن عن رضـاء في رضائهمـا وعن سـخطه فـي سخطهما ٠ كما ورد في الحديث الشريف : رضا الرب في رضا الوالدين ، لأن الوالدين سبب وجود الانسان وهما مصدر البر والرحمة والحنـان ،

فالام التي رأت أنواع المشقة والآلام في سبيل اسعاده والوالد يشقى ليوفر لولده حياة الرغد والامن والاستقامة .

لذلك حرص الاسلام على رضا الوالدين ، وجعل حتى التطوع للجهاد بغير اذنهما لايجدي نفعا . فقد روى أن رجلا جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم واستأذنه في الجهاد فقال له رسول الله : احي والداك ؟ قال : نعم ، قال رسول الله : ففيهما فجاهد ، فبرهما ورعايتهما جهاد .. وفي رواية أخرى : اقبل رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ابايعك على الهجرة والجهاد ابتغى الاجر من الله ، فقال له الرسول : فهل من والديك أحد حي ؟ قال : نعم ، بل كلاهما حي ، قال : افتبتغي الاجر من الله ؟ قال: نعم ، قال : فارجع الى والديك فاحسن صحبتهما ... وروى عنه صلوات الله وسلامه عليه انه قال : رغم انفه رغم أنفه رغم أنفه ، قيل : من هو يا رسول الله ؟ قال : من أدرك والديه عند الكبر أو أحدهما ثم لم يدخل الجنة ... وفي رواية أخرى : ثم لايدخلونه الجنة .. وفي حديث آخر : الوالد أوسط أبواب الجنة ، فحافظ على ذلك ان شئت أودع .

وعن أسماء بنت ابى بكر الصديق رضي الله عنها قالت : قدمت أمي وهي مشركة في عهد قريش ومدتهم ، اذ عاهدوا النبي صلى الله عليه وسلم مع أبيها ، فاستفتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت : ان امي قدمت وهي راغبة ـ اى في برى واحساني ـ أفأصلها ؟ فاجابها النبي : نعم صلي اميك .

فالرسول يأمر أسماء ان تصل امها مع انها مشركة . وقد أوصى الله تبارك وتعالى بهما مع عدم ايمانهما : (وان جاهداك على ان تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً) .

وقد جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم البر باصدقاء الاب من أبر البر حيث يقول : أن من ابر البر صلة الرجل أهل أبيه بعد أن يولى .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يهدى لصديقات السيدة خديجة بعد وفاتها براً بها ووفاء لها وهي زوجته ، فكيف بالوالدين • وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : احفظ ود أبيك •

روى عن ابي اسيد الانصارى : ان رجلا جاء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، وهل بقي من بر والدى بعد موتهما شيء ابرهما به ؟ قال : نعم الصلاة عليهما ، والاستغفار لهما ، وانفاذ عهدهما ، وأكرام صديقيهما •

فرضاء الابوين يعود على الابن بالخير العميم ، وهو طريق يصل به الى الجنة • فقد قال عليه الصلاة والسلام : من أمسى مرضيا لوالديه ، امسى وأصبح وله بابان مفتوحان من الجنة •

قدم كلاب بن اميه بن الاسكر الى المدينة ، وسأل أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب رضوان الله عليه الجهاد ، فأغزاه في جيش العراق ، وكان أمية أبو كلاب قد كبر وضعف • ولما علم بتوجه ابنه الى العراق أخذ يتوجع وينشد القصائد ويذكر فيها ضعفه وحزنه لفراق ولده كلاب البار به •

ثم اتى أميه الى عمر رضي الله عنه وهو في مسجد رسول الله وحوله المهاجرون والانصار فوقف عليه وانشأ يقول :

اعاذل قد عذلت بغير علم	ولا تدرين عاذل ما الاقي
فأما كنت عاذلتي فردى	كلابا اذ توجه للعراق
ولم أقض اللبانة من كلاب	غداة غيد واذن بالفراق
سأستعدى على الفاروق ربا	له حج الحجيج على اتساق
وأدعو الله مجتهدا عليه	ببطن الاخشبين الى دقاق[1]

---

(١) الاخشبان : جبلا مكة ابو قبيس والاحمر • والدقاق: موضع أو واد

وعندما سمع عمر أبياته كتب الى سعد بن أبي وقاص ان رحل كلابا، فرحله الى المدينة ، ولما مثل بين يدى عمر قال له : ما بلغ من برك بأبيك ؟ قال : كنت ابره وانفذ أمره ، وكنت اعتمد ـ اذا أردت أن أحلى لبنا ـ أغزر ناقة من ابله واسمنها فأسقيه •

فبعث عمر الى أمية من جاء به اليه ، فأدخله يتهادى ، وقد ضعف بصره وانحنى ، فقال له : كيف أنت يا ابا كلاب ؟ قال : كما تراني يا أمير المؤمنين ، قال عمر : فهل لك من حاجة ؟ قال : نعم اشتهى ان ارى كلابا فأشمه واضمه ضمة قبل أن أموت ، فبكى عمر ، ثم قال له : ستبلغ من هذا ما تحب ان شاء الله تعالى •

ثم أمر كلابا أن يحتلب لابيه ناقة كما كان يفعل ويبعث اليه بلبنها ففعل ، فناوله عمر الاناء وقال : دونك هذا يا ابا كلاب ، فلما أخذه وادناه الى فمه ، قال : نعم والله يا أمير المؤمنين ، اني لأشم رائحة كلاب من هذا الاناء ، فبكى عمر وقال : هذا كلاب عندك حاضرا ، قد جئناك به ، فوثب اليه وضمه اليه وقبله ، وقال عمر لكلاب : الزم أبويك فجاهد فيهما ما بقيا •

هكذا كان يفعل الابناء بالآباء ، فالى هذه الفضيلة أدعو ابناءنا والله الموفق والمعين •

بـر الوالدين

وروى الامام أحمد عن عمر بن مرة الجنهي قال : جاء رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله ، شهدت الا اله الا الله وانك رسول الله، وصليت الخمس ، واديت زكاة مالي ، وصمت رمضان، مالى ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : من مات على هذا كان مع النبيين والصديقين والشهداء يوم القيامة هكذا ـ ونصب أصبعيه ـ ما لم يعق والديه •

فهذا الحديث يدل على أن عقوق الوالدين لا ينفع معه اى طاعة ، اذ به يستحق سخط الله وعذابه في الحياة وبعد الممات . لانه خلط عمله الصالح بأسوأ السيئات في الاسلام .

وعقوق الوالدين هو اهمال حقوقهما ، والخروج عن طاعتهما ، وفعل ما لا يرضيهما ، وايذاؤهما ولو بكلمة مرة ، أو نظرة شزره ، فمن فعل شيئا من هذا استحق سخط الله ، وحرم معونته ، واضاع ثواب ما عمله من حسنات ، ولقد قال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : ثلاث لاينفع معهن عمل ، الشرك بالله ، وعقوق الوالدين ، والفرار يوم الزحف ، لأن من اعق والديه ، فقد اساء الى من أحسن اليه ، وعامل بالقسوة أشد الناس به رحمة ، وهكذا يدل على خبث في النفس ، ودناءة في الخلق . فعاق الوالدين لاخير فيه لاحد ، لأن الذى يضيع حق أعز الناس عليه لا يؤمن على حق أحد .

لقد جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم عقوق الوالدين من أكبر الكبائر ، وان مرتبته بعد الشرك بالله . فقد قال لاصحابه : الا انبئكم باكبر الكبائر ؟ ثلاثا ، قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : الاشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وكان متكئا فجلس فقال : الا وقول الزور ، وشهادة الزور .. وقال صلوات الله وسلامه عليه : ثلاثة لايدخلون الجنة . العاق لوالديه ، والديوث والرجلة . ـ اى المتشبهة بالرجال ـ . وفي رواية اخرى : ثلاثة لا ينظر الله اليهم يوم القيامة العاق لوالديه ، والمدمن الخمر . والمنان عطاؤه ، وثلاثة لا يدخلون الجنة ، العاق لوالديه والديوث ، والرجلة ـ اى المترجلة ـ وقال : كل الذنوب يؤخر الله منها ما شاء الى يوم القيامة الاعقوق الوالدين فان الله يعجله لصاحبه في الحياة قبل الممات .

وروى عن انس بن مالك رضي الله عنه ان شابا على عهد رسول الله

صلى الله عليه وسلم يسمى علقمة مرض واشتد مرضه ، فقيل له : قل لا اله الا الله فلم ينطق لسانه ، فاخبر بذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال: هل له أبوان ؟ فقيل : مات أبوه وله أم كبيرة ، فارسل اليها رسول الله ، فجاءت فسألها عن حال ابنها فقالت : كان يصلى كذا وكذا ، وكان يتصدق بجمله دراهم ما ندرى وزنها ولا عددها ، فقال لها الرسول : فما حالك وحاله ؟ قالت أنا عليه ساخطة واجدة ـ غاضبة ، قال لها : ولم ذلك ؟ قالت : كان يؤثر علي امرأته ، ويطيعها في الاشياء ، فقال رسول الله : سخط أمه حجب لسانه عن شهادة الا اله الا الله ، ثم قال لبلال : انطلق واجمع حطبا كثيرا حتى احرقه بالنار ، فقالت أمه : يا رسول الله ابني وثمرة فؤادى تحرقه بالنار بين يدى ، وكيف يحتمل قلبي ذلك ؟ فقال لها الرسول: يسرك ان يغفر له ، فارضى عنه ، فوالذى نفسى بيده ، لا ينتفع بصلاته ولا بصدقته ولا بصومه ما دمت عليه ساخطة ، فرفعت يدها وقالت : اشهد الله تعالى في سمائه وانت يا رسول الله ومن حضر اني قد رضيت عنه فقال رسول الله ، انطلق يا بلال فانظر هل يستطيع علقمة أن يقول لا اله الا الله فلعل أمه تكلمت بما ليس في قلبها حياء من رسول الله ، فانطلق بلال ، فلما انتهى الى الباب سمع علقمة يقول لا اله الا الله ومات من يومه .

ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه ، قيل يا رسول الله ، وكيف يلعن الرجل والديه؟ قال: يسب الرجل ابا الرجل فيسب اباه ويسب أمه ، لأن المشتوم يكون في حالة تأثر وانفعال يستحيل معهما أن يقابل ما لحقه من اذى واهانة بالصمت والسكوت ، بل لابد له من أن يثأر وينتقم ، فيرد على الشاتم بما يشفى غلته، ويطفى غيضه فيكون البادىء والبادى أظلم ، لذلك يجب الابتعاد عن كل ما يجلب لهما الاذى والاساءة ولو بطريق التسبب .

ثم ان الذى يسىء الى والديه لا يرجى منه الاحسان الى أن انسان ، وكيف يرجى منه الاحسان للغير ولم يحسن الى من رباه صغيرا ، ونسي عطفهما وعنايتهما ورعايتهما مما يدل على دناءة نفسه وخسة طبعه •

لقد جمع القرآن الكريم بين عبادة الله والامر بالاحسان الى الابوين ، والصبر على خدمتهما ، والتفاني في رضائهما ، وخفض الصوت امامهما ، ولكن يوجد أبناء لا يقدرون شرف الابوة • ولم يؤثر فيهم معروف الامومة فتنكروا لآبائهم ، وعقوا أمهاتهم ، وطردوهم من بيوتهم ارضاء لزوجاتهم • وترى المحاكم الشرعية مشغولة بفرض النفقات على الاولاد العاقين لآبائهم الضعفاء العاجزين •

وقد ذكر الفقهاء بأن النفقة لا تجب الا على ذا يسار بحيث يفضل عن حاجاته الاصلية الا الابوين فانه لا يشترط ان يكون الولد بالنسبة لابويه متيسرا ما دام قادرا على العمل لكي يعينهما في شيخوختهما • وان لم يكن في كسبه ما يفضل لهما ضمهما اليه وأكل معهما مما يكسب قليلا كان أو كثيرا ، وذلك لأن القرآن الكريم نهى الولد ان يتأفف من أبويه اذا بلغا عنده الكبر واذا كان لا يسوغ له ان يتأفف منهما ، فأولى الا يتركهما جائعين •

ومن المقررات الشرعية ان كسب الولد كسب لابيه • شكا رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم اباه•وانه يأخذ ماله،فدعابه،فاذا هو شيخ يتوكأ على عصا ، فسأله فقال : انه كان ضعيفا وانا قوى ، وفقيرا وأنا غنى فكنت لأمنعه شيئا من مالي • واليوم أنا ضعفت وهو قوى وأنا فقير وهو غني ، وهو يبخل علي بماله • فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : ما من حجر ولا مدر يسمع هذا الا بكى ، ثم قال لولده : انت ومالك لابيك • لأن بين الاب والام وأولادهما شركة طبيعية ، فكما أن للولد حقا في مال أبيه ، فكذلك العكس•

وان النفقة تجب مع اختلاف الدين اذا كانت نفقة الاصول والفروع. فنفقة الأب على ابنه ولو اختلف دينه ، ونفقة الابن على أبيه ولو اختلف الديـــن •

ان حقوق الابوين على أولادهم لا يحدها حد ، ولا يفيهما عطف أو عطاء ، لانهما بذلا شبابهما وراحتهما وعافيتهما في سبيل اسعاد أولادهم والسهر على راحتهم ، فمهما عمل الاولاد فهو جزء ضئيل من حقوقهما •

ولنختم هذه الكلمة بشكاة الشاعر الجاهلي دريد بن الصمة من ولده الذي بنى آماله كلها على رعايته وسد حاجاته عند شيخوخته ، ولكنه كان على النقيض من ذلك • فقال معاتبا على ذلك الولد العاق الناكر للجميل :

غذوتـك مولودا وعلتك يافعـا — نعل بمـا أدني اليك وتنهـل
اذا ليلة نابتك بالشكو لم ابت — لشكواك الا سـاهرا اتململ
كأنني انا المطروق دونك بالذي — طرقت بـه دوني فعيني تهمـل
تخاف الردى نفسي عليك وانها — لتعلم أن الموت وقت مؤجـل
فلما بلغت السن والغايـة التي — اليها مدى ما كنت فيك أومـل
جعلت جزائي منك جبها وغلظة — كأنك أنت المنعـم المتفضـل
فليتك اذ لم ترع حـق ابوتـي — فعلت كما الجار المجاور يفعـل

حب الولد من الفطره

لقد عد القرآن الكريم الولد الذي هو ثمرة الزواج ونتاجه مـن النعم التي تبهج الحياة وتحقق السعادة : (المال والبنون زينـة الحيـاة الدنيا) • وذكر أن الاولاد والحفدة منة من الله بها على الناس واتبع هذه

المنة بأن الخالق انما هو الرازق لا المخلوق : (والله جعل لكم من انفسكم أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات) •

وقد عاب بعض الناس طلب الاولاد لانهم مشغلة مجبنة لذلك يحجمون عن الزواج أو يستخدمون الوسائل للتخلص من الاولاد •

وقد فات عن تفكير هؤلاء أن حب الولد فطرة في الانسان ، بل في كل نفس حيه ، لأن فيه بقاء النوع ، وذكرى والديه •

ان هؤلاء يقاومون الفطرة التي لاينازعها الدين ، ويقاومون النظم الكونية التي فيها عمارتها ، وان الاقلال من الاولاد مدعاة لانكماش الدولة وانتقاص للجماعة •

واذا كان حب الولد فطرة ، فليس اطوع للفطرة من صاحب الدين• وقد أكثر الانبياء من الاولاد ودعوا الله تعالى ان يمن بهم عليهم •

فهذا نبي الله زكريا عليه السلام بلغ من العمر ما بلغ ، واصبحت زوجته عاقرا لا تطمع في المخاض ، ولكن الامل – كما يقول أحد الافاضل – وتحكم الفطرة ودافع الغريزة ، كلها لاتدع – زكريا ليستسلم لليأس من الولد ، أو الزهادة فيه ، كما أن دينه الحق لا يمنعه ان يدعو الى الله ان يرزقه الذرية ، واظهر في دعائه عجزه وضعفه : (رب اني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك رب شقيا) • ويضرع الى الله مناديا : (رب هب لي من لدنك ذرية طيبة انك سميع الدعاء ، وذكر القرآن الكريم صيغا عدة لدعاء زكريا • وقد استجاب الله تعالى دعاءه ونودى : (يا زكريا انا نبشرك بغلام اسمه يحي لم نجعل له من قبل سميا) • وعرفه بأنه سيكون سيدا في قومهوحصورا عن النساء، وانه سيكون نبيا من الصالحين•

ومهما قاس الناس المصاعب والمتاعب في كفالة الاولاد وتعهدهم فلن تخف في نفوسهم الرغبة نحوهم والحنين اليهم •

لقد وضع الله سبحانه وتعالى عاطفة الحب والشفقة في قلوب الأباء ، تلك العاطفة التي تحمل الأم على الاستهانة بشتى المتاعب في سبيل راحة طفلها ، وتجعل الأب يكد بياض يومه وربما سهر شطرا من ليله في السعي على أطفاله ، وتوفير أسباب الراحة لهم ، وكلما تذكر أطفاله وحاجتهم اليه يغض على الأذى ، ويتقبل ما لم يكن يتقبل ايسره •

ولقد بلغت عاطفة الابوة ببعض الناس ان صرفتهم عن الواجب وحببت اليهم الحياة ، وجعلتهم يقاسون الأهوال ويقتحمون الصعاب ، كما اقعدتهم عن الخروج الى الجهاد للذب عن بلادهم وعقيدتهم •

فهذا أبو خالد القناني يقعد به عن الجهاد الخوف على بناته فيقول :

لقد زاد الحياة الي حباً	بناتي انهن من الضعاف
أحاذر أن يرين الفقر بعدي	وان يشربن رنقاً بعد صاف
ولو لا ذاك قد سومت مهرى	وفي الرحمن للضعفاء كاف
أبانا من لنا ان غبت عنا	وصار الحي بعدك في اختلاف

وهذا اسحاق بن خلف يقول :

لو لا أميمة لم أجزع من العدم	ولم أقاس الدجى في حندس الظلم
وزادنى رغبة في العيش معرفتى	ذل اليتيمة يجفوها ذوو الرحم
أحاذر الفقر يوما أن يلم بها	فيهتك الستر عن لحم على وضم

ويقول حبيبة البصرى حين خرج للجهاد :

فكرت في بناتي فقلت لأمسكن عن الخروج الليلة لتفقدهن ، فلما كنت في جوف الليل استسقت بنية لى ، فقالت : يا أبت اسقنى ، فلم أقم ، فلما كانت الثانية ، قامت أخية لها أسن منها فسقتها ، فصممت على الخروج، وعلمت أن الله غير مضيعهن •

والولد كما قيل على سر ابيه ، وحامل خصائصه ، وهو في حياته قرة

عينه ، وهو بعد مماته امتداد لوجوده ، ومظهر لخلوده ، يرث منه الملامح والسمات ، والخصائص والمميزات ، وهو بضعة من قلبه ، وفلذة من كبده ، وريح الولد من ريح الجنة .

ووصف الاولاد بانهم ثمرات الحياة ، والعدة في الحياة وبعد الممات ، بل هم أعز الامانات واغلاها ، جديرة بالحفظ والرعاية ، واللطف والعناية ، وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يلاعب الاطفال ويلاطفهم ، وحمل طفلا وهو يصلى ، وانهض طفلا من عثرة عثرها وهو يخطب ، وغسل بيده وجه اسامة بن زيد وهو صبي ، حتى انه كان يقول: من كان له صبي فليتصاب له . اى يكون معه كما يكون الصبي مع الصبي ملاطفة له وايناسا وقد قال صلوات الله وسلامه عليه : بيت لاصبيان فيه لا بركة فيه .

ولقد قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضوان الله عليه لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله ، ما بالنا نرق على أولادنا ولا يرقون علينا ؟ فقال صلوات الله وسلامه عليه : لاننا ولدناهم ولم يلدونا .

قدم ناس من العرب على رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألوا الاصحاب بحضرة من رسول الله : تقبلون صبيانكم ؟ فقالوا نعم ، فقال الاعراب : لكننا والله لا نقبل ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : او أملك أن كان نزع من قلوبكم الرحمة فحب الولد فطرة في الانسان ، وفي كل نفس حية ، غريزة بقاء النوع ، وذلك ما تقتضيه السنة الكونية .

وقد افتتن بعضهم بالابناء والخوف على البنات . ومن اولئك حطان بن المعلى حيث يقول :

ولو لا بنيات كزغب القطا ... رددن من بعض الى بعض
لكان لي مضطرب واسع ... في الارض ذات الطول والعرض
وانما أولادنا بيننا ... أكبادنا تمشى على الارض
لو هبت الريح على بعضهم ... لامتنعت عيني عن الغمض

قال معاوية للاحنف بن قيس : ما تقول في الولد ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، ثمار قلوبنا ، وعماد ظهورنا ، ونحن لهم أرض ذليلة ، وبهم نصول على كل جليلة ، فان طلبوا فاعطهم وان غضبوا فارضهم ، يمنحوك ودهم ، ويحبوك جهدهم ، ولاتكن عليهم قفلا ثقيلا فيملوا حياتك ، ويودوا وفاتك ، ويكرهوا قربك ، فقال معاوية : لله أنت يا أحنف ، لقد ارضيتني عمن سخطت عليه من ولدى . ثم وصله وأكرمه .

وقد عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بالولاية لواحد من الناس ، وبينما هو في مجلسه اذ اقبل صبي لعمر فجلس في حجره ، فهش في وجهه وقبله فما كان من ذلك المرشح للولاية الا ان يبادر عمر بقوله : اتقبل هذا يا أمير المؤمنين ؟ .

ان لي عشرة أولاد ما قبلت واحداً منهم ، ولا دنا أحد مني ، فقال له عمر: ما جريرتنا نحن ان كان الله عز وجل نزع الرحمة من قلبك ، انما يرحم الله من عباده الرحماء . ثم أمر عمر ان يمزق كتاب الولاية وهو يقول :

انه لم يرحم أولاده . فكيف يرحم الرعية .

فهذا المسكين يتفاخر بأنه رجل مهيب يترفع عن العطف على أولاده فرد بأن هذه قسوة لا يحبها الله ولا يرحم صاحبها ، وانما يرحم الله من عباده الرحماء .

هدانا الله جميعا للتأدب بآداب الاسلام ، والتخلق باخلاق سلفنا الصالح انه سميع مجيب .

العدل بين الاولاد

ولكي يكون الاولاد زينة الحياة الدنيا ، وعملا صالحا في الاخرى ، اوجب الأسلام على الآباء رعاية ابنائهم ، وتربيتهم تربية أساسها الدين والخلق القويم لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : مروا أولادكم بالصلاة وهم ابناء سبع سنين • وأضربوهم عليها وهم أبناء عشر سنين ، وفرقوا بينهم في المضاجع ، كل ذلك ليتعودوا على الطاعة والانقياد ، وان يكون التاديب بالرفق واللين • لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان الرفق لا يكون في شىء الا زانه ولا ينزع من شىء الا شانه •• وقال : اكرموا أولادكم ، واحسنوا ادابهم ، فان أولادكم هدية الله تعالى •

روى أبو حفص عمر بن ابي سلمه ربيب رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال : كنت غلاما في حجر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت يدى تطيش في الصفحة ـ اى تدور في نواحى طبق الطعام ـ فقال لي رسول الله : يا غلام سم الله تعالى وكل بيمينك ، وكل مما يليك ، فما زالت تلك طعمتى وحالة أكلي •

ولكي يكون الولد ثمرة طيبة ، وذكرا حسنا ، وذخيرة عند الله تعالى ، يجب تنشئته على الآداب والفضائل، لان من شب على شيء شاب عليه، وقديما قال الامام الغزالي : كما ان البدن في الابتداء لا يخلق كاملا • وانما يكمل ويقوى بالنشوء والتربية والغذاء ، فكذلك النفس تخلق ناقصة قابلة للكمال، وانما تكمل بالتربية وتهذيب الاخلاق والتغذية بالعلم ، والصبي اذا أهمل في ابتداء نشوئه ، خرج في الاغلب ردىء الاخلاق كذابا حسودا سروقا نماما لحوحاً ذا فضول وكياد ، وانما يحفظ من جميع ذلك بحسن التأديب

الذى يجعله متعة الحياة ، وعونا على شئونها ، وذخرا بعد الممات ، لأن الولد الصالح كله خير لابويه في حياتهم وبعد مماتهم • وقد قال عبدالله بن عباس عند تفسيره لقول الله تعالى : (يا أيها الذين آمنو قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة) ، اعملوا بطاعة الله ، واتقوا معاصى الله ومروا أولادكم بامتثال الاوامر واجتناب النواهي ، فذلك وقاية لكم ولهم من النار • وفي الحديث الشريف : ان الله تعالى سائل كل راع عما استرعاه حفظ ام ضيع ، حتى يسأل الرجل عن أهل بيته •

ثم لا فرق في الحب بين الذكور والاناث ، وكذا في العطية حتى يكونوا له في البر سواء • وفي الاثر : ان الله يحب أن تعدلوا بين أولادكم حتى في القبل •

ومثله : ساووا بين أولادكم في العطيه• وذلك خشيةالتنافس والتحاسد بين الاولاد •

ويحرم على الاب أن يؤثر أحد أولاده بمنحة أو عطية لقول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : اعدلوا بين ابنائكم • اعدلوا بين أبنائكم ، اعدلوا بين أبنائكم • قال ذلك عندما طلبت عمرة بنت رواحه امرأة بشير بن سعد الانصارى من زوجها ان يخص ولدها النعمان بن بشير بمنحة فيهب له غلاما كان يملكه دون أخوانه • وطلبت منه أن يشهد عليه رسول الله فذهب بشير الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له : يا رسول الله ، ان ابنة فلان – يعنى زوجته – سألتني ان انحل ابنها غلامى ، فقال صلوات الله وسلامه عليه : له اخوة ؟ قال نعم • قال : فكلهم اعطيت مثل ما أعطيته ؟ قال لا ، قال الرسول : فليس يصلح هذا ، وانني لا أشهد الا على حق ، لا تشهدني على جور ، ان لبنيك عليك من الحق ان تعدل بينهم ، كما لك عليهم من الحق ان يعدلوا لك في البر ، اتقوا الله واعدلوا في أولادكم ،

أيسرك أن يكونوا لك في البر سواء ؟ قال : نعم ، قال الرسول : فلا أأذن ، وأمره برد العطيه . فرجع بشير في عطيته .

ان تفضيل أحد الاولاد على اخوانه بشيء من المال قد منعه الشارع الحكيم ، لما يترتب عليه من مفاسد اجتماعية ، اذ يوغر ذلك صدر الاخ على أخيه . وصدر الاخت على اختها وصدريهما على ابيهما ، فتتفرق بذلك الاسر . وتشتعل نار العداوة والبغضاء بين الاهل والاقارب . وقد ورد في الاثر : رحم الله والدا أعان ولده على بره . ومثله : اعينوا أولادكم على بركم . من شاء استخرج العقوق من ولده .

وهذا كله اذا لم يكن سبب للتفضيل بين الاولاد . فقد ذهب بعض العلماء ومنهم الحنابلة الى جواز تخصيص بعض الاولاد دون أخوانهم اذا كانوا بحاجة اليه . كالزمانة والعمى . أو كثرة العائلة أو الاشتغال بالعلم ، كما أجازوا منع عطية الوالد عن بعض ولده لفسقه أو بدعته .

ولقد أوصى عليه الصلاة والسلام بالبنات خيرا فقال : من كان له ابنة فأدبها فاحسن تأديبها ، وغذاها وأسبغ عليها من النعمة التي اسبغ الله عليه كانت له ميمنة وميسرة من النار الى الجنة .. وفي حديث آخر : من كانت له ابنة فأدبها فأحسن تأديبها ، ورباها فاحسن تربيتها ، وغذاها فأحسن تغذيتها ، كانت له وقاية وجنة من النار .. وقال : ما من أحد يدرك ابنتين فيحسن اليهما ما صحبتاه الا أدخلتاه الجنة .

وفي هذا ردع لأولئك الذين تكفهر وجوههم ، وتنتفخ أوداجهم اذا بشروا بالانثى ، ويهجر البعض منهم نساءهم . كانهن اللاتى خلقنهن (واذا بشر أحدهم بالانثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم . يتوارى من القوم من سوء ما بشر به . ايمسكه على هون أم يدسه في التراب الاساء ما يحكمون) .

لقد حرم الاسلام على الوالد أن ينكر ولدا ولدته زوجته في فراشه لأن انكاره هذا يلحق أكبر ضرر ، واقبح العار بالزوجة والولد ، فلا يباح له الاقدام على ذلك لشك عارض ، أووهم طارىء ، أو اشاعة خبيثة • اما اذا جزم على خيانة امرأته للادلة والقرائن ، فقد جعلت الشريعة له مخرجا من ذلك • فأباحت له (اللعان) وقد فصل ذلك القرآن الكريم في سورة النور (والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء الا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله انه لمن الصادقين • والخامسة ان لعنة الله عليه ان كان من الكاذبين • ويدرؤ عنها العذاب ان تشهد أربع شهادات بالله انه لمن الكاذبين والخامسة ان غضب الله عليها ان كان من الصادقين) • وبعد ذلك يفرق بينهما ويلحق الولد بأمه •

وكما حرم على الوالد ان ينكر نسب ولده ، حرم على الولد ان ينتسب لغير نسبه ويدعى الى غير ابيه • ولقد قال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : من ادعى الى غير ابيه او انتمى الى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفا ولا عدلا •• وفي حديث آخر : من ادعى الى غير أبيه وهو يعلم انه غير أبيه فالجنة عليه حرام •

صلـــة الرحـــم

روى الامام محمد بن اسماعيل البخارى في صحيحه ان رسـول الله صلى الله عليه وسلم قال : ان الله خلق الخلق حتى اذا فرغ من خلقـه قالت الرحم : هذا مقام العائذ بك من القطيعة ، قال : نعم ، اما ترضين ان أصل من وصلك واقطع من قطعك ؟ قالت : بلى يا رب ، قال فذلك لـك ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : واقرأوا ان شئتم (فهل عسـيتم أن توليتم ان تفسدوا في الارض وتقطعوا أرحامكم . اولئك الذين لعنهـم الله فاصمهم واعمى أبصارهم) .

لقد أقام الاسلام مجتمعه على أساسين من صلة الرحم عام وخاص . فالعام ـ هو الرابطة الاسلامية التي تربط جميع أفراد المسلمين بعضهـم ببعض .

وقد رفع الاسلام منزلة هذه الرابطة وجعلها بدرجة الاخوة ، فقـال جل من قائل (انما المؤمنون أخوة .. فأصبحتم بنعمته اخوانا) فهي صلة رحم عامة توجب التناصح والتوادد ، والمحافظة على الحقوق والواجبات .

اما صلة الرحم الخاصة : فانها صلة الاسرة التي هي رابطة اجتماعية يوثق بينها النسب والصهر ، وهي تستدعى التواصل والتكافل . لذلك عنى الاسلام برعاية الحقوق المتعلقة بالارحام والاقارب ، ومزيد العناية يتفقـد أحوالهم . وايصال ما أمكن من الخير اليهم ، ودفع الشر عنهم : (واتقـوا الله الذى تسألون به والارحام) .

ان هذه الصلة لا يستغنى عنها أحد ، ولا يتنكر لها ذو سلطان . ولقد أبان منزلة هذه الصلة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه حيث يقول : ولا يستغنى الرجل وان كان ذا مال وولد عن عشيرته ودفاعهم عنه

بايديهم والسنتهم ، هم أعظم الناس حيطة من ورائه واليهم سعيه واعطفهم عليه ، ان اصابته مصيبة أو نزل به بعض مكاره الامور .

لقد أوجب الاسلام نفقة الموسرين على أقاربهم المعسرين ، وقصرت بعض المذاهب الفقهية النفقة على الاقارب الذين يمتنع الزواج بينهم ويدخل في ضمنهم الاعمام والعمات والاخوال والخالات ، وأخضعوا مقدار النفقة الواجبة بنسبة حصة كل وارث ولكن بعض المذاهب أوجبت الانفاق على الاقارب الاباعد في نطاق الاسرة ، لانهم وسعوا القرابة المستحقة للنفقة .

روى الامام مسلم بن الحجاج القشيري في صحيحه عن امرأة عبدالله بن مسعود زينب الثقفية انها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تصدقن يا معشر النساء ولو من حليكن ، قالت : فرجعت الى عبدالله بن مسعود فقلت : انك رجل خفيف ذات اليد ، وان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمرنا بالصدقة فأته فسأله ، فان كان ذلك يجزيء عني والا صرفتها الى غيركم ، فقال عبدالله : بل ائتيه انت ، فانطلقت فاذا امرأة من الانصار بباب رسول الله صلى الله عليه وسلم حاجتي حاجتها ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد القيت عليه المهابة ، خرج علينا بلال فقلنا له : ائت رسول الله فاخبره ان المرأتين بالباب يسألنك اتجزيء الصدقة عنهما على أزواجهما وعلى ايتام في حجورهما ، ولا تخبره من نحن ، فدخل بلال على رسول الله فسأله ، فقال له رسول الله من هما ؟ قال امرأة من الانصار وزينب ، فقال له رسول الله : اي زينب ؟ فقال امرأة عبدالله بن مسعود ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لها أجران ، أجر القرابة ، وأجر الصدقة .. وقال صلوات الله وسلامه عليه : الصدقة على المساكين صدقة ، وعلى ذي الرحم ثنتان ، صدقة وصلة .

وقد قيل في التعليق على هذا الحديث : ان المجتمع لا يخلو من القوى

والضعيف والغنى والمحتاج ، ولا تقوم الحياة فيه الا على نظام من التعاون الوثيق يقضى بمساعدة القوى للضعيف ، ولا تقوم الحياة فيه الا على نظام الوثيق يقضى بمساعدة القوى لضعيف، والغنى للفقير، ولو ترك أمر التعاون للافراد يتوجهون به حيث يشاءون من غير ارشاد ولا تنظيم لاختل التوزيع، فاخذ فريق من الضعفاء والفقراء أكثر من حاجتهم وحرم آخرون ، فوصى الدين بأن يبدأ في توجيه البر والاحسان والمعونة بذوى القرابة قبل غيرهم، لانهم أحق وأولى من سواهم • وفي هذا تنظيم لتوزيع المساعدة والاحسان في المجتمع ، له الاثر المحمود ، اذ لايكاد يوجد ضعيف أو فقير من غير ان يكون له اقارب ولو عمل الناس بامر الدين في هذا ما وجد بائس ولا مستجد ولا محروم ، وما انتشرت العداوة والحسد بين الاقارب •

لقد حذر القرآن الكريم من سوء مغبة قطيعة الرحم : (فهل عسيتم ان توليتم أن تفسدوا في الارض وتقطعوا أرحامكم • اولئك الذين لعنهم الله فاصمهم وأعمى أبصارهم) • وفي الاثر : اسرع الخير ثوابا البر وصلة الرحم ، واسرع الشر عقوبة البغي وقطيعة الرحم ، وحسب القاطع لرحمه ان من وصلها وصله الله ومن قطعها قطعه الله ، وفي الحديث القدسي : انا الله وانا الرحمن ، خلقت الرحم وشققت لها اسما من اسمي ، فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته •

قال القاضي عياض : لاخلاف ان صلة الرحم واجبة في الجملة ، وقطيعتها معصية كبيرة ، والاحاديث تشهد لهذا ، ولكن للصلة درجات بعضها ارفع من بعض ، وادناها ترك المهاجرة وصلتها بالكلام ، وتختلف باختلاف قدرة الواصل ومقدار حاجة الرحم، فمنها واجبه ، ومنها مستحب، ولو وصل بعض الصلة ولم يصل غايتها لايسمى قاطعا ، ولو قصر عما يقدر عليه وينبغى له لم يسم واصلا •

وها هو أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يوجه الامة الى طرق صلـــة الرحم • فيكتب الى عماله بقوله : مروا الاقارب ان يتزاوروا ولا يتجاوروا• وذلك لأن التجاور يدعو الى الاختلاف في احيان كثيرة على أمور كبـيرة أو صغيرة فيؤدي ذلك الى سوء العلاقات وقطع الروابط ، ولكن التباعد مــع التزاور مما يؤدى الى الشوق من جهة والتطلع الى صيانة الحقوق من جهة أخـــرى •

والرحم بين الناس ـ كما قيل ـ بمثابة الخيط الذى يضـم الحباب المتفرقة ، فيتكون منها عقد واحد ، له اسم واحد ، وقوة واحدة ، وذلـــك العقد هو الاسرة ، ومن الاسرة تتكون الامة : (واولوا الارحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله) • ويقول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : والذى بعثنى بالحق لا يقبل الله صدقة من رجل وعنده قرابة محتاجون لصدقتـه ويصرفها الى غيرهم ، والذى نفسي بيده لا ينظر الله اليه يوم القيامة •

يجب على المرء ان يصل اقاربه ولا يقطع الصلة بهم وان اساءوا اليه ، وان يتجنب القطيعة لانها تؤدى الى الضعف والعداوة والبغضاء ، وينبغي له ان يغفر الزلة ، وينسى الهفوة ويقابل الاساءة بالأحسان ، لقد جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، ان لي قرابة اصلهم ويقطعونى ، واحسن اليهم ويسـيئون الي ، واحلم عنهم ويجهلون علي ، فقال له : لئن كنت كما قلت ، كأنما تسفهم الملـاى الرماد الحار ـ ولايزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك •

وليست صلة الرحم ان يكافىء القريب قريبه صلة بصلة واحسـانـا باحسان ، بل الواجب ان يصل ذوى رحمه وان هجروه • وهذا رسـول

الله صلى الله عليه وسلم يرشد الامة الى ذلك : ليس الواصـل المكافيء ، ولكن الواصل الذى اذا انقطعت رحمه وصلها .

(يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ، واتقوا الله الذى تسألون به والارحام، ان الله كان عليكم رقيبـا) .

هذا ما يسره الله ، وأعان عليه ، جعلته قربة الى الله ، ووسيلة اليه ، ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم ، وتب علينا انك انت التواب الرحيم. وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهديـه الى يوم الدين .

اعتــذار

لقد وقعت اغلاط بين صفحات هـذا الكتاب بالرغم من جهودنا وحرصنا ، فمعذرة الى القراء .

فهرست الموضوعات

كتب للمؤلف

المطبوع منها :

١ ـ موجز البيان في مباحث القرآن

٢ ـ قواعد التلاوة

٣ ـ علوم الحديث وأصوله

٤ ـ التوحيد والفرق المعاصرة

٥ ـ من هدى النبوة

٦ ـ رسالة في المنطق

٧ ـ كيف عالج الاسلام مشكلة الفقر

والمعدة للطبع :

١ ـ من هدى القرآن

٢ ـ من هدى الجمعة

٣ ـ من أحاديث الاذاعة

٤ ـ كيف عالج الاسلام مشكلة الفقر (بزيادات كثيرة عن المطبوعة)

٥ ـ رسالة في أصول الفقه

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد ٨٣٩ لسنة ١٩٧٣

